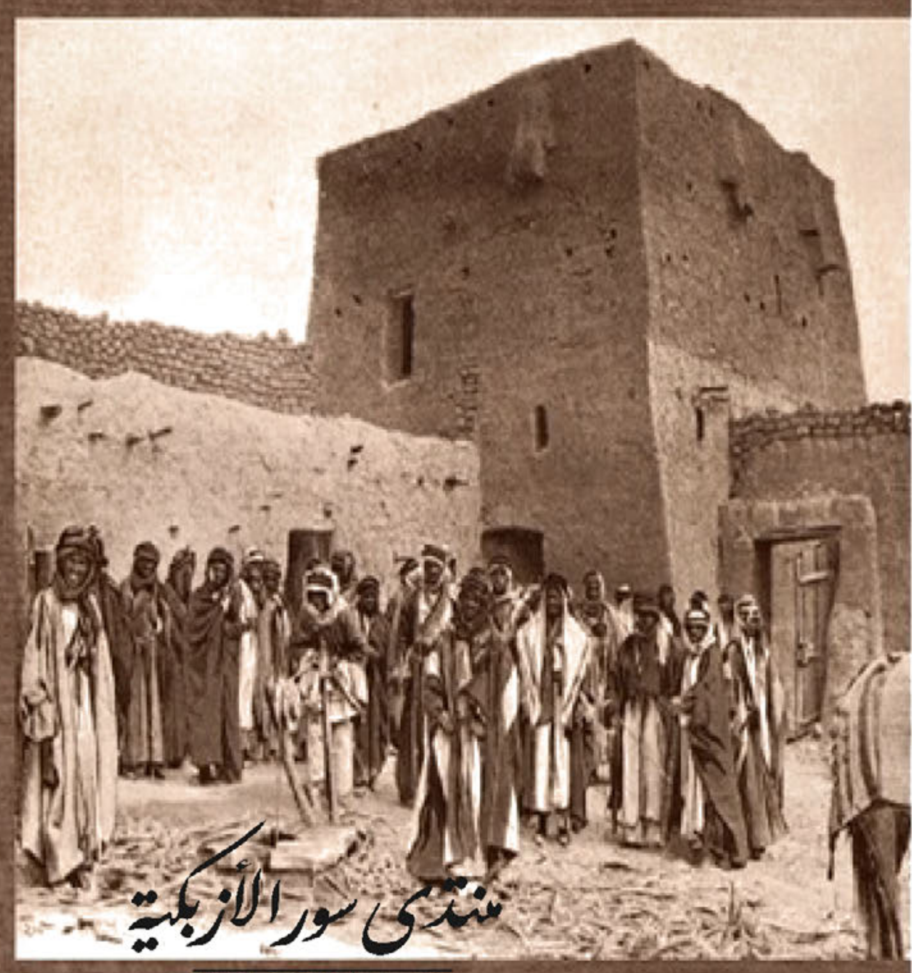




في الصحراء العربية

رحلات ومغامرات في شمال جزيرة العرب

1914-1908

ألويز موزيل

ترجمة: عبدالإله الملاح

تحرير وتعليق: د. أحمد إيبش

رواد المشرق العربي

في الصَّحراء العَربيَّة

رحلات ومغامرات في شمال جزيرة العرب

1908-1915 م

الرحّالة والمستشرق التشيكي

ألويز موزيل

تحرير: **كاثرين مكغيفرت رايت**

ترجمة: **عبد الإله الملاح**

مراجعة وتعليق

د. أحمد إيبش

© هيئة أبوظبي للثقافة والتراث، دار الكتب الوطنية
فهرسة دار الكتب الوطنية أثناء النشر
LC DS207. M812 2010

Musil, Alois, 1868 - 1946
في الصحراء العربية/ إعداد وتقديم ألويز موزيل، ترجمة عبدالإله الملاح. ـ ط ١ ـ أبوظبي: هيئة أبوظبي للثقافة والتراث، دار الكتب الوطنية، 2010.
368 ص: 17 x 24 سم. (سلسلة رواد المشرق العربي)
ترجمة كتاب In The Arabian Desert
تدمك 978-9948-01-164-4
١- البدو في شبه الجزيرة العربية. 2- صحراء الربع الخالي(السعودية)- وصف ورحلات. 3- شبه الجزيرة العربية - العادات والتقاليد. 4- السعودية- وصف ورحلات
أ- ملاح، عبد الإله ب- العنوان.



أبوظبي للثقافة والتراث
ABU DHABI CULTURE & HERITAGE

الطبعة الأولى 1431 هـ 2010 م

تصميم الغلاف: أحمد عبدالله الفنان

أبوظبي ـ الإمارات العربية المتحدة
ص.ب 2380، هاتف 6215300 2 971+

publication@adach.ae
www.adach.ae

سلسلة
روّاد المشرق العربي

تقدّم «هيئة أبوظبي للثقافة والتّراث» للمكتبة العربيّة بوجه العموم، ومكتبة تراث جزيرة العرب بوجه الخصوص، باكورة نتاجها من هذه السّلسلة الثقافيّة التّراثيّة تحت عنوان: «روّاد المشرق العربي»، التي من خلالها تعكس اهتمامها بتراث الآباء والأجداد، كمصدر فخر لشعب الإمارات وإلهامهم وعنوان أصالتهم وهويّتهم الوطنيّة، وذلك من خلال الحرص على جمع كافّة المصادر المتعلّقة بتراث منطقة الخليج العربي وجزيرة العرب والعالم العربي في آن معاً.

فإذا استعرضنا تاريخ الحركة العلميّة بنشر التّراث العربي المخطوط، الذي يصل مجموعه إلى قرابة 3 ملايين مخطوطة في مكتبات الشرق والغرب، نجد أنّ جامعاتنا ومعاهدنا العلميّة ومؤسّساتنا الثقافيّة على امتداد الوطن العربي، أسهمت بنصيب وافر في خدمة هذا التّراث ونشر أصوله، وخاصّة خلال القرن العشرين. فتألّفت من خلال ذلك مكتبة تُراثيّة عريقة ثمينة وواسعة للغاية، حفظت تراث لغتنا العربيّة في مجالات شتّى، منها على وجه المثال: الأدب العربي، الشّعر، النّحو، الحديث الشريف، الفقه، التاريخ، الفلسفة والفكر الإنساني، الفنون، وسائر العلوم عند العرب من فلك وطبّ وهندسة ورياضيّات وصيدلة وكيمياء. ومنها أيضاً الأدب الجغرافي العربي وأدب الرّحلات.

وما دُمنا بصدد ذكر تُراثنا الجغرافي، فلا بُدّ أن نوكّد على أنّ ثمّة تيّاراً موازياً له، يضارعه ويستقي منه ويتمّمه، يُضفي بالغ الفائدة والمتعة على تُراث العروبة، ألا وهو: أدب رحلات الأوروبيين إلى مشرقنا العربي! هذا المبحث مع الأسف لم يتمّ التّركيز الكافي عليه حتى الآن، رغم ما يستحقّه وما يقدّمه من فوائد لمثقّفي العربيّة ودارسي تراثها وتاريخها الحضاري والسّياسي والاجتماعي.

هذه الرّحلات لم تتوقّف أبداً منذ أقدم العصور وإلى انبلاج دعوة الإسلام الحنيف، فطفقت جموع الرّحّالين تتناوب على زيارة المشرق منذ عصر حضارة الإغريق (كرحلة آناباسيس لزينوفون الأثيني، ورحلة هيرودوتوس)، والرّومان (كرحلة إيليوس غالوس). ثمّ في القرون الوسطى حلّ الطمع محلّ الفضول، واجتاحت جحافل الغزو اللاتيني مشرقنا الإسلامي في موجة الحملات الصّليبيّة، فمكثت فيه على الشّريط السّاحلي لبلاد الشام مدّة 200 سنة، وحاولت احتلال مصر وتونس لكنّها ارتدّت على أعقابها.

فلمّا أطلّ القرن السّادس عشر، بدأت مرحلة جديدة في هذه الملحمة الثقافيّة والحضاريّة من علاقات الشرق بالغرب، فتضاعف إلى حدّ كبير عدد الرّحّالين الأوروبيّين، الذين قصدوا المشرق إمّا للتّجارة أو المغامرة أو الاستطلاع، أو لمجرّد الخروج بمؤلّفات إبداعيّة فريدة. أمّا جزيرة العرب، معدن العروبة وأرومة قبائلها، ومهبط الوحي وموئل لغة القرآن الكريم، فلا غرو أنّها نالت من اهتمام رحّالي الغرب وجهودهم المُضنية ومغامراتهم الشائقة الشيء الكثير، عبر خمسة قرون (من القرن السّادس عشر إلى القرن العشرين).. فجابوا بواديها وفيافيها ومجاهلها، ناهيك عن مدنها وبلداتها وقُراها ومضارب بدوها.

هذا الإرث الإنساني الثمين والممتع والمفيد، الذي يضمّ المئات من نصوص الرّحلات النّادرة، تقوم «هيئة أبوظبي للثقافة والتّراث» اليوم بنشر باكورة أجزائها بالعربيّة، في مشروع طموح يهدف إلى نشر أكبر عدد منها، وتقديمها للقارئ العربي بأرقى مستوى علمي من التّحقيق والبحث، وأجمل حلّة فنيّة من جودة الطباعة وتقديم الوثائق والخرائط والصّور النّادرة.

هيئة أبوظبي للثقافة والتّراث

موزيل ورحلاته

رحّالتنا لهذا الكتاب «ألويز موزيل» Alois Musil نمساوي الأصل تشيكي المولد (يُلفظ اسمه في التشيكية: ألويس موسيل)، من أعلام الرّحّالين المستشرقين، اختص بتراث البداوة ولغتها ولهجاتها وموروثها الأدبي والشعري، وأمضى في المشرق العربي عشرات السّنين يجول ويكتب عن عشائر البدو، وعن طبوغرافيا الأردن وفلسطين وسوريا وشمال جزيرة العرب، وعن المواقع الأثرية فيها. وعلى الرّغم من الأهميّة الكبرى لأبحاثه وكتبه الغنيّة بالمعلومات، فلم ينشر منها بالعربيّة إلا أقلّ من القليل. ولم يتمّ لفت الانتباه إليه في عالمنا العربي إلا في العام الفائت 2008 حينما أقامت حوله دارة الملك عبد العزيز ندوة خاصّة في الرّياض، كما أقيم في عمّان بالأردن معرض صور بالتعاون مع السّفارة التشيكية.

ولذا فإنّنا ضمن سلسلتنا الحاضرة «روّاد المشرق العربي»، سوف ننشر كتبه الستّة الكبيرة (عدا عن هذا الذي لخصته الكاتبة الأميركية رايت)، بادئين بكتابه «عوائد عرب الرّوَلة» ثم كتبه الأخرى: «صحراء شمال جزيرة العرب»، «شمال الحجاز»، «شمال نجد»، «الفرات الأوسط»، «البادية التّدمُريّة».

أمّا اليوم، فأول محاولة تعريفيّة لنا بالرّجل هي كتاب «في الصّحراء العربية»، وهذا الكتاب ليس في الواقع من وضع موزيل بصورته الحاليّة، بل حرّرته الكاتبة الأميركيّة كاثرين مَكغيفرت رايت ملخصاً من كتابيه الشهيرين: *Arabia Deserta* و *Manners and Customs of the Rwala Bedouins*، وصدر في نيويورك عن دار هوراس ليفرايت Horace Liveright في عام 1930، أسوة ببقيّة كتب موزيل التي صدرت في نيويورك ما بين عامي 1927-1928.

ولد موزيل في عام 1868 في قرية ريختَرزدورف Richtersdorf (بالتّشيكية ريختاروف Rychtářov)، لعائلة نمساوية من المزارعين الفقراء. تخصّص في علم اللاهوت والعهد القديم، وأجاد اللغتين العربية والعبرية. وفي عام 1895 نال رتبة الدّكتوراة. ثم سافر إلى فلسطين حيث طور معرفته بالعربية والعبرية في مدرسة الآباء الدّومينيكان الفرنسية بالقدس، وبعد 14 شهراً انتقل إلى بيروت وزار عدّة بلدان عربيّة. عمل في التدريس الجامعي منذ عام 1902 وحتى عام 1938، تخلّل ذلك مشاركته في تأسيس معهد الاستشراق في أكاديمية العلوم ببراغ. ترك نتاجاً علمياً كبيراً من المقالات والكتب والرّحلات. كرّمته الحكومة النمساوية بعدّة أوسمة، وتوفي في عام 1946 بتأثير مرض الكلية.



موزيل في شبابه باللباس العربي

قام موزيل في حياته بعدة رحلات استكشافية في فلسطين والأردن وسوريا وبادية الشام وصحراء النّفود والحماد.. إلخ، ووضع عدّة مصورات جغرافية لها، وزار مدناً عربية عديدة، واجتمعت لديه نتيجة استقصاءاته مواد علميّة ضخمة، ومن بين مكتشفاته قُصير عَمرة الأموي. ولعل الجانب الأهم في مجمل رحلاته المتكرّرة إلى المنطقة العربية رحلته الموفقة إلى مضارب عشيرة الرّوَلة في عام 1908، فقد نشأت صداقة متينة بينه وبين الأمير نوري الشّعلان شيخ الرّوَلة، الذي قابله لأول مرة في منطقة الجابية من أعمال حوران.

ومنذ 11 يوليو من عام 1908 حلّ موزيل سنة ونيّفاً ضيفاً على الشيخ نوري الشّعلان. وتوطّدت الصّداقة بين الرجلين وكان أحدهما بمثابة الأخ للآخر حتى صار ألويز يعرف باسم «الشيخ موسى الرّويلي». زار موزيل خلال تنقلات الرّوَلة معظم مناطق شمال الجزيرة العربية، وحقّق اكتشافات جغرافية وأثرية وإثنوغرافية غير مسبوقة، وجمع معلومات ونقوشاً كثيرة عن المنطقة العربية وسكانها، وخاصّة الرّوَلة، فوضع كتابه الشهير «عوائد عرب الرّوَلة وشمائلهم».



الشيخ نوري بن هزّاع الشعلان

قام موزيل برحلة أخرى إلى المنطقة العربية في عام 1914، لم تقلّ عن تلك التي سبقتها من حيث غزارة المادة العلمية التي حصل عليها. لكنه كان في هذه المرة موفداً من جانب حكومتي تركية وألمانيا الحليفتين لحشد عشائر الرّوَلة والحويطات وحلفائهم للوقوف في وجه الأطماع البريطانية، والامتناع عن الثورة على الدّولة العثمانية. ومع أنه قابل العديد من زعماء العشائر وبذل المساعي الحثيثة للوصول إلى هدفه، فإنّ الوعود بالتحرّر والهبات التي قدّمها البريطانيون جعلت القبائل العربية تقف إلى جانب بريطانيا، ففشل موزيل حيث نجح لورنس.

يقدّم كتاب «في الصّحراء العربية»، الذي نضعه الآن بين يدي القارئ العربي، رحلة ومغامرات ممتعة، وعرضاً شائقاً لتقاليد البدو الاجتماعية والثقافية، وأنماط حياتهم ومُثلهم الأخلاقية، وضعه عالم كبير محبّ للعرب وشغوف بتراثهم، وتفاعل فيه كواحد منهم، وكان يجيد لهجة شمال الجزيرة أيّما إجادة حتى حقّ له اسم «الشيخ موسى الرّويلي»، أو « موسى بن نمسا» كما كان يسمّي نفسه. ويبقى أحد أهم الرّحّالين الذين كتبوا عن البدو وحياتهم في الصّحراء وأشعارهم وآدابهم المرويّة، بدقّة صارمة وإحساس واعٍ مرهف الشعور.

قام بتعريب الكتاب الأستاذ عبد الإله الملاّح، المعروف بأعماله الجيّدة في التّرجمة، وبذلت زوجته السيدة عطاف مارديني جهداً طيباً في المراجعة والتصحيح ورصد مسير موزيل على الخرائط. ثمّ قمتُ أنا بمراجعة النصّ على الأصل الذي حرّرته ك. رايت من كتابَـي موزيل: ***Arabia Deserta, Manners & Customs***، وكلاهما قمتُ بترجمته تمهيداً لنشره. وتلخّص عملي في المراجعة بما يلي: ضبط النصّ على الأصل، وتصحيح أسماء الأعلام والأماكن، والتعليق على ما غمض منها، وجمع صور نادرة للكتاب، وأخيراً إثبات الأشعار والمأثورات اللفظية بمنطوقها البدوي الأصلي بدلاً من ترجمتها عن الإنكليزيّة.

فنأمل أن يجد القرّاء في عملنا هذا المتعة والفائدة.

بيروت، 3 سبتمبر 2009

د. أحمد إيبش

* * *



موزيل أستاذاً في الجامعـة في براغ



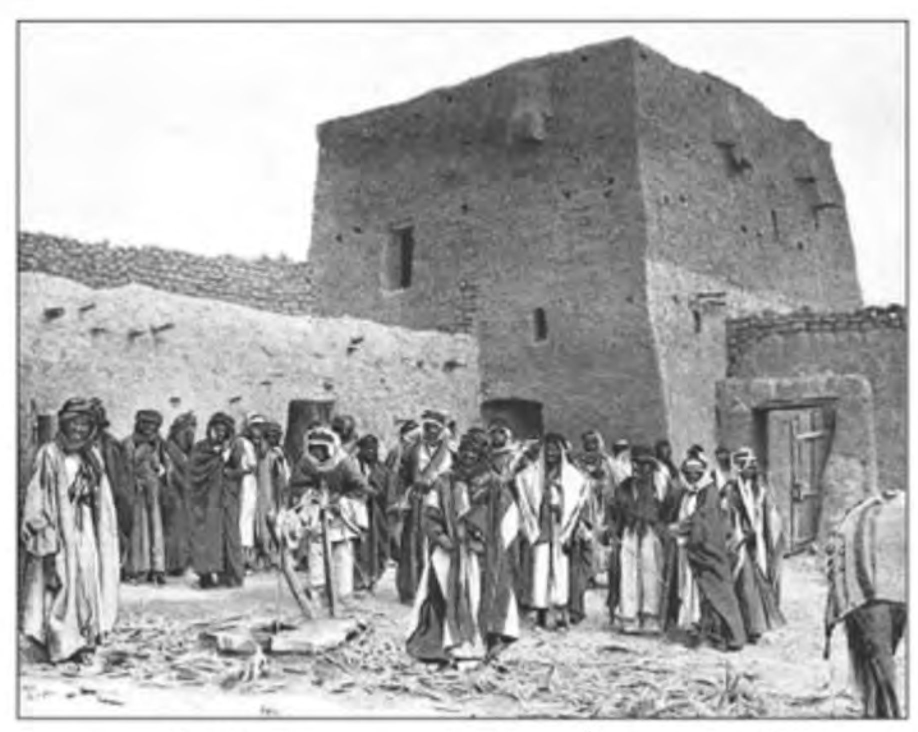
باللباس البدوي في الأردن 1901



موسى بن نمسا، أو الشيخ موسى الرّويلي



الشيخ نوّاف الشعلان ابن النّوري



الشيخ نوّاف أمام داره في حصن مارد بالجوف





ألويز موزيل في مراحل مختلفة من حياته



عطفة الرّوَلة الشهيرة (أبو الدّهور)

مقدمة المحرّرة

«يحتلّ آلويز موزيل، أستاذ الدراسات الشرقية بجامعة كارل في براغ، مكانة فريدة بين مستكشفي شمال جزيرة العرب، لاتساع ملاحظاته وتتابعها ودقتها. فالوصول إلى فهم أفضل للتقارير التي تواترت منذ أقدم العصور عن ذلك الإقليم واكتساب شيء من النظرة المعمقة في أصل التوحيد وتطوره، ذلك المفهوم الذي ربما يكون من خصائص فكر أهل الصّحراء، وإلقاء بعض الضوء على ذلك الطرف من جزيرة العرب الذي كان له دور في تاريخ الحضارة الأوسع؛ تلك هي الأهداف العامة التي سعى إليها والتي لا يمكن بلوغها إلا بدراسة دقيقة للشعب والبلد». بهذه العبارات وصف مقال صدر في المجلة الجغرافيّة *Geographical Review*، عدد أبريل من عام 1927 العمل الذي قام به موزيل.

والرّحلات الموصوفة في هذا المجلد لا تمثل إلا بعضاً من جولات موزيل الواسعة في الصّحارى العربية بين الأعوام 1896 و 1915، أمّا أعماله السّابقة التي كانت في مؤاب والنّقب اللتين ورد ذكرهما في الكتاب المقدس أو البتراء[1] عند الجغرافيين الأوائل، فقد أرست سمعته في أوروبا باعتباره مستكشفاً استثنائياً في جرأته وشجاعته ودارساً متعمقاً لحياة البدو وتاريخ جزيرة العرب القديم. ففي عام 1898 قام بكشف عظيم عن قُصير عَمرة الشهير [انظر لاحقاً الفصل التاسع] قريباً من رأس وادي السّرحان. ومضى يتوغل في استقصاءاته ما بين الأعوام 1908 و 1915 بعيداً في الصّحارى الواسعة بين نهر دجلة والتخوم المأهولة من سوريا جنوباً حتى نجد.

---

(1) «البتراء» تسمية مغلوطة تماماً، كنّوا بها عن حاضرة «سَلع» الأثريّة بقولبة التسمية التي وضعها المؤرّخ الإغريقي هيرودوتوس *Arabia Petra* وتعني: بلاد العرب الصّخريّة، أمّا عبارة البتراء في العربيّة فتعني: المبتورة. والأصح قطعاً تداول الاسم النّبطي: «سَلع».

نشرت الجمعية الجغرافية الأمريكية عرضاً مفصلاً لتلك الرّحلات مع فوائد طبوغرافية وتاريخية في خمسة مجلدات ما بين 1926-1928. وثمّة مجلد سادس لهذه السلسلة صدر بعنوان «عوائد عرب الرّوَلة وشمائلهم»، يضمّ وصفاً مسهباً لعوائد قبيلة الرّوَلة، أقوى عشائر بدو شمال الجزيرة، وآدابها وتقاليدها.

أما هذا الكتاب فمُلخّص أساساً من كتاب موزيل «صحراء شمالي جزيرة العرب»، وهو المجلد الثانـي في تلك السّلسلة، ثم من كتاب «عوائد عرب الرّوَلة وشمائلهم». وفيه يقدم موزيل صورة شاملة لتجاربه خلال رحلتين قام بهما، الأولى ما بين عامي 1908-1909، والثانية ما بين عامي 1914-1915. ويمكن الاطلاع على رواية بقيّة مغامراته، فور أن نتركه في نهاية هذا الكتاب، في كتابه «شمالي نجد»، وهو المجلد الخامس في السّلسلة.

هذا ولقد قمتُ بإغفال معظم المادّة الطوبوغرافية والتاريخية التي تضمنتها تلك السّلسلة. فقد أتت الحرب والحضارة الحديثة بالعديد من التغييرات إلى جزيرة العرب، فأفسح الجمل الطريق للسّيارة وحل الرّشّاش محل البارودة. ولذلك كانت رواية موزيل عظيمة النّفع من حيث أنها سجل أخير لنظام قديم يعود إلى زمن بعيد هو الآن في طريقه إلى الاندثار من دون رجعة.

يمكن للقارئ الرجوع إلى كتاب «عوائد عرب الرّوَلة وشمائلهم» المذكور آنفاً للاطلاع على الأشعار بنصّها العربي وترجمتها الحرفية. ولقد سعينا إلى تضمين هذا الكتاب ترجمة ميسّرة لتلك الأشعار لتسهيل الأمر على القارئ، وهي لا تختلف اختلافاً بيّناً عن تلك الرّواية الحرفية. على أن التصرّف في ترجمة القصائد إنما أملاه الشعور بأن التقيّد الشديد بالعَروض يُفسد روح القصائد[1].

كاثرين مكغيفرت رايت

---

(1) هذا بالنسبة للطبعة الإنكليزية، لكننا في نشرتنا هذه استخرجنا الأشعار بلفظها البدوي الأصلي.

الجزء الأول

سبتمبر 1908 - يونيو 1909

1 - الرحلة إلى الصّحراء

الارتحال إلى بركان (تل) دكوة

قال نوري الشّعلان شيخ أو أمير عشيرة الرّوَلة في زيارتـي الأولى لبيت الشّعر الخاصّ به، عام 1908: «لن يقف في وجهك شيء يا موسى ويمنعك من التّجوال في البادية الواسعة، وأنت في حمايتي».

أشاعت كلماته في نفسي من الثّقة ما جعلني في نهاية سبتمبر من عام 1908 أنتقل ورفاقي وحمولتنا إلى مضارب عشيرته التي كانت منصوبة في ناحية الضّمير على بعد قرابة الثلاثين ميلاً شمال شرق دمشق.

حين اعتزمتُ القيام بمسح طبوغرافي مفصّل قدر المستطاع لجزيرة العرب، والتعمُّق في إسهامات السّاميين في حضارتنا، وبلوغ فهم أفضل للسّكان والبلاد على العموم، بدا لي أنه ليس ثمّة سبيل أفضل من مشاركة البدو الرُّحّل عيشهم، وأزياءهم ومأكلهم ومشربهم، والتّجوال معهم في ترحالهم، فيتوفّر لي على هذا النّحو ما يتيسّر من المعلومات عن عاداتهم وتقاليدهم وتراثهم.

ساعدنـي في هذا الأمر كثيراً معرفتي بلهجاتهم والحماية التي شملني بها شيوخ العشائر القويّة الذين كسبتُ صداقاتهم بعد مرارة العناء. ويعود الفضل على وجه الخصوص في ما توافر لهذه الحملات من نجاح، إلى صداقة «الأمير» النّوري، إذ فتح نفوذه أمامي الطريق لأسلك دروباً كثيرة ما كانت لتُفتح لولاه. وكانت حمايته نعمة حقيقية، إذ كان البدو معروفين بالشقاوة.

صحبني أوروبي اسمه رودولف توماسبرغر[1] Rudolf Thomasberger في الرّحلة، سمّيناه اختصاراً «تومان»، ليساعدني في رسم الخرائط والعناية بأدواتي العلمية. أما المهمّة الأكثر أهميّة والتي أنيطت برفاقي من أهل البلاد فقد وقعت على ناصر، وهي حراسة الجمال والمؤن. وكان معنا اثنان آخران، هما محمّد وبليهان[2]، يرافقانني في جولاتي العلميّة حين أبتعد عن مضارب النّوري، وكان محمّد يعمل لدينا طاهياً وبليهان حارساً يردّ عنا رفاقه من رجال العشيرة. وكان هناك بعدُ حرّان الذي يساعدنا في تحميل المؤن ورعي جمالنا السبعة عشر.

وكان لدي خيمتان: الكبرى ذات شكل مستطيل شبيهة بالخيام التي يستخدمها العقيلي [تاجر الجمال] وفيها كنا نخزّن مؤننا ويعيش رفاقي. وفي الخيمة الأخرى المستديرة كنتُ أنام وأعمل. وكنت أنصبها حيثما انتقلت العشيرة، إلى جوار خيام الأمير النّوري، فيشير موقعها إلى أنّي جاره وفي حمايته مسافر تحت أنظاره وجاهه.

في منتصف شهر نوفمبر أخبرني بأنّ علينا أن ننتقل إلى جنوب غرب تَدمُر، قائلاً: «سوف نحوّل مضاربنا إلى جنوب غرب تَدمُر وننتظر هناك حتى تأتي ملائكة الله لنا بالغيوم الممطرة وتسقي العطاش».

أثار فضولي أنّي كنتُ أرى النّوري يُثقل نفسه بالسّلاح. حيث يتمنطق بخنجر ومسدس غاسَر Gasser بيكرته ذات الثمان طلقات والجنادات حول كتفيه فيها ذخيرة من ثمان وأربعين خرطوشة وقرابة مئة وعشرين طلقة مانليخَر[3] Mannlicher، وبندقية لا تفارق يده أبداً، فسألته: «لمَ كل هذا السّلاح وأنت في مضاربك؟».

---

(1) كان رودولف توماسبرغر نمساوياً من وطن ألويز موزيل.

(2) رفيق سفر موزيل بليهان بن ضِري لم يكن رويلياً بل من القمُصَة، وهم فخذ من عشيرة السّبعَة العنزيّة (مثلها مثل الرّوَلة)، لكن القُمُصَة جيران الرّوَلة وعاداتهم مشابهة لهم.

(3) بارودة نمساوية عيارها 6.5X57 ممتازة لرمايات الدّقة في البادية، عدا عن كونها خفيفة (من فئة Karabiner) تلائم الخيّالة والهجّانة. اسمها اليوم: شتاير مانليخَر Steyr Mannlicher.

فأجابني: «هذه، يا أخي موسى، عادتنا. فنحن في حرب مع عدد كبير من العشائر، وأنا شيخ الرّوَلة وعقيد حرب الوُلد علي والشّرارات، وعليّ أن أكون متأهباً دائماً لردّ العدوان. ينبغي أن أكون شديد الحذر واليقظة، إذ لا أدري متى يفاجئني من يسعى إلى الانتقام مني. لقد سألتَني يوم زرتني أول مرة في خيمتي عن سبب الثلاثين فجوة التي رأيتها في أطرافها. فلم أشأ أن أثير قلقك فأمسكتُ عن مكاشفتك بحقيقتها. فاعلم الآن أنّ بعض المتآمرين قدموا في تلك الليلة التي سبقت مجيئك وأتوا إلى خيمتي. وهؤلاء يقيمون مع الدّروز في موقع غير بعيد عن هنا، وقد يعاودون الكرة. فالجماعة متعطّشون لدمي. ولكنني إنما فعلتُ ما فعلت لخير أهلي».

كان يقصد بهذا الكلام أخاه وسلفه في مشيخة العشيرة الأمير فهد الذي قُتل بيد عبد في خدمة النّوري وبأمر منه[1]، وأخاً آخر يدعى مشعل قتله هو بيده. وكان هذا الرجل الذي يحمل براءة الأطفال في عينيه يفخر بأنه قتل شخصياً في المعارك ما يزيد على مئة وعشرين رجلاً! ولكم حذّرني أصدقائي في دمشق منه، وهم يصفونه بأنه أشد تعطشاً للدّماء من النّمر الأرقط.

«لا تمنحه ثقتك، يا موسى، ولا تثق بوعده بالحماية، فسوف تجده يصطحبك معه إلى البادية ولن تعود بعد هذه الرّحلة. وإنه ليس بحاجة لأن يلطّخ يديه بدمك، فلديه عبيد ينفّذون أوامره ولسوف تتعرّض للاعتداء مرّات عديدة، بأمر من النّوري. وكم يسهل أن تصيبك طلقة تستقر في ظهرك أو صدرك وتنهي حياتك. ولسوف ينتحب النّوري عندئذٍ ويبكي زاعماً أن القتلة أعداءٌ له[2]. فلا تثق به ولا ترافقه إلى قلب البادية!».

ولكنّي كنتُ أثق به، وقد سحرتني عيناه.

---

(1) الرّواية لدى شيخ الرّوَلة الشيخ نوّاف بن فوّاز الشعلان تخالف تماماً هذا الزّعم من موزيل، وأكّد لي أن مقتل الشيخ فهد كان بيد العبد دون أي إيعاز من النّوري بتاتاً.

(2) كلام كاذب، فتاريخ الرّولة وآل الشّعلان يفيض بالنّخوة والشهامة. لم يكن وارداً أبداً أن يخون الشيخ من يستجير به، مهما كان السّبب أو التبعة، ودليلنا قصة «صيحة حصّة» الشهيرة.

كان أوّل ما بادرتُ إليه في الصّباح هو الرّحيل مع تومان قاصدين آثار معسكر رومانـي خرب لا يبعد كثيراً عن موقعنا. واضطررنا للعمل يومذاك في ظروف صعبة إذ كانت تهبّ علينا ريح باردة عاصفة من الجهة الشمالية الغربية كسرت لنا مسطرة القياس وخدّرت أصابعنا. ولا عجب في ذلك؛ فقد كان ميزان الحرارة يشير إلى 21 درجة فهرنهايت.

ومما زاد من معاناتنا فوق شدة الصّقيع هبوب رياح شديدة وما صاحبها من ارتفاع كتل من الغبار والرّمال كادت أن تحجب عنّا الرؤية ونفذت حُبَيْباتُها الدقيقة إلى جلدنا وأصابتنا بحكّة مزعجة. وكانت قمم التلال العالية إلى الشمال منا والغرب والجنوب تبرق بجمال أخّاذ أشاعه الثلج المتساقط. ولقد جعلني الشّعور بهذا الجمال أرغب في التّجوال سيراً على الأقدام، لولا أن الأمير أقنعني بأن الكرامة تفرض بأن أخرج ممتطياً الجواد.

وقال لي: «لقد أصبحتَ، يا موسى، أخاً لي ولنوّاف[1]، فأنت بالتالي من شيوخ عشيرتنا والشيخ لا يخرج إلى ديار أخرى ماشياً، بل يجب عليه أن يتوجَّه إليها على رأس عشيرته، راكباً».

وكنا نمضي ركوباً بين قافلة من الجمال، تقوم على خدمتنا نساء وفتيات إما ماشيات أو جالسات على الأحمال أو في هوادج مزيّنة (الشكل3). وفي تلك الأثناء كانت إحدى الجميلات تغنّي:

وَا خانت الشّوق يا جُودِه	نوّى على البُوق يا خيّه
واليوم ما علمت بصدودِه	وإنّ الغَضي بايِق بيّه
حلفتُ انا عاد ما عودِه	هلّي دفنّي وانا حيّه

(1) الشيخ نوّاف (أبو سلطان) هو الابن البكر للشيخ النّوري بن هزّاع الشعلان، كان محبوباً جداً من الرّوَلة وسلّمه أبوه إمارة الجوف. توفي شاباً عام 1921 ودُفن في القريتين ببادية الشام. كان من عادة بدو الرّولة أن يشتروا الحلوى ويزوروا قبره، ويقولون: «يا شيخ نوّاف تراها ما من قيمتك».. ويزدردون الحلوى ويرجعون. انظر: «عشائر الشام» لزكريّا، 2: 36.

وجدنا عند رأس عشيرتنا الشيخ رشيد بن سْمير، وكان عمره قرابة الثلاثين سنة، وعلى وجهه الممتلئ ملامح البِشر. وأخبرنا عندئذٍ أنه قد أقنع النّوري بالمضيّ جنوب تل دكوة، وهو بركان خامد. وهذا الطرف الجنوبي من ديرة التّلول لم يسبق أن قصدته الجمال من قبل. فعلّقت بأنّ النّزول في أرض الأعداء والرّعي في أفضل مراعيهم سيكون امتحاناً شديداً لشجاعة كلا الزعيمين.

وأثنى النّوري على كلامي بقوله: «والله قد صدق موسى. فالعشائر والقبائل التي تسكن منطقة تلول الصّفا ليسوا أعداء من أهل الشّهامة، بل هم لصوص غدّارون، تراهم يتسلّلون من مكامنهم ثم يفرون بسرقاتهم حالما تقع أبصارهم علينا. فليست لهم شجاعة أو قوّة لمواجهتنا بل تجدهم يتخلّون عما نهبوه ليعودوا إلى جحورهم».

«هل طاردتهم من قبل أو بحثت عنهم في الجبال حيث يقيمون؟».

«قد فعلتُها مرّتين، لكننا خسرنا الكثير من الجياد في هاتين المطاردتين؛ لأن الخيول لم تعتد أرض الصّفا[1]، فكانت خسائرنا تزيد أضعافاً عما كنا سنربحه باستعادة ما نهب».

وأضاف رشيد: «ما من بدوي يحارب في أرض حَرّة. أرض الصّحراء الفسيحة وحدها توفّر إمكانية خوض معركة جيدة».

وببطء نفذنا إلى أرض يكاد يتعذّر السّير فيها. فقد كانت مغطّاة كلها بمساحات من صخور بركانيّة متناثرة دونما انتظام ورمال يبرز فيها الكثير من الصّخور السّود المسنّنة التي يبلغ ارتفاعها عشرة ياردات وتمتد على مسافة تتفاوت ما بين المئة والثلاثمئة ياردة، معظمها مشطورة من أعلاها إلى أسفلها، وفجأة تعثّرت حوافر مطيتي وتهاوت على الأرض، وأوقعتني معها.

---

(1) هضبة بركانيّة فيها عدد لا يحصى من الأكام المنخفضة هي براكين خامدة، يحدّها في الشمال ديرة التّلول (و بها تلّ دكوة)، وفي الغرب البريّة القفراء الفاصلة بينها وبين قرى وادي اللّوا في جبل الدّروز وقرى المرج، وشرقاً سهل الرّحبة والحماد، وجنوباً وعرة القرا.

صاح النّوري «لولا لُطف الله لكانت عنقك قد دُقّت». وظلت النّاقة التي كنت أمتطيها ترتجف حيث كانت على الأرض، لفترة من الزمن، وأنا لا أقوى على حملها على النّهوض.

* * *

في عشيّة ذلك اليوم مضى الأمير يتقدمنا باحثاً عن مكان مناسب لننصب فيه خيامنا، وفجأة أشار لنا بكُمّي قميصه الأبيض وعصاه التي يهمز بها الجمل إلى بقعة. وهنا كان علي أن أنيخ ناقتي وأنصب خيمتي. لم يكن قد نزل إلى الأرض من فوق ظهر جمله حين وجد نفسه مطوّقاً بالعربان من حوله، وجميعهم يبحثون عن أفضل مكان لنصب خيامهم.

أنزلتُ أغراضي وأرحتُ ناقتي من حملها، وتركتها لترعى بعد أن قيّدتُ قائمتها اليسرى وجلست إلى جانب متاعي ومكثتُ أنتظر وصول رفاقي مع الجمال الأخرى. وكنت شديد التعب وأرتعد بشدة بسبب البرد القارس. وما كان بوسعي أن أتناول شيئاً من الطعام وأنا أرتجف بعنف، فوجدتني أغمر نفسي بكل ما لدي من أغطية. وكان مقياس الحرارة يشير إلى الدرجة 20,3 فهرنهايت.

وفي اليوم التالي تحاملتُ على نفسي، رغم أن البرد القارس والإنهاك قد نالا مني كل منال حتى كدت لا أقوى على الوقوف، ومضيتُ لأشرف على تحميل متاعنا، ثم تابعنا المسير. وحمداً لله، إذ أن الرياح الباردة قد هدأت وأصبحت الشمس أشد دفئاً على نحو ملحوظ.

شددنا الرحال قبل الظهر، وبعد ساعة عيّن الأمير موقعاً جديداً لنقيم عليه بيوت شَعرنا. أمضيتُ الليل بطوله وأنا أرتجف من الألم، وفي الصّباح شعرت بضعف أشد مما كنت عليه في المساء بيد أنني استطعت أن أتناول قليلاً من حساء الحبوب.

* * *

رأي نوّاف في النّساء

في عصر ذلك اليوم جاء نوّاف ليعودني، ومكث عندي فترة طويلة من الليل. ولم ينقطع في تلك الزّيارة عن سؤالي مراراً إن كنت متزوّجاً وما لدي من الأولاد وكان يشقّ عليه أن يجد رجلاً سليم البدن ويبقى على العزوبيّة. ذلك أنه هو نفسه تزوّج بأربع نساء، وأنجبت ثلاثٌ منهن صبياناً، إلا أنه طلّقهن جميعاً، واحدة بعد الأخرى. وكانت الأولى، وهي المفضلة عنده، ابنة عمّه الأمير فهد الذي قُتِلَ غيلة.

ومضى يروي لي ما جرى: «لقد هجرتني لأنها كانت أشدّ تعلقاً بأهلها منها بي، أنا زوجها، وبولدها سلطان. والثانية كانت ابنة المرحوم الأمير سلطان، وقد نفرت منها فطردتُها من خيمتي مع أنها بكت البكاء المرّ وتوسّلت إلى أن أبقيها لدي. والثالثة كانت ابنة شيخ عشيرة صغيرة ومشهورة بالجمال، واضطرّت للعودة إلى أهلها لأنـي سئمتُ منها. وأما زوجتي الرابعة فَهدة فقد ظلت تعيش في خيمتي عامين ولم تنجب لي طوال هذه الفترة طفلاً».

«لست أفهم، يا أخي، كيف لك أن تتصرف على هذا الوجه من الرّعونة وتحطم سعادة خلق الله، سعادة زوجاتك كما سعادة أولادك».

ضحك نوّاف، وقال: «هذه تقاليدنا وعاداتنا. فكيف يمكن لمن هو ابن أمير أن يكتفي بزوجة واحدة؟ ثم ماذا سيقول الفرسان في هذه الحالة؟».

«وماذا بشأن أولاد طليقاتك؟».

«يبقون في حضانة أمّهاتهم فترة من الزمن. ثم يأتون إلى بيتي حيث تتولى أمّي تربيتهم، وهي تقوم الآن على تربية ابني البكر سلطان».

«يا للأطفال المساكين، ويا لأمهاتهم المسكينات، ليضطروا للعيش مفترقين! إن النّساء في بلدي أفضل حالاً من هذا بكثير. فعندنا لا يبعد للزّوج زوجته لسبب واهٍ، كأن يقول لها: «ما عدت أطيقك، لقد مللتُكِ، فارجعي إلى أهلك» ».

فردّ قائلاً: «الحقّ إنّي لأشفق على رجالكم. فيا لشقاء مَن يضاق بزوجته، لكنه مُكرهٌ مع ذلك على العيش وإيّاها طوال حياته! هذا عِبء لا نرضاه».

«أنتم تأبون تحمّل هكذا عبء ولكنكم تلقون به على كاهل نسائكم. إنكم تتذرّعون بالحرية ولكنكم تنكرونها على نسائكم. ومع ذلك، فإن الرّجال والنّساء جميعاً من خلق الله، وهم جميعاً أولاد آدم وحوّاء وجميعهم لهم الحقوق ذاتها وعليهم الواجبات ذاتها».

«ليس هذا صحيحاً، يا موسى. ولا تؤاخذنـي إن خالفتك الرأي، فأنت على خطأ باعتقادك أن الله قد ساوى بين الرجال والنساء في الحقوق والواجبات فانظر الآن، يا أخي موسى، وتخيّل عدواً يظهر وصرخات المعركة تدوّي. فهل هن النساء من يبرز للذّود عن الحمى؟ وهل هُنّ من يتصدّى للغزو؟ وهل هنّ من يعود بالغنائم؟ إننا نحفظ نساءنا لحمل الأولاد والعناية بخيامنا. ونحن لا نضطهدهنّ، إنما على المرأة أن تدرك دائماً أن الرّجل هو سيّدها. هكذا شاء الله وهكذا حافظ أسلافنا على هذا القانون، ونحن نحافظ عليه أيضاً. هذه عاداتنا وتقاليدنا التي نسير عليها، والقانون الذي نأخذ به».

فأجبتُ: «ومع ذلك فإن نساءكم، أحياناً، أشد شجاعة من رجالكم. فعندما تفرّون أيها الرجال من العدو فإن النساء يبعثن فيكم الحمية بالقول والإشارة ويحفزنكم، لا بل يحملنكم على الصّمود والمقاومة والكثيرات من نسائكم قادرات على حمل السّلاح مثلكم تماماً».

«تلك ليست سوى أحوال استثنائية. فالنّساء يذكّرننا بالكلمات والإشارات بحبّنا لهن ويعدننا بالمكافأة. ونحن نأبى الإذلال من العدو فنستجمع عندئذٍ الهمم ونقاتل من أجل النساء، ولكن النّساء لم ينقذننا من العدو قط».

«ولكن أجبني، رجاءً، إن كنتم لا تقبلون بامرأة على رأس العشيرة؟ أفلستم تجلّون تركيّة، أرملة سطّام، حتى أكثر من العديد من شيوخكم؟ ولماذا تشيرون إلى أولادها بأولاد تركيّة لم لا تشيرون إليهم بأولاد سطّام؟».

«هذه المكانة قد حازت عليها تركيّة بفضل ما تمتلكه من ذكاء وتفكير عميق. ونحن نطلب مشورتها، ولكني لا أعتقد أننا سنخضع لها لو كانت زعيمتنا».

«وما قولك في عَليا التي لم تَتَولَّ قيادة بني صَخر وحسب بل ورجالك، وسارت بهم ضد قوّات إبراهيم باشا؟ فهذه امرأة وقد خضعتم لها».

«هذا أمر من الماضي البعيد».

«ليس بالبعيد جداً، فمن عاصروها ما زالوا من الأحياء».

«تلك كانت إرادة الله. فقد أخذ إليه من العرب رجلاً حصيفاً وأحلّ محله امرأة، ولكن ينبغي علينا اليوم ألا ندع امرأة تتولّى الأمر فينا. وقد علمت في آخر زيارة لي لدمشق أن السّلطان قد كفل الحرية لرعاياه ومن ذلك الحين صارت النّساء والعبيد، على ما قالوا، أنداداً للعرب الأحرار. ولما بلغني هذا الخبر قلت: «إن هذا لن يكون حالنا في الصّحراء. فأنتم وشأنكم أيها الحَضَر، ولكن لا تفرضوا حرّيتكم علينا في الصّحراء».

غزوة الدّروز

كان الجوّ شديد البرودة، ولكني تمكّنتُ من النّوم طوال الليل، فجعلتني هذه الرّاحة أستعيد قوّتي. ثم طرق سمعي قبيل ظهر اليوم التالي، وأنا في خيمتي أحاول أن أعمل، صرخة مروّعة: «هيّا، هبّوا! غُزاة يداهموننا!»..

خرجت مسرعاً لأستطلع النبأ فرأيت النساء والصّبايا يُهْرَعْنَ إلى الخيل ويضعن السروج عليها ويقُدْنَها إلى أزواجهن وأخواتهن الذين يطرحون عنهم فرواتهم الثّقيلة من جلد الغنم ويضعون على أكتافهم جنادات الرّصاص ثم يحملون بنادقهم.

وبأقلّ من دقيقتين، خرج المقاتلون على ظهور الخيل بسرعة نحو الجنوب لردّ عدو مجهول، وسمعت من بينهم فتى يمرّ بخيمتي مُنشداً:

يا ربّ يـا ربّ الرّحـوم ترمــي الحَيَــا بــديارنا

نرمي العـشا لـلّي يحـوم لعيــون جِــلّ بكارنــا

وكانت مثل هذه الأهازيج تعلو من الجوانب كافّة، يستمدّ منها المقاتلون الشّجاعة لخوض المعركة المنتظرة. فأي منهم يعود بعدها إلى أهله؟

حافظ كل من كان في المضارب على الهدوء ورباطة الجأش فلا امرأة تنوح، ولا شيخ يعرض نصيحة. وكان الجميع قد برزوا لمطاردة المغيرين، إلا قلّة مكثوا للدفاع عن الحمى، فصعدوا إلى صخرة في جنوب الموقع ومعهم بنادقهم، وكنت أتعثّر في مسيري أثناء لحاقي بهم لعلي أستطيع متابعة المعركة بالمنظار. ورأيت عندئذٍ مقاتلينا ينقسمون إلى مجموعتين: إحداهما وهي الأقوى مع الأمير في المقدمة، تتجه نحو الجنوب الغربـي من المضارب. ثم سرعان ما توارت الجماعتان عن الأنظار خلف عاتق عالٍ من الصّخور، ولم يعد بوسعنا متابعة ما يجري هناك.

وفي عصر ذلك اليوم ورد إلينا ثلاثة فرسان فأنبؤونا بأن جماعة من الدّروز ظهروا في الصّباح إلى الجنوب من خيامنا ومعهم أتباعهم من مربّـي الماعز والغنم، فهاجموا قطعان ابن مجِوَل. وقاد الغزاة قطيعاً يربو تعداده على السّبعين جملاً، ولكن حين أوصل الحراس الخبر إلى منازل العشيرة وهُرِع مسلّحو الأمير لملاقاتهم، تركوا الغنائم وولّوا الأدبار.

ولقي سعود بن النّوري توبيخاً لأنه لم يُبد يقظة أشدّ في الحراسة.

وكان جوابه على هذا التّقريع من والده: «ولكنّني حسبتُ، يا أبـي، أنّ شدّة البرد ستمنع الدّروز من ترك منازلهم الدّافئة، وأنّ أبناء العشائر الأخرى سوف يلازمون وديانهم».

ولكنّ النّوري قطع عليه استرساله في التّبرير، وقال له منتهراً: «اسكتْ ولا تسوِّد وجهي. البدوي لا يعتمد على برد أو حرّ، ولا يثق بعدوّه، وإنما يثق بنفسه وسلاحه وحسب».

وفي اليوم التالي عمدنا إلى الانتقال إلى موقع جديد، فحملنا الخيام والمؤن، وسرعان ما أخذ الجمع ومعهم الجمال بالمسير باتجاه الجنوب والجنوب الشرقي.

كنت قد عزمت على ارتقاء بركان (تل) دكوة لوضع خريطة للمنطقة لكن، للأسف، لم يكن الجو شديد الصفاء مثلما كان في الأيام القليلة الماضية، إذ حجب الرؤية ذلك الضّباب الخفيف الذي انتشر من الشرق إلى الغرب وأشاع شيئاً من الدّفء. ولقد غلب عليّ بادئ الأمر شيء من الضّعف جعلني أشعر بالدّوار فأخذت أتشبث بالشداد بقوة خوفاً من السّقوط. ومررنا في طريقنا بما لا يحصى من الانحدارات الخطرة والسّهول المرصوفة بالصّخور البركانية، مما جعل ناقتي على حذر دائم لتتجنّب أماكن الخطر (الشكل 1). ولما صرنا على ارتفاع 2750 قدماً عهدنا بجمالنا إلى أحد العبيد ويدعى عبد الله، بينما تابعت الطريق مع تومان وبليهان إلى القمة. وبحذر أخذنا نصعد الطرف الجنوبي من فوهة بركانية قرابة نصف ساعة من الزمن حتى بلغنا القمّة حيث بدأنا بالعمل.

وتل دكوة الذي يبلغ ارتفاعه 3330 قدماً هو أعلى قمّة بركانية في منطقة ديرة التّلول. وثمّة كتل من الصّخور البركانية السّوداء إلى الشرق والشمال والجنوب، ويقوم بينها العديد من الصّخور المخروطية البركانية. والمشهد برمّته كئيب.

زواج حب

بلغنا عند عودتنا إلى المخيم أن العدوّ عاود الظهور من جديد إلى الشرق من موقعنا، إلا أنه عمد إلى الفرار قبل أن يصبح في مدى الرّمي.

قرابة المساء جاء نوّاف لزيارتي. فأخبرته ونحن نتجاذب أطراف الحديث أنّي علمتُ للتوّ من الزّنجي عبد الله أن خدمي جروا على طلب المساعدة منه في كل عمل من واجباتهم، وكأنّ واجب نوّاف أن يفكّر ويعمل بدلاً منهم. ولما أخذتُ عليه إهماله الإشارة إلى هذا التّقاعس ابتسم وردَّ بسرعة أنه ليس في الأمر ما يضير فحقٌّ على الأخ أن يساعد أخاه.

«وإذا ما احتجتَ للمساعدة، يا أخي، فلسوف أرسل مرافقي مع هذه العصا التي أهديتني إياها، إشارة إلى أنني على علم بما ينشده، لأن الرّسالة المدونة لا تجدي نفعاً».

«والحقّ، يا موسى، إنّي أستطيع الكتابة ولكن برمحي، وأعيّن الأوقات برصاصي، إلا أنني لا أستطيع استخدام قلم القصب ولا أستطيع القراءة. لكن ولدي سُلطان سوف يتعلّم، مع ذلك، القراءة والكتابة، إن أراد له الله طول العمر».

«والآن أرجوك، يا أخي نوّاف، أن تعيرني جملين أو ثلاثة لحمل ما لدي، كلّما بدّلنا مواقع نجوعنا، أو حين أخرج في مهمة».

«مالي يا موسى هو مالك، ومالك هو مالي. ولسوف ابعث بثلاثة جمال لتخفيف العبء عن جمالك. وهذه الجمال بالإضافة إلى السّبعة عشر جملاً التي لديك تفي بالغرض».

ثم تابعنا تبادل أطراف الحديث، وروى لي عندئذ شيئاً من تاريخ قبائل البدو والعلاقات فيما بينهم. وبدا لي أن للرّوَلة بزعامة النّوري السيطرة على كافة العشائر المنحدرة من ضَنا مسلِم من قبيلة عُنِزَة.

وبعد حديث استغرق منّا بعض الوقت راح نوّاف يتباهى ويطنب في مآثر جده هزّاع. ومضى في حديثه، فقال: «ولكن ابن أخيه سطّام زاد عليه. فقد تزوج بتركيّة من آل مهيد، بعد أن وقع في غرامها. وكان آل مهيد في خصومة شديدة مع الرّوَلة، ومن آل مهيد هؤلاء ينحدر شيخ الفدعان الآن. وقد صادف أن خرج سطّام ذات مرة على رأس مقاتلينا لغزو الفدعان، وتمكن من رجالهم حتى ردّهم إلى خيامهم، وهناك رأى لأول مرة تركيّة ذات البشرة البيضاء، وهي تستثير حمية أبناء قبيلتها، عارية الصدر محلولة الشعر، ليبدي هؤلاء كل ما لديهم من مقاومة. وكان النّصر حليف سطّام ذلك اليوم، إذ ردّ رجال الفدعان إلى ما وراء مضاربهم، ولكنه نهى جماعته، مع ذلك، عن هدم بيوت الشّعر أو النّهب.

«واكتفى بأن قال لها: «أخبري أباك والمحاربين، يا تركيّة، أن سطّام يرد إليكم بيوتكم». ثم غادر منازل العشيرة».

«ولقد أعجبت تركيّة بتلك الشهامة، حتى إنها أعرضت عن الزواج من أيّ شخص آخر سوى سطّام، ثم أقنعت أباها بالقبول به زوجاً لها. ولقد عرفتُها وعرفت ولديها خالداً وممدوحاً».

«وبعد هزّاع تولى سطّام الزّعامة وصار الأمر على كل عشائر ضَنا مسلِم، واستمرّ أمره فيهم خمساً وعشرين سنة. وكان يعتمد على زوجته تركيّة اعتماداً كبيراً، ويقدّرها ويحرص على بقائها دائماً بقربه. وتعتبر الرّوَلة فهداً خليفة لسطّام، وإن لم تُبقِ على ولائها له طويلاً بسبب جشعه وسوء طويّته. ولقد أنزل الله به ما يستحق، وهكذا غدا النّوري، والد أخيك نوّاف الذي يروي لك ما تسمعه، شيخ الرّوَلة جميعاً».

الحياة في المضارب

في الصّباح سيقت الإبل إلى بحيرة العتيبة حيث تصبّ الأنهار التي تروى بساتين دمشق. فهناك تورد الإبل ومن البحيرة يحمل الرّعاة ما يكفي سبعة أيام من مخزون الماء. وقد كان كل ما لدينا قبل ذلك لا يزيد على ثلاثة أرباع الغالون، أما الخيام الأخرى فلم يكن فيها نقطة ماء واحدة. لكن كان من دواعي الحظ الحسن أن الهواء البارد حال دون شعورنا بالعطش. ولم نشرب في تلك الفترة قهوة أو شاياً، ولكننا قمنا بشيّ أرنب برّي أرسله النّوري إلينا، وكان هذا أحد أرنبين اصطادهما صيّاده الخاص.

خلف خيمتي كان ثمة صبية صغار يلعبون بالمقلاع، وقد جمعوا إلى جانبهم مقداراً من الحصى، وراحوا يرمون بها بالمقلاع بدقة بالغة وهدفهم طرف صخرة على بعد أربعين خطوة. وكانت الحصى تشق الهواء وتحدث صفيراً، وإذا حطّت على طرف الصّخرة ارتدّت وطارت مسافة أخرى.

والحصى إذا انطلقت من مقلاع الأعرابـي تحطم أقسى الجماجم. واستذكرتُ عندئذ الرّاعي الفتى داود الذي هزم المحارب القوي جالوت بالسّلاح الوحيد لديه، المقلاع. وكانت دربته كدربة هؤلاء الفتيان في الرّمي بالمقلاع.

كان الهدوء مخيماً في مساء ذلك اليوم والليل، على نحو لم نألفه. فلم يطرق سمعنا ما اعتاد عليه الرُّعاة من الصّراخ والشتائم التي تفسد الهدوء ولا بلَغَنَا شيء من أصوات الإبل، وكان السبب في تلك السّكينة أن الإبل والرعاة كانوا يقضون تلك الليلة بالقرب من الماء ولن يعودوا حتى مساء اليوم التالي.

وفيما كنتُ أمضي الوقت في النّقاهة، بعد إصابتي مؤخراً بعارض صحّي أضعفني كثيراً، أخذتُ أكرّس الأيام في دراسة عادات البدو وفنونهم، وأدوّن الملاحظات عن تقاليد الرّوَلة وعاداتهم، وشرح أشعارهم والبحث عن عبارات تفسرّ المفردات التي يستخدمونها.

ويا للتبريح الذي عانيتُه حتى تمّ هذا الأمر! كنت أقعد من شروق الشمس حتى غروبها في خيمتي المستديرة مع محدِّثي الذي أُرسل إلي بتوصية الأمير، وقد أنزلتُ كل السّتور لئلا يتشتّت انتباهه بالالتفاف والنظر من حوله.

وكان الرّجل في تلك الجلسات يغطي ذقنه ونصف أنفه لئلا تبلغه رائحتي (والله يعلم إن كان في تلك الرّائحة ما يؤذي) ويسند يده اليسرى على شداد الجمل، غير مكترث بـي، يخط بعصاه على الرّمل. وبعد ما يشبه الإغفاءة يبدأ برفع حاجبيه فيما ينظر متشوّقاً نحو باب الخيمة. ولكن ما حيلة الرّجل عندها سوى الصّبر مع ما كنت أطرحه عليه من الأسئلة! فهذه مشيئة الأمير، وهناك بعد هذا العذاب ما يناله من الحلوى والشاي والقهوة والعشاء الوافر، وربما بعض النّقود أيضا.

كان ينطلق بالحديث فجأة فتتدفّق العبارات من فمه كما يجري الجدول، ثم أجده يتوقف عن الكلام كذلك فجأة وكأنما أخرسه الموت، وإذا ما نطق بعدئذ فإن الجملة تغدو كلمات لا رابط بينها ولو سألته أن يشرح لي عبارة ما واضحة نطق بها لوجدته يجيبني بأنه نسيها وتلاشت من رأسه، أو لم تطرق أذنيه قط.

رجل سقيم العقل، هكذا بدا لي حينذاك. أما العذاب الحقيقي فكان، ويا للحسرة، كامناً ينتظرني ليلاقيني بعد حين. كنت أدوّن كل كلمة ينطق بها، فبات عليّ الآن أن أسأله أن يردّدها ويفسرها ثم يدعّمها. وكان في ذلك مشقّة عظيمة تنهك ذهنه. فكان يرد بالإنكار والمراوغة والمعارضة، وهو نهب للقلق، مما جعلني في نهاية الأمر لا أقلّ عنه تعباً وإنهاكاً.

وكان عليّ أن أتكلّف الاستمتاع بما كان يقوله لي، والعمل على استرضائه كالطفل المدلّل، والإكثار من إبداء الشّكر له، في النهاية. أفلن أحتاج إليه إن في الغد أو بعده، أو لأي كائن مثله؟

* * *

في ليلة الأربعاء، ظهر اللّصوص في المخيم. وقد تبيّن الحرّاس ثلاثة منهم فأطلقوا عليهم عشر طلقات جميعها حادت عن أهدافها. وفي الصّباح وجدنا عشرة جمال قد سُرقت. وبناءً على أمر الأمير ازداد عدد الحراس. ولقد أطاع البدو الأمر، ولو عن غير رضى. وكان المقياس يشير إلى انخفاض الحرارة ليلاً إلى ما دون درجة التجمُّد، ولم يكن للحرّاس أن يزيدوا في ما يرتدونه من ثياب. وأخذ الحراس ليلتئذ يمضون الوقت في الغناء خشية أن يغلب عليهم النعاس، فكانوا يرفعون أصواتهم ويصيحون صاخبين، وهم ينادون بعضهم بعضاً، حتى لم يعد بوسع أحد أن يخلد إلى النوم بهدوء. والعربان لا يألفون النّوم الطويل ليلاً بل يستمرون في الجلوس حول النار حتى ما بعد منتصف الليل وفي العادة لا يستسلمون للنوم إلا بعد ظهور نجمة الصّباح ويلازمون فراشهم حتى الظهر تقريباً أما العصر فيمضونه في الزّيارات.

في صباح يوم السبت، 28 نوفمبر، وجدنا الأرض كلها مكسوّة بالصقيع. وقد هبّت ريح غربيّة عاصفة، ممّا جعلنا ننشغل بإعادة نصب الخيام كلها في مواقعها من جديد، ومضاعفة الحبال وضرب الأوتاد عميقاً في الأرض.

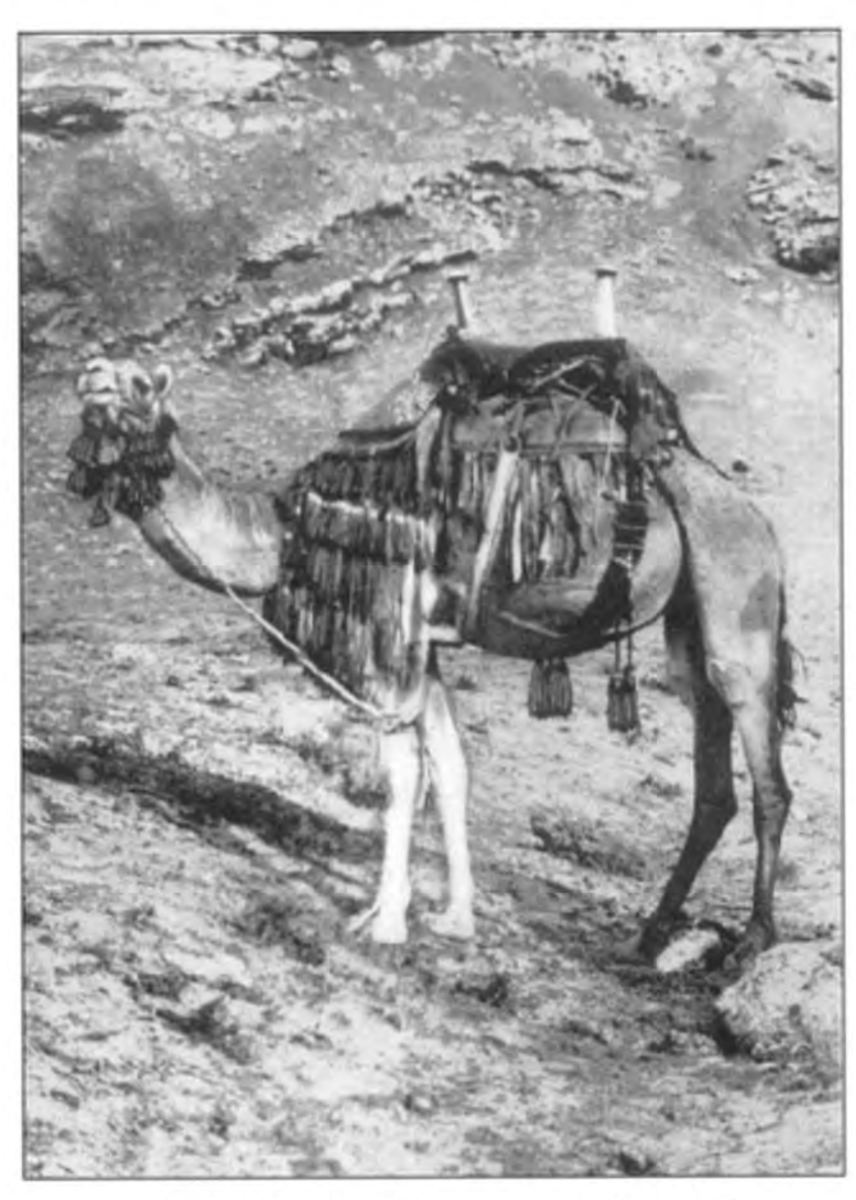
* * *

ريح في الصّحراء

في تلك الليلة لم يترك لنا عنف الرّياح العاصفة مجالاً للنوم. واضطر عبيد الأمير لإسناد بيت الشّعر طوال الليل خشية أن يتهاوى من شدة الرياح، وأُخرجت هوادج النساء من الخيام لئلا يصيبها الخراب تحت ثقل السّقوف إذا انهارت فوقها بسبب العواصف. ولقد صمدت خيمتي المستديرة أمام الامتحان جيّداً، ولو لزمنا مرات عديدة خلال الليل شدّ الحبال لتثبيتها وإمالة عمودها الأوسط باتجاه الريح ولكن كان علينا بالمقابل نقض الخيمة المستطيلة التي كانت أطرافها تواج الرياح، فجعلناها غطاءً لمتاعنا. وزحف الرّجال واتخذوا مواقعهم تحتها بجانب حوائجنا اتّقاء للعاصفة، حيث مكثوا هناك ينتظرون طلوع الفجر.

ظلّت الريح تعصف وتزداد شدّتها طوال يوم الأحد، وتدفع أمامها سُحباً هائلة من الرّمال. وقد وجدتُ فوق متاعي في الخيمة المستديرة طبقة سميكة من الرّمال البيضاء يبلغ ارتفاعها البوصتين، مع أنها كانت مغلقة من الداخل والخارج. وكان للرّمال وهي تجري صوت صلصلة غريبة، وكأنها صفائح لا تحصى من المعدن تتصادم ببعضها البعض. كما تسربت الرّمال إلى كل ما لم يُحكَم إغلاقه.

نصب البدو خيامهم العالية، فهي وحدها التي بوسعها الصّمود في وجه الرّياح. لكن الضغط الشديد عليها وتراكم موجات الرّمال جعل أوتادها تتخلخل وتنهار. وفي النهاية اضطر العربان لرفع الرّفاف (الأطراف السفلى) ليتيحوا للرّمال والرّياح المرور بحرية. وكان ذلك حلاً مناسباً إلا أنه حال دون التمكّن من إيقاد النار. وبقي القوم ملازمين خيامهم لا يغادرونها ولم يكن بوسع حتى الجمال ترك أماكنها للرّعي. فبركت وأمالت رؤوسها نحو الشرق بينها الرّياح الغربية تصفر فوقها بقوة والرّمال المتحرّكة تكاد تغمرها، وهي جاثية لا تتحرّك وكأنها تماثيل في البادية. وظلّت على هذه الحال حتى الظهر تقريباً لا تقبل أن تُقاد إلى المرعى، وهي تغالب، وحرّان لا ينقطع يحثها على المسير من أمامها وبليهان من ورائها؛ إذ لم يكن حتى الرّعي ذاته ليحملها على مغادرة المكان في هذا الجو الرّهيب.



الشكل 1: ناقتي عند سفح بركان (تل) دكوة

بنواحي المساء هدأت الرياح ذات العواصف الرّملية، وبدأ يهطل شيء قليل من المطر. وفي تلك الليلة استيقظتُ فجأة من رُقادي على أثر سائل بارد يُهرق فوق رأسي وصدري، وتبيّنت عندئذ أن مياه الأمطار قد تسرّب بعضها إلى الخيمة حيث أنام.

* * *

في صباح الاثنين بدا مشهد التّلال المحيطة مُشرقاً بهيّاً. كانت المرتفعات في الأفق مغطّاة بدِثار من الثلج يلمع في أشعة الشّمس، وهي تبزُغ وكأنها آلاف الجواهر المتلألئة. بل حتى أرض الموقع الذي أقمنا فيه خيامنا في الضّمير كانت مكسوّة بالثّلج ولكن ما هو إلا حين حتى اختفت الشّمس وعادت السماء تندف ثلجاً. وعند الظهر نزلت حبّات بَرَد ذات حجم كبير وغطّت الأرض بما يزيد على البوصة.

* * *

في عصر ذلك اليوم طلب مني نوّاف أن اصطحبه لزيارة عبده الأبيض دَمّان، وكان ينتمي إلى أسرة تعاقب أفرادها منذ القديم على خدمة أسلاف الأمير. وكان دَمّان وأهله من ذوي البشرة البيضاء في العشيرة كلها، إذ لم يكن من الممكن في القرن الأخير شراء رقيق أبيض. أما الأرقّاء السّود فقد ظل التجار يشترونهم من مكّة والمدينة بأسعار تتفاوت بين الستين والمئة مجيدي (أي ما يعادل 54 و90 دولاراً).

كان دَمّان قد أصيب قبل سنتين بطلق ناري استقرَّ في عضلات ساقه اليمنى. واخترقت الرّصاصة اللحم وخلّف جرحاً على طول الساق، ومع أن الجرح اندمل، إلا أن السّاق تورمت بعد عام واشتدّ الألم، ولم يجدِ في ذلك حتى الكيّ الذي عمله أهله للعلاج. وفي النهاية قاموا بفتح موقع الورم فسال منه الدّم وتلاشى الورم والتأم الجرح بعدئذٍ وتعافى دَمّان من جديد ولكن التورّم عاد ثانية، قبل عشرين يوماً من استدعائي لمعالجته، وصار المسكين لا يستطيع الحراك.

كانت السّماء ملبّدة بالغيوم، وبالتالي لم يكن ثمّة خطر من ضوء النّجوم. ووجدت دَمّان مستلقياً في خيمة مكشوفة، لا يستر بدنه سوى قميص، وفتحتي أنفه محشوتين بما يقيه من التلوث بأنفاس الزائرين وروائحهم. وهناك أخذت زوجته تلحّ عليّ بالرجاء أن أعمل على شفائه، ووعدت بتنفيذ أوامري بدقة. فقدمت لها الأدوية اللازمة وشرحت لها طرق استعمالها.

في الأول من ديسمبر بدت البادية كما هو الحال أحياناً في بلادي: صقيع يغطي كل شيء: الخيام والحبال والنباتات، وسحائب من الضباب الكثيف معلقة في السماء. وكانت الرّمال المغطاة بالصّقيع والأعشاب اليابسة تتكسّر تحت قدمي. أما الحرارة فقد بلغت 43 درجة فهرنهايت، وكان ثمة هواء رطب يخترق ثيابنا وأغطيتنا. وأطراف الخيمة رقيقة جداً والأرض باردة، ولا نستطيع إيقاد نار تسمح لنا بالدّفء بسبب الرّطوبة الشديدة التي أصابت بَعر الجمال وأشكال الوقود الأخرى. وما زاد في الأمر سوءاً، أن الدخان الكثيف المتصاعد من النّار كان شديد الوطأة على العيون والرئات.

وكان البدو يتكوّمون في أماكنهم، بعضهم فوق بعض كالقنافذ في فرواتهم المصنوعة من جلد الأغنام والأغطية التي يتدثّرون بها، وقد ضمّوا ركبهم إلى ذقونهم. وما كان لهم أن يبدوا حراكاً ولو دعاهم داعٍ. ثم تكاثر الضباب حتى أن تومان، الذي كان يجول على بعد نحو من ثلاثين خطوة منا أضاع طريقه إلى الخيمة. فأرسلتُ بعضهم للعثور عليه والعودة به.

كانت الثّلوج تتساقط في أرجاء المنطقة كافة.

* * *

2- الارتحال إلى تخوم الفرات

قبيل الرّحلة

مساء يوم الثلاثاء 3 ديسمبر تبدّدت الغيوم وصار الجو صحواً، والقمر ساطعاً، وما من شيء في الجو ينبئ بالمطر الذي طال احتباسه. وكنت قد عزمت على القيام بجولة في البادية حتى نهر الفرات. فأشار عليَّ بليهان عندئذ بأن نبدأ رحلتنا في الحال قبل موسم الأمطار.

ولقد وعد الأمير بأن يزوّدني بكتاب توصية إلى الشيخ فهد وابنه متعب من آل الهَذّال[1] شيوخ عشيرة العمارات.

قلتُ مندهشاً: «ولكنكم في عداوة، فكيف توصيهما بنا؟» فردّ قائلاً: «صحيح يا موسى! إننا كشيوخ عشائر أعداء، ولكننا كرجال من خير الأصدقاء. وقسماً بحياتك يا موسى، إنني أكنّ لمتعب من الحب ما أكنه لأولادي؛ لأنه رجل شهم ونبيل ومخلص، والله يشهد علي أنني صادق فيما أقول».

«ومع ذلك فإنك لن تتورّع عن مهاجمته، وربما قتله؟».

«إنني حين أكون على رأس محاربـيَّ لا أوفّر أحداً». والتفت عندئذ إلى كاتبه وأوعز إليه بكتابة الرّسالتين في التو إلى فهد ومتعب. وكنت أودّ المغادرة في ذلك اليوم، لولا معارضة الأمير الذي أشار إلى ضرورة توافر دليل يرشدنـي إلى مسالك تلك الديار، ورغب في تعيين الدّليل من عنده، وسمّى لي العبد عنبر الذي كان مولده في عشيرة العمارات.

---

(1) من أقدم بيوتات الشيوخ في قبائل عنِزَة، ومن فرعي العمارات الدّهامشة وشيوخهم آل مجلاد.

قال لي نوّاف ناصحاً: «لا تصحب عنبراً معك، يا موسى. فهو مغرور وسيكون عبؤه أشد من فائدته. توكّل على الله وابدأ رحلتك مع بشائر الخير».

مضى بليهان بأحد الجمال إلى تلّة بركانيّة غير بعيدة من مكاننا لجلب الماء حيث توجد عدّة شقوق صخرية تمتلئ بمياه الأمطار أما الرجال فقد راحوا يعدّون لنا الزّاد للطريق.

قدّرتُ يومئذٍ أن الرحلة ستستغرق منا ما لا يقل عن خمسة عشر يوماً أو عشرين في أقصى الحدود، ولكنّ نوّافاً ألحّ علي، حين حضر، بأن أحمل مؤونة لخمسة وعشرين أو حتى ثلاثين يوماً. ولكن ذلك كان يشقّ علينا، خشية أن نرهق الجمال بالأحمال.

وكان بليهان مبتهجاً بمرافقتي ومرافقة تومان ومحمّد، وتركنا ناصر والراعي لحراسة الخيمة والمؤن والجمال. وكنت قد صرفت الراعي حرّان بسبب كسله واستخدمت بدلاً منه راعياً آخر من عشيرة الشّرارات يدعى مفزع، وكان فتى يتيماً وما زال عازباً، وفقيراً لا يملك شروى نقير ومطمحه أن ينال شيئاً لقاء خدمتنا. فلما جاءنا مع أخيه الأصغر للاتفاق معنا عرضت أن أقدم له الطعام والكسوة اللازمة وراتباً شهرياً بأربعة مجيديات (تعادل 3,60 دولاراً) مشترطاً عليه القيام بواجباته بإخلاص. ولقد قبل مفزع العرض بسرور، لأن البدو يجعلون أجر الراعي مجيدياً واحداً في الشهر، وإذا أصابهم جوع جاع الرّعاة أيضا.

قبيل المساء جاء نوّاف ليصطحبني لعيادة عبده الأبيض دَمّان من جديد، وكان الرجل ينتفض من شدة الألم. وعند فحص ساقه اليمنى وجدتها متورمة وقد غلب عليها الصّديد فقمت بشقّ منطقة الورم فخرج القيح واستراح دَمّان من الألم. ثم أعطيت زوجته ما يلزم من الأدوية للأيام التالية وطلبت منها العناية به. فوعدتني بذلك وعيناها مغرورقتان بالدّموع، وقالت:

«كيف لي ألا أعتني بدَمّان وروحي قد حلّت به كما حلّت روحه بي؟».

وكان أخو دَمّان قد أعدّ لنا القهوة، كما يهوى نوّاف. فقام بتحميص الحبوب حتى صار لونها وردياً مائلاً إلى البني، ثم دقّها وهي ساخنة حتى صارت ذروراً ناعماً، ثم أسرع بغليها وأضاف إليها في الختام سبعة أنواع من التوابل.

وصبّ لي نوّاف بنفسه الفنجان الأول، وبعدما أطريتُ المذاق، قام بتناول القهوة وراح يدخن الغليون، ودعا أخا دَمّان إلى إلقاء قصيدته المفضلة. فجعل العبد ربابته فوق ركبتيه، وهو يمسك بها بيده اليسرى، بينما أخذ يجري اليمنى على الأوتار بعصا الربابة، ومضى يغني:

يا شمعةَ الـصّبيان عَمِّـر لنـا البـوز	واملح من التّـتِن الغـويري وناسِـه
أخْـيَر عنـدي مـن حـبّ كـل بـوز	عظـمِ طويـل الليـل يطـرد نعاسِـه
مـع دلّـةٍ يعبّـا لهـا الهيـل والجـوز	وعـشرين عــودٍ عــارفين قياسِــه
مع شاة مصلاحٍ لهـا العتـل مركـوز	ومــزيّنٍ حَــبّ اللقيمــي لُباسِــه
يَعبِن الدّسمين الـشّوارب هـالرّوز	فكّاكــة المظهــور يــوم احتواسِــه
ربعـي هـالرّداد مـا ضَرْبهُـم هـوز	كم واحدٍ مـن فعلهـم طـاح راسِـه
ولا هُم مشاورة العجـايز هـالكوز	الــلّي محــاكيهم دروب النّقاصِــهْ
يا رب يا اللّي تنبـت العـشب لـدروز	لا تجمــع الفــضّة البــاقي نحاسِــه
كـم قالـةٍ غُلّـة ورا الـصّدر مكنـوز	وتَمضي وهِي بالكَبد مثـل الخلاصِـه

* * *

في منطقة الحرّات البركانيّة

كانت الأرض يوم السبت 5 ديسمبر مغطاة بطبقة من الجليد حين هيأنا الجمال وحملنا الأمتعة على ظهورها ابتغاء الرّحيل إلى مقصدنا. وفي ذلك اليوم جاءني الأمير وزوّدني بنصائحه التي تناول فيها كل شيء، وأمر ناصراً بأن يخيط كل العُدول التي تحمل المؤن وألا يفتح أياً منها في غيابي. وزاد الأمير فقال مخاطباً ناصراً: «إن وجدتُ واحداً منها مفتوحاً فإنّي سأقطع راسك. وتذكر أن ما لموسى هو أمانة أنا مسؤول عنها».

ولما انتهينا أخيراً من حمل خيمتي المستديرة الصغيرة شددنا الرحال شرقاً. وكان كل منا يركب جملاً، بينما زاد بليهان جملاً خامساً يلحق به حاملاً قِرَبَ الماء الكبيرة والصغيرة. ذلك أن أقرب ماء إلينا يبعد عنا مسافة تسعين ميلاً مما جعلنا نحمل منه ذخيرة تكفي ثلاثة أيام أو أربعة. شققنا طريقنا بين البراكين، ونحن نتجنب النتوءات الحادة السّوداء ورؤوس الحجارة البارزة من الأرض، ملتفين حول الفوهات الإهليليجية المحاطة بجدران وصخور بركانيّة عالية. وهناك برز ثعلب وجرى عبر الدرب. فحياه بليهان بسرور وترحاب وناداه، فلما قيل له أن يدع الثعلب وشأنه والاهتمام بالأرانب، لأننا بحاجة للحم طازج، رد:

«ثعلب واحد أفضل من عشرة أرانب، لأنّ الثعلب فأل خير لرحلتنا. وقد أرسله الله تعالى بداية رحلتنا إشارة بأنه لن يصيبنا ضير، وسنعود سالمين بمشيئة الله». وقد بعث فينا هذه النبوءة فرحاً عظيماً فأخذنا نحث الجمال للإسراع.

طهونا عشاءنا في وهدة بين الحجارة البركانيّة، إلا أننا لم نتمكّن من المبيت هناك، خشية أن يكشف دخان النار موقعنا، ونحن بين عدوين. ففي شمالنا عشيرتا الفْرِجَة والفْلِتَة، وفي الجنوب أهالي الجبل، ألدّ أعداء الرّوَلة المعروفون بشراستهم. وقد اعتاد هؤلاء التسلّل تحت جنح الظلام فيهاجمون المسافر الوحيد ويقتلونه ثم يفرّون بما غنموا. ولكم كان يسيراً عليهم مهاجمتنا ونهبنا! ولذلك أخذنا بنصيحة بليهان والتزمنا أقصى الحذر، ولقّمنا بواريدنا وأبقيناها في متناول أيدينا.

بعد العشاء مضينا باتجاه الشمال شرق. وكانت رحلة شاقة جداً. فقد حملنا البواريد المذخّرة وجعلناها في مقدّمة الشداد أمامنا ونحن ندقّق النظر ونصيخ السمع لئلا تفوتنا أي إشارة تنبئ بخطر، وكنا أبداً في توجُّس من الأعداء ورصاصهم، كلما درنا حول صخرة أو أكمة بركانيّة. ومما زاد في متاعبنا ذلك البرد القارس في الليل والرّياح الغربية القارسة التي تخترق العظام حتى النّخاع. وفي النهاية حين لم نعد نتحمل البقاء على الشداد، لجأنا على قمة بركانيّة مخروطية داكنة وهناك ربطنا إبلنا واضطجعنا على الأرض التي يغطيها الصّقيع.

وفي الصّباح ركبنا الجمال وتوجهنا نحو الجنوب الشرقي حتى عثرنا في فجوة صغيرة على بعض الحشائش الخضراء والأعشاب الجافة فأخذت جمالنا ترعى فيها. أما نحن فقد انصرفنا لتحضير القهوة.

وبعد ساعة من المسير تجاوزنا آخر بركان من مجموعة براكين كبيرة وإلى الغرب من تلك النقطة كان ثمة مساحة من الصخور السوداء تعرض لنا مشهداً جديداً، فالحرّات البركانيّة تشكل تلالاً ضيقة منخفضة بينها وديان تتجمع فيها المياه في أحواض صغيرة وكبيرة. وقد لاحظنا وجود علامات تدل على القبائل ورسوم حيوانات مختلفة منقوشة على الصخور البركانيّة البارزة.

تعرُّضنا لهجوم مرتين

مضيتُ أتفحّص الصخور متوقعاً اكتشاف بعض الكتابات، فإذا بـي أسمع فجأة صيحات الحرب وشاهدت ستة، أو عشرة أو ربما اثني عشر فارساً يخرجون علينا مهاجمين من مخبئهم خلف كومة من الأحجار البركانيّة في الوادي. كان وقع المفاجأة شديداً والمسافة قريبة بما لا يسمح لنا بتدبر الدفاع عن أنفسنا. وقام هؤلاء بإجبار الجمال على أن تبرك ودفعوا بنا عن شداداتنا. وبوغِتُّ أنا بضربة من أخمص بارودة، وعندما استعدت وعيي وجدت نفسي عارياً من الثياب. كما تعرّض رفاقي لمثل هذا أيضاً.

حاول بليهان المقاومة إلّا أنّ رجلين أمسكا به واعتبراه مع بعيره غنيمة لهما، واستل كل منهما خنجره وهدّداه بهما وطلبا بأن يدلهما على الذهب، فلما لم يجدا لديه جواباً أخذا يضربان وجهه بمقبضي خنجريهما حتى سال دمه. وكان أحد اللصوص الثلاثة الذين أسروني يضع رأس خنجره المدبّب في صدري ويضغط به مطالباً بوحشية بما لدي من الذهب، ولما رفضت وقاومت للخلاص منه، أخذ اللص الآخر يلكم وجهي بقبضته حتى سال الدّم من وجهي وأنفي.

نهب هؤلاء اللصوص كل ما لدينا ثم أخذوا باقتسام الغنائم فيما بينهم، وارتدوا ملابسنا وحملوا متاعنا وجمالنا وكل ما لدينا، واتجهوا شرقاً، لا يعنيهم من أمرنا شيء على الإطلاق، فأسرعنا في مطاردتهم ونحن نرتجف من البرد.

لعل تلك الساعة كانت أسوأ ما مررت به في حياتي. فقد جُرحت ونُهبت وأنا ما زلت في بداية استكشافاتي، وقبيل أن أدخل البادية المجهولة التي ظلّت تستهويني سنوات عديدة. ولكنّي لم أعد أتمكّن أو أودُّ التفكير في المستقبل.

وعندئذ قال لي بليهان هامساً أن هؤلاء اللصوص ينتمون إلى عشيرة الفدعان، وقد تعرف على اثنين منهم. ولما كنت أعلم أن الفدعان لا يجولون في هذه المناطق القصيّة على ظهور خيولهم إلا إذا كانوا مع جمع كبير من راكبي الجمال، فقد خلصت إلى أن هؤلاء الفرسان ليسوا إلا طليعة القوة الرئيسة، فأردت اقتفاء أثرهم حتى أقابل زعيمهم لأطلب منه رد ما سرقه رجاله منا. وما إن خرجنا في أثرهم حتى جاء محمّد ليخبرني بأن اللص الذي سرقه من عشيرة العبيد [السّبعَة الأعبدة] إذ سبق أن رآه في خيمة رئيسها الشيخ برجس وعندئذ لمعت أمامي أول بارقة أمل. فالعبيدي يعلم أن بيني وبين زعيمه برجس صداقة وواجب عليه بالتالي أن يوفر لي الحماية، وإلا سوَّد وجه زعيمه كما يعلم أنه بذلك سوف يطرد من العشيرة. ولذلك ناديته قائلاً:

«يا عَبِدي، تذكر أنّي واقف أمامك وفي حمايتك، وأن زعيمك برجس ابن هذيب سوف يحاسبك جرَّاء كل ما أصابني وما سوف يصيبني».

توقف العَبِدي ومد يده إلي وقال أمام الجميع أننا في حمى رئيسه وعليهم إعادة كل ما استولوا عليه منا. وانضم إلي عندئذ بليهان مذكراً بالقرابة بين العبِدَة [السّبعَة العَبِدَة] والقُمُصة [وهم السّبَعة البطينات] وأنه من المصرِب التابعة للقمُصة، ويرافقنا بمعرفة شيخه غثوان بن مرشد وموافقته، وبالتالي فنحن في حمايته. ثم طلب منهم باسم هذا الشيخ إعادة ممتلكاتنا. وللتوّ رد العبِدي على محمّد كل ما سلب منه، ولكن المحاربين الأحد عشر الأخرين من الفدعان ردّوا غاضبين بأن ليس لأحد أن يأخذ منهم غنيمة أرسلها الله إليهم.

وبعد نحو ربع ساعة صاح الفدعان فجأة خرج إلينا في إثرها خمسة وعشرين من الفرسان مسرعين. ولما طلبت الحديث مع قائد هذه الجماعة، جاءنـي هذا مستطلعاً، وأخبرته باسم من يرعانـي في رحلتي، وهو الذي سوف يعتبره المسؤول عما يصيبنا إن لم يعد إلينا ما سلب منا. وعلمت عندئذ أن هذا الرجل هو هوّاش ابن غافل من عشيرة الفدعان، وكان رجلاً حصيفاً وقد بلغه أمري وقدّر أن ضرراً عظيماً لا بد أن يناله من أصحابـي في البادية. وللتو استدعى زعيم العبِدَة وهو محالفه وتشاور وإياه في ما ينبغي أن يتصرف في أمرنا. فأبلغه هذا برأيه، وهو أن حمايتي وأصحابـي واجبه، لأنه لا يقدر على احتمال تبعة سواد الوجه سواء لشيخه برجس أو لقريبه بليهان.

عدتُ إلى رفاقي، بعد أن تركت الزعيمين يتداولان في الأمر، فوجدتهم يجلسون القرفصاء بجانب إبلنا وجاء والد اللص الذي سرق بارودتـي ومسدّسي يطلب مني أن أشرح له كيف يستخدم السّلاح، وسمعت عندئذ أحد المحاربين يخاطب رجلاً بقوله «يا ابن هَذّال». فالتفتُّ إلى المشار إليه وسألته عن اسمه.

فأجاب «أنا فنار بن هَذّال!».

فقلتّ له بنبرة صارمة: «يا فنار بن هَذّال! تمعّن في مسدسي الأبيض هناك! واعلم أنه مُرسل إلى متعب، ابن شيخ عشيرتك، وأخبره بأنـي أرسلت له أن يطلبه من ذاك اللصّ».

ما إن سمع والد اللص قولي، وكان المسدس ما يزال بيده، حتى سلّمه رأساً إلى فنار معلناً بأنه لا يريد أن يفسد ما بينه وبين متعب بن هَذّال من صداقة.

جرى هذا الحديث والزعيمان ما يزالان مستغرقين في المداولة وأنا أتلهف لمعرفة النتيجة. وبعد فترة اقترب مني والد اللص الذي قام بسرقتي وكان قد انضم إلى المتداولين قبل وهلة، وقدّم لي البارودة دون أن ينبس ببنت شفة فقلت بصوت عال «الحمد لله!». وما إن استلمت البارودة حتى أخذ اللصوص يخلعون عنهم ملابسي ويسلمونني إياها، فأسرعت بارتدائها. وعندئذ تقدم زعيم الجماعة وسألني إن كان ثمة منهوبات أخرى تخصّني، قائلاً إنه يودّ إعادة كل ما سُلب مني، فلمّا استعدت كل متاعي وأحمالي مضيت لمساعدة تومان المسكين الذي لم يسترجع إلا أقل من ثلث ما نُهب منه لأن اللصوص لم يعيدوا إليه إلا التي سمّاها. فالرجل لم يكن يعرف العربية وكان يصعب عليه بالتالي التّصريح على وجه التمام، ولا كان بليهان ومحمّد أفضل حالاً منه ومع ذلك فقد تمكنا بمساعدة هوّاش بن غافل من استعادة جميع المسروقات، عدا بعض الأشياء البسيطة. ثم اعتذر المقدّمون في الجماعة وفي النهاية توجهوا غرباً على رأس رجالهم يقصدون الإغارة على قطعان تخص الفرِجة. ولكني لم أصادف راكبي الجمال لأنهم كانوا وفق ما قال هواش إلى شمال شرق موقعنا في واد قريب من السبع بيار. ولو أفلح الفرسان في اقتناص قطيع كبير من الإبل لكانوا أتوا به إلى ذاك الموقع.

قُبيل الظهر استأنفنا رحلتنا، إنما ليس باتجاه الشرق بل نحو الشمال والشمال شرق. ولم يكن لدينا في هذه الرّحلة قطرة ماء، ذلك أن اللصوص وخيلهم كانوا قد أفرغوا كل قربة لدينا، كبيرة كانت أم صغيرة. وكانت أقرب مصادر الماء في السّبع بيار أو سوا، بيد أننا لم نكن نرغب في الذهاب إلى تلك النواحي خشية أن يغير علينا لواحق الفدعان هناك ويقوموا بنهبنا من جديد. وإذن، فلم يعد لدينا إلا أن نقصد بئر العليّانيّة، وكانت على مرحلة من خمسين ميلاً تقريباً، وهي كذلك غير آمنة نظراً لأنها تقع بالقرب من طريق أثير لعصابات السّلب. ولكننا كنا واثقين مع ذلك من اللقاء بالعدو عند السبع بيار، في حين أنه لدينا فرصة لتجنّبه في العليّانيّة.

وهكذا قررنا أن نقصد هذا الموقع. ومضينا، بعدما شكرنا الله لإنقاذنا من أيدي الفدعان، فمررنا بأرض متعرجة التضاريس حيث توقفنا لرعي الإبل.

ولم نتمكن حينذاك من طهي الطعام للعشاء بسبب افتقارنا للماء. وكنت أعلم، شأني في ذلك شأن رفاقي البدو، أن المسافر يبلغ به العطش أقصاه حين لا يكون ثمة ماء، بينما نادراً ما يخطر بباله الماء حين تكون القِرَبُ ملأى بالماء. ولقد دعونا الله أن ينزل المطر علينا قبل أن نبلغ العليّانيّة، فلو هطلت الأمطار، كما أكد لنا بليهان، لأصبح من المؤكد أننا سنعثر على الماء في فجوات الصخور وللتو أخذت السماء تتلبد بالغيوم، وكأنما استجاب الله لدعائنا، وأصبحنا نرى الأمطار تهطل متدفقة في كافة الأنحاء، لكن لم تنزل سوى قطرات قليلة بالقرب منا.

ولما قطعنا الطريق المؤدية من دمشق على بلدة هيت على الفرات، نزلنا نستريح عند حوض صغير نوعاً ما ومغلق من كافة النواحي. وما كدنا ننشر أغطيتنا حتى وجدنا المطر يتساقط علينا رذاذاً، فما كان لنا إلا أن ننصب الخيمة المستديرة لنتقي نحن وأحمالنا المطر تحتها. ولكن السماء ظلت ترسل الرذاذ بلا انقطاع طوال الليل، لكن دون أن تتشكل تجمعات من الماء، لأن الأرض المتشققة كانت تمتص كل ما يهطل من مطر. ولقد عانينا من شدة العطش في تلك الليلة حتى كنا نود لو استطعنا امتصاص الماء من قماش خيمتنا المبلل.

جشع

توقف الرّذاذ قبيل الفجر إلا أن ضباباً بارداً ملأ الجو، وبلّل حتى الأشياء التي حرصنا على أن تكون بعيدة عن الأمطار. ولما كنا لا نريد طي الخيمة وحملها وهي ما تزال ندية فقد أوقدنا النار في الداخل بغية تجفيف السقف. ثم حال ضباب كثيف انتشر في المنطقة دون التمكن من النظر بعيداً حتى قرابة الساعة التاسعة حين أخذ هذا الضباب بالانحسار، وصارت الشمس تظهر بين حين وآخر. وكنا قد بلغنا في هذا الوقت أرضاً صخرية اكتشفنا فيها عدة حفر مليئة بمياه المطر.

فنزلنا عن جمالنا واستلقينا على الأرض وأخذنا ننهل من هذا الماء شاكرين. ولقد وجد بليهان أثناء استطلاعه هذه الناحية مزيداً من مياه الأمطار في فجوة اصطناعية من صخرة منحدرة. وكان ما عثرنا عليه من هذا الماء يبلغ ثلاثة أرباع الغالون، أي ما يكفي لصنع مقدار مناسب من الشاي. ولما انتهينا من شرب الشاي تابعنا طريقنا وقد تجدد نشاطنا.

وفجأة لمحنا بعيداً ناحية الشمال الشرقي، بقعة داكنة كانت مناقضة بشكل جلي لما حولها من لون رمادي كئيب. فلما أشرت لبليهان اكتفى بالقول «زول» وهو يقصد كائناً حياً. ثم سرعان ما تبينا بقعتين داكنتين، وخلفهما بقع أخرى ثم المزيد من البقع. وصار جلياً لنا أن أمامنا مجموعة أخرى من الفرسان ولا بد أنهم تمكنوا من رصدنا كما رصدناهم، خاصة وأنهم كانوا في أرض أعلى. وهنا استولى علينا القلق من جديد. وأخذنا نَتَسَاءَل أتراهم أصدقاء أو أعداء؟ فإذا كانوا أعداء، هل هم من عَنِزَة أم من أهالي الجبل عائدين من الغزو؟ أم أنهم من الحديديين المعروفين بقسوتهم؟ وكنا نحن أربعة وهم أربعون على الأقل وفوق ذلك لم يكن لدينا إلا القليل من الماء وما كان بوسعنا بالتالي أن نبدي مقاومة ذات بال أمام هؤلاء.

راح محمّد يحثنا على الاختباء فلعلهم لم يلمحونا، ولكن بليهان رفض هذه الفكرة وطلب منه التزام الهدوء. وكانت وجهتنا من الغرب إلى الشرق، بينما كان هؤلاء يمضون بعكس الاتجاه، وكنا بالتالي مكشوفين أمامهم تماماً. وللتوّ غاب هؤلاء الغرباء عن المشهد ثم وجدناهم يرتقون تلة أخرى، وكان بوسعنا أن نراهم الآن يركبون جمالاً. وإذ بهم يختفون عن النظر من جديد. تُرى هل كانوا يريدون تطويقنا أم إيقاعنا في كمين؟ أصابنا هذا الوضع باضطراب شديد. وفي النهاية، فيما كنا نعبر فجوة عريضة، وجدنا الجماعة كامنة لنا في واد صغير. وفي اللحظة التي اقتربنا فيها من المكان ارتجّت صيحة مدوّية فيما الجمال تندفع نحونا.

سألت بليهان: «من هؤلاء؟»، فلم يجب حتى أصبحوا على مسافة أمتار منا، وعندئذ أجاب: «إنهم ضَنَا مِسلِم»، ويقصد أنهم أقارب للرّوَلة وأصدقاء.

وعندئذ ناديتُ بأعلى صوت: «يا شيخ أنا في حمايتك وأسير تحت أنظارك! أنا موسى وخيمتي لصق خيمة النّوري».

وفي تلك الأثناء كانت قد امتدت عشر، بل عشرون يداً وقبضت على ناقتي وجعلتها تنخ، ثم انتزعوني من فوق شدادي وأدخلوا أصابعهم في خُرجي. فقاومت هؤلاء الرجال بالصراخ واللكمات، حتى خرج إليهم رئيسهم وأخذ بضربهم بمحجانه الذي يسوق به جمله، وهو يصيح فيهم:

«لا تنطلوا يا حراميّة! لا تنطلوا يا أوغاد!»، وجرى بعدئذ إلى رفاقي، ثم عاد إلي ليبعد العصاة عني عنوة. ولقد أفلح في ذلك في النهاية، ولو أن سرعته لم تكن كافية من سرقة ما كان في خُرجي، وما لم تطلْه يد السارقين بات متناثراً على الأرض، بل وجدت صندوق الأدوية مفتوحاً ومعظم محتوياته إما مسروق أو مكسور. وكان اللصوص قد أسرعوا إلى جمالهم وأخفوا المنهوبات.

ولما استرعيت انتباه رئيس الجماعة إلى هذا الأمر صاح فيهم:

«أين هو الرجل الشريف الذي أخذ شيئاً يخص هؤلاء الرجال؟ فإن لم يرد مالهم جعلت العذاب نصيب حلاله وأولاده، وحرمته من رؤية أحد من أهله، ومن الفرح في هذا العالم!».

كرّر الرجل هذا النذير مراراً، وفي كل مرة كان الرجال يأتون بشيء مما سرقوه. ثم طلب منا زعيمهم ويدعى ساير بن برمان وهو من الفرِجَة أن نسامحهم لما صدر منهم، ثم أخبرنا أنه خرج قبل اثنين وثلاثين يوماً لغزو فخذ الصقور من عشيرة العمارات. لكنهم رأوه وهو يسعى لاكتشاف أثرهم وأخذوا بمطاردته فعاد على أعقابه دون غنيمة وحسِبَنا رجاله من لصوص الإبل، وخالوا أننا سرقنا جمالنا من الرّوَلة ونحن عائدون بالغنائم. ولهذا السبب على حد قولهم هاجمونا. ولما أخبرت مقدم الجماعة بالخطر الذي يتهدّد قومه من الفدعان الذين سوف يغيرون حتماً على قطعانهم، إن لم يكونوا قد غزوهم فعلاً، بدا مستعجلاً للرحيل. وطلب عندئذ من جماعته ردّ المسروقات إلينا دون إبطاء، قائلاً:

«هيا تعالوا! وليقسم كل منكم بأنه لم يُخف شيئاً».

وقد كان لهذا الحدث اشد النفع، إذ لم يطل الأمر حتى استرددتُ كل ما أخذه رجال ساير منا. ومع ذلك فقد كان الأمر يقضي بأن يقسم كل واحد منهم أمام زعيمهم الذي يقدم له قبضة من العشب يحملها بيده اليمنى، بقوله:

«وحقّ هذه العيدان وحقّ الشيخ الذي نُجلّه بأنّـي لم آخذ أكثر مما أعدت».

وراح كل رجل يؤدي هذا القسم بدوره، وكان بينهم رجل أضاف على قسمه:

«لم آخذ أكثر مما أعدت، إلا «زبيباً» هو الآن في بطني ولا أستطيع رده، لكني مستعد للتّعويض».

وحين أدى جميعهم القسم لزعيمهم التفت هذا إلي قائلاً:

«اعلم يا شيخ موسى أن وجه ساير بن برمان صار أبيض. وإذا افتقدت شيئاً فاطلبه من القائد الآخر، أرحان بن بواش الذي له سلطة على اقاربه الخمسة. ولما كان أرحان هذا مختفياً عن الأنظار فقد قلت منادياً بصوت مرتفع:

«يا أرحان إن لم تعد كل ما ينقص مني بعد فلسوف أسوّد وجهك أمام النّوري وجميع الرّوَلة».

وعندئذ برز أرحان، وكان كبير السّن، وعينه اليسرى مقلوعة، وأسنانه الأمامية بارزة، وتقدم بعد هذا التهديد، وسألني إن كان أحد من جماعته قد سرق شيئاً مني.

فأجبته: «السّارق لا أعرفه، إنها ما زلت أفتقد أشياء كثيرة. وبما أن رجال ساير لا يعرفونها فلا بد أنك ورجالك قد أخفيتموها. ولست أدري ما جعلكم تخفون العصا التي أسوق بها بعيري! ولربما أخفيتم أشياء أخرى أيضاً، ولم أبينها بعد». ثم مددت يدي وتناولت عصاي التي كان يحملها تحت عباءته، وتحدّيته على هذا النّحو:

«إذن، اقسم، ودع جميع رجالك يقسمون، كما فعل رجال ساير».

فلما اعترض أوعزت إلى محمّد بتفتيش كافة الخروج والشّدادات وثياب أرحان وشركائه أيضاً. وقد أفلح هذا التدبير. ثم أراد أرحان مغادرتنا فحملته على التأخير حتى استعدت كل المنهوبات. وقبيل الظهر خرجنا باتجاه شمال شرق موقعنا إلى جبل أسرية الكبير، وكان يتّقد لهيباً تحت وطأة أشعة الشمس. فالتففنا حوله من الجانب الأيسر من الطريق، والتمسنا الحماية في الوديان قدر ما استطعنا. ومنطقة الأسرية منطقة صخرية شديدة الوعورة حتى إن أكثر منحدراتها لا توافر إلا أقل مجال من انبساط الأرض. فكانت فرحتنا عظيمة حين وجدنا عصر ذلك اليوم في إحدى الصّخور أربعة غدران ممتلئة بالمياه بمقادير كبيرة حتى إننا لم نعد بحاجة لسحب الماء من آبار العليّانيّة الخطرة حيث تجتمع كل عصابات الغزو لإرواء دوابهم.

وفيما راح رفاقي يملؤون القِرَبَ ويوردون الإبل، ارتقيت بحذر تلاً صخرياً لأبلغ كومة كبيرة من الحجارة أستطيع منها استطلاع المنطقة كلها. ومضيت أتفحّص بالمنظار كل غصن ناتئ وكل صخرة، وإذا التبس علي شكل من الأشكال أعود فأتفحّصه وأدقق فيه من جديد، لأن هذا الرصد هو وحده ما يكفل للمسافر سلامته، وإذ لم أتبين شيئاً يدعو للشك قفلت عائداً إلى أصحابي، ووجّهتُ تومان إلى كومة الحجارة ليرسم لنا صورة للمنطقة المحيطة، بينما جمع البقية منا بعض الوقود لمحمّد وقدنا الجمال لترعى في منخفض صغير مليء بالعشب اليابس والأخضر.

وبعد الانتهاء من هذا مضينا وبليهان إلى كومة الأحجار، وحرصنا على خلع ملابسنا ذات اللون الدّاكن، لأن الأسود أجلى للناظر في الصّحراء من الملابس البيضاء فصعدنا التل المنبسط، ثم انحنينا إلى الأمام، معتمدين على أيدينا، وجرينا إلى حيث كان تومان. وهناك جلسنا وأخذنا نستطلع المنطقة.

* * *



الشكل 2: قلعة الرحبة



الشكل 3: هودج مزين

الشمس والقمر

بعد الانتهاء من الاستطلاع مكثنا ننتظر غروب الشمس لنتمكن من النزول من التل بأمان متجنبين أي خطر محتمل. ثم تقدمنا بحذر ونحن نسير على حجارة بازلتية قاسية، ونتطلع إلى ظهور القمر، وهو المطلب في البادية.

قال بليهان هامساً: «إن القمر ينظِّم لنا حياتنا وهو الذي يجمد أبخرة الماء ويجتذب الغيوم الماطرة، وقطر الندى النافع فوق المراعي، ويمكنُ النباتات - وخاصة دائمة الخضرة التي تعتبر ذات أهمية قصوى للجمال - من النمو ويوفر لها حياة أطول، كما يوفر للبدو الرحل من الأمان ما لا يتمتعون بمثله في النهار ونوماً هادئاً كذلك».

«ولكن الشمس تود لنا الخراب. فهي تحيل الرطوبة جفافاً، ولا يقتصر ذلك على الأرض، بل إنها تؤذي النبات والحيوان والإنسان أيضا. إنها تدمّر كل حياة وتيسر للأعداء الغزو بما تسمح به من اتساع الرؤية. والشمس تنتقم من الحيوانات النافقة والأموات من البشر بأن تجعل من أبدانهم سمّاً قاتلا.

والشمس أنثى قوية، صلبة العظام، ذات عاطفة شديدة، وغَضُوب أيضاً. ولكونها عاقر فهي تحسد كل حي وتعمل على القضاء عليه وهو ما يزال في المهد. وما زالت المرأة الشمس منذ أن عرفناها عجوزاً شمطاء كعهدنا بها أبداً. ولسنا ندري إن كانت صبية أو ولدت أبناء في أي زمن من الأزمان، بيد آنـي أحسب أنها ستكون أرحم لو استعادت الشباب وأنجبت الأبناء.

وأما القمر فهو شاب مرح، عامر بالهمة والنشاط. والشمس زوجته، لكنه لا يقيم معها، ولا يبقى وإياها معاً ولا يلتفت إليها، إلا في آخر يوم من أيام القمر القديم وأول يوم من أيام القمر الجديد، ولو أنه لا يملك أن يشبع لها شهواتها. وبسبب من خشيته من الشمس وتبديد طاقاته هباء يصاب القمر بالهزال. وقد أعرض القمر في البداية عن إشباع شهوات زوجته العجوز التي لا ترتوي، لكن ذلك جعلها تغضب وتثور فنشب القتال بينهما ، وقلع كل منهما للآخر عيناً.

ومنذ ذلك اليوم وكل منهما يحمل لطخة أو علامة سوداء في ذلك الموقع. وكل منهما يتوق لاستعادة العين المفقودة: القمر لعمل طيب، والشمس لتزيد، بعد، في الأذى. ويقول القمر، أحياناً:

«واللهْ لولاكْ فَضَخْتِ عيني لأخلّي الصّقّار يهدّ بْقَمْرايَهْ».

فتردّ عليه: «واللهْ لولاكْ فَضَخْتْ عيني لأخلّي حِقّة البِلّ تِشْوَى برَمْضايَهْ».

«وللشمس والقمر عدو، هو وحش أشبه بالسمكة، يدعى الحوت. وقد دأب الحوت على مطاردتهما بالأذية منذ أقدم الأزمان، ولكنه نادراً ما يتمكن من خداعهما. ومع ذلك تمكن الحوت من الاحتيال عليهما فَغَرَ فمه لابتلاعهما. أحياناً يفلت القمر والشمس منه، فلا ينال الوحش منهما إلاّ قطعة صغيرة ولكنه يتمكن أحياناً من ابتلاعهما معاً. والشمس الأنثى عجفاء محروقة البدن فلا يستطيع حتى الحوت هضمها، ولذلك يلفظها الوحش، فلا ينالها أذى. وتجدنا عندئذ نغتاظ إذ نجد حتى الحوت غير قادر على تحريرنا من الشمس القاتلة. ولكننا نقلق أشد القلق على القمر. فحين نلاحظ أن الحوت قد أصابت أنيابه القمر الفتى تضطرب الأحوال في مضاربنا، فيُهْرَعُ الرجال والنساء لنجدة القمر، حيث تأخذ النساء في ضرب القدور النحاسية ويلوح الرجال برماحهم ويشقون الهواء بسيوفهم ويطلقون النار، وكلنا نصيح بصوت واحد: «يا حُوت اطلقي القَماار!»، فإذا لم يُجْدِ ذلك قفز الرجال إلى صهوة جيادهم وارتقت النساء على ظهور الجمال واندفعوا جميعاً إلى حيث يتهدد الوحش القمر. ولقد أفلحنا حتى الآن في إنقاذه، ولكننا ما زلنا نخشى فوز الحوت ذات يوم، ولذلك هناك في كل مكان لنا حارس لا يقتصر على حراسة ممتلكاتنا وإنما تشمل مهمته حراسة راعينا القمر.

«كذلك ينتابنا ضيق شديد في ليلة ظهور القمر الجديد. إذ لما كان القمر لا يظهر في هذا الوقت، لا في الشرق ولا في الغرب، فإننا نرصد السماء الغربية متلهفين بعد غروب اليوم التالي لعلنا نجد على الأقل بعضاً من راعينا الذي ناله الضنى. فإن لمحنا القمر الجديد أشرنا لبعضنا بعضاً ورفعنا أيدينا مبتهلين:

«يا هلال، يا سيّد، يا سعيد، يا عزّ الهلال، يا اللّي فكّيتنا بْهَلِّي زَلّ تفكّنا بْهَلّي هَلّ!».

«إننا لا نعرف بالتّحديد كم ليلة عمر القمر الجديد. ونحن نتداول في هذا الأمر ونتشاور، ثم لا نملك إلا الاعتقاد بما يقوله من هو أكبر منا سناً وأكثر خبرة. لكن الثقة بالكبار أخذت تضعف جيلاً بعد جيل. فالشباب أضحوا أكثر حصافة ولا يأخذون بنصيحة أو إيماءة من آبائهم. وقد قال أب عجوز لولده ذات مرة شاكياً:

«يا وْلِدِي يطْلَعْ جيلٍ وانـي، يقول للهلال ابن ثانـي».

فأضاف شيخ عجوز يجاورهما: «يطلع جيلٍ مِدْفَع، الْيَا عَزَّمْتِه ما يَرْوَى وما يِشْبَع، والْيَا نَخَيتَه ما يِفْزع».

«إنّ البدوي يبلغ ذروة السّعادة ما بين الليلة الثامنة والثامنة عشرة، لأن القمر يظل، في هذه الفترة، ظاهراً عند شروق الشمس. وهذه الليالي تسمى «البيضاء». وفي هذه الليالي لا يشاهدنا أحد عن بعد، ولا يمكن لأحد أن يهاجمنا عن قرب، إذ إننا نرى أبعد من مرمى البارودة وبذلك فإننا ننام هانئين بدءاً من الليلة الثامنة ومن الليلة العاشرة لا نضطر لجمع الجمال، بل ندعها تبرك هنا وهناك حول خيمتنا. وفي هذه الليالي يمكن لنار المسافر الوحيد أن تظل متقدة وفي المغازي لا نحتاج لفانوس ينير الدرب فلا عجب، إذن، إن كانت أمنية الشاب:

«أبغي إِنَّ الليل أقمَر، والرّوض أخضر، وأنا حيّ لا أزغر ولا أكبر».

«ولكن بعد الليلة الثامنة عشرة تبدأ المشكلة. فيأخذ اللصوص في الانتشار، وقوى الأعداء تدخل المنطقة، ويتهدّدنا الخطر من بعيد ومن قريب، ويمكن للناظر أن يرى أقل بصيص نار من مسافة بعيدة ولذلك جاء تكرار التنبيه: «ليلة عشرين احفظ مالك يا مسكين!» إن عتمة الليل لتُنزل الرعب في قلب اليقظان، ونحن نادي: « الله يكفينا شرَّ الظَّلْمَة والظالمين!».

«نعم، إن ليلة يسطع فيها ضوء القمر لأفضل للبدو من نهار مشمس، لأنه يمكن مشاهدة البدوي من أي مكان، بينما يستطيع أن يتبين كل ما يحيط به في ضوء القمر ولا يستطيع العدو أن يتبينه. انظر، يا موسى، كيف يصارع القمر الغيوم التي تغطي الجهة الغربية من السماء. وها قد انتصر! وها هو يختال فوق السحب زاهياً كملك بين المصابيح السماوية والنجوم الشاحبة».

عبر منطقة القَمُصَة

تحركت ظلالنا، وأطيافنا تعلو في أفق الشرق، بين الضباب، مثل أشباح ضخمة تتجه نحو القمر، ولم نُصدر لا نحن ولا الجمال أقل صوت. ولكن الرّمال كانت تهمس أحياناً أو تصدر حصاةٌ، بين الحين والآخر، صوتاً أجوف، وعدا ذلك كان السكون شاملاً. وبعد برهة هبت ريح جنوبية غربية قوية شديدة البرودة.

أخذ الطريق يزداد صعوبة وكنا قطعنا عدة مسايل ماء قصيرة ونزلنا منحدراً عميقاً قبل أن نبلغ أخيراً وادي العليّانيّة الذي يتسع فيغدو حوضاً تحده التلال شمالاً وجداراً مائلاً جنوباً. ومع أننا كنا نؤثر متابعة الطريق لولا أن البرد القارس - إذ بلغت درجة الحرارة 14 فهرنهايت - قد فرض علينا التوقف فنصبنا الخيمة بجانب كومتين من الأحجار البركانيّة على الأرض التي غطتها طبقة من الصقيع. وكانت هاتان الكومتان من الأحجار البركانيّة مفتوحتين من الناحية الشمالية وبالتالي لم توفرا لنا حاجزاً يقينا الرياح، فكان علينا أن نضع الأثقال على أطناب الخيمة لئلا يطيح بها الهواء. ونظراً لقرب الآبار منا والدرب الموصلة إليها بجوارنا فإن هذين الأمرين جعلانا نلزم اليقظة. ولقد نمتُ ليلتئذ بالكاد نصف ساعة وكنت أرتجف من البرد كما لم يسبق أن ارتجفت من قبل.

سمعنا بعد منتصف الليل ضجة من ناحية الطريق، على بعد ثلاثمئة خطوة منا، فأصغيتُ وبليهان لما كان يصدر من تلك الناحية، ونحن نحاول أن نتبين طبيعته.

ثم تكرّر ذلك الضجيج فأيقظتُ محمّداً وطلبتُ أن يقوم بالحراسة، ثم زحفتُ وبليهان والبارودة بيد كلّ منا، واتجهنا ناحية الضجّة. وفجأة تبيّنتُ على بُعد أمتار قليلة أن هذين الشبحين ليسا سوى ذئبين يجريان ناحية الجنوب شرق. ولقد حمدت الله أن ما صادفنا لم يكن من الوحوش البشريّة الضارية! وإذ اكتفينا بهذا المشهد عدنا أدراجنا إلى المخيم، بعدما تأكد لنا خلوّ المنطقة من البشر، و إلا لما تجرأت الذئاب على الاقتراب منا. وقرابة الصّباح وجدنا البادية كلها قد لفّها ضباب كثيف وذلك ما جعل البرد أشدّ وطأة علينا.

وفيما بعد عبرنا أكمة، ونحن نلتزم في مسيرنا الحذر الشديد، قاصدين على عجل ناحية الشرق. وكانت ناقتي تعاني من ثقل الشداد حتى ظلّت تنوح طوال اليوم، ولكنها صمتت حين أطل المساء ومضت تقطع الخطى أمامها سريعاً. وقد ظللنا نلتزم الصمت طوال الوقت، إلا إذا دعت الضرورة، فيكون حديثنا عندئذ همساً. وكنا نلتزم في هذا بما يقول البدو «في ترحالك في البادية دقق النظر فيما حولك دائماً في النهار، أما في الليل فالزَم الصمت».

وفي وقت متأخر من المساء أوينا عند طرف تل لا يجاوره آخر.

وفي صباح السبت، 8 ديسمبر، مضينا عبر سهل خصب تكسوه تربة سوداء بعمق ثلاثة أمتار تقريباً، و لربما أصبحت أشد خصباً لو أمكن لها الريّ بانتظام. ولكن الأمطار نادرة في هذا الطرف البعيد من البادية. وهكذا وجدنا الأرض مشقّقة كلها، ونباتات العام الفائت رمادية اللون وبينها فجوات كثيرة تتقافز منها فئران لا عدّ لها ولا حصر. وكان بليهان، الذي ما كان لأي أمر أن يصرف انتباهه في هذا القفر الرتيب، يغني بصوت خفيض:

يـا بَـرْق يـا لـلّي تـالي اللّيـل لَـوّاع	شُفتك و انا بهجعـة النّـاس واعـي
من روس عالٍ شُمَّخٍ كذ بهـن فـاع	بليـال غـرٌّ بـيض عِجْـلٍ شـعاعي
قُم شدّ واركب في قرا كـل مطـواع	وابعـد زوره عـن مـلاوي ذراعـي

هَـــوَاع بَـــوَاع للـــدَّوّ مَـــذَاع	حُـرٌّ تـروّح مـع رقـاريق قـاعي
واليا شِـبَطْتِه بالرّسَـن هـاع والتـاع	كـنّ الـشّذى عـلى جنابـه فـاعي
الراس راس اللّي سمك بعد الخضاع	بْـسِمْكَتِه شـاف اللُّجاجِـه وزاعـي
يا شبيه هيـقٍ حـادرٍ بعـض الرّيـاع	وملح الـشّفا عـلى جناحِيْـه طـاعي
نهـج سِـلِم قْوايِمـه يطـرق البـاع	جنحـان زادِن الحَـرِيْش اختراعـي
كزيـع زاع مْـزَوَّعٍ يـوم ينـزاع	حُـرٌّ سـعى بطـرْدْ مـن قبـل يـاعي
قُلتْ آه من علم لِفا القلـب والتـاع	سقى شريك الـرّوح سـمّ الإفـاعي
من اليوم أو مـا لِي نوبـةٍ بالاصـباع	مثل البدر يـوم انـتهض بارتفـاعي

باحثاً عن أخ

في الصّباح وجدنا الصقيع فوق أغطيتنا. وقبيل الظهر رأينا أعداداً كبيرة من الجمال. وتوقفنا لندع لجمالنا فرصة لترعى. ومضى بليهان فوراً إلى الرعاة ليسأل عن مضارب أهله ويستعلم عن العمارات أو الدّهامشة الذين ربما كانوا وإياهم. ثم عاد بعد ساعة ليخبرنا بأن أمه متواجدة عند بئر الطيّارية في وادي المياه وكذلك الجلاعيد الدّهامشة من العمارات. وأخبرنا أن فهد بن هَذّال، شيخ شيوخ العمارات والدّهامشة، أقام منذ زمن مضاربه بالقرب من كربلاء، إلا أن ولده متعب على ما يقال مقيم في موقع ما عند جنوب سفح جبل البشري. ولما كنت أود زيارة المنطقة، ولا سبيل إلى ذلك إلا إذا توفّر لي أخ أو دليل من أتباعه، فقد سرّنـي أن أعلم أن خيام الجلاعيد منصوبة في وادي المياه.

«سوف نمضي مباشرة إلى الطيّارية ومنها نتبع وادي المياه إلى سفح جبل بشري، حيث يقال إن متعباً أقام مضاربه هناك».

* * *

في الطيّارية وجدنا أقارب بليهان، ومعهم شقيقه، بيد أننا علمنا أن أمه قد رحلت إلى حوض القعرة، ويمكن العثور على الجلاعيد بالقرب من بئر ورقة.

وفي المساء بلغنا آبار ورقة، فوجدنا مخيماً كبيراً، وعند طرفه الشمالي جعلنا جمالنا تبرك.

وهناك بلغنا أصوات طبول ودفوف وصيحات لأحد الرجال.

«هذا أحد أولياء الله بلا ريب استولى عليه الحال مع أصوات الطبول ونقر الدفوف، وهو يدعو إلى الله ورسوله».

«ومن الذي تدعونه ولي الله، يا بليهان؟»

«إن أولياء الله هم رجال أو نساء يلهمهم الله ولهم أتباع لصيقون بهم ويعزفون مختلف الآلات الموسيقية. ولكن الغالب بينها الطبل والدّفّ، حتى يستولي عليهم الحال، فينطقون عندئذ بأسرار المستقبل. وإننا نحن السّبعَة والعمارات نُجِلّ العرَّافين، أما الرّوَلة فينكرونهم».

* * *

في الصّباح جمع رفاقه كمية من الأدهب شبه جافة (والأدهب شجيرة ذات أوراق تشبه الرّيش تميل للصفرة)، بالإضافة إلى بعر الجمال فاستخدمناها في تسخين قهوتنا. وما هو إلا حين حتى جاء عدد من العربان لزيارتنا، وحمل إلينا صاحب أقرب خيمة آنية من الخشب مليئة بحليب الناقة الفاتر.

وإذ علمنا أن ليس في ورقة سوى خيمة واحدة للجلاعيد، وجميع الخيام الأخرى تقع على مسافة إلى الجنوب شرق، أرسلت بليهان إلى أقرب خيمة ليستعلم إن كان هناك من يدلنا إلى تلك النواحي. ولقد عاد بليهان ليخبرني أنه وجد الدّليل وعقد معه اتفاقاً على هذا الأمر. وأشار بيده عندئذ إلى كهل تبدو على وجهه إمارات الخبث، أسنانه سوداء، منها اثنان من القواطع أبيضان لامعان، أشبه بنابي حيوان مفترس.

لقد بدا لي هذا الرجل منفراً أشد النفور. ولما جلس أمامي أخذ يدفئ ركبتيه العاريتين المتسختين بالنار، ويهز ساقيه فوق اللهب، ومد يده وراح يحتسي من قهوتنا، دون أن ينقطع عن البصاق في النار. وكان هذا الرجل، ويدعى زيداً، هو من اكتراه محمّد ليكون دليلنا، لقاء ثلاثة أرباع المجيدي في اليوم.

إلى الشيخ متعب

ملأنا القرب بالماء وغادرنا ورقة عصر ذلك اليوم ومضينا حتى بلغنا سهلاً فسيحاً حيث وجدنا بقعة واسعة بها شيء من العشب اليابس بدا لنا كأنما هو - على قصر ساقه، حيث لا يزيد طوله عن الثماني بوصات - حقول واسعة من الخضرة. ولكننا لم نقع على برج الكنيسة المعهود وراء حقول القمح تلك. وكانت الغيوم الداكنة تتجمع في عرض السماء في تلك الأثناء، وحين تساقطت أولى قطرات المطر، توقفنا عن المسير ونصبنا هناك الخيمة، إلا أن المطر لم يستمر إلا ساعتين وحسب!

وقبيل الظهر كنا نمر بواد حافل بشجيرات الروثة (نبات دائم الخضرة ذو أوراق مدببة وأزهار صغيرة وردية اللون). وأغصان هذا النبات الجافة ذات لون زاه أبيض رمادي، كما لو أنه من أرقى أنواع النيكل ذي بريق تحت أشعة الشمس، فيضفي لمسة من لون الفضة يوشي المشهد الرتيب، ومن اليسير أن يتبين المرء من بعيد نبات الرُّوثة[1].

إلى الغرب منا ظهرت أحزمة داكنة من سلسلة الجبال التي تشكل أبو رجمين، وتمتدّ من تدمر إلى جبل بشري في شمال شرق المنطقة. وفي الجنوب يشكّل السّهل تموجات هائلة يمكننا أن نرى منها الجمال والخيام. لكن الخيام كانت ما تزال بعيدة جداً عنا وإن بدت كأنها ماثلة أمامنا، بسبب السّراب الشائع في الصحارى.

---

(1) من أنواع نباتات الحَمْض، وهي: الأرطى، الأُرينِب، الحِنْوَة، الرّغُل، الرّمْث، الرّوثة، الزّرِيقه، الشّعران، الشّنان، الطّحَمَة، الضِمران، العَجْرَم، العَرّاد، الغَضْراف، الغَضَا، الفِرْس، الفليْفْلَة، القَطَف، القَضْقَاض، الكَلْشَة، المَحْرُوْث، المواصَل، النّيْتُول، الهِجِين.

كانت الأرض الواطئة التي مررنا بها تتوهج في ضوء أشعة الشمس الذهبية، حين ظهر أمامنا فجأة فارس توقف أمامنا وبندقيته بيده، وراح يتفحّصنا وإذ تبين له أننا مسافرون مسالمون وجّه جواده نحونا وردّ علينا التحية، ثم بلمسة من كعبيه على جانبي المهر الأبيض دار حولنا خبباً. وأخبرنا عندئذ أن متعباً بن هَذّال[1] يقيم مضاربه إلى الجنوب من بئر قريطة، ثم مضى يسألنا عن مواقع مختلف القبائل والعشائر، وإذ انتهى حديثه غادرنا على عجل ليخبر متعب بزيارتنا المعتزمة. وصادفنا بعدئذ عدداً غفيراً من الرعاة ما انقطعوا يدفعون بقطعانهم من حولنا، يميناً ويساراً.

كانت العتمة قد أرخت سدولها حين بلغنا أول بيت، فترجّلنا أمام مضافة أقامها متعب لضيوفه. وكان لمتعب بيتان، أحدهما منصوب على خمسة أعمدة[2] ويقيم فيه مع أهله، والآخر يستقبل فيه ضيوفه. وبطرف هذا البيت نصبنا خيمتنا المستديرة، وأخذت أتحيّن الدخول عليه للتحية بعد أن أرسلت من يعلمه بوصولي، وكان هو يجلس في المضافة إلى النار المتقدة وسط جمع كبير من الحضور. وما هي إلا دقائق حتى جاءنا أحد أقاربه للترحيب بـي راجياً باسم الشيخ زيارة خيمته، فلم أكد أقطع خمس خطوات حتى وجدت متعِباً يخرج للقائي. واستقبلني مرحّباً ثم قادنـي إلى بيته، فقام الحاضرون بإشارة منه وظلوا وقوفاً حتى جلستُ.

جلس متعِب إلى يميني، وملت بيدي اليسرى على شداد جمل، وإلى اليسار كان ثمة شيخ أكبر سناً يجلس متكئاً. وأمامي كان هناك حفرة مربعة الشكل ضخمة تتقد فيها نار عظيمة. وخلف تلك النار، إلى اليسار، جلس عبد أسود وأمامه انتصبت أربع دلال للقهوة، إحداها ضخمة. وخلف العبد الأسود تحلق البدو حول الموقد يدفئون أقدامهم الحافية. ثم جاء عبد آخر ببعض الوقود ووضعه على النار من فوق رؤوس الجمع.

---

(1) ابن فهد شيخ عشيرة العمارات العنزيّة، تقطن بادية العراق ومنازلها تمتدّ على شاطئ الفرات إلى عانة والبوكمال وإلى حدود النّفود جنوباً. ألدّ أعدائها عشيرة شمَّر القوية.

(2) يسمّى في عُرف البدو: بيت مخومَس، وكان بيت شيوخ الرّوَلة (الشّعلان) مسوبعاً.

بعد أن ألقيت التحية على الحضور أخذ كل شيخ يرحب بـي، ويسأل عن أحوالي. وهنا انتصب العبد الذي كان يتولى إعداد القهوة فجأة ومسح عن أحد الفناجين آثار القهوة بخرقة متسخة والتقطه بيده اليسرى وباليمنى أمسك بالدلة الصغيرة [المصب] وأخذ يصب القهوة فتنزل خيطاً رفيعاً من ارتفاع لا بأس به. فلما امتلأ خُمس الفنجان قدمه لي وأخذ ينتظر فراغي منه. فلما تذوقت القهوة تلمّظتُ وتناولت رشفة طويلة وأنا أنظر إلى الآخرين، وبعد ثلاث رشفات طويلة متأنّية أعدت الفنجان الفارغ إلى العبد، فأعاد الصب مرة ثانية. فلما انتهى طقس الترحيب هذا صار لي أن أتصرف على هواي.

ولما غادر متعب المضافة رجعت إلى خيمتي حيث أخذت مع تومان بتثبيت الخيمة. وما كدنا ننتهي حتى دخل علينا متعب ودعانـي إلى العشاء. ووجدت إلى جانب مكانـي طبقاً واسعاً مسطحاً من النحاس مليئاً بقطع من الخبز الفطير وكومة من لحم الجمل. فصب أحد العبيد بضعة قطرات من الماء على ثلاثة من أصابع يدي اليمنى، فجثوت عندئذ على ركبتي اليسرى إلى طرف الصحن وذكرت اسم الله ثلاث مرات وأخذت بعدها بالأكل وشرعت ألتقط بيدي قطعاً صغيرة من كتل اللحم التي وضعها أمامي متعب الذي كان يجلس بجانبي ثم أدفع بها إلى فمي. وحالما انتهيت من الطعام نهضت ومعي رفاقي الذين كانوا يشاركونني في الأكل، ثم دفع بالصحن إلى أشخاص آخرين. وهنا صبّ أحد العبيد قليلاً من الماء على يدي، بل وقدم لي أحد الحاضرين منشفة صغيرة لتجفيفهما من أثر الماء، بينما مسح الآخرون أفواههم وأيديهم بأثوابهم وأطراف الخيمة.

وبعد العشاء جلس متعب بجانبي ثم انغمس شيئاً فشيئاً في الحديث معي همساً حول موضوعات شتى على نحو يوحي بأن ليس لذلك الحديث من نهاية. ولما أسررت لمتعب باعتزامي الرحيل في الصّباح الباكر رد علي برجاء أن أبقى في ضيافته يوماً آخر على الأقل لتتوطد معرفتنا ببعضنا بعضاً وتتوثق عرى الصداقة بيننا. وحين رجعت إلى خيمتي كان الوقت قد تجاوز منتصف الليل.

كانت الأرض التي أقامت عليها العمارات مضاربها أرضاً واسعة شاسعة، قوامها حجارة كلسية بيضاء مغطاة بالرّمل الخشن وفيها أحراج كبيرة من نبات الرِّمث، ويبلغ طول الشجرة منها الياردة والنصف. ومذاق مياه الآبار هناك على شيء من المرارة، ولذلك كانت العمارات تأتـي بمياه الشرب من قباقب.

في الصّباح أرسل إلينا متعب طعام الفطور، وكان من خبيص التمر المغمور بالسّمن الحار وخبز الفطير ثم دخل علينا بعد فترة وسألني عما إذا ارتحت في النوم في حمى قبيلة العمارات. كان متعب في نحو الخامسة والعشرين من العمر، بملامح شبيهة بملامح النمط السّامي من الآشوريين القدماء، أسنانه بيضاء لامعة، عدا سنّ في فكه الأعلى فكان بارزاً بسواده وكان يتحدث بأناة شديدة، ويغلب عليه التفكير والهدوء، مع شيء من تكلّف النطق.

قدّمت له مسدّساً مطلياً بالنّيكل من طراز غاسَر[1] Gasser مع مئة طلقة فسُرّ بذلك أشدّ السّرور. ولما كنت سألته عن الوديان والآبار والآثار في منطقة واحة «شثاثا»، ولاحظتُ أنّه يذكر الاتجاه والمسافات بشكل صحيح، فقد قرّرتُ عندئذ البقاء برفقته حتى صباح اليوم التالي.

* * *

ولم يُقيّض لي رؤيته في ذلك اليوم حتى قرابة المساء حين وجه محمّداً ليكتب كتاباً باسمه يأمر فيه كافة قادة جماعات الإغارة والسّلب من العمارات والدّهامشة ألا يعترضوا طريقي، أو ينهبوا مالي، لأنني صديق له. ثم قام بمهر الرسالة بخاتمه لجهله بالكتابة. فشكرته طبعاً، وإن كنت أدرك أن قطعة الورق تلك لن يكون لها إلا الأثر القليل، نظراً لأن زعماء جماعات الغزو من العمارات لا يعرفون القراءة، كما أنه ليس من يستطيع إقناعهم على الأخذ برسالة يقرأها عليهم غريب ويأمرهم بترك غنيمة يطلبونها.

* * *

(1) مسدّس قديم ذو بكرة نمساوي الصّنعة، تتسع بكرته 8 طلقات. انقرض اليوم.

في الضباب إلى الفرات

في صباح يوم 15 ديسمبر أشعلنا ناراً وقمنا بتحضير الطعام للفطور وهيأنا متاعنا. ثم أتى متعب لوداعنا ومرافقتنا مسافة نصف ميل من الطريق، وتوجهنا أولاً إلى الشرق، وتحولنا بعدئذ ناحية الشمال شرق. وكان يوماً شديد الكآبة، وقد بلغ الضباب أشده حتى أن دليلنا زيداً جاءني ليخبرني، ونحن لم يمض علينا في هذا الطريق سوى دقائق، أنه لن يستطيع متابعة الطريق وأشار علينا بالعودة إلى الخيمة حتى يتلاشى الضباب. فوجدتني مضطراً للقيام بمهمة القيادة بنفسي مستعيناً ببوصلة في توجيهنا. بيد أن ذلك لم يكن بالأمر اليسير ونحن على أرض منبسطة تكسوها مختلف أنواع النباتات النامية.

* * *

وحين اقترب المساء رأينا أمامنا على مرتفع قطيعاً كبيراً لعشيرة الفدعان، وبالقرب منه قطيعان آخران من النوق البيض التي تعرف بالمغاتير. والفدعان معروفون بتربية النوق البيض وكان هذان القطيعان يخصان شيخ الرَّوَلة الذي وضعهما في رعاية الفدعان. وإذ راودني الشك بأن أعثر على خيام أكثر من جهة الشرق وكنت حريصاً على تفادي لقاء جماعة من قطاع الطريق من شمَّر أو الشوايا فقد أقمت مخيمنا بالقرب من هذه الخيام. وحين أخذنا ننزل أمتعتنا عن ظهور الجمال أخذ بليهان بالغناء:

هاذي طُوارف عَرَب خِلّي	يا مرحبا يا عَرَب شِيْحة
عذروب أخوها يجيب الشّول	كم راغْي عوّده صِيحة
يا خديدها بويرق المملول	من مزنةٍ بسّ لها ضِيحة

* * *

تهيأنا للرّحيل متجهين ناحية الجنوب شرق. وكان زيد وبليهان يريدان التحوّل جنوباً، لولا أنـي أصررتُ على المضي باتّجاه المشرق، وقد أبدى كلاهما خشية من أن نضل الطريق إلى قلعة الرّحبة ولا نصل بلدة الميادين. فالبدوي إنما يعرف دربه حين يتبع الإشارات الظاهرة عن بعد فهو دليل سيئ في الأرض المنبسطة الجرداء من المعالم. إنه يستطيع الإشارة إلى الاتّجاه المقصود، إلا أنه غير قادر على متابعة اتّجاه حدده بنفسه، وهو يخبرك بدقة عن بقعة معينة تقع إلى اليسار أو اليمين من مطلع الشمس في الربيع، ولكنه ينحرف فوراً إلى جنوب الشرق أو شمال الشرق ويتحول عن اتجاهه باستمرار. وربما كان صادقاً في قوله أنه يجول راكباً أو راجلاً بين الشمال والجنوب، وبسبب من جهله بقيمة الوقت، لا يملك أن يدرك ما يجعل مسافراً لم ينشأ في الصّحراء يرفض اتباعه.

والبدوي معتاد على الانقياد. فتجده عند الظعن يسير هادئاً خلف الجمال المحملة التي تتبع الزعيم. وفي الغزوات يتبع وعقله خال القائد الذي يتبع بدوره في معظم الحالات أحد الأولاد من عشيرة الصّلُبّة. والبدوي إن لم يكن له قائد عجز عن اكتشاف طريقه أو المثابرة عليه، شأنه في ذلك شأن جمله الذي يغدو تائهاً حين لا يكون مع القطيع.

وبدت السماء شرقاً في الأفق ونحن نسير كما لو كانت مزودة بشرائح كالتي تتألف منها الشبابيك. وكانت كل شريحة تمتد أفقياً متوهجة بلون أحمر متألق تعترضه أشعة الضوء المائلة إلى الزرقة. ثم تغلق الشرائح ويغدو كل شيء أزرق بل أسود داكناً. وظلت جمالنا تمضي خبباً وتهز رؤوسها وأعناقها وكأنها بندول ساعة مقلوبة، بينما نميل معها إلى الأمام وإلى الوراء. أما زيد فقد غطى نفسه حتى الرأس بفروته القديمة ويمناه المرفوعة التي يوجه بها الجمل غطاها كُمّ فروته الطويل الذي برزت منه عصا ثخينة ذات رأس مستطيل عريض. وكانت العصا تهتز إلى الأمام والخلف مع حركة رأس الجمل وعنقه، حتى بدا في ضباب الصّباح كأنه طائر متشح بعباءة حطّ على ظهر الجمل والعصا التي يقود بها الجمل عنقه ورأسه، وبدن زيد بدنه ورأسه عباءته.

أخيراً أبصرنا قلعة الرّحبة تبرز بأبراجها المربعة على السّهل (الشكل 2). وفي الظهر لمحنا للمرة الأولى، من خلال فجوة، نهر الفرات، وإلى الشرق، وبعيداً في الأسفل كان السّهل ما بين النهرين. وكان كل ما يحيط بالمشهد رمادي اللون، قفراً لا حياة تدب فيه. بل ولقد كان لسعف النّخيل إذ تبرز رؤوسها فوق بلدة الميادين لمسة من الصُّفرة يشوبها شيء من لون الرماد، علامة الشتاء والموت.

كان طريق النزول من الحافة إلى الرابية التي قامت عليها أبراج قلعة الرّحبة شديد الوعورة بسبب هشاشة الحجارة هناك، إذ كانت طرية سريعة التفتّت. ثم انطلقنا من الرحبة عبر سهل الفيض إلى بلدة الميادين التي كانت تومئ إلينا بمآذنها وأشجار النّخيل. وكانت مسيرتنا بين العديد من الحقول الصغيرة المتقاطعة مع أخاديد الري. وكانت الأخاديد العميقة تتصل بالأخاديد السطحية التي تسقي حقولاً صغيرة تبلغ مساحتها الثلاثين ياردة تقريباً تحيط بها أسوار ترابية يبلغ ارتفاعها أربع بوصات لتمنع تسرب المياه.

* * *

نصبنا خيامنا جنوب شرق البلدة، عصر يوم الأربعاء 16 ديسمبر، قرب قافلة تحمل تموراً طازجة من واحة شثاثا[1] ومقصدها حلب. وهناك عرضت علينا امرأة عجوز وقوداً من الخشب وبعر الجمال، وكلاهما غالي الثمن. ثم طلبت ملء القرب من أقرب بئر حيث كانت قوافل التجار تسقي جمالها. ثم ساعدت تومان في حساب خطوط العرض بينما قصد محمّد وبليهان البلدة لشراء التّمور.

* * *

(1) شثاثا بلدة في غرب العراق ببادية السّماوة، تقع إلى الشرق من بادية الحَماد.



الشكل 4: آبار مُلُصي



الشكل 5: صخرة متآكلة

3- إلى مضارب ابن سُمير

عودة إلى الصّحراء

انطلقنا في الصّباح متجهين وسط الضباب الكثيف إلى حوض القعرة. وكان دربنا رتيباً مملاً ومتعباً، فلم يكن في السّهل المنبسط ما يثير اهتمامنا، وكذلك لم تجد الجمال ما ترعاه، فلقد كانت قطعان الفدعان ق أتت على كل ما في الأرض. وبقي الحال هكذا حتى العصر حيث وجدنا عدة بقاع تنبت فيها الرّوثة وأشجار الشيح فنزلنا للاستراحة وتناول العشاء. ولما كان الماء متوافراً فقد قمنا بإعداد الشاي، وهو الماء المغلي المحلى بقليل من السكر الذي يخمّرون به قليلاً من أعشاب الشاي. ولقد طاب لهم الشاي مع الخبز، ولو أن الماء الذي حملناه معنا من الميادين كان شديد الملوحة مشوباً بالصّلصال الذي بلغ ارتفاع رواسبه في فناجيننا مقدار خنصر.

* * *

حين اقترب المساء بدت السماء من ناحية الغرب في صورة رائعة. كانت الصّحراء الموحشة المنبسطة بلون رمادي داكن وقد بدت هضبة بالقرب منا بلون أقرب إلى السواد وتألق الأفق من بعيد بلون أحمر متقد بينما كان ثمة غيوم لا عد لها ولا حصر تسبح بعيداً في أعالي السماء مثل أمواج ثلجية وكأنها كرة الشمس العظيمة المتوهجة عند المغيب. وشيئاً فشيئاً أخذت الغيوم المثلجة في الغرب تزداد احمراراً وتلك التي في الشرق تغدو زرقاء ثم أخذت الزرقة تنتشر وازدادت الصّحراء عتمة، وأصبحت السماء رمادية، ونحن نمضي في جلال هذا المشهد أشبه براكبي الجمال في لوحات دُورَر العظيمة.

كان دُورَر[1] غائباً عن ذهني منذ زمن بعيد، أما هنا في الصّحراء فوجدتني أتذكره ثانية. وهو على صواب في تصوير شخوصه في الصّحراء اللامتناهية كعمالقة دونهم البشر، لأن كل ما يظهر في الأفق يتخذ أبعاداً هائلة. فالإنسان الأقرب إلى الأفق هو أقرب إلى السماء، وما فوق الأفق في السماء يحكمه الله الذي هو أعظم من كل مخلوقاته.

ولكن ذاك المنبسط الذي كنا نرحل بين جنباته إنما كان أرضاً قفراء وبدت أشد وحشة كلما داست أخفاف الجمال أعواد الشيح اليابسة، التي تنمو هنا وهناك في مساحات صغيرة. وفي إحدى هذه البقاع نصبنا خيمتنا وأمضينا الليلة، ونحن نرصد ما حولنا خشية أن يداهمنا قطاع الطريق.

تركي، حامي الغزاة

في الصّباح وجدنا الوقود غارقاً في رطوبة الندى فلم نتمكن من إشعال النار. وإلى الجنوب غرب، كانت المداخل إلى مسايل وادي حريّان الثلاثة، وفي أوسطها كان قبر تركي بن مهيد، كبير شيوخ الفدعان[2]. وتركي هو شقيق تركيّة أرملة الأمير سطّام الراحل، ولقبره مكانة عند الغزاة وقطاع الطرق.

سألت بليهان: «كيف تُجِلُّون قبر تركي؟ وقد كنت أحسبكم لا تقيمون مزارات للأولياء مثلما يفعل الحضر؟».

«نحن البدو لا نتخذ أولياء كالحضر الذين يقولون إننا لن ندخل الجنة. ولو شئت قول الحق لقلت إننا لا نرغب حتى بدخول جنة سيسكنها الحضر. ولكننا نجل تركي لأنه حبيب الله، فقد شن ما لا يحصى من الغزوات ورجع منها جميعاً سالماً وغانماً.

---

(1) ألبريخت دُورَر Albrecht Dürer (1471-1528 م) رسّام ألماني شهير من نورنبرغ، هنغاري الأصل، اشتهرت لوحاته منذ فتوّته وعُدَّ أهمّ فنّاني أوروبا الشماليّة بعصر النهضة.

(2) يسمّى في عُرف البدو: بيت مَرْمَس.

«وذات مرة عانى فيها وجماعته من الغزاة عذاباً شديداً من العطش في الصّحراء. وفي هذا الضيق دعا تركي ربه:

«يا الله، يا سيدي ومولاي، لتنزل رحمتك بنا وترسل لنا مطراً من عندك».

«تخيل، يا موسى، ما حدث بعد ذلك! لقد استجاب الله له. فأرسل غيمة سوداء حالكة أوقفها الملاك فوق رؤوس أصحاب تركي فأخذت تصب ماءها مدراراً. ولذلك يعتبر تركي ولي الله، لأن الله استجاب لدعائه فأرسل غيمة لنجدته في ذلك الوقت من منتصف الصيف حين لا يهطل المطر أبداً.

«ولذلك فعندما يأتي الرجال من الغزو حاملين معهم الغنائم تجدهم يمضون إلى قبر تركي حيث يذبحون جملاً سميناً حتى تتناثر دماؤه على القبر ويصيحون: «هاك عشاءك يا راعي العليا!» ويأكلون الأحشاء أحياناً عند القبر، بينما يحملون اللحم والجلد معهم إلى منازلهم».

أم رؤوم

يوم الأحد، 20 ديسمبر، أبصرنا أخيراً وهدة مستطيلة على شكل طاولة إلى اليمين منا وسط الضباب المقيم، وهنا صاح بليهان:

«هذه قارة نُعَجَة، ها قد بلغنا حوض القعرة أخيراً!». ومن جهة الشرق كانت تحيط بها صخور العفايف حيث مأوى الجن.

وقال بليهان: «لقد شهد الكثير من المسافرين أن الجن والعفاريت تسكن صخور العفايف، لأنها تؤثر الصخور الجرداء وهي كثيرة في العفايف. وقد مر بها بعض المسافرين في العام الماضي. فصادفوا عند سفح إحدى التلال قنفذاً هائلاً يستدفئ تحت أشعة الشمس. فنزل أحدهم والتقط هذا القنفذ ووضعه في خرجه الفارغ يريد ذبحه وشيَّه في المحطة التالية ويجعل منه وجبة شهية. ولكن لم يمض إلا بعض الوقت حتى سمع امرأة تنوح وتقول:

«وينك يا منصور؟!»..

فلما التفت الرجل رأى عجوزاً تجري في إثرهم وهي لا تنقطع عن النداء. وفي النهاية سمع صوت القنفذ يقول من الخرج: «المنصور بوسط الخُرج مَصرور». وقد بلغ الرّجل من الذّهول مبلغاً عظيماً، فما كان منه إلا أن رمى بالخرج إلى الأرض، وإذ بالقنفذ يتحول إلى رجل ويركض نحو المرأة».

* * *

في حوض القعرة وجوارها عثرتُ على آثار القرامطة الإسماعيلية الذين دأبوا منذ عام 906 م على الإغارة على قرى ضفاف الفرات. وفي ذلك العام عمل هؤلاء القرامطة بقيادة نصر نهباً وسلباً في فلسطين وسوريا. ثم لجؤوا عند مطاردتهم من جيش المسلمين إلى الصّحراء فأقاموا معسكرهم عند حفر السّقاية في القعرة. أمّا جيش المسلمين الذي كان يطاردهم فقد حال دون متابعته لهم شح المياه، فأقام معسكراته في الرَّحبة. ثم قام القرامطة بهجوم على هيت فاجتاحوا ضواحي البلدة عند الشروق ونهبوا القوارب الرّاسية على ضفاف النهر، ثم انسحبوا بعد ثلاثة أيام وأخذوا معهم ثلاثة آلاف جمل محملين بالغنائم وأكثرها من القمح، وعادوا إلى الصّحراء. ثم خرج جيش ثان من بغداد لمطاردة القرامطة، ولكن دون جدوى، لأن القرامطة عمدوا إلى تسميم كل بئر ماء على الطريق بين قاعدتهم في القعرة والفرات. ولم يتحقق لهذا الجيش الثاني أن يبدأ هجومه حتى حصل من السكان هناك على ما يكفي من الجمال وقرب الماء الكبيرة. فلما علمت قبيلة كلب بهذه الخطة، وكانت متحالفة مع القرامطة، قامت باغتيال القائد نصر وأرسلت برأسه إلى قائد جيش بغداد، ثم تراجعت إلى المناطق الجنوبية. ولم يبق في القعرة إلا بقايا القرامطة الذين تركتهم جيوش المسلمين وشأنهم في سلام.

ثم سرعان ما شاهدنا قطعان الإبل ودخاناً. وهنا هتف بليهان: «الحمد لله! عربنا هنا في مُلْصي. إن شاء الله يلتقي خادمك أمه».

وأخيراً، توقفنا أمام بيت شَعر صغير ضيّق وبجانبه نصبنا خيمتي المستديرة، ثم جاءتنا للتوّ أم بليهان وهي عجوز ضئيلة الجسم هزيلة صبغت شعرها بلون أصفر تكريماً لي. فمدَّت يدها إلي مرحبة وشكرتني لعنايتي بولدها. والتفت إليها ابنها، وكان يفوقها في الطول، وعانقها وقبلها عدة مرات، فشكت وهي دامعة العينين وعلى شفتيها ابتسامة من أنّي أطلت إبقاءه إلى جانبي وقالت: «لم يبلغني أنه في حال جيدة، إلا قبل أربعة أيام فقط، ويشهد الله، أنني كنت، يا موسى، في حزن طوال أربعين يوماً وأنا لا أعلم ماذا جرى له».

ولقد وجدنا أنفسنا محاصرين، حتى قبل أن نتمكن من نصب خيمتنا، بين جمع من العربان يدفعهم الفضول للسلام على بليهان والاستفسار عن الأخبار. ثم أخذ هؤلاء يستدفئون بنارنا ويشربون قهوتنا كلها، بل وربما التهموا عشاءنا، لولا أن أوعزت لرفاقي بأن يحملوا الزاد إلى خيمتنا. وفيما كنا نحاول التحقق من خط العرض أخذوا يسألون بليهان:

«ماذا يحاول موسى أن يصيد بتلك الأداة؟ هل له علم بوجود كنوز في السّور الصّخري لبئر مُلّصي؟ ولماذا يتفحص السماء؟ لا ريب في أنه ينتظر إشارة تخبره عن الكنوز المخفية».

يعتقد العربان جميعاً بأنّ في القعرة كنوزاً كثيرة تحرسها الجنّ والعفاريت.

فلم يحر بليهان بجواب، وذلك ما جعلهم يعتقدون فعلاً بأننا أتينا إلى القعرة بحثاً عن كنز. وكان اهتمامهم بنا شديداً لجوجاً في تلك الليلة مما حملني على الطلب من أولئك الضيوف بالتزام الهدوء والسماح لنا بالراحة والنوم ولكن عبثاً. فاضطر بليهان في النهاية للتوسل بالإقناع والقوة لصرفهم من المكان. ثم قصدنا في ما بعد خيمة أمّه المجاورة لنا لقضاء الليلة عندها. وكنت لا أنقطع عن سماع صرخات أمه التي تنمُّ عن حبها لولدها: «آه، يا وليدي! آه، يا وليدي!».

ما إن أشرقت شمس يوم 21 ديسمبر حتى كنت أصعد وتومان وزيد قمة الصّخرة التي تشرف على حوض القعرة من الجانب المشرف على آبار مُلّصي (الشكل4). وهذه الصّخرة تتألف من شرائح أفقية من الحجر الرّملي المليء بالفراغات. والشريحة العليا صلبة وسماكتها تبلغ 12 ياردة أما السفلى فتبلغ سماكتها 12 ياردة تقريباً، وشديدة النعومة ولونها أحمر وأزرق. وبسبب من أن الشريحة السفلى لا تقاوم المطر والريح كما الشريحة العليا الصّلبة، فإن القطع الكبرى كثيراً ما تنفصل عنها لتتفتت وتتحول إلى رمال. وهكذا وجدنا القشرة الخارجية لا تستند إلى أساس في بعض الأماكن، بينما يكون بعضها في أماكن أخرى معلقاً، والجلاميد الكبيرة المستديرة تسقط بفعل الرياح والأمطار وتتدحرج إلى الخندق.

ونظراً لتعدد التكوينات في الحافة الصّخرية، وخاصة في الجزء الأعلى، فإنها صارت أشبه ما تكون بخرائب القلعة القديمة. والصعود إلى تلك المنطقة كما هو واضح شديد الوعورة. وقد اكتشفت، بعدما قطعت التكوين الطري زحفاً، كهوفاً واسعة بين تلك المنطقة والشريحة العليا. وكانت جدران الشريحة العليا شاقولية تقريباً والنقاط المحمية والممكن بلوغها مغطاة بأشكال عديدة من شارات القبائل البدوية ورسوم محفورة تمثل غزلاناً وجمالاً وجياداً وغير ذلك. ثم أخذت أزحف من جلمود إلى آخر أملاً باكتشاف نقوش محفورة على الصّخر فلم أجد سوى اسم علي في ثلاثة مواقع.

وقد خَلَت المضارب من الرجال ولم يبق فيها واحد منهم، إذ تبعنا الجميع إلى أعلى الجدار الصّخري اعتقاداً منهم بأننا ذاهبون إلى كهف أو مغارة لانتزاع الكنز المخفي. وكان هؤلاء يريدون رؤية هذا الكنز!

كان بليهان قد لفت انتباهي ثلاث مرات أو أربعاً إلى ما في حيازة كلب ، سلوقي، جيد من نفع، وأخبرنـي أن ابن عم له سيرحب بإهدائي هكذا كلباً مجاناً. فطلبت منه أن يأتـي بالكلب لأتبين إن كان ذا نفع لنا، فإذا به يبرزه في التو واللحظة. ولم يكن هذا السّلوقي بالكلب الضخم بل هزيلاً ضئيل الحجم وله من العمر سنتان. أما محمّد الذي زعم أن له معرفة جيدة بكلاب الصيد فقد قال إنه كلب جيد، وعليه تقبلت الهدية، وقام تومان بصنع طوق للكلب الذي كان يسمى كتافاً لنتمكن من ربطه إلى الخيمة. وقد رأيت أن أقابل الهدية بمبلغ مجيديين (1,80 دولار أمريكي)، وكان ذلك في ظني مبلغاً مناسباً ولكن وجدت بليهان يجيبني ببرود، حينما سألته الرأي في هذا المبلغ، أن ابن عمّه يتوقع ما لا يقل عن عشرة مجيديات لقاء هديته.

كان بليهان مدافعاً نشيطاً عن مصالح أهله. ولكن من يستطيع لومه على ذلك، وأهله لا يملكون شيئاً من الدنيا؟ وفي الصّحراء ويل للفقير.

* * *

كنت أرغب في زيارة آبار اللهاة في وادي حوران والمضي من هناك غرباً إلى جبل التّنف. وقد زعم زيد متفاخراً بأنه يعرف كل زاوية جنوب القعرة، ولكن خبرتـي به جعلتني أعرض عن الأخذ بما يقول فوجهت بليهان للاستفسار عن الطريق الذي ينبغي علينا السير فيه لنتجنب سلوك الدروب التي لا فائدة منها في هذه الناحية الصعبة.

وقبل الرّحيل جاءتني أم بليهان العجوز ووضعت يدها على كتفي وقالت:

«انظر يا شيخ موسى! إن بليهان أقرب إلي من قرب طوق اليمامة لرقبتها. فانظر، يا شيخ موسى، ها أنا أنزع هذا الطوق عن عنقي وأضعه حول عنقك». كانت هذه العبارات هي التي يقولها من يشرف على الموت حين يعين وصياً على أولاده. وهكذا رجتني الأم، إذ خشيتْ أن تغادر إلى مملكة الله قبل أن يعود إليها ولدها ثانية، لأُعنىَ به كما يُعنَى الوصي عليه.

نحو آبار اللهاة

سرعان ما بدا واضحاً أن زيداً وبليهان لا يعرفان الطريق. وبعد لأي بلغنا أسفل منخفض تصب فيه مسايل ماء كبيرة حيث الأرض أكثر استواء ونستطيع معها المثابرة على طريقنا.

قرابة مساء يوم 22 ديسمبر وبعد استطلاع ناحية تل ناصر إلى اليسار، توقفنا لنترك الجمال ترعى إذ لما لم نكن قد حملنا معنا علفاً لها فقد أخذت تسعى إلى طعامها ونحن فوقها، ولذلك كانت تنحني - وهذا ترافقه عادة هزّة تسبب لنا إزعاجاً وأيما إزعاج - لتلتقط ما تمر به من نباتات. ولذلك كان الأفضل لنا التوقف في أي مكان يوفر مرعى جيداً والامتناع عن متابعة الرحلة حتى يمكن للجمال أن تشبع. ولقد حملتنا أعمال رسم الخرائط على إيثار المراعي المجاورة للجبال، إذ تبقى هذه المراعي محمية من الأنظار. كذلك كان علينا أن نوفّر لأنفسنا الوقود لطهي طعامنا.

لم يكن تأمين هذه اللوازم كلها بالأمر اليسير. ولكم رغبنا برسم خريطة للمنطقة من أحد التلال، ولكن، ويا للأسف، لن يكون هناك مرعى ولا وقود في الجوار. أو ربما يكون المرعى رحباً والوقود وفيراً ولكن موقعنا سيكون في غور من الأرض لا يوفّر لنا مشهداً للرسم. ولو لم أتوقف في أول فرصة مما أثار ضيق تومان وتذمّر رفاقي الآخرون. ومع ذلك، فقد كان حتماً علينا أن نولي جمالنا أقصى عنايتنا، ذلك أنه لولا قدرتها لما استطعنا أن نتابع الطريق. فلهذا لا بد من إطعامها.

في الصّباح قطعنا العديد من الدروب التي انخفضت أرضها وتحفّرت إلى حدّ كبير عبر مئات أو ربما آلاف السنين، بفعل مرور الجمال الغادية إلى اللماة. وكانت تلك الجمال تمر بسهل تربته بُنّيّة اللون تكاد تكون سوداء وتغطيها أحجار صوّانية.

وبالقرب من مُلُصي أخبرنا العربان أن الشيخ ابن شتيوي قد أقام مضاربه في اللماة، بينما قال لنا الذين مررنا بديارهم إنه غادر منذ حين. كذلك أخبرنا العربان أن آبار اللماة تستخدم الآن من كل جماعات الغزو وعصابات السلب التي تُقبل عليها من ناحية الشرق والجنوب شرق. ولما خشيتُ أن أتعرض ورفاقي إلى خطر دونما مبرر، فقد أخذت أستطلع الطريق إلى الآبار بدقة شديدة. ومع أننا كنا بالكاد على بعد ستة أميال من الآبار لم تقع أنظارنا على جمال أو دخان ينبئ عن وجود جمع هناك.

فقال بليهان مصراً: «الآبار مهجورة. والله وحده يعلم أي جمع من الغزاة يختبئ بالقرب منها. فلمَ نقصدها ونحن نستطيع أن نتزود بالماء من مُلُصي ثم نعود بعدئذ إلى النّوري عبر الطريق الواصلة ما بين دمشق وهيت؟».

وهكذا تحوّلنا ناحية الشمال غرب. وبعد قرابة الساعة وجدنا ستة من الخيّالة في إثرنا فتلمسنا أسلحتنا. واندفع أحد هؤلاء الذين لا نعلم من هم، إلى الأمام مبتعداً عن جماعته ورافعاً بارودته، واقترب منا بسرعة وشعره وكُمّا قميصه تتطاير في الهواء.

وأخذنا نتساءل فيما بيننا: «من عساه يكون؟» فلما اقترب منا شد لجام مهره فجأة وسألنا: «من أنتم؟».

«نحن مَن ترى. فمن أنت؟».

«أنا مَن ترون».

وفي تلك اللحظة تبين بليهان أنه أحد أبناء عشيرته، وعندئذ أخبرنا الرجل بما حمله على مطاردتنا. ذلك أن ابن شتيوي قد أقام فعلاً مضاربه على ما يبدو في اللماة، إنما في غور عميق بعيد عن الأنظار. ومع أننا لم نقع على جماله أو خيامه، فإن أحد الراصدين رآنا من مخبئه في تلّ هناك، فلما لاحظ تحوُّل اتجاهنا سريعاً، قام بإنذار قومه. وللتو تم إرسال هذه الكوكبة من الفرسان في إثرنا.

ولما علم مطاردونا بسبب تحولنا عن الطريق بادروا إلى الانسحاب، ولكن اثنين من الفرسان وجدناهما يندفعان وفي أيديهما رماح نحونا. ووجدت أكبرهما وكان مجدوع الأنف، يوخز ظهري وعنق الجمل برمحه، ويطلب مني بفظاظة التحول لزيارة الشيخ ابن شتيوي. رددت عليه: «احمل سلامي إلى ابن شتيوي وأخبره بآتـي الرجل الذي زاره عند آبار الباردة». وعندئذ قال رفيقه بعد أن تفحصني ملياً:

«وحقّك يا أخي قد عرفت هذا المسافر. وكنت بصحبة زعيمنا إلى ناره حيث قدم لنا الشاي الفاخر».

فعملت كلماته على تهدئة روع الفارس الآخر، فتركنا نتابع الطريق.

على أنه سرعان ما لحق بنا فارس آخر، بعد قرابة ربع ساعة، ولكنه لم يأت بشيء سوى أنه رافق بليهان بعض الوقت وسأله عن كل ما صادفناه في الغرب والشمال والشرق. وتمكنا أن نزوده بكثير من الأخبار الطريفة، نظراً لأننا قدمنا من الغرب وكانت لنا زيارة في الشمال والشرق، وتلك أخبار كانت يريد أن ينقلها لزعيمه بالتفصيل. وحين غادرنا راح يغنّي متفاخراً بشجاعة قومه:

حنّا زيزوم الحـرب الأول نـــصبر ولـــو إنّــه ثقيــل
وكمّ من طَموح من عِدانا راحــتْ تـدوّر لـه حليـل

وفي ظهر ذلك اليوم اعترضنا صُلَيبي يركب حماراً أبيض وكان هو أيضاً ينشد معلومات عن منازل مختلف العشائر، ولكنه لم ينل مبتغاه سواء من بليهان أو من زيد اللذين استصغرا شأنه فلم يحصل منهما على أي شيء. وقد رأينا بعيداً خلفه قومه من الصّلُبّة يمضون في ترحالهم. فلما غادرنا الصّليبي خائب الرجاء، اقترحت على خدمي التوقف وتناول الطعام.

ولكن بليهان اعترضني راجياً: «لا تتوقف الآن، يا موسى، و إلا حل علينا هؤلاء الصّلُبّة، وهم أبناء البادية الجائعون أبداً، والتهموا كل طعامنا».

وبعد العشاء مضينا نقطع سهلاً حافلاً بالأعشاب البرية، وفي المساء نصبنا خيمتنا في نهاية ذلك السّهل، بعدما بلغنا أرضاً وعرة لا يمكن المضي فيها إلا في ضوء النهار. وكان الليل بارداً قارساً وقد وجدنا الأرض وأغطيتنا بل حتى قِرَبَ الماء متجمدةً من شدة الصقيع.

وفي الصّباح لمحنا سرباً من الغزلان، لكن المشهد لم يدم سوى برهة.

* * *

في الحَمَاد لأول مرة

في المساء دخلنا للمرّة الأولى أرض الحَمَاد المنبسطة القاحلة التي لا نهاية لها. فاستولى عليّ شعور طاغ. إذ ليس ثمة أي مكان مرتفع، بل كل ما حولي منبسط، ففي الأسفل الصّحراء وفي الأعلى السماء، والإنسان ما بينهما. ولكم نبدو صغاراً ومع ذلك قريبين من الخالق. وأنّى تلفتُّ لا أجد سوى السماء بقربي ويبدو أنه يجب أن نبلغ هذه السماء حيث تلمس الأرض.

وفيما الشمس تغرب على البحر المترامي من الأرض المنبسطة المغمورة بنور ذهبي تتألق به كل نبتة صغيرة متواضعة، كانت الأجزاء الدُّنيا من الأفق تميل إلى الزرقة، بينما الغيوم التي فوقها تبدو مدلاة وأشبه ما تكون بالنوازل في الكهوف وذات لون وردي في الوسط وأُرجواني في الأطراف. وفوق الشمس كانت الغيوم تبلغ قبة السماء، شبه شفافة كأنها نسجت من آلاف ريش النّعام الأبيض وتتخللها هنا وهناك بقع من سماء زرقاء. ثم رأيت النوازل تكتسب تدريجياً مسحة من لون الزيتون والغيوم التي فوقها تغدو ذات لون أصفر ثم برتقالي. وما دون ذلك كانت السماء من ناحية الغرب بلون الذهب المصهور. بينما امتزج اللون الرمادي في الشرق مع الأزرق في الشمال والجنوب. وفجأة أصبحت الصّحراء بلون رمادي، وهي تودع أشعة الشمس الغاربة، إنها ليلة عيد الميلاد.

وللتو، وحيثما كانت الشمس، برز في كبد السماء هلال القمر الجديد وكان أشبه بمنجل ضيّق، فأخذ بليهان بتحيته، رافعاً إليه ناظريه ويديه الممدودتين نحوه.

««يا هلال، يا سيّد، يا سعيد، يا عزّ الهلال!».

وكنا طوال هذا الوقت نتدثر بعباءاتنا ونمسك ببواريدنا مهيأة، ونتشبث برواحلنا وهي منطلقة غرباً بخطى واسعة. ثم إذ بهذه الجمال تبرك فقمنا بتقييد قوائمها الأمامية، واستلقينا نحن على الأرض الصقيع. وكانت ليلة ميلاد لن أنساها ما حييت.

لم نجرؤ على إيقاد النار حتى طلوع أولى أشعة الشمس خشية أن ينبئ دخانها عنا هنا في الحماد. وقبل حلول الظهر بدأت ألعاب الصّحراء الشيطانية إذ أخذت في الشمال تحرّك الهواء وتجمع الرّمال وتذروها بشكل زوبعة مخروطية وتدفعها بسرعة جنونية في الهواء، بينما ترينا في الجنوب مشهد بحيرة تحيط بها خضرة نضرة. ولقد وقع تومان في خدعة الجن فثبّت هذه البحيرة على الخريطة. وبدت النباتات والأحراج عند طرف الماء كبيرة على نحو غير مألوف، وأشبه في تفرقها بجماعات من راكبي الجمال وكانت الحرارة في ارتفاع ثم غدا الجو حاراً تقريباً.

وعند الظهر بلغنا الطريق ما بين دمشق وهيت، فاتبعناها ناحية الغرب. وكان ثمة عامل بريد خاص يحمل في هذا الوقت البريد الإنكليزي من دمشق إلى بغداد، ومنها إلى البصرة والهند. أما المسؤول عن تسليم مراسلات الحكومة البريطانية فيقيم عادة في بغداد وبإمرته ستة من عمال البريد، وكل واحد منهم يحمل البريد من بغداد إلى دمشق مرة كل ثمانية أيام، ثم يعود من ذات الطريق. وكان هذا العامل ينتقل من قرية الضّمير على ظهر الحصان إلى دمشق، ويستخدم جملاً في عودته من الضّمير إلى هيت، ومن ثم يعبر الفرات في قارب ثم يستأنف طريقه ركوباً إلى بغداد، مستخدماً الجمل في الشتاء، والحصان في الصيف، لأن الذباب الخطر إذا هاجم الجمال في الصيف قضى عليها. والرحلة تستغرق من دمشق إلى بغداد عادة أحد عشر يوماً. أما الرحلة ذهاباً وإياباً بين المنطقتين فكانت تستغرق أربعين يوماً يتقاضى المراسل لقاءها من الوكيل ثلاثة جنيهات إسترلينية تشمل نفقاته. لكن أرباحه الإجمالية تزيد كثيراً عن ذلك، لأنه غالباً ما يصطحب معه تجار البضائع البدوية وتجار الجمال الذين يستخدمون ما يصطحبه معه من رواحل أو يعهد إليه نقل الكثير من الأحمال المرسلة إلى بغداد أو دمشق، أو بعض مضارب البدو في الصّحراء.

بعيد الظهر لمحنا ناحية الغرب غيمة من الغبار، فصحتُ بعد دقائق بمرافقيَّ:

«انظروا أمامنا سربة هجّانة».

إذن ما يزال أمامنا المزيد من المتاعب! فمن يكون هؤلاء، وهل هم من أهل الخير أم أعداء؟ كان هؤلاء من حيث العدد يفوقوننا كثيراً. فهل نتوقّع معركةً؟ وإن كانوا يتمهلون في طريقهم، فمن يكفل أنهم لن يسرعوا فجأة للقائنا؟ ولمحنا عندئذ عدّة أشخاص راجلين ومعهم راحلتان تنوءان بأحمال ثقيلة. هل هم قوم من قطّاع الطرق يعودون بغنائمهم؟ ثم إلى أي عشيرة تراهم ينتمون؟ وفجأة ألفينا أحدهم يخرج عن الجماعة، فتقدم بليهان عندئذ بجمله إلى الأمام وأخذ يقلّد حركاته:

«انظر، يا موسى، إنهم يشيرون إلينا بأنهم أصدقاء». وعندئذ تبين لنا أن هؤلاء الغرباء عقيلية يبيعون الجمال للقوافل، وعائدون من مصر ودمشق لرؤية بأسرهم في بغداد. ولقد اطمأنت قلوبنا كما قلوبهم لهذا اللقاء. وكان واحد منهم قد التقاني في دمشق، فأتى إلي وأخبرني أن النّوري بن الشّعلان غادر ديرة التلول، وهو مقيم في مكان ما جنوب خَبرة ماء المطر المسماة بحر الصَّيقَل. وقد وجهت رفاقي، ولم يكن لدينا إلا القليل من الماء، أن يسألوهم عن الناس في جوار الدّرب الذي نسير عليه. فأكدوا أن ليس ثمة ماء في خَبرات المنطقة الآن، ولكن قد يتوافر لنا أن نملأ القِرَبَ ونسقي الأباعر من قعر بعض الصخور في وادي مُرًّا.

وفي الصّباح أخرجنا ما لدينا إلى الخلاء وأوقدنا ناراً داخل الخيمة للتخلص من الجليد لئلا يتمزق القماش عند طيه.

امتطينا رواحلنا ومضينا نسير فوق سهل منبسط أجرد مغطى بالحصى القاسي وتتخلله هنا وهناك بقع صغيرة متناثرة من النباتات الهزيلة. ولئن راحت جمالنا ترعى، إلا أن هذا الرعي لم يكن ليشبع لها جوعاً، لأن النباتات كانت ميتة، إذ لم ينزل المطر في تلك الناحية في العام الماضي.

مررنا قبل المساء بمقبرة قديمة حيث وجدنا عدة جدران مستديرة ارتفاع الجدار منها قرابة ست عشرة بوصة، وهي من الحجارة التي تستند إلى بعضها دون أن يداخلها الملاط، وكل قبر له مدخل ضيق. وفي الوسط بين هذه القبور قبر له أربع زوايا.

وبعد الشروق قطعنا وادي السبع بيار الذي يقع على بعد ستة أميال جنوب جبل ذي قمتين مخروطيتين [جبل الغراب]، وعند سفحه هناك مجموعة من الآبار. ولكننا لم نقترب من هذه الآبار خشية مصادفة اللصوص أو قطاع طريق. وآبار السبع بيار، وتعرف بسوا أيضاً، ولها شهرة في الأدب العربي، بسبب من وقوف جنود المسلمين في جيش خالد بن الوليد في هذا الموقع، وتزودهم بالماء منه في أثناء مسيرهم من العراق إلى سوريا عام 634 م، فنجوا بذلك من خطر محقَّق.

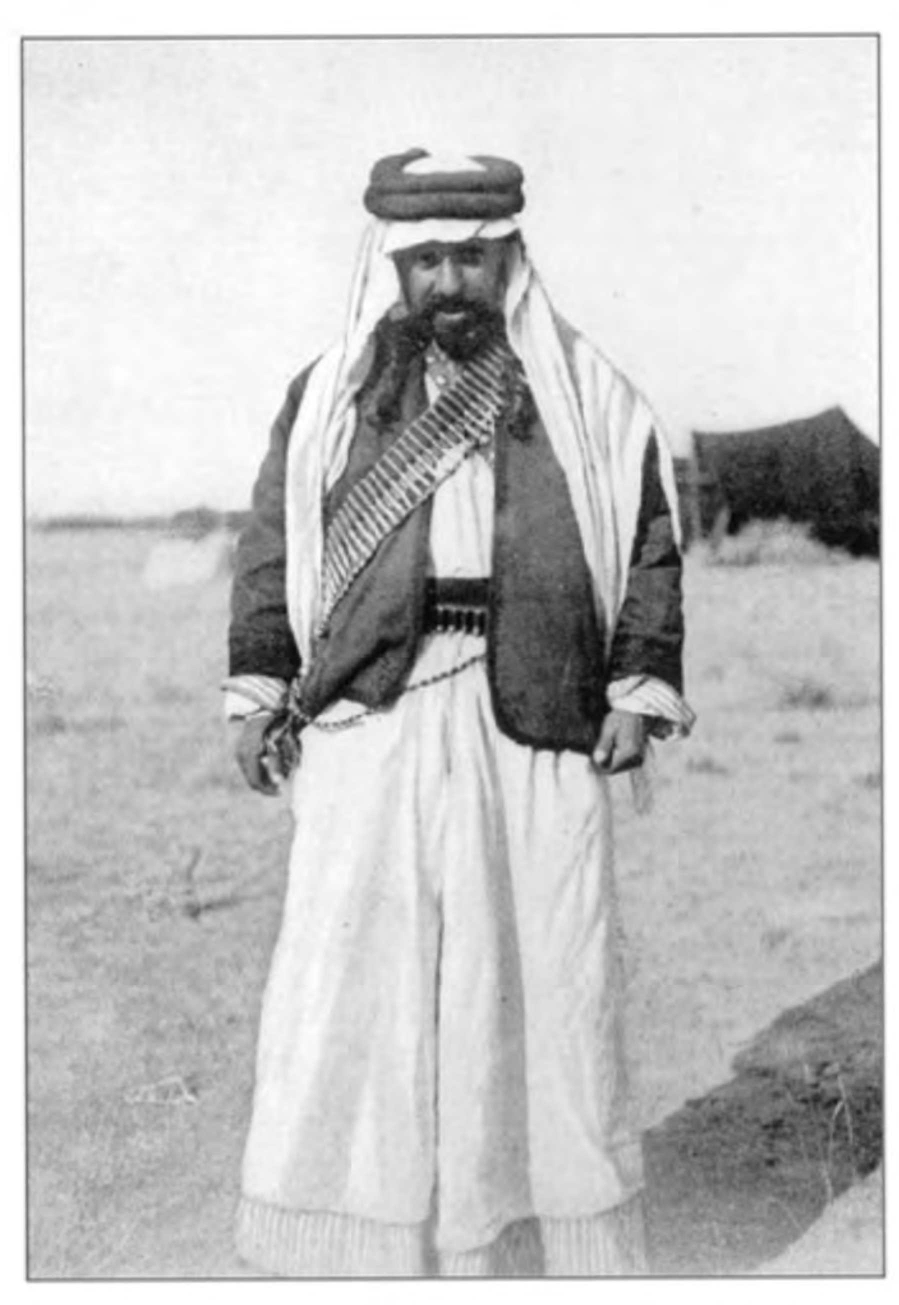
وإلى الشمال من تلك الآبار ارتفعت تلال مكسوة بالثلج وتمتد من دمشق إلى الفرات[1]، فكنا نجدها تارة في موقع مغلفة بالغيوم ثم نراها تتألق في موقع آخر ببريق الثلوج البيضاء على قممها. ووقعنا إلى يسارنا على آثار مضارب قوم بدا واضحاً أنها حديثة العهد. فكانت هناك حفر المواقد، وكل موقد منها يقوم على ثلاثة أحجار توضع عليها الدلال النحاسية لصنع القهوة وكان ثمة أكوام من الوقود ومضاجع للنوم من الحجارة وأغصان الشجر، وأماكن أخرى ربطت فيها الجمال. لقد كان هذا موقعاً ارتاده رجال قبل حين، وربما كانوا أقارب وأصدقاء أما الآن فالسكون هو الذي يطغى على المكان. وهنا شعرنا بالشوق إلى الصحبة.

كان ما لدينا من الماء يكفينا يوماً واحداً وحسب وظللنا يومين نعاني ولا نملك أن نصنع خبزاً لافتقارنا للطحين. ولكن بوجود المضارب نستطيع أن نتزود بالماء ويتوافر لنا الطحين، ونسأل عن الطريق إلى مضارب النّوري وننال قسطاً من الراحة ولكن الديار كانت مهجورة، وأهلها بعيدون، وربما كان اللصوص يكمنون لنا متربصين.

وهنا راح بليهان ينشد:

أبكي هَلي يا ناس ما لي بمَلْيُوم	واظنّ مِنْ يبكي هَلِهْ ما يليامي
جِيْتْ المْرَاح وصار بالقلب ملعوم	منازل الخلاّن هم والعمامي
هذا مشبّ النّار والحفر مثلوم	مَرْكى دلالٍ مُتْعَبَاتِ الشّوامي
وهاذي مرابط خيلهم دايمٍ دوم	حُقب العيون مروبعات الهوامي
اقفوا كما طيرٍ قلب راسه الحوم	بفجٍ عميق ولا يندرى وين حامي
أدنى منازلهم شثاثا ولُلُّوم	واقصى منازلهم مِداح النّعامي
إلْيا لَفيت الدّيرهِ أصحاب من قوم	إهرج ترى حَمْض الرّجَال العلومي

(1) هي سلسلة الجبال التّدمريّة التي يراها المتوجه من دمشق إلى تدمر إلى يساره.



الشكل 6: الشيخ رَشَيد بن شمير

لم يجد رفاقي ماء مطر في وادي مرّا. وأقرّ بليهان بعدم معرفته بهذا الوادي، بينما الدليل زيد الذي تفاخر بمعرفته بكل حجر في المنطقة كان جاهلاً بها كل الجهل. والحق آنـي لم أعرف قبله هكذا دليلاً في حياتـي. فقد كان علي أن أعمل على إيقاظه من نومه كل صباح على الأقل عشر مرات. ومع ذلك لم يكن ليتكلف النهوض من فراشه حتى تكون الجمال قد غادرت إلى المراعي والنار موقدة أو تمَّ تحميل الجمال. كذلك لم يشارك في جمع الحطب للوقود، بل حَسْبُهُ أن يجلس إلى النار منشرحاً أو ينشغل بالبحث عن القمل وتدفئة قدمية القذرتين. وإذا رآنا نتهيأ لتحميل المتاع بدأ فوراً صلاته، وإن لم نكن نصادفه مصلياً في الأوقات الأخرى.

قرابة الغروب وجدنا أنفسنا تائهين عن الطريق فيما كنا نقطع خبرات مياه الأمطار الواسعة الجافة الآن، وكنا حينذاك قد عبرنا دروباً لا حصر لها تفضي إلى مواضع الماء في الغرب والجنوب والمراعي في الشمال والشرق.

رُشَيد بن شمير

في الصّباح غدا الجو صحواً صافياً فأبصرنا خياماً سوداء وقطعاناً كبيرة من الجمال تشرب من خَبرة بالقرب من ذلك الموضع. ولما تحولنا إلى ذلك الاتجاه توقفنا ونحن على بعد طلقة رصاص من تلك الخبرة. فأرسلت بليهان وزيداً لسقاية الجمال منها وتدعى خَبرة الصّيْقَل ومعرفة أين مضارب الأمير النّوري. فإذا كانت مضارب الأمير قريبة فلا ضرورة لملء قرب الماء أما إذا كانت مضاربه بعيدة فيجب عندئذ ملء القربتين.

حين كان بليهان في طريق العودة رأيناه عن بعد قد ملأ القربتين. ولكن الماء فيهما كان عكراً موحلاً. فأخبرنا أن الماء في الخَبرات لا يزيد ارتفاعه عن ثمانـي بوصات وحسب وقد اجتمعت عليه آلاف الجمال لتنهل منه وأثناء ذلك تدافعت وأفسدت الماء وأحالته إلى ماء عكر مختلط بالطين. أما مضارب النّوري فلم يستطيع أن يعلم أين موقعها على وجه اليقين.

وقال في تفسير الأمر: «سمعت بأن الأمير قد توجه إلى حصن البُرقُع على الطريق إلى وادي السّرحان». وكان من الضروري لنا، بناء على ما بلغنا، أن نتحول جنوباً.

وهكذا انتهت الآن رحلتنا من الشرق إلى الغرب، وأصبح دليلنا زيد الذي كان عليه أن يأتـي بنا إلى الضّمير حرّاً، وبامكانه أن يعود إلى دياره.

في عصر يوم الثلاثاء، 29 ديسمبر، بلغنا خيمة رُشَيد بن سُمير، شيخ عشيرة الوُلد علي، وكنت أودّ سؤاله عن نوايا النّوري وأستشيره في اختيار دليل يعتمد عليه. فخرج إلينا الشيخ رشيد مرحباً مهللاً (الشكل 6).

«الحمد لله إذ وجدتك، يا شيخ موسى، حياً وفي حال طيبة! فقد بلغ النّوري منذ قليل أنك تعرضت للهجوم والسرقة والقتل وبعضهم اتهم العمارات بارتكاب هذا، بينما ذهـب آخرون إلى اتهـام العُقَيـدات أو الدّليم. ولكن الحمد لله أن الخبر لم يكن صحيحا!».

أخبرنـي الشيخ عن عودته من دمشق قبل اثني عشر يوماً، وأن النّوري توجه بعد يومين من ذلك إلى واحة الجوف، بناء على مشورة من نوّاف. وبالتالي فقد كان النّوري يبعد عنا مسيرة خمسة أيام على الأقل. فسألته أي طريق نسلك للحاق به. فأجاب ابن سُمير مواسياً: «العلم عند الله، ولكن ثق بأنه سيقودك إليه».

استدعى محمّداً واستحلفه أن يخبره صادقاً عما يلزمنا من المؤن. فلما وجد أننا نفتقر للطحين أمر بالإتيان بكيسنا وملأه لنا بيديه.

ثم قال لي مؤنباً: «دعك من الحياء يا شيخ وأخبرنـي إن كان ما يزال ينقصك شيء ما! فمالي هو مالك أيضاً».

فأجبته: «قد غمرتني بأفضالك، يا شيخ رشيد، وأنا ممتن لك كل الامتنان، وهو راسخ في قلبي. وكيف أتردد في قبول شيء من الشيخ رشيد وكرمه مشهود له في الغرب والشرق، ويعرفه الحضر والبدو في الصّحراء الواسعة».

وقد هز الحاضرون في الخيمة رؤوسهم موافقين على قولي، ومضى كل ضيف يمسك بصدر قميصه بإصبعين ويقول مغمغماً: «صَدَقت.. لقد صَدَقت».

وفي وقت متأخر من الليل ورد على رشيد أربعة فرسان من عشيرة الأشاجعة، وكانوا قد أغاروا على الفدعان، ووجدوا عند عودتهم أن عائلاتهم قد رحلت جنوباً بصحبة النّوري، وهم يستعجلون اللحاق بهم. وأخبروا الشيخ رشيد عندئذ أنهم إنما توقفوا بحثاً عن آخرين قد يكونون مثلهم متوجهين جنوباً. فقال لهم رشيد فوراً إن بوسعهم السفر معنا، نظراً لأننا نريد اللحاق بالنّوري ونبحث عن دليل أو مرافقين.

وأخبر هؤلاء الأشاجعة رشيد بأن جمعاً من أربعمئة من المحاربين من الفدعان والعمارات قد شوهدوا قبل ثلاثة أيام عند آبار العليّانيّة، ولما علموا بظهور فارس مجهول في الجنوب وجنوب غرب مضارب رشيد، وقد شاهده الرعاة في تلك الديار، ثبت لديهم أنه جاسوس يستطلع الأخبار لأولئك المحبين للحرب والميالين للعدوان.

قرّر رشيد أن ينقل مضاربه إلى الشمال ويتحالف مع عشيرة أخرى للتّصدّي للهجوم على نحو أفضل. وعليه أمر بطي بيوت الشعر في الصّباح الباكر والرّحيل شمالاً مع القطعان ولما بلغني منه خبر زيارة الاشاجعة بعثت بمحمّد إليهم لتعيين موعد رحيلنا. وكنت شديد الثقة بأنهم سيقدرون فرصة السفر بصحبتنا لذلك دهشت حين علمت بأنهم إنما يقبلون بمرافقتنا شرط أن ينال كل منهم مبلغ أربعة مجيديات (3,60 دولار) ويكفل بليهان تعويض جمالهم إذا ما هاجمهم الفدعان أو العمارات فسخرت لهذا الشرط وقلت إن عليهم أن يمتنّوا لنا إذ قبلنا باصطحابهم معنا. ولكن بليهان ومحمّداً حذّراني من غدر هؤلاء اللصوص الأربعة، وكم يسهل عليهم سرقتنا في الليل، وبالتالي فإنه في صالحنا أن نكتريهم ونضمن سلامة متاعنا. وفضلاً عن ذلك كان هؤلاء الأربعة مزودين بأربع بنادق جيدة تتيح لنا الدفاع عن أنفسنا بشكل أفضل أمام جماعة صغيرة من قطاع الطرق.

لّما كنتُ أعرف جيداً المخاطر قرب المنطقة البركانيّة من حوران التي يسكنها «أهل الجبل» فقد كلّفت محمّداً أنْ يعرض على كل واحد من الاشاجعة[1] ثلاثة مجيديات (2,70 دولار) تُدفع في خيمة الأمير النّوري، شريطة أن يكون طعامهم من مؤنهم وشرابهم من مائهم والقيام بمساعدتنا كلما دعت الضرورة. وهكذا عزمنا مع قطاع الطريق هؤلاء على الرحيل، يوم الأربعاء، المصادف 30 ديسمبر، بعد المغيب.

* * *

(1) الأشاجعة عشيرة صغيرة تتبع الرّوَلة، شيوخها آل مِعجِل. وتشكّل كل من عشائر الأشاجعة والسّوالْمة والعبدله ما يُسمّى بتعبير: المُخَلّف، وهم الفرع الثاني من عشائر الجلاس ومن ضَنا مِسلِم، ويذعنون بالكامل لشيوخ الرّولة من آل الشعلان.

4- في إثر الدّوري إلى وادي السّرحان

رحلة محفوفة بالأخطار

تحدثتُ ورُشَيد لفترة طويلة من الزمن. وكان الرّجل شديد الاهتمام بأمور السياسة، وأدهشني منه معرفته الواسعة بالشؤون الأوروبية والتركيّة[1]، فضلاً عن متانة معرفته بتاريخ جزيرة العرب. ثم كان وداعاً حميماً غادرت بعده المضارب، عند مغيب شمس 30 ديسمبر، متخذاً ورفاقي الاتجاه إلى الشرق - جنوب شرق في الصّحراء التي أخذت تتزايد العتمة فيها.

* * *

كانت الرّحلة حافلة بالمخاطر، فقد شوهدت كوكبة من الأعداء. هل يمكن لنا يا ترى ان نتصدى لهم؟

أخذ بليهان يطلب النّجدة من ربّه: «حماك يا حامي الحمى، يا الله استرنا بسترك!».

وكما الأشباح استمرّينا في طريقنا على السّهل الممتد. وقرابة السّاعة العاشرة شاهدنا في بركة نفدت مياهها، وذات لون يميل إلى الصّفرة، آثار أولئك الفرسان الأعداء. سترك يا رب! فلو أنه قد بدر من أي بعير أقل صوت في تلك اللحظة لأتى بنهايتنا. مرّت بعدئذ لحظات من الترقّب الشديد. ومن الغرب تناهى إلينا صهيل مهر مما دل على أن العدو وراءنا وعلينا بالتالي أن نسرع.

---

(1) هذا يذكرنا بما رواه الرحّالة الألماني هِرمان بورخارت Hermann Burchardt عن شيخ الكويت مبارك الصّباح، الذي زاره في رحلته عبر الخليج عام 1904 (نشرناه مؤخراً).

كان كل ما أمامنا منبسطاً رحباً مهما امتدَّ البصر بعيداً، ولو كنا قد مررنا بهذا المكان في ضوء النهار لرآنا العدو بلا ريب. وحتى مع هذا فقد كنا عرضة لهجوم قُطَّاع الطرق من أهالي الجبل في أية لحظة، الذين يتجولون في المنطقة التي كنا نمر بها، إما بحثاً عن غنيمة أو أثناء رجوعهم بالأسلاب.

كنا نقترب من حوض الجويف الفسيح، وهو محاط بصخور كلسية بيضاء يبلغ ارتفاعها ما بين ستين وثمانين قدماً، ويحتوي على بئرين يستهويان عصابات السلب والنهب. وقد عمد اثنان من مرافقينا إلى قلب فروتيهما المصنوعتين من جلد الغنم آملين أن يبعد صوفهما الأبيض الأنظار عنهما، وخرجا وبندقيتاهما مُهَيأتان، لاستطلاع الأحوال، بينما بقينا نحن في أسفل واد قليل العمق ينتهي عند الجويف. وحالما بلغتني منهما إشارة، تبعتهما بحذر شديد إلى حيث كانا فوق مكان مرتفع، وأخذت أستطلع المشهد كله بالمنظار، وأنا منبطح، اقتداء بهما، ولكني لم أقع على ما يثير الريبة. ثم انتقلنا إلى القمة الأخرى، فالتي تليها، مستطلعين المنطقة من كل زاوية. وفيما كنت منبطحاً على هذا النحو وراء كومة من الحجارة أرقب الأرض بحثاً عن عدو يريد أخذنا على حين غرّة، وكان تومان بالقرب مني يرسم خارطة، بينما وصل بليهان والبقية إلى الآبار وراحوا يوردون الجمال ويغسلون القِرَبَ ويملؤونها بالماء المالح.

آثار النّوري

رأس السنة الجديدة 1909 وجميعنا يتوق إلى ماء عذب، لأن الماء في الجويف لم يكن يصلح للشرب. وكنّا نعاني رجالاً وبهائم على السّواء من عناء في الأمعاء. وقد ألحَّ عليَّ رفاق الطريق أن نطلب الماء في المنطقة جنوب شرق هذه الناحية في حفنا بدلاً من وادي السّرحان. وكان رفاقنا يؤكدون ونحن على الطريق أن الجنوب يقع في الواقع إلى الجنوب شرق بحيث أننا وصلنا في النهاية إلى قناة منقاط بدلاً من حِفنة، حيث يقع جدار منطقة الحرات البركانيّة الكئيبة إلى اليمين.

على أنني كنت راضياً لبلوغنا هذه المنطقة، إذ أصبحنا بالقرب من وادي السّرحان.

في الصّباح بلغْنا ركاماً مرتفعاً من الحجارة فوق تل. فأخفينا جمالنا في الوادي وارتقينا التل لنرصد الأحوال هناك، ولكنني لم أكن أبحث عن الأعداء بقدر ما كان قصدي البحث عن الجمال ونار أصدقائنا. ذلك أنه من المحتمل أن يكون النّوري قد نصب خيام مضاربه في بقعة ما إلى جنوب شرق تلك المنطقة، ولكنني لم أرَ ما يشير إلى وجوده في تلك الأنحاء.

وبعد مسيرة طويلة شاهدنا أولى آثار أصدقائنا الذين ننشد لقاءهم في علامات تدل على انتقال عدد عظيم من الجمال من الناحية الشمالية الغربية إلى الجنوبية الشرقية ثم تحولتْ من جديد ناحية الشمال غرب، أو بالعكس. وكان جلياً أن الجمع ارتحلوا من بقعة معينة إلى أماكن أخرى ذات ماء. فأين كان موقعهم وأين هي غدران الماء؟ وكان الرأي القاطع عند مرافقي هو أن موقع البيوت يقع إلى اليسار، أي إلى الجنوب الشرقي، ولكنني رأيت أن الموقع إلى اليمين، وبالتالي غرب المكان الذي نحن فيه و إلا لكنا قد لاحظنا آثاراً للقطعان والفرسان أثناء عبورنا من الجويف، بينما لم نكن قد وجدنا حتى ذلك الحين هكذا آثاراً نستدل منها على الوجهة التي ذكرها الأصحاب. وكان أن استنتجت من ذلك كله أن الجسم الرئيس من نجعة الرّوَلة ظل غرب طريقنا وأن الأمير النّوري لم يرسل سوى جزء من القطيع إلى مواضع السقاية في الجنوب الغربي. ولما رفض رفاقي ذلك وأصرّوا على الاتجاه نحو الجنوب الشرقي، بينت لهم أنه لما كانت مؤونتنا من المياه المالحة التي حملناها من الجويف لا تكفي إلا مدة يومين آخرين فقد بات حتماً علينا أن نتزود بالماء في وادي السّرحان قبل انقضاء هذه المدة. وأضفت أنّـي واثق من أننا نستطيع الوصول إلى هذه الآبار في غضون يومين، في حين أنه من غير المؤكد أن نعثر على الماء في أي حوض أو مجمع لمياه الأمطار ناحية الجنوب الشرقي، وأننا ربما نلتقي بأصدقائنا خلال هذين اليومين، فلم يجِدِ الصحب سوى التسليم بهذه الحجج السليمة.

وكم كان سرورنا عظيماً، إذن، حين صادفنا بُعَيْدَ ذلك آثار الرّوَلة ووجدنا أنهم يمضون في الاتجاه ذاته الذي كنا نتخذه. ولقد تبين لنا بوضوح مسار الأمير والفرسان يحيطون به، وما كان لنا سوى أن نتبع طريقه.

على أننا أضعنا بعدئذ آثار أصدقائنا على الصخور عند أحد المنحدرات فكان أن مضينا في خط مستقيم ناحية الجنوب، ونحن نحسب أن الأمير النّوري سيكون مضطراً للإسراع إلى وادي السّرحان لافتقاره للماء شأنه في ذلك شأننا نحن أيضاً. فحملنا جمالنا على الإسراع في طريقها، ولم ندعْها للراحة إلا قُبيلَ منتصف الليل.

وفي اليوم التالي بلغْنا صخرة بركانيّة ناتئة وتبعنا ممراً ضيقاً يقع بين شظايا بركانيّة كبيرة وصغيرة حادة الأطراف، وهنا وجدنا آثار أصدقائنا من جديد.

ومن قمة سلسلة التلال البركانيّة شاهدنا أمامنا صورة مذهلة. وبدت منطقة الشامة الغربية البركانيّة أشبه بتنِّين ضخم مستلقٍ في حالة استرخاء، رأسه بركان القتب، وقشوره وفقراته تليلات الصقار تبرز جميعها باردة وجامدة. أرجله التي لا حصرَ لها تمتدُّ بعيداً في الصّحراء الشرقية الرمادية، ولُهاث احتضاره ومخالبه هي البراكينُ المنتشرةُ إلى الشرق والجنوب بموازاة التلال البركانيّة تدفن نفسها عَميقاً في السّهل المنبسط. التنين ميت الآن، أما حين كان حياً فإن فقرات ظهره ورأسه ومخالبه كانت تنفث ناراً، وأما كتفاه المتَّقدان ناراً وأقدامه المتوهجة فقد شقَّت طريقها عميقاً في السّهل المرتعد.

تناثرت بين التلال البركانيّة بعض البقع الفسيحة الصغيرة، تشبه صُحوُناً هائلة من النحاس الموشاة الحواشي. كانت هذه هي الخَبرات أو مجتمعات مياه الأمطار، وعند أطرافها توقفت كتل الحمم كما لو أنها قطعت بيد إنسان. ولا بد أن هذه الخَبرات ستبدو باهرة حين تمتلئ بالماء وتشوبها الخضرة النضرة.

كنا بلغنا خَبْرَة غطامان الضخمة قبل الظهر. وكان كلبنا السّلوقي كتاف قد اختفى. وحين بلغنا الطرف الجنوبي للخَبْرَة أخذنا ننتظر ظهوره قرابة الثلاث ساعات، دون أن يبدو له أثر. وبدا لنا أنه ربما أضاع أثرنا أو قتله أحدهم.

وكلاب الصيد، السّلوقية هذه تتَّسم بضعف حاسة الشم، وهي لذلك غير قادرة على تعقّب رائحة من يمتطي راحلة. بل تتبع هذا الراكب ما دامت تراه فإذا غاب عن نظرها تتوقف ثم تتلفت تبحث عنه حولها، وتسيطر عليها الحيرة حتى يظهر لها من جديد. وكنتُ كثيراً ما ألقي إلى هذه الكلاب بقطع من اللحم والعظام وأراقبها تتجاوز طعامها مرتين أو ثلاث مرات دون أن تعثر عليه. فهذه الكلاب لا بد لها من أن ترى الطعام حتى تتبينه.

وقد اعتاد كتاف الزّحف في الليل ليدخل كيساً من القماش الذي لا يتسرَّب إليه الماء ولا يخرج منه حتى نوقد النار. ونجده عندئذ يربض متبطلاً ويلتمس الدفء من النار. وإذنْ فالسّلوقي لا يُعتَمد عليه في الحراسة إطلاقاً.

آبار قراقر التاريخية

في صباح يوم 4 يناير، قطعنا العديد من التلال القائمة والتي تقع على خط مستقيم تقريباً. من الشمال الغربي حتى الجنوب الغربي، فتشبه بذلك أحد مضارب البدو الضخمة أو تلالاً من الفحم الحجري كالتي اعتدنا رؤيتها في محطات السّكك الحديدية. أشار مرافقي إلى قمة تل المهاة السّوداء التي ترتفع فوق آبار قراقر[1]، ويا لها من مسافة هذه التي كانت تفصل بيننا وبين قمة التل! وكم من التلال المسنّنة كانت تلوح أمامنا في سلسلة متصلة، تلاً بعد آخر.

وأخيراً بلغنا قبيل الظهر الماء في قراقر (الشكل 7). كانت الآبار مهجورة تماماً، إلا من بعض الغربان التي كانت تحوم فوقها. ومنطقة قراقر تحتوي على ما ينوف على عشرين بئراً، وبعضها لا يزيد عمقه على قدم، وهناك آبار بعمق قدمين ونصف. وللماء فيها مذاق مالح. وهناك نخلتان إلى الشرق من الآبار، وهذا دليل مؤكد على أنه يمكن أن يتحوّل الحوض كله إلى بستان للنّخيل المثمر.

---

(1) الأوصاف الطبوغرافيّة ترد بنحو أوفى بكثير في الكتاب الأصلي لموزيل *Arabia Deserta* الذي سننشره في السّلسلة، وتكمله كتبه الأخرى عن بادية تدمُر والفرات الأوسط وشمال الحجاز.

ولقد ورد اسم قراقر في التوراة. وذكر أن المديَنيّين دأبوا مع مختلف القبائل الحليفة لهم على الإغارة على فلسطين وكانوا يناهضون بني إسرائيل حتى بعث الله لهم جدعون. ولما تم لجدعون التّصدّي لأولئك المغيرين الغرباء في سهل يزرعيل راح يطاردهم عبر الأردن وردهم إلى الصّحراء شرقاً. وكان أن هرب المديَنيّون سالكين الطريق القديم الذي يسلكه البدو عبر وادي السّرحان، ولم يتوقفوا حتى بلغوا قراقر، وهناك التمسوا الراحة والأمان وهم لا يتوقعون أن يلحق بهم الإسرائيليون لكنهم أخطؤوا الحساب في هذا. فقد باغتهم جدعون وكاد أن يقضي عليهم جميعاً.

والمؤرخون العرب الذين وصفوا غزوات المسلمين في سوريا، تحدثوا عن قراقر كما تحدثوا عن سوا أو السبع بيار. فقد نزل في هذين المكانين القائد المسلم خالد بن الوليد عام 634 م، حين أسرع من العراق لدعم المسلمين في معركتهم في سوريا واتّبع خالد في مسيرته طريق القوافل المعروف عبر دومة [الجندل] أو الجوف حالياً. وكان يجد ما يحتاج إليه من الماء كل يوم، إما من الآبار أو الخَبرات التي تُخزنُ فيها مياه الأمطار. والعديد من هذه الآبار يصل إلى عمق ثلاثمئة قدم، وهي قديمة جداً. كما أن برك تجمعات مياه الأمطار عددها كبير وحولها جميعاً تقريباً آثار مبان قديمة. وكان بوسع خالد بلوغ واحة دومة [الجندل] دون أن يتعرَّض لخطر عظيم، لأن الواحة كانت بيد المسلمين أساساً. وهناك كان يستطيع أن يتزود بما يحتاج إليه من الماء لبقية مسيرته ناحية الشمال الغربي على الطريق القديم الذي يمر بوادي السّرحان حتى باب بصرى الجنوبي ثم إلى سوريا.

والبدو يعرفون بوابتين توصلان القادم من الجزيرة العربية إلى سوريا: بصرى في الجنوب والضّمير في الشمال.

تستطيع جياد البدو أن تصبر على العطش ثمانياً وأربعين ساعة فقط، وكان خالد يجد بئراً كل يومين أثناء مسيرته على الطريق من الحيرة إلى واحة دومة [الجندل] وما بعدها حتى قراقر وبذلك تمكّن من سقاية جياده.

ولكل موقع للسّقاية سواء كان يقع في منطقة مستوية أو متموجة بين ارتفاع وانخفاض من الصّحراء علامتُه. وهذه العلامات هي على العموم إشارات بارزة طبيعية تتميز بأكوام من الحجارة. وبدون هذه الرُّجَم لا يملك المرء أن يعرف طريقه في الصّحراء.

بيد أن خالداً اضطرَّ بعد مغادرته هذا الطريق في قراقر إلى الاستعانة بأحد الأدّلاء المحترفين الذين كانوا يتجمعون يومئذ، كما يفعلون اليوم، في مراكز التجارة، فنصحه بأن يَتُمَّ نقلُ الماء في الطريق نحو سوا باستخدام الجمال الهرمة كخزانات حية لسقاية الرجال والحَيوانات، نظراً لأنه من المستحيل الحصول على القِرَب اللازمة.

والبعير السمين القوي قادر على اختزان ما يتراوح بين الستين والسبعين كوارت [ربع غالون]، حينما يُحْمَلُ على الشرب. وإذا مُنِعَ من الرعي والاجترار اختزن الماء في كرشه عدة أيام. وإذا ذبح فإن الماء المستخرج من كرشه حينما يتم ترقيده سوف يصبح صالحاً لأن يشرب منه الرجال والحيوانات. ولحم الذبائح يوفّر الغذاء للمرتحلين. والناقة يزداد إقبالها على الماء بقدر ما تتمتع به من قوة وضخامة، وهي تستطيع عندها البقاء دون رعي. وكان لدى خالد [بن الوليد] الكثير من الأباعر المخصصة للذبح لتكون طعاماً طازجاً للجيش. وقد كانت مشورة الدليل رافع أن يستخدم تلك الجمال قِرَباً طبيعية لسقاية الجياد.

وكان رافع يقتدي في ذلك بالبدو. فالبدوي حين يريد أن يستثير العطش في الناقة يقودها إلى أقرب موقع للماء ثم يربط قوائمها ويقيدها ويصب الماء في الموضع الذي يُراد للناقة أن تشرب منه، ثم يضرب الماء براحة كفه ويغريها بالشرب بأغان قصيرة وضربها بطريقة خاصة. والناقة في هذا كله ترى وتسمع لكنها لا تستطيع أن تبلغ الماء. فإذا أرادت الماء نصبت أذنيها. وهناك الكثير من الهجن المعدة للركوب التي تُدرّب على الاستدلال من هذه التصرفات والأصوات بأنها في سبيلها إلى سفر طويل في الصّحراء القاحلة وعليها أن تستزيد من الماء.

فإذا قيدت وسمعت أصوات الأهازيج وضرب الماء وجهت آذانها نحو الماء وأبانت توقها إلى الشرب بأنين مألوف عنها ينمُّ عن التضرع. ولا عجب فالماء قريب جداً، والرحلة أمامها طويلة جداً، وهي محرومة من الشرب! وحين يفك راكبها قيودها تُهْرَعُ إلى مكان الماء وتجرع منه جرعات طويلة وعميقة. أما الراكب فيزيد من الماء طالما ظلت الجمال تنهل. فإذا انتهت من ذلك وارتوت قادها بعيداً عن موضع السقي ويدعها تسرح في المرعى وبعد ساعة من الزمن يعود بها إلى موضع الماء ويقوم بتقييدها ويعاود إغراءها ويثير فيها العطش حتى يهتز بدنها. ثم يدعها تشرب بعدئذ دورة ثانية. وهكذا يمكن حمل كل جمل قوي على شرب ستين أو سبعين كوارت. وإذا كان الماء الذي شربه يراد له أن يستخدمه إنسان أو حيوان فإن فم الجمل يُكَمَّمُ لمنعه من الرعي والإجترار، كيلا يمتزج الماء بالطعام في كرشه. والجمل لا بد له من أن يكون قوياً، والسّنام الذي يعتمد عليه في الحياة عالياً وسميناً، حتى يمكنه أن يصمد في الرحلة الطويلة دون غذاء. والسنام يضمر بعد عدة أيام من شح المرعى، وإذا تلاشى ضعف الحيوان على العموم حتى أنه لا يعود يقوى على النهوض بحمله أو براكبه.

ولقد سار خالد بهكذا قِرَب حيّة في مقدمة جيشه في ذلك الزحف المشهود من قراقر إلى سُوا أو السبع بيار.

كنا قد عزمنا على إرواء جمالنا، والتزود بالماء في قراقر، ثم نمضي متابعين الطريق. ولكن إلى أين، وأين نزل أصحابنا؟ وكنا قد قطعنا بعض الطريق شمال الآبار حين اكتشفت آثارٌ خلّفتها مجموعة كبيرة من الجياد تشير إلى الاتجاه نحو الغرب، ثم وقعنا بعيد ذلك على آثار مضارب، وهذه علامة جيدة على أن أصحابنا كانوا قد أقاموا منازلهم هنا ثم توجهوا نحو الغرب. وهنا برز لنا بغتة رجل من وراء صخرة. حمداً لله فالرجل كان من الرّوَلة، وهو بالتالي صديق. وقد حمل إلينا الرجل الخبر الطيب بأن الأمير النّوري قد نصب خيامه في ديرة البِيْض عند الطرف الغربي لوادي السّرحان.

فهللّنا فرحين «الحمد لله!» ثم غادرنا الآبار بُعيد الظهر ونحن نتبع آثار الجياد، وندعو:

يالله طلبناك يـا الغفـوز — يــا بالــدّراجْ العَليّــهْ

تجعـل لنـا حـظٌ يِثُـوز — بــــالأَوّلى و التّاليّـــهْ

شاهدنا، من مرتفع، قطعانَ الجمال تسرح في المرعى وإلى الغرب مخيماً عظيماً. وقرّرتُ عندئذ دخول المخيّم من وسطه. وفي الأسفل كان يمتدّ وادي السّرحان وتحيط به منحدرات سحيقة، سود من ناحية الشرق وبيض من ناحية الغرب. وبين هذه وتلك تلمع مساحة واسعة من كتل ضخمة من الملح الأبيض، ومن خلالها برزت تلال منعزلة يكاد لونها يقارب الرمادي. وفوق الوادي كله خيم ستار كثيف من الغبار والرّمال. وبعد ظهر يوم 4 يناير كنا عند طرف الوادي.

عَودٌ حميد

كابدت الجمال كثيراً وهي تغوص حتى ركبها في سبخات الملح. وإذ بلغنا أولى الخيام علمنا أن خيمة الأمير النّوري تقع عند الطرف الجنوبي الغربي فَتَحوَّلنا نحوه، وكنا نُسْتَقْبَل في طريقنا بالتحية والترحيب. فأسرعنا نحو الموقد الكبير الذي كنت أعلم أنه يتقد في خيمة الأمير. وأخيراً شاهدت سقف خيمتي، وعندئذ نزلت عن ناقتي، وتجاوزت عدة حبال، وصرت بين جمالي وأمام خيمتي. وكان قد مضى على غيابي واحد وثلاثون يوماً. ووجدتني للتو محاطاً من القوم، وقد أقبلوا عليَّ مرحبين بين عناق وتقبيل. فشكر الأمير الله على رعايته والسلامة وصافحني نوّاف وهو يشد على يدي، ثم سألني عن سبب طول غيابي كذلك أقبل عليّ سعود ومجحم وعذوب ومنديل وحمار، والصحب جميعاً كبيرهم وصغيرهم مصافحين. وأخبرني أنه بلغهم عن أهل ثقة أنّي صُرِعتُ بالقرب من نهر الفرات في معركة مع جماعة من الدّليم.

شكرتُ للجميع هذا الترحيب والعطف وانسحبت إلى خيمة الأمير للتحية والشكر لعنايته بأصدقائي ومتاعي أثناء غيابي. وجاء الضيوف جميعهم للقائي واحداً تلو الآخر، مرحبين بالشيخ موسى. وكان الأمير يعتزم النُّجعة في اليوم التالي أما وقد عدت فإنه أعلن أننا باقون يوماً آخر «ليستريح الشيخ موسى».

وبعد رجوعي إلى خيمتي عملت على مساعدة تومان في حساب خط العرض. وأخبرني ناصر أن الأمير ونوّافاً دأبا على المجيء إلى الخيمة مرتين أو ثلاث مرات كل ليلة لحثه على الانتباه. وكانا يخصانه بجملين كلما ارتحلا إلى موقع جديد، وأمرا العبد حماراً بمساعدته في التحميل وإنزال الحمولات. ولكنه كان يحمل لي أيضاً أخباراً سيئة. ذلك أن أفضل ناقة لدينا والتي كنت قد دفعت تسعين مجيدياً (81 دولاراً) ثمناً لها أصيبت بالمرض وماتت وأخبرني أن المرض قد شلّ أعصابها، ولم تعد تقوى في اليوم الثاني على الوقوف، ثم نفقت بعد أربعة أيام. وأكّد لي النّوري بأنه استدعى كل البياطرة لعلاجها، ولم يوفّروا وسيلة لإنقاذها، دون جدوى.

* * *

وفي الصّباح الباكر جاءني نوّاف. فأرسلت في طلب حمّار[1] العبد الأسود العجوز، وكان أفضل خبير بتضاريس الأرض في جزيرة العرب، وله معرفة جيدة بشمال نجد. ولم يكن الظهر قد حان حتى كنت بين حشد من الزائرين.

أما النّوري فقد أمضى معظم فترة العصر معي مستمعاً لكل شاردة وواردة من رحلتي. فلما بلغت جانب وادي السّرحان من روايتي، سألته أن يخط على الرّمال كافة المواقع والآبار والجبال والوديان شرق هذا الوادي وغرباً، وقد استجاب لطلبي بطيب خاطر.

* * *

(1) أي حمار أبو عوّاد، الذي كان من أهم مصادر موزيل في روايته لدقائق التراث الشعبي الرّويلي.

في وادي السّرحان

وفي اليوم التالي حملنا الخيام، وكنت أشعر بالأسف لمغادرة تلك الأرض في بيز بهذه السرعة، إذ إن خيمة الأمير وخيمتي، كانتا تحت ظلال أشجار الطرفاء الوارفة وجوارنا مغطى بخضرة العشب النضرة ونبات الحلفا الصلب الذي كوَّن شرق الخيام وغربها أجمات كثيفة لا تقدر الهجن على اختراقها. وكان الماء وافراً أيضاً ويتفجر في مواضع كثيرة ثم يجري في جداول قصيرة، وهو ذو مذاق مالح قليلاً على أن هذا الموقع ليس فيه مرعى للجمال فكان علينا والحالة هذه أن نشد الرحال إلى موضع آخر.

ودعانـي الأمير إلى مصاحبته في هذه الرحلة. وقادنـي إلى موقد صغير على مسافة من خيمته، وكان العبد لديه يهيئ قهوة محلاًة في دلّة القهوة لدي، وناقته باركة وراء النار، وحمل ناقتي على النّوخ أيضاً وكان بجانب الموقد حامل خشبي يبلغ ارتفاعه اثنتي عشرة بوصة، مغروس في الرّمال، وانتصب عليه صقر على رأسه بُرقُع حمراء. ولما فرغ العبيد من نقل كافة المؤن وخيمة الأمير جاء الكاتب بمهر وربط رسنه بشداد الجمل، بينها أخذ النّوري الحامل و الصّقر ووضع الطائر خلف شداد الجمل وأدخل الحامل في الخرج.

ومضينا مسرعين باتجاه الجنوب شرق. وسرعان ما كنا نتجاوز الجمال المحملة وصرنا على رأس العشيرة، يرافقنا أربعة من العبيد، والكاتب في مؤخرة الركب. وإنه لمن تدابير الله العجيبة أن يركب أمير بدوي وبجانبه رجل تشيكي في وادي السّرحان على رأس قبيلة كبيرة! ولما ذكرتُ هذا للأمير أجاب: «هكذا شاء الله. ولم يكن ليخطر ببالي قط أن أصادق رجلاً من غير عشيرتـي. فلا تنسني يا موسى حين تكون على رأس عشيرتك!».

وفيها كنا على الطريق بلغْنا بقايا رابية كلسية. ولقد رغبت في التقاط صورة لهذا الشاهد على فعل النحت والتعرية فسألت الأمير أن نتوقف ههنا فأجابني إلى طلبي برحابة صدر (الشكل 5).

كان نوّاف وصحبه قد أدركونا في تلك الأثناء، فنزلنا هناك برهة. ولم نكد نركب المطايا ونركز فوقها ثانية حتى ظهر من دغل قريب أرنب، وللتوّ انطلق كلب الأمير في إثره، وقام الأمير فوراً بنزع بُرقُع رأس الصّقر وحلّ قيده من السّير الجلدي وأرسل الطّير في الفضاء. فدار الصّقر دورة وأبصر السّلوقي والأرنب فانقض عليه ونقره بمنسره وارتفع في السماء، ثم انقض عليه ثانية فوقعت الطريدة دون حراك. فأسرع الأمير على ظهر جمله إلى الأرنب وطرد الكلب عنه وذبحه، ثم لوَّح بيده في الهواء محاولاً استعادة الصّقر. ولكن الصّقر تابع التحليق برهة، ثم عاد إلى الأمير وحطَّ على يده، منتظراً منه تقييده ووضع القلنسوة على رأسه. وبعد برهة كان صقر نوّاف قد اقتنص بدوره أرنباً فقدمه الي ولكنني رددت الهدية وسألته أن يأمر بطهيه لأتناوله ضيفاً عليه في العشاء. وكنت قد تلقيت من طراد بن سطّام طيراً من الحبارى، فكان لدي بالتالي الكثير من اللحم الطازج.

بُعيد الظهر كنا قد بلغنا ينابيع عيون العدوانات، حيث أقمنا مخيمنا على تلة رملية تبرز من سبخة. وفي المساء جاءني نوّاف ليصطحبني إلى خيمة الأمير لنتناول الأرنبين على العشاء. فجلس الأمير بجانبي على كعب قدمه اليسرى وأخذ يرمي إلي بقطع اللحم. ولما رجوته ألا ينسى نفسه من الطعام لأن عليه أن يظل قوياً، وهو مقدمنا، ليعنى بنا جميعاً، رد بأن جُلَّ همّه مُنْصَبٌّ على العناية بأفضل قاطع طريق لديه، وهو يقصد أخاه موسى. وكان يسمّي رحلاتـي العلمية غارات.

كان علينا أن نتحرك في اليوم التالي، فلما صادف أن أخبرته بأنـي لم احتفل بالأعياد سواء تلك الأعياد التي تحتفل بها قبيلتي أو أعياد أصدقائي في الصّحراء التي يطلقون عليها اسم الضحيّة (ذكرى المؤمنين الذين رحلوا العام الماضي)، أعلن الأمير أنه بوسعنا الاحتفال بالمناسبة معاً، وعليه سوف نمكث في موقعنا ذاك حتى الغد. فلما كان فجر اليوم التالي خرج وسعود إلى الجبال الشرقية للصيد والبحث عن مرعى. ولما عاد في ظهيرة ذلك اليوم أعلن أمام الجمع أن نمكث في هذا الموقع في اليوم التالي، لتوفُّر المرعى في الشرق.



الشكل 7: عند آبار قراقر



الشكل 8: عند آبار المعيصرة



الشكل 9: في سهل خُنفة

في تلك الأثناء انشغلت برسم خريطة للمناطق شرق حوران حتى الفرات ومدينة النَّجَف شرقاً والجوف جنوباً، مُدِّوناً في هذه الخريطة أسماء المواقع التي عرفتها في رحلتي السابقة، بالإضافة إلى مضارب الأمير النّوري. وكان على تومان أن يعيد بعدئذ رسم الخريطة ويُجريَ تعديل المسافات والاتجاهات. وقد وفَّر لي هذا الرسم عوناً عظيماً في ملاحظاتي الطبوغرافية التي وضعتها في منازل العشيرة وأثناء المسير. ففي الصّحراء المنبسطة الخالية من الجبال أو المرتفعات الظاهرة، أو الوديان السحيقة، غالباً ما يكون الباحث مفتقراً للقاعدة أو نقطة بداية ينطلق منها للبحث عن علامات طبوغرافية، وغالباً ما ينسى الدليل أن يذكره بأنه قد يكون هناك، في الأرض الواسعة الشاسعة المنبسطة، بئر أو حوض تتجمع فيه مياه الأمطار له اسم معين خاص به. وبهذا الرسم توافر لي أن أشارك في أحاديث حول مواقع نزول مختلف القبائل أو مواضع المياه واتجاهات الطرق. كما أصبحت على إلمام بأسماء مواقع جديدة، وبذلك أستطيع أن أحدد مواضعها بقدر أكبر من اليسر والتحقق من صحة معلوماتي في ما بعد أثناء رحلاتي. وهكذا أمكنني النأي بنفسي عن الانجرار وراء الأدلاء سواء حسنت نواياهم أم ساءت وصار لي أن أتأكد من صدق أقوالهم.

ولقد حملتني رغبتي بإنجاز رسم الخريطة التي وضعتها لأغراض العمل على السهر حتى وقت متأخر من الليل للفراغ منها وكان هذا الوضع ما جعل نوّاف يغادرني مبكراً حين وجدني منصرفاً إلى هذا العمل وهو الذي أتاني لتجاذب الحديث، على هذه الحال فلم أتوقف عن العمل إلا برهة بعد الظهر، حين زارنيساير بن برمان الذي كان يتولى قيادة جماعة من المغيرين من الفَرِجَة الذين قاموا بسلبنا. وقد سألتُ نوّافاً وأنا أروي له ما صادفنا مع ساير وجماعته إن كان من المناسب أن أقدم للرجل هدية لحمله جماعته على رد ما سلبوه منا من أشياء. فرد نوّاف: «يا أخي، إن ما حمله على قسر تلك الجماعة على رد ما نهبوه منك كان خوفه من والدي. أما أن تقدم له هدية أو لا تقدم فأمر والله لن يكون لي فيه رأي. وهذا الخاطر إلهام من الله، وإنه لإثم أن تحرم إنساناً من هدية».

ولقد عرض ساير أن يكون لي دليلاً أو مرافقاً في رحلتي القادمة ولكني إذ وجدت بضاعته من الطبوغرافيا قليلة اقتصرت على تقديم عباءة له على سبيل الهدية غادرنـي بعدها شاكراً.

في الصّباح الباكر من يوم السبت المصادف 9 يناير صحوت من النوم على أنين قطيع من الجمال وهم في ضيق، وكان ذلك إيذاناً برحيلنا. ولقد توقف نوّاف حتى لحقت بالركب، ثم تابعنا الطريق في واد ذي سباخ إلى الجنوب الشرقي من موضعنا.

وبعد بضع دقائق حلّق زوج من طيور الحبارى إلى الجنوب فاندفع نوّاف لاقتناصهما بصقره.

كان وادي السّرحان، إلى الغرب منا، ويمتد قرابة خمسة أميال عرضاً، من الغرب إلى الشرق وتحيط به ناحية الشرق نتوءات منطقة ميسما البركانيّة ويحده غرباً تل مائل يرتفع ستين قدماً ويتصل بسطح كلسي أملس في الأعلى. ولقد قام الأمير باختيار موقع جديد للمضارب عند آبار جماجم.

صقور قنّاصة

تشتري الرّوَلة الصقور من الحضر في الشيخ مِسكين والرّحَيْبة. وتعتقد الرّوَلة أن أفضل الصقور المستخدمة في الصيد هي ذات الريش البني اللون المائل إلى الحمرة والذيل الموشّى بالكثير من البقع البيضاء، وإن كانت تلك الصقور ذات اللون البني الغامق والأسود [أدبَس] تصلح هي أيضاً للقنص.

و الصّقر طائر عجيب، فيقال إنّ الصّقر يبقى في البيضة أربعين يوماً قبل أن يتشكل، وأربعين يوماً آخر قبل أن تفقس عنه البيضة، ثم أربعين يوماً آخر، بعد، قبل أن يتبين المرء إن كان يستطيع الطيران. وأنثى هذا الطائر لا تتكلف البحث عن الطعام ما دامت تحضن البيض، فالذكر يتولى توفير الغذاء للأنثى والصغار.

ويأتيهم الذّكر بطيور الحبارى والأرانب البرية. والأنثى لا تبالي بصغيرها، وإن سقط أو أخذ يزقزق وهو على بعد أقدام من عشه. وتكون المحنة حين يموت الذكر. والأنثى محظوظة في هذه الحالة إن استطاعت توفير الجرابيع والفئران لغذائها وصغارها، وإن كانت هذه ليست بالطعام المناسب لهم.

وحين يفتّش الحَضَر عن صغار الصقور يريدون بالأخص أن يتبيّنوا إن كان الأبوان حيّين ثم يأخذون هؤلاء الصغار من أعشاشه حالما تعتمد على نفسها في الغذاء. فيدأب الصيادون على إطعامها حتى تبلغ تمام نضجها، فيقومون عندئذ ببيعها للبدو. وهذا عمل صعب ومتعب، ولذلك يؤثر الحضر اقتناص الصقور المكتمل نموها.

وقنَّاص الصقور يحتال في اجتذاب الصّقر أثناء تحليقه في الجو بأن يأتي بغراب وبعض الريش وحمامة مربوطة بشريط إلى شبكة مخفية. فيطلق الشبكة بوساطة السلك فيعلق بها الصّقر، فيمسك به القناص ويخيط أجفانه فوراً. وبعد ثلاثة أيام أو أربعة يصبح الصّقر مطواعاً فيفكك الرجل القُطَب. ويبيع القناص الصّقر غَير المدرَّب بمبلغ يتراوح ما بين الثمانية مجيديات والعشرين (8 - 7،20 دولاراً).

وعلى البدوي أن يتولى تدريب الصّقر بنفسه. ويعمد الشيوخ عادة إلى تكليف أحد العبيد بتدريب الصّقر. والصيد به أيضاً. وإذا شاء أحدهم الصيد فإن عليه أن يجعل هذه الكواسر تألفه و إلا لن تعود إليه بالطريدة. والعُدَّة اللازمة لهذا النوع من الصيد حامل خشبي بطول قدمين وفي أسفله زُجّ من الحديد ومكسو أعلاه بالجلد. وعلى هذا الحامل يعيش الصّقر، وله في كل ساق حلقة من الجلد تخترقها سلسلة تتدلى حتى منتصف الحامل. والطائر قادر في هذا الوضع على الارتفاع ولكنه لا يستطيع التحليق. وعلى رأس الصّقر بُرقُع صغير من الجلد يمكن سحبه إلى الأسفل فيغطي عيني الصّقر ويُرْبَط حول عنقه وتحت المنقار، بحيث لا يستطيع أن ينزعه بمخلبه.

قبيل الغروب يلبس الصّقّار بيده اليمنى قفازاً من الجلد الخشن، وينزع السلسلة من الحلقتين ويسحب منهما الشريط الضيق ثم يضع الصّقر على يده اليمنى ويردد اسمه مراراً ويؤرجحه إلى الأمام والخلف، محاولاً دفعه للتحليق. فيعلو الصّقر في الجو ثم يحوم فوق الصّقّار في دورات. ويقوم الصّقّار بربط طرف الشريط إلى الوتد بإحكام، ثم يحمل بيده اليسرى خُرْجاً صغيراً وباليمنى قطعة من اللحم وبها يشير إلى الصّقر منادياً باسمه. فإذا لم يلتقط الصّقر قطعة اللحم، داس البازي على الحبل برفق حتى ينقضَّ الطائر على اللحم. وإذا لم يعد الصّقر طائعاً بعد بضعة أيام من التدريب يطلقه البازي. ثم يأتي الصّقّار بأرنب بري ويكون جريحاً بطلق ناري أو مكسور الرجل فيفلت الصّقر والكلب في إثره. وإذا التقط الصّقر الطريدة تركها كلها له.

يبدأ الصّقر بالصيد بعد أن يكون قد التقط عدداً من الأرانب البرية على هذا النحو بمساعدة الكلب السّلوقي، فيعتاد الصيد برفقة الكلب. والصّقّار يربط الصّقر بسلسلة وراء شداد الجمل، ويحمل معه خُرجاً صغيراً، وينادي الكلب السّلوقي ويخرج بعيداً عن المضارب. وحين يلتقط الكلب أرنباً أو طائر حبارى، يفلت الصّقّار الطير ويضعه على يده اليمنى، ويمضي خبباً وراء الكلب، ويضع الطائر على الحيوان الذي اصطاده الكلب. وهنا يلتقط الحبارى فوراً، إلا أن الأرنب يفلت عادة من منقاره. وإذا انقضَّ الصّقر على الأرنب وأنشب مخالبه في ظهره، فإن الصّقّار يسرع وراءه بأقصى سرعة ويغطيه والطريدة بعباءته ويضرب ظهر الطائر، صائحا «كش كش!»، ويعمل على نزعه عن الضحيّة. ولا ينال الصّقر حصته منها إلا داخل الخيمة، ويُحْرَم منها في البريّة.

و الصّقر المدرب جيداً يصطاد عدداً من الحبارى قد يبلغ العشرة ومن الأرانب البرية عشرين في يوم واحد، إن توفرت الطرائد. ولا تمكث الصقور مع الرّوَلَة أكثر من نصف عام. وليس معنى ذلك أنها تَنْفُق، لكنّها تنطلق ولا تعود. والصّقر يغدو في الشتاء، وخاصة إذا كان بارداً، شديد الضيق شرساً لا ينصاع. وأشد ذكور هذا الطائر طواعية ينشز حين يلتقي بأنثى من البراري.

وإناث الصقور المدجّنة أشد إخلاصاً، ولكن حتى هذه تنشز عن دربها وتهرب حين تصادف صقراً صياداً برياً.

يا ليتْ لِي جَزْوٍ ويا ليتْ لِي طِيرْ	وقْعَيّدٍ نِنْسِيف عليه الشَدَادي
نِجِي ما بين السّلَف والمِظَاهير	ونْشَلّي الجَرْوَة والطير غادي

* * *

الطير عَنّي يا قزيعي[1] يصيدي	ياللّي عيّى يصيد الحبارى
لا يا حسايف نقليته عالإيدي	تُمسّح الرّيضان عافِ الطيّارى

* * *

الطير يا عَمّار يا كاسبَ الثّنَا	الله ولا لَهْ جِرَّةٍ نَسْتَهدي بَهْ
غَدَتْ به عَزْدَا من القِرانيص حايِلْ	عامين شاتين مُخّها بِجريدَهْ

«هل هذه حياة؟»

في اليوم التالي جاء وجهاء حضر إثرة وكاف للترحيب بالأمير والتحية، وقبلهم جاء رهط من الأهالي ومعهم خمسة جمال محمّلة بالتّمر. ولآل الشّعلان الأمراء في تلك النواحي أكثر من خمسمئة نخلة يؤجرونها للحضر مقابل حصولهم على خمس المحصول. وقد أتوا الآن مقابل هذا الخمس بجمل واحد يحمل 370 رطلاً إنكليزياً من التّمر، ولأهل الأمير المتوفى سطّام أربعة جمال، وكل جمل يحمل مثل هذا الوزن. وعائلة سطّام - وتعرف عادة بعائلة تركيّة - أغنى من عائلة النّوري، فهي تزيده من ناحية الجمال والخيل والعبيد، والسبب في ذلك أن سطّاماً كان رجلاً حريصاً على ضمان صالح ذريته.

---

(1) البيتان لشاعر رويلي يخاطب الشاعر مشعان القزيعي النّصيري. وتصحيح البيت الأول:

الطير عَنّي يا القْزَيعي يطير	هَدّيته وعَيّى يصيد الحَبارى

وهذا ممّا علّق به الباحث عبد الله بن دهيمش بن عبار العْنزي في مجلة العرب.

وفي يوم الإثنين خرج نوّاف مع جمع من المقاتلين لحماية قطعان الجمال في المرعى جنوب غرب المنطقة. ولما كان على القطعان أن تبيت هناك فقد وجدت نفسي حراً طوال يومين للتفرّغ للكتابة دون أن يشغلني شاغل. وكان ساعي البريد الذي أُرسل إلى الجوف قبل أسبوع قد عاد حاملاً معه رسائل، ولكنني لم أنظر فيها حتى انتهيت من وصف أعمالي الطبوغرافية.

وعاد إلينا نوّاف ليذكر أن المرعى في المنطقة الجنوبية الغربية مُجدب، وعلينا البحث عنه في مكان آخر. يا للبدو المساكين! لقد انتظروا أربعة شهور طوال آملين أن يهطل عليهم المطر مدراراً، فإذا بهم لا ينالون منه شيئاً. وقد أقسم حمار أنه لا يذكر موسماً سيئاً مثل هذا طوال ثلاثين عاماً.

وانكببتُ من ناحيتي على العمل منذ الصّباح الباكر لأنجز التقرير عن رحلتي مؤخراً، قبل أن يأتي إلينا نوّاف. فلما جاء الرجل أخذ يتحدث عن واحة الجوف، ولها في قلبه، كما قال، مكانة.

«يا موسى، لِمَ لا أستطيع، بعون الله، تأسيس ملك مثلما لابن رَشيد؟ إنني أستطيع أن استقر، إن ملكت واحة الجوف، ومعي جمع مختار، فأُخضِع في وقت قصير بالكلام المحكم والسّلاح والذهب، كل شمال جزيرة العرب».

وبعد انقطاع آخر استأنفتُ الكتابة، لأنه لم يعد بوسعي إضاعة ولو ساعة من الزمن. فقد كان علي الطواف في منطقة شاسعة من الأرض وملاحظة عادات الرّوَلة وآدابهم وفنونهم، وجمع أكثر ما أمكن من النباتات. وقد استوعب الأمير بعض الهدف من رحلتي، على الأقل، وراعى رغبتي بالعزلة للكتابة، ولم يكن ليسمح للأمراء الفتيان بإزعاجي. وفي العصر سمعت امرأة تقول لناصر:

«إن سيدك، الشيخ موسى، غائب دائماً عن الأنظار. فهو إما يقوم بغارة أو يجلس في خيمته ويكتب. هل هذه حياة؟».

* * *

في صباح يوم الخميس ناديتُ العبد حماراً[1] الزّنجي ورسمت خارطة وفق وصفه لمنطقة غرب الجوف. وخلف خيمتي مضى أولاد الشيخ يلهون بالمباراة في إصابة هدف نصبوه هناك.

كان الجمعة يوم الارتحال فمضينا نسير فوق الحجارة البركانيّة المنتشرة على مسافة عظيمة في وادي السّرحان. وبرز أنف جبل ميسما بشكل ظاهر وقمّتاه واضحتان للعيان، وكان قسمه الجنوبـي يشبه شداد الجمل والشمالي يشبه القرن.

ولما نزلنا في الموقع الجديد لخيامنا صرفت خادمي بليهان، بعدما مال إلى الكسل والمشاكسة والوقاحة. ودفعت له أجوره وأضفت إليها ثماني مجيديات وشكرت له خدمته متمنياً له عوداً حميداً إلى أهله. وفي تلك الليلة عينها، غادرنـي ليمضي الليلة في خيمة أخرى.

وفي يوم السبت، عدنا للارتحال من جديد. فخضنا في سبخة مالحة تخللتها أجمة من أشجار النّخيل تناثرت هنا وهناك، لكن تقدمنا كان بطيئاً فلم نتمكن من نصب خيامنا حتى وقت متأخر من الليل. وفي اليوم التالي انشغلتُ بالعناية بالمرضى وحزم المؤن وتغليفها من جديد.

وفي يوم الإثنين بلغنا آبار حرمة الشحيحة حيث بات الجميع حتى الأمير في العراء بين المؤن.

وفي صباح اليوم التالي أيقظني الراعي مفزع ليخبرنـي بأن أفضل جمل لدينا قد اختفى مع الشداد وقِرْبَة الماء والدلو المصنوع من قماش القنب ومغرفة من التنك، وحبل بطول أربعين ياردة. وكان السارق بليهان طبعاً، إذ إنه اختفى أيضاً مع اختفاء الجمل وتلك العدة. فقد كان من اليسير عليه إعداد البعير بأناة وملء القربة من أقرب بئر ومن ثم الهرب، وهو المعروف بأنه خادمي ويعرف متاعي. وقدّرتُ أن هروبه تمَّ قبل منتصف الليل.

(1) هو عبد الشيخ النّوري، واسمه: حمار أبو عوّاد، اسم غريب حقاً. وكان حمار هذا من مصادر المرويات الشعبيّة لموزيل، إلا أنّه كان يحلو له أن يضلّله بأخبار خياليّة من وضعه.

رغب بعض الرجال بمطاردته ولكني والأمير أبينا ذلك. فلا ريب أنه بلغ المنطقة البركانيّة الوعرة منذ وقت طويل. وهكذا ضاعت مني الناقة إلى حين، إنما ليس أبداً وذلك لأن استعادة المنهوبات من أمْرِ كبير الشيوخ غثوان بن مرشد الذي يخضع له بليهان وهو في كفالته. وإذ مكثنا في ذلك الموقع طوال اليوم انصرفتُ إلى رسم خريطة المنطقة شمال تيماء وجنوبها.

وفي يوم الأربعاء، 22 يناير كان انطلاقنا قبيل التاسعة، واتجهنا ناحية الجنوب الشرقي. وقرابة المساء كان قصف الرعد شديداً فأخذ البدو المساكين يمنّون النفس بِهَطل المطر والمراعي الخضراء. وللماء في وادي السّرحان مذاق مالح والمراعي فيه لا تكفي، والنباتات تعلوها طبقة من الملح، لذا يشتد ظمأ الجمال ويلزم سقايتها كل ثلاثة أيام. والخوض في وادي السّرحان شاق على الإنسان والوحوش بسبب انغمار الأرض بطبقة من الملح تتراوح سماكتها ما بين ثلث البوصة والبوصتين، وغالباً ما يكون دونها رواسب من التّراب الكلسي أو الرّمال بكثافة تتراوح بين الأربع حتى الثمان بوصات، تغوص فيها أقدام البشر وقوائم الحيوان في كل خطوة.

وفي اليوم التالي كان التعب قد نال منّا كلُ منال وما عاد بوسعنا الحركة. وكان نوّاف يتقد رغبة في الوصول إلى الجوف بأسرع ما يمكن للاستيلاء على المدينة والنصف الشمالي من ملك ابن رَشيد سابقاً ولكن والده حال دونه وما يبغي. ذلك أنه ينتظر رسائل من ابن سعود الذي قيل إنه مقيم في القصيم.

مشكلات عويصة

كنت أتداول مؤخراً والأمير في رغبتي بزيارة منطقة واحة تيماء، فلم يرحب بالفكرة. ولما كنت أدرك أنني لا أملك انتظاره، على كل حال، وما زال لدي الوقت لاستكشاف المنطقة شرق موقعنا، والسّطوة فيها لقبيلتي العمارات والدّهامشة، أمر الأمير بأن يرافقنا العبد الأسود فريح الذي لم يمض على انضمامه إليه من نجد سوى سنتين، وقد زار تيماء عدة مرات يوم كان في خدمة ابن رشيد.

في اليوم التالي استأنفنا المسير. وكنت أسير بادئ الأمر برفقة جماعة من المقاتلين الشبّان، ولكن الأمير دعانـي في ما بعد لمرافقته. فتداولنا في موضوع احتلال الجوف والتعقيدات المحتملة لما قد ينشأ عن هذا العمل. وقد حثثتُ الأمير على أن يعرض السلم على قبيلتي العمارات والدّهامشة ويتحالف معهما في وجه عدوه اللدود ابن رشيد.

فقلت له: «عليكم أنتم عُنزَة الهجوم على ابن رَشيد من الشمال والشرق ويتولى ابن قبيلتكم ابن سعود الضغط عليه من الجنوب وأمامه عندئذ أحد أمرين، فإما أن يعترف لكم بالسيادة أو يرحل إلى الحجاز. وأنا واثق من أن عشائر شمَّر الذين ينزلون على امتداد الحدود الجنوبية من منطقتكم سوف ينضمون إليك ويعينونك عليه، ولن يستطيع سكان واحة الجوف أعوان ابن رَشيد مقاومتكم».

فرد الأمير قائلاً: «مشورتك يا أخي جيدة، ولسوف أعمل ما بوسعي لاتّباعها. فإنني مستعد لمسالمة العمارات والدّهامشة الآن، لولا أن جماعتي غاضبون منهم، وقد قر عندهم أن هؤلاء قوم لا ذمام لهم، فهم يفرون بالغنائم عبر الفرات ليكونوا في حمى الحكومة التركيّة. وأنا وابن سعود تجمعُنا صداقة، وهو يراسلني وأنا أراسله. إنه وضع غريب. فابن سعود يلتمس أية ذريعة ليتابع الحرب مع ابن رشيد الذي أسرته منقسمة على نفسها بفعل المناورات التي يتولاها عنه الوزير ابن سبهان: وقد لجأ فيصل وآخرون من أسرة ابن رشيد إلى عدوهم التقليدي، ابن سعود[1]، بعدما طردهم الوزير ابن سبهان، ويحضونه الآن على قتال الوزير الذي يتمتع بالنفوذ عوضاً عن الأمير القاصر ابن رَشيد. وابن سعود تحدُّ من حركته الحاميات التركيّة في منطقة الأحساء على الساحل فضلاً عن عدم قدرته على بلوغ البحر».

«أليس هناك اليوم من سلطة في واحة الجوف؟».

(1) كان آل سعود في الأصل أولياء نعمة آل رشيد، إذ عيّن فيصل بن تركي جدّهم عبد الله بن رَشيد حاكماً على جبل شمَّر، ثم بوفاة فيصل واشتجار ابنيه عبد الله وسعود استقلّ آل رشيد.

«لا، ذلك أنه لما طرد فيصل آخر نائب لابن رشيد، أو بالأحرى هرب خشية القتل، أرسل ابن سبهان حاكماً آخر يحل محله في المنطقة. وما زال أتباع فيصل مخلصين لسيّدهم القديم، وقد دعونـي لاحتلال الواحة، لإعراضهم عن الخضوع لحاكم جديد. وهذا ما سوف أفعله، لأستعيد لأهلي وعشيرتـي ملكاً اغتصبه منا ابن رشيد قبل ستين عاماً ولكنَّ دماً كثيراً سوف يُسفح في سبيل هذا. وقد لجأ أتباع ابن سبهان والأمير ابن رشيد القاصر من جهة أخرى إلى قلعة مارد، وليس لدينا السّلاح اللازم للاستيلاء عليها وطرد الحامية منها. إن قارا والطوير سوف تتبعنا، ولكن أكثر من نصف أهالي سكاكا سيقاوموننا. ولسوف تنشب معارك بين الأهالي وسيكون السكان أشد قسوة منا. وصدقني يا أخي إنّـي أخشى حمل المسؤولية لئلا يجازيني الله على ما سوف يُسْفَك من دماء. ولذلك تراني عاجزاً عن اتخاذ قرار كما أنني أعارض نوّاف لهذا السبب».

قلت: «أعلم يا النّوري بما يراودك من مخاوف، ولكن إذا اقتتل أهل الجوف في ما بينهم فلن يتوقف القتال حتى يأتـي من هو أقوى منهم ويفرض عليهم السلام. فراقب وانتظر. وإذا لم يرسل ابن رشيد جيشاً قوياً إلى الجوف لفرض السلم، فعليك أنت القيام بهذه المهمة. ولسوف تنقذ عندئذ أرواحاً كثيرة وتحفظ ملكاً واسعاً، وتعيد لقبيلتك ما كان لقرون طويلة ملكاً لها. وإذا تدخلت فعليك أن تزجَّ عندئذ بكل ما لديك. ولسوف يعينك الله على هذا الأمر».

وفيما كنا نتداول في موضوعنا صرنا إلى آبار المعيصرة حيث تنتصب نخلتان (الشكل 8). فقام الأمير بسقاية جمله وجواده بالدّلو الذي لدي والذي كان الطلب عليه شديداً.

* * *

في عصر يوم الجمعة، 22 يناير، أقمنا منازلنا عند بئر نباج، وحضَّرنا المؤن لرحلتي التالية. وقد حملت من المؤن ما يكفي ستة أشخاص مدة ثلاثين يوماً أو خمسة وثلاثين، ووزعتها بين خمسة من الجمال.

كان على فريح الأسود أن يرافقني كعلامة مميزة تعني أنـي بحماية النّوري، ولذلك فإنه اختص بجمل، وعليه، مثل محمّد، أن يقود جملاً محملاً بالأحمال. ولما مضيت لوداع الأمير وجدته أمام خيمته جالساً القرفصاء بين الجمال يصدر الأوامر لاثنين من البدو. وما أن صرفهما حتى استويا على ظهر راحلتيهما وللتو اختفيا خلف منحدر كان يحد مضارب الأمير من ناحية الشرق. فما كان لهذين البدويين إلاّ أن يبددا الوقت بلا جدوى، ولديهما الأوامر ببلوغ الجوف قبل فجر اليوم التالي ومقابلة الأمير في اليوم الذي يليه. والجوف يبعد تسعين ميلاً. وكان الأمير قد بعث برسولين لتَبْلُغَ الرسالة وجهتَها، إن صادف أحدهما أمر على الطريق.

* * *

5- على دروب الموت

تلال بُسَيطا الحزينة

رافقني الأمير إلى خيمتي.

قال: «لسوف تسلك يا أخي دروب الموت، حيث لن تبرز لك عصابات قطاع الطرق وجماعات السلب والنهب وحسب، بل سيكون هناك لصوص فرادى، كل منهم يتربص بك ويريد قتلك أيضاً. وهناك لن تنفعك حمايتي، إذ لن يدري أحد من الذي قتلك. والأشقياء في نواحي تيماء ينتمون إلى قبائل مختلفة ويتنقلون في تلك الجوار وجميعهم تقريباً أعداء لنا. لذلك كن على حذر وارجع إلى أصحابك سالماً معافى».

وكانت مغادرتنا نباج يوم السبت المصادف في 23 يناير، وقد سلكنا الطريق الموازي للطرف الجنوبي من وادي السّرحان باتجاه جنوب شرق. وفي العصر توقفنا بالقرب من تلّ رملي وعر تقع عند قاعدته نَبك الشرقي وهي واحة صغيرة يظللها عدد من أشجار النّخيل. وهناك قرية نصفها خراب ومهجورة. والمنطقة برمتها يمكن استصلاحها لتغدو بستاناً من خمسة آلاف نخلة مثمرة، إن توافر لهذا الثمر والسكان الأمان[1].

مضينا سائرين على الدرب عدة أيام دون حادثة، وكنا غالباً ما ننطلق قبل الفجر.

* * *

(1) من المفيد جداً مقابلة هذه الأوصاف على رحلة الإيطالي كارلو غوارماني عام 1864.

أثار فريح الزنجي عدة اعتراضات على خروجنا باكراً، منها أن الجمال بحاجة للراحة التامة شأنها شأن المسافرين أنفسهم وأنه من الخطر إشعال النار في عتمة الليل على دروب الدم وطرق الموت. وكانت اعتراضاته في محلها، لكن الرجل قصر عن ذكر أنه هو ذاته لا يستهويه البرد القارس الذي يأتـي مع الفجر ويطيب له الدفء الذي يجده في فراشه!

توقّفنا عند آبار شغار وآبار صبيحة حيث ينمو نوع من شجر الغضا السّام للجِمال، ومررنا من ثم عبر سهل بسيطاء القاحل حيث لا ينمو نبات السُّمْح[1] إلا بعد أمطار الشتاء. وهذه النبتة يستخدمها البدو بدل الدّقيق بدقها بعصا ثقيلة ونخلها، وبذلك يفصلون الحبوب البنّيَّة النقية.

لقد تكوَّن هذا السّهل القاحل عبر سلسلة لا نهاية لها من عوامل الحت والتعرية عبر قرون لا تعد ولا تحصى. وكان مغطى قبل عهد طويل بتلال من الحجر الرّملي لكن الرّياح والأمطار والصقيع عملت على تآكل سطح التلال حتى لم يبق إلا الدّاخل الصّلب الذي استعصى عليها وكانت تغطيه الرّمال المتنقلة مرة بعد مرة. وهكذا تشكلت التلال الرّملية التي أضفت عليه بتوزعها على مساحة السّهل المظهر الحزين الذي تحدَّث عنه الشعراء العرب. وبسيطاء عندهم سهل تنتشر فوقه حصباء من مختلف الأشكال وقاحل لخلوه من الماء. ويقال إن العبد التابع للشاعر المتنبي شاهد فيها أثناء هروب الشاعر من مصر إلى العراق ثوراً غريب الشكل ، ولعله المهاة، فحسبها مئذنة كذلك شاهد فيها أحد الرحالة نعامة فذكر أنها شجرة نخيل. وربما يكون هذان قد التبس عليهما المشهد، وهذا الخطأ جائز في حرارة الهواء حين يهتز بستائر من الغبار.

نزلنا في وادي الجمال حيث بتنا ليلة بالقرب من جماعة متنقلة من العربان رعايا ابن جندل. فدعانـي شيخهم صياح بن جندل إلى خيمته. ولابن جندل ثأر أقسم على أن يناله من النّوري بسبب قتله فهد.

---

(1) حول السّمح انظر ما يفصّله كارلو غوارمانـي في رحلته ضمن سلسلتنا هذه، ص 117.

لقد كان شديد الامتنان لي حين وافقته الرأي بأنّ حاضرة الجوف، وليس كل الواحة، كانت في طاعة أسرته وما تزال تعرف بحق بدومة الجندل، حتى إنه عرض عليّ صداقته وقدم لي عشاءً من التّمر واللحم المعلب انتقاه بنفسه وقام بعجنه ووضعه في يدي. وألح علي بالبقاء في الغد، وهو موعد الكشف عن وليده للمشاركة في المائدة التي دعيت إليها جميع النسوة من أهله.

والمرأة تحيا حياتها بعد الولادة كما كانت قبل الوضع فلا يتغير نمط غذائها. كذلك لا يُذْبَحُ حيوان قرباناً للوليد صبياً كان أم بنتاً. والوليد يُحَمَّم سبعة أيام بعد ولادته ببول الجمل ويُفرك جسمه بالملح. وفي اليوم العاشر أو العشرين أو الأربعين تقوم النسوة من قريبات الوالدة بجمع الأطعمة لعشاء تدعى إليه كافة النساء وبعض الرجال فيستطلعون هيئة الطفل. وبعد العشاء تقوم الأم بزيارة أقاربها ومعها الطفل وتجمع منهم الهدايا. وهنا يقدِّم كل شخص هدية، غالباً ما تكون جملاً صغيراً أو مهراً، وتظل الهدايا ملكاً للطفل.

وحين تعود الأم إلى البيت تعلن اسم الطفل للأقارب. وهذا حق لها. والأم تختار الاسم أحياناً دون كثير من التفكير أو تأتـي أحياناً أخرى باسم يفرضه تأثير معين. ومن ذلك أن زوجة النّوري وضعت غلاماً والقوم نازلون بالقرب من قلعة خفاجة، فكان أن أسمت وليدها خفاجة، نسبة إلى المكان[1]. وهناك امرأة أخرى وضعت والمطر يهطل غزيراً فأسمت صغيرها مطراً. كذلك رجت زوجة كردي أن يرزقها الله غلاماً فأجاب رجاءها فأطلقت عليه اسم رَجا. وعانت زوجة عودة الكويكبي مخاضاً عسيراً فقالت للوليد «لسوف تدعى عسير». وهناك امرأة امتلأ قلبها ثورة بسبب اتخاذه زوجة ثانية فأسمت ابنها «مريض». كذلك فإن العبد حماراً ضرب زوجته قبيل ولادة ابنها فزعلت منه وأسـمت ابنها «زَعَل». ولما ولـدت بعد حـين بنتاً قالت الأم «إن اسم والدك حمار، ولسوف يكون اسمك أنت بقرة». وليس ثمة حيوان أو نبات إلا ويُطلق اسمه على الولد.

---

(١) هويتُ في العشرين من عمري صبيّة بدويّة سمّاها أهلها «شاميّة» لأنها ولدت بالشام.



الشكل 10: شجيرة غضا جافة في النّفود



الشكل 11: هوة في الرّمل في النّفود

محنة كلب

تابعنا طريقنا على الطرف الغربي من النّفود ومعنا فتى من الشّرارات يدعى مسعوداً ليوفر لنا الحماية من أهل عشيرته.

شاهدنا في أحد الوديان صخوراً ضخمة أكسبتها الأحوال الجوية على امتداد العصور شكلاً مستديراً، ولكنها تبدو معلقة بسبب تآكل قاعدتها، وتستند كالسكرى إلى بعضها أو تميل إلى أحد جوانبها، أو تبدو وكأنها ساقطة. وكان ذلك مشهداً يستلفت النظر.

ثم انضم إلينا شخص آخر من الشّرارات واثنان من الرّوَلة على جمل واحد، وقد سَرَّهُم أن نقدم لهم المساعدة، بينما أبهجنا أن نجد بندقيتين تضافان إلى سلاحنا.

كانت مسيرتنا في الرّمال شاقة، فتوقفنا هناك لاستطلاع المنطقة. فشاهدنا أولاً القمم البركانيّة المتناثرة لكور مليح، ثم إلى الشرق تلال الهوجا المنبسطة كالحصن ومن بعيد باتجاه الشرق ظهر رأس تل، بينما برز إلى الجنوب قرنا [جبل] الحصان. وما بعد ذلك انتصبت التلال الصّخرية مثل قلعة قوطية عملاقة. وما تحت هذا النّفود، ذلك البحر من الرّمال الممتد عند سفوح جبال الطويل الشاهقة (الشكل 19).

قمنا بتنظيف بنادقنا وألقمناها خراطيش جديدة. ثم إذا بنا نجد أنفسنا في الظلام الدامس عند طرف فجوة أشبه بالبؤرة فأثارت الخوف في جمالنا. ولقد بقينا فترة لا نستطيع فيها أن نتحرك فلا نتقدم إلى الأمام ولا نستدير إلى الخلف. ولكن كان لا بد لنا من دخول التيار وعبوره بطريقة ما. وتلك مهمة شاقة ومجازفة خطرة. فَحَثَثْتُ ناقتي على التقدم، ولكنها عجزت عن أن تجد أرضاً صلبة لتطأها في ذلك المنحدر الرّملي، فأخذت تنزلق ومضت تجرّني معها، وعندما تمكنتُ في النهاية وبعد جهد كبير من الصعود بها إلى الطبقة الصّلبة انفسح المكان وانزلقت الناقة وأصبحت مغموراً في تلك اللحظة تحت ركام هائل من الرّمال. فأسرع فريح ومحمّد لنجدتي فأصبحا هما أيضاً مغمورين تحت الرّمال.

وما إن انعتقنا من انهيار الرّمال حتى حفرنا مدرجات في الطبقة الصّلبة لتستطيع الجمال العبور إلى الطرف الآخر، فلما أصبحت أخيراً في أمان استلقينا وقد نال منا التعب كل منال حتى لم يعد يعنينا تدبير الفراش. وفي الرّمال أضعت ساعتي والنقود والعصا التي أستخدمها في توجيه الناقة.

ووجدنا أنه لم يبق لدينا إلا القليل من الماء، وأقرب بئر يبعد عنا مسافة طويلة ولاحظنا في الرّمال عندئذ آثاراً حديثة لست نعامات، وشاهدنا على أعلى تل من الرّمال قريب منا ثمانية عشر نسراً، بينما توارى اثنان من الغربان في دَغَلة من نبات الغضا.

هتف دليلنا مسعود: «انظر يا شيخ موسى فوق التل! هؤلاء هم الرّوَلة، والغرابان المختبئان بعيداً إنما هما جماعتنا، الشّرارات».

ولما كان قد بلغنا أن ثمة عصابات من قطاع الطرق عند آبار مليح فقد حولنا طريقنا نحو موت. ولقد طالعتنا تلال أخرى ذات أشكال مذهلة وحفر ضخمة أشبه بالقموع في كثبان الرّمل. فتبعنا في طريقنا سهلاً مجدباً مقفراً من النبات على ما يبدو حتى واجهنا فجأة حوضاً عميقاً يصعب النزول إليه. وكان الشّرارات قد حذرونا من المياه في موت التي يقال إنها ذات مذاق كريه ولا تصلح لشرب البشر أو البهائم وتسبب إسهالاً شديداً. ثم بلغنا أخيراً يوم الأربعاء 27 يناير آبار الحصان في وقت متأخر من الليل. وكانت حتى هذه الآبار شحيحة لدرجة أننا أمضينا ثلاث ساعات كي نملأ قِرَبنا، ولم نتمكن من سقاية سوى جملين فقط بما بقي هناك من الماء. فأخذ فريح ومسعود الجمال الأخرى لسقايتها من الآبار الشمالية.

وكان في منطقة الشّرارات مقبرة عند كل مكان للسّقاية تقريباً. وهذا ما كان في الحصان أيضاً. ولقد رأينا أحد الكلاب الشاردة مستلقياً فوق واحد من القبور. والقوم لا يَدَعُون الكلاب تنام إلا بجانب حجرة النساء، ويحظر دخولها منازل الرجال، فهي عند البدو نجسة، ولا يسمح لها بالأكل من إناء مخصص للأكل أو طهي الطعام.

أما الكلاب الأهلية فإنها حيوانات ذات بنية قوية وشعر قصير كثّ ورأس ضخم. وتتولى هذه الكلاب حراسة الإبل والبيت وردَّ الوحوش الضارية والسُّراق الذين يتسللون إلى مضارب العشيرة في ظلام الليل. فويل للضيف الذي يضطر للخروج مراراً من خيمته في الليل! فهذه الكلاب كفيلة بأن تعمل فيه نهشاً وتمزيقاً إن خرج بلا رفيق تعرفه هذه الكلاب.

والكلاب تغدو بعدئذ متعلقة بربة المنزل، وكثيراً ما تُظهر إخلاصها بطريقة غريبة. ولذلك ذهب محمّد إلى الاعتقاد بأن هذا الكلب ربما كان يحرس قبر امرأة من الضباع المتطفلة.

قال الرجل: «لا تعجب، يا موسى، فهذه حقيقة. وقد خبرتها بنفسي، إذ كان لدينا كلب حراسة ممتاز، دأبه أن يتبع سيدته أينما ذهبت. ثم كان أن استدعى الله، ونحن في وادي السّرحان، راعية منزلِي إليه فأطاعت الأمر. ثم قمنا بالدّفن في بقعة لا تبعد كثيراً عن مضارب العشيرة، ومضينا بعدئذ نقصد مكاناً آخر. فافتقدنا عندئذ الكلب فإذا به قد اختفى عن الأنظار، وما عاد يظهر لنا.

وبعد ثلاثة شهور جاءني ابني وأخذ يبكي مُرَّ البكاء حين علم بوفاة والدته، وطلب أن اصطحبه إلى حيث كان قبرها. أتدري ماذا وجدنا هناك، يا موسى؟ إنه الكلب الذي كان يحرس منزلنا. ورأينا الرّمال حافلة بآثار الأقدام وقد تناثر فوقها شعر الضباع التي طردها الكلب وردّها عن القبر. وكان هذا الكلب يروي ظمأه من نبع بالقرب من المكان ويقتات من الجراد وبراز البشر وروث الحيوان. وقد ظل الكلب على هذه الحال ثلاثة شهور يحرس القبر، في منزل صاحبته الجديد».

«وهل عاد معك؟».

«لا، بل مكث حيث كان يقوم على حراسة صاحبته».

* * *

بين الشّرارات

إلى الجنوب منا أبصرنا دخاناً يتصاعد إلى السماء، وهذه دلالة على وجود مخيم، وأخبرنا بعض الرّوَلة عند الآبار، أنه يخص الشيخ ابن قريطان، وهو صديق حميم للنّوري. ولقد صادفنا على الدرب بعض النبات البهيج مما ينبت في الربيع، وودنا لو أن جمالنا ترعى منه، لولا أننا خشينا الاستراحة قبل أن نعقد مع أهل تلك المضارب علاقات الصداقة.

ولقد سمعنا صيحات نذير ولعلعة رصاص وأطبق الهجّانة على قطعانهم ثم لاذوا بالفرار. وكان السبب في هذه الجلبة أن أولئك القوم حسبوا أننا طلائع جماعة غازية! فمضينا في تقدمنا، وأخذ اثنان من الشّرارات من جماعتنا ينادون: «يا شرارات، ونحن أيضاً من الشّرارات!».

وفي النهاية اقترب منا أحدهم، وكان مسلحاً، فإذا به يعرف رفيقنا محمّد راعي الصّبّارة، فينطلق ضاحكاً:

«بما أنكم في صحبة محمّد راعي الصّبّارة، فعليكم الأمان، وأنتم لستم من الأعداء».

وسرعان ما أحاط بنا نحوٌ من عشرين مقاتلاً مسلحين ببواريد جيدة وأخذوا يستعلمون منا عن المخيمات ثم قاموا بمرافقتنا في جزء من الطريق.

والشّرارات من العشائر التي يُستصغَر شأنها في جزيرة العرب، فهم فقراء إلى حد يرثى له. وأرضهم جرداء قاحلة مجدبة، وليس فيها ما يكفي من المرعى والماء. ولذلك فهم يعتمدون على كرم الضيافة في أراضي الجوار لقاء مدفوعات مختلفة. وإذا ارتوت أراضيهم من مياه الأمطار احتلها جيرانهم وأتت قطعانهم على كل ما ينبت فيها. والشّرارات لا يملكون رداً على الجوار لأنهم يعتمدون أريحية الجوار في السنوات العجاف حين تجفُّ منطقتهم. وهذا هو السبب الحقيقي للازدراء الذي تقابل به العشائر المجاورة للشرارات.

وبعد تحيات مقتضبة تبادلناها وزعيمهم مضينا في طريقنا. وما كان بوسعي أن أشيح النظر عن المشاهد التي بدت أمامي وحولي. فقد وقعت عيناي حينئذٍ على ما بدا مثل قلعة حديثة مستطيلة الشكل: خيام مستديرة تبرز من النهايات، وفي الزوايا والوسط أبراج طويلة مستديرة ذات سطوح منبسطة، وفوق الجدار الجنوبي انتصب برج فريد في شكله كبرج الكنيسة وكانت جميعها ذات صفوف من النوّافذ لاستخدام الأسلحة، والحصن الضخم كله محاط بسواتر ترابية عالية ذات لون يميل إلى الصفرة. ولكن، لا! لم يكن ذلك إلا نقش الطبيعة على درب من الحجارة الرّملية الناعمة والصّلبة، والسواتر الترابية إنه العجاج.

نظرت بعيداً، فرأيت في الفضاء شرقاً صحراء النّفود التي يكتنفها الغموض ويغلب عليها اللون الأصفر المائل إلى الحمرة، وإلى الجنوب شرق ظهرت الأسر المتنقلة، وهي تلال منعزلة اكتسبت اسمها هذا لما تبدو عليه عن بعد من شبه بعربان مهاجرين مع ركاب المطايا ورجال راجلين وجمال ذات أحمال وقطعان كبيرة وصغيرة من الإبل.

وكان تعليق فريح، حين رويت له أصل الأسر المتنقلة: «يا موسى، ما الذي لا يغيب في هذه الدنيا. كل شيء إلى زوال، والباقي هو الحي القيوم».

وفيما كنا ننظر إلى هذه الأشكال الغريبة اخترق سمعي صوت أزيز طلقة مرت فوق رأسي. والتفت في تلك اللحظة المناسبة فرأيت وراء صخرة إلى اليمين منا عدة رجال على ظهور الجمال ومقدمهم يهم بإعادة تلقيم بارودته. ووجدته يرفعها حتى خده مسدداً فوهتها نحوي، وشاهدت الوميض والدخان يخرج من فوهتها. فهل تراها تصيبني؟ ورأيتني أغطس في حركة تلقائية في مكاني. والحمد لله! لقد سمعت أزيزها على بعد بضعة بوصات فوق رأسي، لكن التسديد كان محكماً. وفي تلك اللحظة التقطت بارودتي وكدت أطلق على ذلك الشخص لولا أن الدليل مسعود اندفع بجمله ووقف بيننا، ومد عباءته، وصاح:

«يا شرارات، لا تذبحوا أهلكم».

واندفع المعتدون وانقضوا عليه وأنزلوه عن جمله ولكن ما أن تبين لهم أنه من الشّرارات حتى اعتذروا وحمدوا الله أن حادت طلقاتهم ولم تصبنا بأذى. وما شعرت بالارتجاف إلا بعد ما مر الخطر وانقضى وإنه لشعور غريب ينتاب المرء عند رؤية سلاح يُسدد إليه وينطلق منه النار.

وبعد حين انضم إلينا خمسة آخرون من الشّرارات، وبذلك أصبح عددنا اثني عشر، وفي ذلك ما يكفي لرد أية جماعة من اللصوص. وقمت عندئذ برسم خريطة للمنطقة، ثم تناولنا جميعاً العشاء.

ولما بلغنا آبار العسّافية، يوم الجمعة، وهي آبار تبلغ الأربعين ياردة عمقاً، صادفْنا مقبرة تحيط بها أسوار قليلة الارتفاع وتتخللها فتحات ضيقة. وكان في مقدمة كل قبر لوح من الحجر، شاهدة، بارتفاع قرابة العشرين بوصة. وقد زعم مرافقي أن هذه قبور بالغة القدم، ويرجع عهدها إلى سكان جزيرة العرب الأوائل وأنهم لا يقيمون هكذا أسواراً.

لما كانت جمالنا لم تنل إلا القليل من الماء في الحصان، لذلك استبد بها العطش. وللتو وجدنا أحد الفتية الشّرارات يتجرد من ثيابه وينزل إلى البئر، فأدلينا له الدلو المصنوع من قماش القنب بالحبل. وكان كلما ملأ دلواً جذبنا حبله وصببنا ما فيه في وعاء عميق فتطفىء به الجمال ظمأها. ثم جذبنا الفتى إلينا بالحبل، فانتقل إلى بئر آخر وتكرر الأمر مرة بعد مرة.

ولما تركنا الآبار افترق عنا أصحابنا الرّوَلة والشّرارات ومضوا نحو الجنوب غرب، بينما تابعنا الطريق مصحوبين بمسعود في البطحاء المقفرة ناحية الجنوب.

نحو واحة تيماء

في تلك الليلة وباكر اليوم التالي تحدثت إلى رفاقي في أمر رحلتنا. ذلك أنـي وددتُ المضي إلى تيماء واستقصاء مقبرة مجنة القديمة.

أخبرنـي الرّوَلة والشّرارات عن قلاع قديمة مبنية بين الصخور هناك وعن قبور منحوتة في التلال المكونة من الحجر الرّملي، وقد حدا بـي الأمل أن أعثر هناك على نقوش نبطية. ولكن الأمير النّوري أخبرنـي والرّوَلة والشّرارات الذين كانوا يرحلون من الشمال عن اضطراب شديد في واحة تيماء ونواحيها، وعلمنا أن المنطقة ظلت في حمأة الحرب الأهلية طوال خمسة أشهر. وكان عبد الرحمن بن رشيد يخشى هجوماً من النّوري لا يقتصر على الجوف وحدها وإنما يمتد إلى تيماء أيضاً، وكان السؤال هل يجدر بـي وأنا صديق للأمير أن أمضي إلى تيماء فيحسبني ابن رشيد رسولاً من الأمير ليشعل الثورة بين أهل تيماء ليهبوا ضده. فكيف سيلقانـي عندئذ؟ أتراه سيعمد إلى طردي من المنطقة أم تراه سيبقيني رهينة لديه؟ ولكن يمكنني أن أعتمد على الرّوَلة في ضمان سلامتي طالما ظلوا يضربون خيامهم عند تيماء ويردون آبار حداج هناك، وعلى هذا اعتمدت. ولكن الرّوَلة كانوا على كل حال في نجعة ولم يمكث منهم سوى بضع أسر. فإذا غادر هؤلاء أيضاً منطقة الواحة أَتى واحتلها أعداء الرّوَلة.

كانت الدّروب إلى تيماء مليئة كلها باللصوص الذين ما كان ليردعهم رادع عن القتل، ولذلك عرفت بدروب الموت. وقد أخبرني من هم أهل الثقة أنه ما كان يمضي أسبوع واحد لا يُقتل فيه أحد العابرين بالقرب من تيماء. ومع ذلك فقد توفرات لديَّ توصيات كثيرة للقاطنين هناك وعدة أشخاص من آل رشيد، وتهيأ لي أن هذه التوصيات لم تفقد قيمتها، نظراً لاعتماد هؤلاء من نواح عديدة على صِلاتهم بأهل دمشق الذين زوّدونـي بالتوصيات. وهكذا استقر عزمي بعون من الحضر ومساعدة من الرّوَلة الذين أقاموا معسكرهم بالقرب من تيماء على متابعة عملي. ولكني كنت شديد العول ألا يغادر آخر الرّوَلة تلك البقاع قبل وصولي.

لمح تومان بعض العرب يتقدمون من ناحية الجنوب. فمضيت ومسعود فوراً للانضمام إليه، ورحنا نرصد الوضع، ونحن منبطحون على الأرض ونرفع رؤوسنا فوق حافة الركام الرّملي. ورأينا جنوب غرب التل ثلة من الهجّانة وبعض الجمال مع الخيام وعدة فُرسَان من الواضح أنهم من الرّوَلة الرُّحَّل.

كنا على مقربة من تيماء، وإلى الجنوب غرب من الموقع برز تل غنيم، وإلى الأمام مقبرة مجنة حيث كنت اعتزم العمل. وإلى الشمال من ذلك التل، وفي أرض منخفضة غمرتها تيارات من الهواء، كانت واحة تيماء. أفترانا نستطيع بلوغها؟

بعد بُرهة صادفْنا اثنين من الهجّانة فأخبرانا بأنه لم يعد في تيماء حتى رويلي واحد. ونصحني شيخ عشيرة النصير حين جاءني بعيد وصولنا بأن أدع حقائبي كلها في عهدته وأمضي إلى تيماء أنا والعبد فريح والدّليل مسعود خفافاً على الهجن. ورأى أنه ربما بوسعنا بلوغ قبور مجنة أحياء بعون الله وأسلحتنا وسرعة جمالنا.

وقال لي محذراً: «أعداء الرّوَلة يحومون كالضّباع والذئاب، وأنت مُوالٍ للرّوَلة».

ولكن المحذور أنه دون حقيبتي والأدوات العلمية ما كان بوسعي العمل على الوجه الأمثل سواء في المقبرة أو في تيماء، وكيف لي سوى ذلك أن أبحث عن محمّد وتومان والحقيبة؟ فالرّوَلة في نجعتهم، ومن يدري إن كانوا سيرحلون شمالاً أم نحو الشمال شرق، أم سيتوجهون شرقاً؟ ومع ذلك لم يكن بوسعي أن أقرر التخلي راضياً عن هدفي، وهكذا كان أن تابعت جاداً، صامتاً المضي على الدرب الذي كنت عزمت على تنكبه. ولما اختفى آخر الرّوَلة الرُّحَّل عن نظرنا أطلق فريح زفرة وقال يخاطبني:

«يا شيخ موسى، إننا سوف نتبعك أينما تذهب. فإن مضيت إلى تيماء تبعناك ولو كلفنا ذلك. أعناقنا. والله يتدبر أولادنا».

فلما سمعت مقالة فريح أدرت بعيري نحو الشمال شرق. والحق أنّي لم أكن اعتزم على كل حال دراسة تيماء أو مجنة.

ملأنا القِرَبَ من آبار الماء في أُبيط ومن ثم اتجهنا يوم السبت الواقع في 30 يناير شمالاً ومضت الجمال في طريقها ببطء شديد بسبب ما كانت تعاني من أثر مسيرها على الأحجار الرّملية المزعجة، وكأنها صحاف منتصبة على حوافها.

في الظهيرة لاحظنا آثار خفاف جمال حديثة هنا وهناك على الرّمال الدقيقة التي كانت تكسو بعض مواضع السّهل. ولما رحنا نتفحص تلك الآثار عن قرب خلص رفيقاي إلى أنها آثار بهائم مسكنها النّفود، لأن أخفاف إبل النّفود تجعلها الرّمال الحادة وكأنها هي مُسَّواة بمبرد، ولذلك نجد آثار أخفافها ناعمة مُسَّواة أو تُظهر عدداً كبيراً من الإعوجاجات الدقيقة. ولقد قدرنا أن عدد القطيع حوالي المئة من ناحية جنوب شرق إلى شمال شرق. وإذن فلا يمكن أن يكون هذا إلا ظعن الشيخ ابن رَخيص الشّمَّري. والذي عهدنا به يقيم مضاربه في الجزء الغربـي من النفوذ ويورد جماله من الآبار عند تخوم المنطقتين الصّخرية والرّملية. ولما كانت شمَّر منشغلة بالحرب مع الرّوَلة كان استنتاجنا أن ابن رخيص منشغل بالإغارة على إحدى عشائر الرّوَلة شمال العسافية. وإذن يجدر بنا ألا نقابل هؤلاء الغزاة.

وهنا أخذت الشمس تميل إلى الغروب وقد اكتست السماء بلون خلاَّب يحمل الناظر على الإعجاب. وبدت السّماء في الغرب وكأنها مغطاة بلون الحمم البركانيّة الأحمر كالدّمّ ومن بين الحجارة البركانيّة انتصب عمود أسود من الدخان، يتصاعد من البركان الوحيد ويصب في المنطقة البركانيّة الحمراء ويخترق فوهتي المحيط العجيب الزرقاوين. وبدا وكأنها البركان يكبر وظله يستطيل والدم يرقد ولونه يميل إلى السّواد. أشاح العبد فريح وجهه عن السماء الغربية وأخذ يتضرع إلى الله أن يكفينا شر المقتلة التي بدا أن غروب الشمس تؤذن باقترابها. ولقد أمضينا الليلة وراء تلّ من الحجر الرّملي.

النّفود

تابعنا الطريق عبر السّهل الذي لا يحدّه حدٌّ متجهين نحو عريق النّفود ذات اللون الوردي، وهي نتوء رملي تقذف به النّفود في وجه الريح ناحيةَ الغرب، وهي تريد كما يقول الشّرارات، خراب كل آبارهم. ولقد بدت تلال الرّمل قريبة منا، ومع ذلك لم نتمكن من بلوغها.

ظللتُ مغمضاً عيني لأقنع نفسي بأننا، حين أفتحهما بعد دقائق، نكون قد حققنا تقدماً في المسير، ولكن ذلك السّهل لم تكن له نهاية. وكان مسعود يغني بجانبي ترنيمة قصيرة تَدَبَّرها كيفما اتفق:

فـالَكُم يـا غَـزُو طِيْـبْ   فـالَكمُ طَـرْشٍ عَزِيْـبْ

فـالكم يـا غـزو طَيِّـبْ   فـالكم طـرشٍ قريِّـبْ

في الرّمال الناعمة وقعنا على آثار كثيرة للسّحالي، وآثار أقدامها الحادة على جانبي الأخاديد التي رسمتها أذيالها[1]، وبالقرب من دغلة من الشجيرات رأينا خطوطاً لولبيّة عديدة من أثر الحيات التي تستند إلى أجسامها، خاصة حينما تزحف صاعدة. كما شاهدنا عدة آثار حديثة العهد من آثار المها والنّعام والضّباع والذئاب. وقد صادفنا مرّة قبراً حديث العهد لأحد الشّرارات تسلّلت إليه الضباع ومن ذلك القبر برزت ركبتا الميت وقد التهمتهما الوحوش.

وأخيراً برز إلى اليمين منا تلٌّ معتم منفرد بذاته، وهو أحد المعالم في ناحية خنفة (الشكل 9). التي يستدل بها المسافرون من الشمال أنهم سوف يدخلون عما قريب الصّحراء الصّخرية فيما تنبئ المسافرين من الجنوب بقرب موقع الأرض اليباب ذات الرّمال.

بلغْنا حافَةَ الصّحراء الرّملية. ومن ينظر إليها من الجنوب يلحظ كثباناً من الرّمال لا عدَّ لها ولا حصر، منتصبة دقيقة الاتجاه، ممتدة من الغرب حتى الشرق وجميعها ذات ارتفاع واحد يفصلها عن بعضها بعضاً تجاويف يتراوح عمقها بين الستين والمئة قدم.

وفي عصر ذلك اليوم ولجنا نتوء النّفود الذي يرتفع تدريجياً عن مستوى السّهل. وعلى سفحه الجنوبي تنبت عشبة الغضا بكثرة، وهي إحدى أجمل النباتات في الصّحراء (الشكل 10).

---

(1) مع الأسف لم تعد طبيعة بوادينا في الجزيرة والشام تضمّ ذاك التنوّع الحيواني الذي كان آنذاك.

وهذه كثيراً ما تنمو لتصبح أشجاراً سامقة، وقد تبلغ من الطول خمسة وعشرين قدماً ومقطعها ثماني بوصات، وإنما تنمو وتغدو في الأغلب دغلاً وأغصان الغضا طويلة مرنة، واللحاء أبيض ناصع بلا شوائب، أما الأشواك فخضراء نضرة. والجمال تأكل الأشواك والغصينات الطرية وتلتذ بها. وأما الخشب فقوي، وإذا جف صار حطباً ممتازاً للوقود يكاد لا يُصْدر دخاناً عند الاحتراق، سوى اللهب الأبيض الذي يستمر فترة طويلة من الزمن ولا يترك إلا جذوات حمراء تحترق ببطء وتومض بصيصاً وتترك رماداً أبيض ناعماً. وما من وقود كالغضا ينشر مثل هذا القدر من الحرارة، وفحمها يظل على احتراقه فترة تزيد على عشر ساعات. وأية متعة تترك هذه الجذوات للمسافر الذي يرتعد من شدة البرد ولا يجرؤ، مع ذلك، على أن يظهر لهيباً في عتمة الليل، مهما تاق إلى الدفء. وحيثما تنمو شجيرات الغضا تتجمع الرّمال وتمسك بها عند الجذور فتنشئ بذلك نواة لتلال الرّمال الصغيرة.

وإنه لمشهد بائس يدعو للحزن الشديد ما يعترض المرء هناك من شجيرات اقتلعتها الرياح من جذورها. فتبرز من الرّمال أغصانها البيضاء الجافة البراقة وجذوعها ملتوية محطمة، وهي أشبه بعظام البشر أو الجمال البيضاء والتي تغطي أرضاً كانت ذات يوم ساحة معركة. والواقع أن شجيرات الغضا المقتلعة تتخذ مكانها متناثرة فعلاً على أرض كانت ساحة قتال، إنما لم يجرِ هذا القتال بين الرجال، بل بين النباتات الضعيفة والرياح العاتية وحليفتها الرّمال الخادعة. وبإيعاز من الريح تشكل الرّمال مرتفعاً بين سويقات الغضا وحولها فتسمح للنبتة أن تضرب جذورها في الأرض ولكن ما تكاد النبتة تشعر بالطمأنينة حتى تعود الرّمال فتنصاع لأمر الريح من جديد ويتحتم على الغضا المسكينة أن تفنى.

ولما وجدنا بعض كثبان الرّمل شديدة الانحدار عند أطرافها ولم نتمكن من ارتقائها فالتففنا حولها من ناحية الغرب. وفي هذا الالتفاف صادفنا آثار ثمان من المها الكبار وثلاث من الصغار. ثم أقمنا معسكرنا هناك تلك الليلة في حفرة منعزلة.

في يوم 2 فبراير بدأنا اجتياز النّفود الكبرى. والنّفود منطقة من أكثر المناطق المثيرة للاهتمام والتي حَبَتْها الطبيعة بالجمال في شمال الجزيرة. فالكثبان المنخفضة والتي تنبت فيها الزهور وجوانبها الشديدة الانحدار والتي ارتفعت فوقها الغضا وسواها من النباتات، أعطتها مظهر حديقة ضخمة أو مقبرة أشبه بالشرفة مزروعة بالصفصاف النواح والبتولا. وقمم الكثبان الجرداء تُذَكِّر المرء بأنهار الجليد في الجبال العالية، والتجاويف بين الكثبان أشبه بالوديان الخضراء بين الجبال. ولكن الأرض تخلو هنا من الماء وتربة هذه المنطقة الجميلة رمال خدَّاعة. إن البحر ذاته ليس بهذا القدر من الخطر كالرّمل الوردي اللامع البراق والذي يشكل هذه البطاح الملساء الرائعة. والعين تدع نفسها تستسلم للخداع والراكب يعتبر أنه من طبيعة الأمور أن يبلغ مقصده بسرعة إن استعجل فيحث راحلته على الإسراع.

وهناك مواقع تكون فيها الرّمال شديدة الصلابة حتى إنها لا تحتفظ حتى بأثر القدم، فتجد الدابة تغوص في الرّمل حتى ركبها ويتحتم على راكبها أن يسرع فيميل براحلته المذعورة، إن شاء أن يتفادى كارثة محققة. وكثيراً ما تجد الجمل يمضي خبباً على أرض رملية مستوية فإذا به حين يلج ما يرى أنه لا يعدو عن مرتفع صغير، يجد نفسه على حافَةِ جدار واقف من الرّمال: وحسب الراكب عندئذ أن تخطو الدابة خطوة أخرى حتى يجد نفسه والحيوان المسكين مرميين في الوهدة العميقة وعظامهما محطمة (الشكل 11).

قال دليلنا بلهجة المتأمل: «النّفود حافلة بالدروب في كل مكان، ولكن ليس هناك في النّفود مع ذلك دروب. ومن لا يعرف النّفود عليه ألا يخوض فيها، ومن يضل طريقه في النّفود فَقدَ حياته».

يتعين على كل قبيلة تريد النجعة، وكل جماعة غازية أن تتدبر دليلاً يحيط بالنّفود وأحوالها، وهذا يكون في الغالب صياد نعام أو مها. فالذي يعرف المسالك والمسارب بين كثبان الرّمل المختلفة وحده يستطيع الترحال في النّفود بحرية. وهذه الممرات تقع عادة بالقرب من الحفر الشبيهة بأشكال المداخن.

وبالقرب من آثار المها والنعام، لاحظنا على الرّمال آثار أقدام الظّربول المفترس. ويقال إن هذا حيوان أصغر من الكلب ظهره أصفر رمادي، وبطنه أسود ورأسه مثل رأس الكلب. ولجلده رائحة مميزة. والعهد به أنه يهاجم الجمال المنفردة بل وحتى المسافرين النائمين.

ولقد وجدتُ طائراً ذا لون أصفر بحجم الدجاجة يعرف بالتندارة ينفر بعد أن داهمته تحت دغلة الأرطة ويقال إن لحمه طيب المذاق. ورأيت الطائر يصفق بجناحيه بقوة ثم يطير ويحط على بعد بضعة مئات من الياردات ويختبئ من جديد وسط دغلة. واصطدت يومئذٍ أرنبين برّيين، وكان لون فرائهما مزيجاً من الأصفر والأحمر وينسجمان من حيث اللون مع الرّمال، بينما كان لون فراء الأرنبين اللذين اصطدتهما في المنطقة البركانيّة من البني الغامق أو الأسود. ولقد وجدت حتى الطيور الصغيرة في النّفود بلون الرّمال. ومن تلك الطيور أم سالم، وهو بحجم العصفور الدّوري، ويعرف بزقزقته الممتعة، والقصيرة والهادئة.

وقبيل الظهر راحت الجمال ترعى. ثم عبرنا فيها بعد عدة منحدرات خطرة، فاضطررنا بسبب انحدارها الشديد أن نحفر سلسلة من الدرجات في الرّمال وكنا نقود عليها البهائم بحذر. إذ يكفي أن نخطئ خطوة أو نتعثر أو تنزلق قائمة حتى يتدحرج الحيوان المسكين على هذا المنحدر السحيق. وأخذت الجمال ترتعد وتباعد أرجلها وتعتمد على القائمتين الأماميتين لتمتحن صلابة الأرض قبل أن تقدم على المسير. وجدير بالذكر أن النّفود تحفل بهذه التجاويف.

كثيراً ما بدا لي وكأننا نسير عبر كروم العنب وكان هذا الشعور يلحُّ عليَّ خصوصاً في المواقع التي تكثر فيها الأرطى على وجه الخصوص، حتى تغدو في كثير من الأحيان قصبات ضخمة ذات رأس يبلغ حجمه أربع ياردات عرضاً. أما أغصانها الجرداء فشبيهة بفروع الكرمة وتغطي تلال الرّمل كما تستلقي فروع الكرمة فوق أكوام الحجارة في شمال سوريا. وتبدو أغصان الأرطى النحيلة أشبه بالحبال وتمتد حتى لتبلغ من الطول، أحياناً، عشرين ياردة.

وأوراق نبتة الأرطى طويلة ضيقة كالإبر وتستخدمها النساء محل قشر الشجر المحتوي على حامض العفص في دبغ الجلود.

نصبنا خيامنا على الطرف الشرقي من إحدى الحفر. وكان التعب قد نال من جمالنا، ولما كنا في مخبأ جيد فقد آثرت ألا نتابع الرحلة في الليل. فوضعنا خارطة بالمكان وما حوله وتأكدنا من موقعنا على خط العرض ثم أمضينا بعض الوقت في إبدال ألواح التصوير.

شعرنا بالأمان في موقعنا في الفجوة، فأوقدنا النار في الصّباح وقمنا بتسخين القهوة، ثم امتطينا رواحلنا ونحن في حال من السّرور والابتهاج. وجدير بالتنويه أن كثبان الرّمل في ذلك الطرف من النّفود تمتدّ من الناحية الشمالية الغربية حتى الجنوبية الشرقية. وكانت هذه المنطقة من النّفود قد عرفت قبل بضعة أيام حشداً كبير من الرّوَلة يمر بها في نجعته مع ما يبدو من مئات، بل قل آلاف الجمال التي وطئت تلك الرّمال. وكان بوسعنا أن نرى آثارها إنما في الوهاد أما في المناطق المرتفعة فقد سُوّيت الأرض وانمحت الآثار تلك كلها عن سطح الأرض التي عادت محبوكة من جديد بتموّجات إهليجية ذات محاور عرضانيّة بزوايا قائمة حسبما اختطّتها آخر عاصفة رياح مرت بالمنطقة. ولم يكن هناك سوى بعر الجمال دليلاً على الاتجاه الذي اتخذته الحشود التي مرت.

إلى الجوف وسط عاصفة رملية

شاهدنا من بعد، وتحتنا، على ما يبدو، سلسلة جبال الطويل التي بدت أخفض من النّفود. ولقد أخبرنا رعاة الرّوَلة أن فيصل بن رشيد أوعز بردم آبار سُفان ليردع هجوماً معتزَماً على قومه. وكانت هذه الأخبار مخيّبة للآمال، فقد كانت سفان تحتوي ماء دائماً حتى حين كانت الآبار الأخرى تعاني الجفاف، وكنا قد عزمنا على سقاية جمالنا وتعبئة قربنا منها. ولذلك لم يعد أمامنا سوى شدّ الرّحال والسفر على عجل إلى الجوف. وهكذا خلّفنا النّفود وراءنا.

بعد فترة قصيرة سمعنا صوت دبدبة وكأنها وراءنا ألف فارس، ثم أحسسنا للتوّ بريح تعصف وأحاطت بنا عندئذ كميات وافرة من الرّمال. كانت تلك بداية عاصفة رملية قلّما صادفت مثلها في الصّحراء. فكانت الريح تصفر وتهدر وتجرف مقادير عظيمة من الرّمال وراءنا. وفوق الأرض التي كنا نجري عليها، كانت موجات الرّمال تبلغ ما بين الياردتين والخمس ياردات تعلو وتهبط مع الريح. وكلما واجهت الرّمال مانعاً أو منخفضاً من الأرض أزاحته أو ملأت التجويف وأسرعت تتابع طريقها على الأرض بعد أن سوَّتها. ولقد كان ضرباً من حسن الحظ أنها لم تلحق بنا ونحن في النّفود! ولو أنها أدركتنا هناك لكنا بالتأكيد من الفانين. كما كان من حسن حظنا أن العاصفة كانت تهب من الناحية الجنوبية الغربية نحو الناحية الشمالية الشرقية، وبالتالي تدفع بنا دفعاً!

وفي الظهيرة صادفنا رعاة من الرّوَلة، كانوا عائدين من أماكن السقاية في الجوف. وكانت الرياح إذا هدأت، كما يحدث أحياناً، تنقل إلى أسماعنا نداءات الرعاة التي تفيد بأن نوّافاً قد دخل الجوف قبل يومين وأعلن نفسه باسم أبيه أمير الواحة وضواحيها - وكان لهذا النبأ أحسن الوقع عندي، لأنني قطعاً سوف ألقى عنده الضيافة والحماية. أما الرعاة المساكين وجمالهم، الذين يتجهون جنوباً، فكانوا يعانون أشد العناء حتى ما عاد بوسعهم أن يمضوا خطوة أخرى، بينما أخذت الدواب تهمهم وتزمجر وتنوح مع هبوب الريح القوية. وفيما كنا نتبادل الحديث مع الرعاة راحت الجمال تمد قوائمها الخلفية وتدفع بالأمامية إلى الأمام لتكسب دعماً أمام الريح العاصفة.

ولما كانت الريح وراء ظهورنا فقد أسرعنا الخطى ناحية الشمال شرق. وسببَّت الرّمال لنا ألماً شديداً، بدنياً ونفسياً معاً، حيث امتلأت آذاننا وأفواهنا وأنوفنا، وخصوصاً عيوننا بحبّات دقيقة فأدت إلى التهاب الأنسجة الحساسة فأثارت معاناة شديدة. وتسرّبت حبيبات الرّمال الدقيقة إلى ملابسنا وأخذت تحتك بالجلد فأدّت إلى هياج أعصابنا. وهذا كله جرى والجوف ما تزال بعيدة!

وفي النهاية، شاهدنا، قرابة مساء 4 فبراير، أمامنا حوضاً عميقاً في سهل مليء بالحجارة وداخل ذلك الحوض قمم أشجار النّخيل الخضراء الداكنة. وكانت تلك واحة دومة الجندل (الجوف) تستقبلنا. فنزلنا عن مطايانا ومضينا نحو القرية. فاعترضنا عندئذ أحد الحراس ثم اصطحبنا إلى بوابة. ولكن ما إن جعلنا جمالنا تبرك على الأرض حتى وجدنا أنفسنا مطوقين بالعبيد ومحاربـي الرّوَلة المألوفين. ولقينا من هؤلاء استقبالاً حسناً.

عند نوّاف المتصر

كان البناء الواسع الذي يسكنه نوّاف ذا شكل مربع يحيط به سور عال ومدعَّمٌ ببرج مستطيل الشكل منخفض عند الزاوية الجنوبية الشرقية، وبرج آخر أعلى منه بكثير في الزاوية الشمالية الغربية. وكان إلى الشرق من البرج الأعلى باب، هو المدخل الوحيد الذي يفضي إلى ساحة واسعة. وعلى الطرفين الشرقي والغربـي من الساحة بالقرب من الأسوار المحصَّنة كان ثمة غرف أصغر مساحة. وكان من الممكن للمرء أن يصعد إلى سطح الغرف الغربية المنبسط بوساطة درجات عند الزاوية الجنوبية الغربية أما السطح الشرقي فلم يكن بوسع المرء أن يبلغه إلا بارتقاء شجرة نخيل. وكان السطحان يغطيهما سور الحصن الذي كان الجزء الأعلى منه مبنياً من اللَّبن.

وعند الزاوية الشمالية الغربية من الساحة كان ثمة باب واسع ينفتح على برج مستطيل واسع يتألف من طابقين مدعمين في الوسط بعمود ضخم. وفي الطابق الأرضي من هذا البرج غرفة واحدة مظلمة ومقابل الزاوية الجنوبية الغربية من الغرفة هناك جذع شجرة نخيل يصعد المرء عليها إلى الطابق الأول، ومثله جذع آخر يصل هذا الطابق بالثانـي. ومن الغرفة الوحيدة في الطابق الأول ينفتح باب صغير على السّطح الغربـي. وللبرجين شأنهما شأن الغرفة في الطابق الأرضي، فتحات إنما ليس لهما شبابيك.

جاء نوّاف للقائي وقادني إلى الغرفة الأرضية حيث كان هناك، خلف العمود، نارٌ عظيمة متقدة. فجلسنا خلف هذا العمود لنكون بعيدين عن الباب ومن يطل منه. وروى لي نوّاف أنه قدم إلى الجوف ومعه خمسة وثلاثون محارباً، معظمهم من الزنوج الشباب ومعهم بنادقهم المذخرة.

وفي المساء جاء إلى نوّاف قرابة الخمسين مسلحاً من الجوف مع زعمائهم. فاتخذ هؤلاء الزعماء أماكنهم عند النار مقابلنا بينما ظل مرافقوهم في الساحة. وإلى يسارنا، بيننا وبين المدخل رابط خمسون زنجياً وبنادقهم مذخرة. إذ لم يكن نوّاف يثق بهؤلاء الزعماء، ولم يشأ أن يؤخذ بغتة من هؤلاء، فآثر أن يجلس وإياي على نحو يجعل العمود بيننا وبين الباب، وبذلك نكون قد وقينا أنفسنا شرّ طلقة تطلق نحونا من الساحة أو البرج الجنوبي الغربي.

وكان على رأس أولئك المتزعمين زبن بن قعيِّد، وهو رجل في الأربعين من العمر، ذو ملامح ذكّرتني جداً بأشكال البابليين القدماء. وقد أصبح اليوم كبير الجوف، ولذلك وجدناه يحمل نفسه ليدعو الأمير النّوري لأخذ زمام الحكم بيديه في الواحة وما جاورها.

* * *

كانت واحة الجوف، بسبب موقعها على التخوم الجنوبية لشمال شبه الجزيرة العربية، مضطرة لأن تكون على علاقات طيبة مع العشيرة التي تهيمن على تلك المنطقة، إن شاء سكانها ألا يكونوا تحت رحمة كل جماعة من المغيرين أو عصابة من اللصوص. وإذن فما دامت هيمنة ابن رشيد قوية والرّوَلة تراعي هذه السلطة ظلت حامية ابن رشيد قادرة على الإمساك بالجوف. ولكن عندما فقدت سيدها بدأ سكان الجوف يقتتلون فيما بينهم. فاتحد ابن قعيِّد ونوّاف وهاجم ابن نعمة وأتباعه الذين لجؤوا إلى مارد وخِذما.

ولقد أشار ابن قعيِّد، وكان يعلم جيداً منعة المنطقتين اللتين احتلهما العدو، على نوّاف أن يعمد إلى تدمير أملاك خصومه ويحملهم بالجوع على الاستسلام.

ولكنّي رجوتُ نوّافاً أن يتجاهل مشورة ابن قعيِّد، لأنه إن أخذ بها ذهب بصالح الجوف سنوات عديدة، وأشرت عليه ألا يتفاوض مع ابن نعمة، وإنما مع زعماء مارد وخِذما، لأن هؤلاء سوف يضطرون للتسليم لكونهم لا يستطيعون الاعتماد على نجدة ابن رشيد وليس بمقدورهم مقاومة الرّوَلة. فوعدني نوّاف بالأخذ بنصيحتي.

* * *

قمتُ بُعيد الفجر باستطلاع المنطقة من فوق تل من الخرائب. وكما يوحي الاسم تقع قرى الجوف (الحوض، القاع) في حوض يمتد من الغرب إلى الشرق نحواً من ستين ميلاً، وعرضه ستة أميال، بعمق يبلغ ما بين الأربعين والخمسين ياردة. ويتساقط الماء من المرتفعات المحيطة لتصب في هذا الحوض حيث يظل الماء طوال العام على الصخور هناك تحت طبقة من الرّمل والحصى، ويعود للظهور في أماكن عديدة بشكل ينابيع وسواها فتملأ الآبار التي يبلغ عمقها ما بين خمسة عشر وخمسة وسبعين قدماً. والمياه في الآبار ذات حرارة فاترة ومذاقها على شيء من الملوحة (الشكل 12). ولكن غزارة المياه تفسر طبعاً وجود الناس والمساكن في الجوف. وأكبر القرى تعرف بين السكان باسم دومة الجندل، بينما يشير اسم الجوف وجُبّة إلى الحوض كله وبقية القرى[1].

تتألف دومة الجندل من نحو أربعمئة مسكن تتوزع بين عشرة مناطق. وتحتوي كل ناحية من هذه المناطق بساتين من أشجار النّخيل، وفي وسطها البيوت. وهذه البساتين تحيط بها أسوار عالية (الشكل 13). والمرء يمر بباب كبير فيدخل درباً ضيقة بين سورين وإذا سار على هذا الدرب بلغ باحة صغيرة متصالبة الشكل تنفتح على أربعة أبواب متينة يفضي كل منها إلى منزل. وقد جرت العادة على أن يكون عند ملتقى تلك المنازل بئر تشرب منها الإبل والأبقار وتروي مياهها البساتين.

---

(1) حول وصف الجوف وجُبّة راجع ما كتبه الرّحالتان الليدي آن بلّنت وكارلو غوارمانـي.



الشكل 12: بئر سحب في الجوف



الشكل 13: بستان في الجوف

وتمور الجوف أصغر من ثمرة الجوز، وهي صفراء اللون ذات مذاق حامض، وأسرع من سواها إلى النضج. ويتألف الأطيب مذاقاً من تلك التمور من حبوب داكنة اللون بطول الإصبع إنها أثخن. والتمور لا تحسب بالوزن وإنما بالحجم وتحضر بطرق مختلفة. فإذا كانت جيدة ولكنها لم تبلغ النضج خلطت بنبات العطرة وتشوى على نار معتدلة حتى يتبخر منها عصيرها، ثم تفرز بين جافة وشبه جافة ويصار إلى ضمها إلى بعضها في خيط لتكون طعاماً للمسافرين. وثمة طريقة أخرى تتم بشي نبتة السّمح، وطحنها ومزجها بالتمور السوداء. ويقوم السّمح بامتصاص عصير التّمر ويدوم المزيج بعدئذ ما يزيد على السنة دون أن ينال منه الفساد.

وتضم تلك الحدائق أشجار التين والبرتقال والليمون، والمشمش والعنب ويزرع فيها مختلف أنواع الخضار وتنمو على أحسن ما يرام. وإلى جانب تلك الأسوار تُزرع أشجار الإثل التي يستخدم خشبها في بناء سطوح البيوت. وهناك خارج هذه البساتين وأحياناً داخلها حقول صغيرة تزرع بالقمح أو الشعير.

وما هو إلا حين حتى صار نوّاف محاصراً بالسكان الذين يرجونه أن أقوم بعيادة المرضى والجرحى. وهكذا ذهبت برفقة أصدقاء وأتباع نوّاف نجول بين عدد من المناطق. وكان بين تلك المناطق اثنتان دُمِّرتا تماماً، والبيوت مهجورة وأشجار النّخيل قد جفَّت وباتت حطباً وأسوار البساتين خربة. وقد قابلت أناساً يدحرجون أمامهم أشجار نخيل فتية اقتلعوها من بساتين المهزومين من مواطنيهم ويريدون غرسها في بساتينهم.

كان الجرحى في حال بائسة وجراحهم ملوثة وملأى بالقيح، وأطرافهم متورمة، وجميعهم يعاني الحمّى. وعلمت حينئذ أن ما يزيد على ثلاثمئة من المحاربين قد قتلوا في المعارك وإطلاق النار ما يزال مستمراً. وقد أخبرني بعض الأهالي هناك أنّ في منطقة مارد حجراً عليه خط غريب ومحفوظ في أحد الجدران، وكنت بطبيعة الحال متلهفاً لمعاينة هذا الحجر.

ولكن ما إن خرجت من البساتين وأصبحت في الخلاء بين مارد والصّخرة عند الطرف الغربـي من الحوض حتى استُقبلت بطلقتين من بارودة.

وبعد أن قمت بتحديد خطوط العرض في ذلك المساء، طلبت من محمّد حمل بطانيتي إلى السّطح الغربـي، ولكن نوّافاً عارضني، محذراً بأنّـي إن فعلت أصبحت هدفاً سهلاً لطلقة رصاص. على أن الإنهاك قد نال مني كل منال وما عدت أطلب سوى الراحة مهما يكن الخطر. وما كدت أستلقي على الفراش حتى وجدت الحراس يطلقون الصراخ ويصيحون منذرين بخطر داهم، ومضى رجال نوّاف يحتلون البرجين والسطوح، لأن ابن نعمة قد قام بمهاجمة المنطقة مقابل منزلنا. وكان قد شقَّ على ابن نعمة أن يفشل ويُرَدَّ على أعقابه فقام بشن هجومين آخرين في تلك الليلة. وقد استمر إطلاق النار وأصوات الطلقات تتردد في أذنـي بلا انقطاع والمحاربون يجرون من حولي بل اصطدمت بعض الطلقات بأسوار البرج الضخم الحجرية. ولذلك جافانـي النوم وما كان ليخطر لي ببال، طبعاً، محاولة القيام بأي عمل يتطلب الهدوء. وزد على ذلك أن ليس ثمة مرعى لجمالي بالقرب من الجوف، وعليه عزمت على العودة في الغد إلى الأمير النّوري. فتركت الأدوية الهامة والضمادات في عهدة نوّاف، ومضيت متوجهاً إلى مضارب الأمير النّوري، وكانت على بعد يومين من السفر.

عودة إلى النّوري

مكث العبد فريح في الجوف، ومضينا نحن يرافقنا قاطع طريق جريء ومقدام يدعى منديل القَطعي. وكان هذا من الجرأة ما يجعله لا يتردد بالمشاركة في كل مهمة خطرة. فكان يشن الغارات في المناطق الغربية بمبادرة منه، وكثيراً ما كان يغيب عن رفاقه مدة شهرين أو ثلاثة ينقطع فيها للإغارة على المسافرين وعابري السبيل ويجمع منهم الفدية، والغرامات. ولكن لم يتمكن من ادخار شيء لنفسه، على كل حال، إذ كان كريماً بقدر ما كان شجاعاً.

وكان منديل هذا مرسلاً من نوّاف إلى أبيه النّوري لإفادته بالأوضاع في المناطق الشرقية التي كان الرجل قد أمضى في التنقل بينها قرابة خمسة أسابيع وعاد منها قبل يومين وحسب. وقد جلب معه بين ما جلب من الغنائم، ثلاثة من الجمال غنمها من القمصة من عشيرة السّبعَة. وتفصيل ذلك أنه انقض على ثلاثة من قطاع الطرق الذين ينتمون إلى تلك العشيرة وسار بتلك الجمال وهم على ظهورها من الجوف. فادعى قاطعو الطريق هؤلاء لنوّاف أن الغارة عليهم عدوان غير مبرر وهم أصدقاء الرّوَلة، لكن نوّافاً أكد لهم أنه سوف يُبقي على الجمال لديه حتى يعيد ابن عمهم بليهان إلي الجمل الذي سرقه مني.

* * *

في عصر ذلك اليوم اقتربنا من آبار ميقوع. فقال منديل: «لا بد أننا ملاقون النّوري عند ميقوع. فهذا آخر موقع كبير للتزود بالمياه التي تتوافر دوماً عند الطرف الجنوبي من وادي السّرحان وقد أقيمت بجانب الآبار العميقة التي يبلغ عمقها الثلاثمئة قدم أحياناً رافعات بالقرب منها. وتتألف الرافعة من عمودين متينين يبلغ طول الواحد خمس ياردات تقريباً ويثبت في الحفرة ذاتها ثم يتم ثنيه ليصبح فوق البئر.

وينبغي أن يكون العمودان بعيدين عن بعضهما ويُثبّت في فتحات داخلهما محور من الفولاذ مركب عليه أسطوانة من الخشب يتدلى منها حبل يحمل دلواً. ويمسك بالطرف الآخر شخص أو اثنان ينزلان إلى البئر يقومان بسحب الماء. وهناك شخص ثالث يقف قريباً من الرافعة مراقباً لئلا ينزلق الحبل من الأسطوانة ويقوم بهز الحبل بين الحين والآخر. ويوعز للساحبين برفع الدلو حتى يصبح في مدى النظر. وفي هذه اللحظة ينادي آمراً بالوقوف، فيمسك بالدّلو ويفرغه في قربة من الجلد، ثم يوعز إليهما بالرجوع، وهكذا يتدلى الدّلو إلى أعماق البئر من جديد. «حين تقوم امرأة بسحب الحبل تعمد إلى رفع ثوبها حتى ركبتيها وتلقي كمَّي ثوبها المفتوحين على كتفيها وتقوم بعقدهما لئلا يعوقا حركتها.

أمّا إذا كان يتولى أمر الحبل شخصان فإنهما يتوسلان إلى ذلك بعصا قصيرة يعقد الحبل عند نهايتها وهما ممسكان بها. ويطيب للشباب المساعدة في استجرار الماء وسحب الحبل خدمة للحبيبات، فهي فرصتهم للتحدث وإياهن، وملاحظتهن عن قرب، بل وقد يتاح لهم ملامستهن. وقد عبر لي أحد الأصحاب عن هذا الموقف بما يمتع:

عَسَى الحَيَا يسقي مَواريد مَيْقوع	يسقي القليبْ الطَّارِفْ مع مَرَدّهْ
حيثَ مقرّ للفراقين والنّجوع	وكلٌ يْوَلِّمْ لِهْ مَقَام وعِدّهْ
شِفْت الغازي ثوبِه عن السّاق مرفوع	مُتْمَشْلِحِ لِرْشا يبغي يشدّه
والله يا لولا الحبل مثني ومربوع	ما طاوَع اللَّقّاي لو قال رُدّه
حسّيتْ إيدي من العضد للكوع	ردّيتها باليوم تسعين رَدّه
وَدَّك تبيح السّدّ على مثل جدوع	كَرْمِ اليا شاف الخَنَا ما يعَدّه
زَبن الذّليل اليا هَبَا كلّ منزوع	سيْفٍ شَطيرْ ويقطع الرّاسْ حَدّه
قِل لو أمسْ مثل اليوم ما مَسَّني جوع	وَا شوف حالي بشَحَم مُسْتَرِدّه
اللّي سْقاني من ثناياه قَرْطوع	يا صْويحبي وا خْلَيْل حِبّ المَوَدّه
والله لاخلّي بالنّزل صايع ومَضيوع	والله لاخلّي كِلّ بِدّ يِتْلاَ لِبِدّه

* * *

ولما وقعت أبصارنا على مضارب بدو واسعة بالقرب من الآبار، ابتهجنا ونحن نحسب أن تلك هي مضارب الأمير النّوري. ولقد مضت جمالنا خبباً إلى تلك المنازل، ثم تبدد ابتهاجنا عند لقاء أول الرعاة حين قال:

«لقد مضى النّوري اليوم إلى آبار مليح».

وإذن فقد غادر النّوري في الاتجاه الذي أتينا منه! وكنا نود التوقف هناك، لولا أننا لم نقع على دغلة أو مرعى لجمالنا، ولا وقود لأنفسنا. ولم نكتشف شجيرات الرِّمث الجافة الصالحة للوقود حتى منتصف الليل وهكذا أقمنا مخيمنا بالقرب من تلك النباتات.

في الليل تناهى إلى أسماعنا نباح كلاب وأصوات الجمال: وإذن فمضارب الأمير قريبة. وفي الصّباح الباكر من يوم الثلاثاء 9 فبراير كنا في خيمة الأمير، وقد انهالت عليّ التحيّات من كل جانب، بينما أخذ النّوري يقول:

«الحمد لله، الحمد لله على سلامتك، يا أخي! فقد قمت بإغارات لم يخض حتى رفيقك الآن، منديل، مثلها».

وبدا أن الأمير يبحث عن مراع بناء على ما بلغه من الشّرارات من أخبار تؤكد وجودها شمال آبار مليح. فلما أخبرته بأنني لم أصادف هكذا مراع، رد:

«في هذه الحالة سوف نقيم معسكرنا عند الهوجا، ثم نرسل قطعاننا لترعى مع قطعان ابن قريطان، وأخوه معنا الآن. ولقد أخبرني ناصر عندئذ أن مفزعاً راعي قطيعنا أصيب بطلقة نار بيد أحد الرّوَلة، ولكن تلك الطلقة لم تصب سوى ربلة السّاق وحسب».

* * *

6- على أطراف النّفود

الاستعداد لغارة

بعد حمل الخيام كلها، ركبت جملي ومضيت مع الأمير في مقدمة العشيرة الراحلة. ولقد عجبت لمظهره الفتي: فأهدابه ولحيته وشعره كانت مصبوغة بالأسود، ويرتدي حلة جديدة. ثم علمت فيما بعد أنه قد طلق قبل يومين زوجته أم مسعود وخفاجي، ثم تزوج للتو بعد ذلك أختها وكانت تصغرها ستة عشر عاماً. ولم يكن يعلم بهذا الزواجِ سوى أقرب الأهل والعبيد إذ إنه لم يُجْرِ احتفالاً ولا أقام مأدبة بالمناسبة. ولكنه قدّم لمطلقته وابنها مسعود خيمة - قبل خيمة حمار وأهله - وأمر بان تنصب قريباً من خيمته، وكان يزور المرأة وابنه كما كان يفعل مع زوجاته الأخريات.

أخبرنـي النّوري بأن أحد العمال جاءه برسائل من ابن سعود يحثه فيها على احتلال الجوف ويخبره بأن شيوخ شمَّر جميعهم، سوى اثنين، يطلبون السلام ويتعهدون بدفع الجزية. ثم نصبنا خيامنا في وادي الجمال، وذلك يوم 8 فبراير.

كان شقيق الشيخ ابن قريطان يتبع الأمير على راحلته، ولم يكن يجرؤ على الجلوس بالقرب من النار التي يجلس إليها أو التحدّث في حضرته ومع ذلك فقد كان سليمان بن قريطان أغنى محاربـي قبيلته وأشدّهم زهواً... ولكنه لم يكن سوى غراب والنّوري صقر حُرّ[1].

* * *

---

(1) يبدي موزيل إعجاباً كبيراً بالنّوري، الذي كان فارساً وجواداً وسياسياً حصيفاً في الوقت ذاته.

في يوم 11 فبراير كنا قد بلغنا آبار الهوجا، حيث أقمنا خيامنا. وبقيت ملازماً خيمتي المستديرة أكاد ألا أبرحها طوال ثلاثة أيام، منقطعاً لكتابة تقرير عن رحلتي. وكان الأمير يأتـي لزيارتـي ليتبين حالي كل يوم، ثم دعانـي لمرافقته في إغارة كان يعتزم شنها في الجنوب. فسررت بهذه الدعوة اعتقاداً مني بأنـي أستطيع بهذه الطريقة أن أبلغ مقابر المجنة.

كانت جمالنا قد مضت إلى مرعى بعيد. وفي غضون ذلك جاء قرابة ثلاثين محارباً يسألون الأمير البدء بالغارة المعتزمة. ولكن النّوري ردهم، مرجئاً يوم الغارة ولما سمع المحاربون رده، قال أحدهم بلهجة تنّم عن الامتعاض: «إذن، فهو لا يطيق فراق زوجته الصبية!». بَيْدَ أن النّوري إنما اتخذ موقفه، كما أخبرنـي، لأن نداءه لم يبلغ، بعد، كل العشائر.

وفي يوم السبت وصباح الأحد أخذ شيوخ عشائر الشّرارات يتقاطرون لتحية الأمير وعرض خدماتهم. فأبدى الأمير تكبراً شديداً في التعامل معهم، وهو يكاد لا يلحظهم طوال ذلك اليوم، ولكنه تركهم يجلسون في خيمته، فيما كان يتسلى في خيمتي الواسعة ومعه كبير العبيد حُمار والكاتب جْواد. ولكنه ما كان يرضى بدخول خيمتي الصغيرة خشية أن تبلغه «الرائحة الخبيثة» التي كانت تنبعث منها بسبب انسكاب اليود من الزجاجة فيما كنت أضمّد جرحاً أصاب أحد الرّعاة. والحق أن الذّعر نال من النّوري منالاً شديداً بسبب هذا الأمر، حتى إِنه سألني بمنتهى الجد إن لم يكن من شأن هذه الرائحة أن تؤدّي إلى فتق جراح المحاربين الأكبر سناً لديه.

والبدو المرضى والمصابون بالجراح لا يتطيَّرون من شيء قدر تطيرهم من الرائحة الخبيثة. وكنت قد حملت معي إلى الصّحراء عدداً من صناديق الصابون المعطر على سبيل الهدية للنساء هناك. وكان الصابون موضوعاً في كيس كبير تنبعث منه رائحة عطرية قوية طوال مسيرتنا، فكنا نتوسّل بالجمل الذي يحمل حقيبة الصابون لندفع عنا أذى البدو.

ومع ذلك فقد وجدنا كل بدوي من هذا الجمع يبغي الحصول على قطعة من ذاك الصابون، حتى إن نوّافاً سألني أن أبعث عدة قطع منه إلى الجوف ليوزعها بين زوجات أهل الناحية والبنات.

وفي يوم الثلاثاء المصادف لـ 18 فبراير أخبرني النّوري باعتزامه شنَّ غارة، ولكنه لم يخبرني باسم العشيرة التي يعتزم الإغارة عليها. ولكن الشائعة كانت تدور على أنه يرجِّح أن يستهدف الهتيم، إنما لم يكن هناك من يملك أن يجزم.

قال النّوري ضاحكاً: «لقد قمتَ بمهاجمتنا مع آل الفايز من بني صخر. لذلك يجدر بك في اعتقادي أن ترافقني في قتال أعدائي».

لقد زَيَّنَ لي الخاطر أنّي ربما استطعت عندئذ العمل في تيماء واستطلاع المنطقة هناك، فأجبته للتو بالموافقة. وكانت الشائعات ترد متناقضة حول ما يجري في تيماء، فكان بعضهم يقول إنها حرب أهلية وكان هناك آخرون ينكرون تلك الأخبار».

جاء إلى الأمير اثنا عشر محارباً من ولد سليمان يريدون تسوية قضايا مختلفة نشأت بين عشيرتهم والرّوَلة. وفي ذلك المساء جاءني جُواد كاتب الأمير يطلب باسم الأمير أَنْ أودع في خيمته كل البنادق والمسدّسات التي لا اعتزم حملها معنا في تلك الغزوة، لأنه لن يبقى بعد رحيل الأمير في حملته سوى بندقيتين في المعسكر. فقلت له لن أترك سوى بندقية ومسدس، وعليه أن يردّهما متى احتجت إليهما. فلما وافق الأمير على هذا الشرط قدَّمتُ إليه القطعتين. وكان النّوري يسعى إلى وضع يده على أسلحتي ولا ينفكُّ يحتال لحيازتها بمختلف الذرائع والحيل.

في صبيحة اليوم التالي كنا على أهبة الاستعداد جميعاً للمسير، منتظرين مجرد إشارة من الأمير لركوب جمالنا. على أن النّوري كان ما يزال منهمكاً في مفاوضة ولد سليمان ولم يخرج من خيمته حتى كانت الساعة قد تجاوزت العاشرة، حين أمر بعبارات مقتضبة: «المطايا إلى المرعى». وإذن فقد أُلغيت الغزوة. فلما سُئل عن السبب أجاب:

«كنت اعتزم مهاجمة الهتيم وعند عودتي ولد سليمان أيضاً، ولكني تصالحت مع هؤلاء، وبالتالي لم يعد لدي سبب لمهاجمة قطعانهم. وما عدت أعلم شيئاً يعتد به عن الهتيم وعرب السّرحان أبو شامة. وهناك من يقول إنهم أقاموا خيامهم جنوب العلا، وآخرون يبحثون عنهم في منطقة خيبر، وسواهم يقولون أنهم شوهدوا في أعلى وادي رَمّ. وعليه فقد طلبت من الولد سليمان استقصاء موقعهم على وجه الدقة وإفادتي في غضون ثمانية أيام، أكون خلال هذه المدة قد حسمت الموقف منهم، أي إن كنت سأمضي إليهم أم لا؟».

* * *

كنت شديد اللهفة للمغادرة إلى الشرق لاستقصاء ذلك الجزء من الصّحراء وإنجاز خريطة تلك المنطقة، لولا أن طبيعة الظروف الراهنة، وهي أشبه بالحرب، كانت تفرض الانتظار حتى أستطيع التوجه إلى هناك مصحوباً بجماعة مغيرة.

أمضيت اليومين التاليين في جمع المعلومات عن المناطق شرق وشمال شرق الجوف، منكباً على وضع خارطة جغرافية وإجراء بعض التصويبات بعد مقابلة الروايات مضيفاً إليها حيثما أمكن.

وفي يوم السبت جاء إلى مضاربنا ستة محاربين ومعهم كل المطايا التي لدى نوّاف، وأخبرونا أن نوّافاً يرجو والده أن ينصب خيامه إما في واحة الجوف وإما بالقرب منها وبذلك يعزز موقف نوّاف بحضوره. ولكن بدا لي أن النّوري كان لا يطمئن إلى ابنه ويغار منه. وكانت المصاعب التي تواجه نوّافاً في الجوف تزداد مع كل يوم جديد. ولقد أخبرني عودة الكويكبي، وهو معرفة قديمة ومرجع مطلع، وقد وصل يومئذ لتوه من الجوف، أن عدداً كبيراً من أتباع نوّاف قد انتقلوا إلى معسكر خصومه، بعدما ضاقوا بعجرفة ابن قعيِّد وما عادوا يقدرون على احتماله كذلك أفادني بأن أعداءه باتوا يغيرون عليه كل ليلة بحيث لم يعد يقوى على مغادرة بيته، وصار يعاني من نقص الطعام وقال لي في الختام إن نوّافاً يسألني أن أعرض بؤس حاله على والده وأحثه على التوجه إلى الجوف.

لكن النّوري عمد إلى المماطلة والتسويف متذرعاً بأنه ينتظر رداً من الولد سليمان وعودة رسوله من عند ابن سعود، لكن خادمه الذي يعد له القهوة قال: «إن النّوري لم يعد يُعْنَي بأمر سوى زوجته الصبية وعباءته الصوف التي يحلو له الاستلقاء عليها».

ثم أتى منديل القَطعي قادماً من الجوف حاملاً مناشدة (من نوّاف) شفهية ومدونة بأن يرسل (النّوري) الطعام والمال. وكان النّوري قد طلب أن تقرأ عليه الرسالة في خيمتي كما سمع الرواية من راويها، وظل مع ذلك لا يأتـي بحركة.

وجاءنـي طراد بن سطّام بشكوى تتصل بعبد الله بن طلال. فقد اتخذ هذا، حسب رواية طراد، إحدى بنات النّوري زوجة له فأخذت تشكو منه سوء المعاملة حتى لجأت إلى خيمة والدها وهي تأبى العودة إلى زوجها. ولذلك أخذ عبد الله يسعى إلى الزواج بأخرى. وكان عبد الله قد وقع في هوى شقيقة طراد، فأتاه يوم الأحد يطلب يدها، لكونه صار في محل أبيها الراحل. على أن الفتاة لم يكن يعنيها أمر عبد الله، فما كان من طراد إلا أن يرد طلبه فرد عبد الله بأنه يحتجز الفتاة لنفسه ولن يسمح لها بالزواج من سواه، مؤكداً حقه بها دون سواه، وهو الأقرب إليها.

كما حلّت في خيمة النّوري بنت أخرى من بناته، فتاة نحيلة ذات سبعة عشر عاماً وعينين مصابتين. وكانت هذه زوجة فارس بن الأمير فهد، ولكنها هربت من زوجها عقب اغتيال أبيه وحلّت في خيمة أبيها. ثم صارت زوجة مشرف بن كردي، أثناء وجودنا في الضّمير، وما هي إلا خمسة أيام حتى هجرت زوجها هذا وأبت العودة إليه، بالرغم من ضغط والدها عليها وضراعات مشرف الذي كان يُكِنُّ لها حباً شديداً.

وفي ظهر يوم الأربعاء ورد رسول آخر من نوّاف. وأخبرنا هذا أنّ حمود ابن سبهان، وكيل ابن رشيد في حائل، مات بلا ريب مسموماً. وكان هذا الرجل قد أنقذ الصبي سعود بن عبد العزيز بن رشيد، وهرب به وبأمّه التي هي أخته إلى المدينة ومنها عاد في صيف عام 1908.

وقام باغتيال الأمير سعود بن رشيد، وأعلن سعود بن عبد العزيز الذي كان تحت وصايته أميراً، وهو ابن عم الأمير المقتول. وكان هو مَنْ دَبَّر حفظَ بقايا ملك ابن رشيد القديم، وأهالي المنطقة يتطلعون إليه جميعهم ليخلصهم مما هم فيه من الضيق. وبإيعاز من أخيه الطموح، زامل، تم اغتياله بالسمّ قبل شهرين، على ما قيل، ولكن موته ظل طي الكتمان فيما كان يقال أنه يعاني من مرض عضال. أما وقد بانت الحقيقة الآن وشاعت فإن الناس باتوا أشد ميلاً إلى الانضواء تحت راية ابن سعود، خصم ابن رشيد. وقال نوّاف أن زعماء مارد وخِذما في الجوف عادوا يتفاوضون معه من جديد كما تلقى أخباراً أفضل من سكاكا وعاد يرجو والده المسير إلى الجوف وإقامة مضاربه في نطاق المدينة، ويريد بذلك حمل خصومه على الاستسلام. وقد أطنب في ذكر المراعي في جنوب وجنوب شرق الواحة، قائلاً أن حدود النّفود الشرقية المسماة باللبة حسنة الرطوبة ووعد بمراع كثيرة.

ولقد قمت عصر ذات يوم برحلة إلى هضبة أم كور (انظر الشكلين 14 و 15) المستديرة. فصادفت عدة نباتات متفتحة وأنواعاً من المعادن. وتكثر الانحدارات في الكهوف التي تتخذها الشّرارات مستودعات يضعون فيها ما لا يحتاجون إليه فوراً من الأشياء. وقد جرت العادة على أن يبحث الرجال والنساء، والكبار والصغار من الرّوَلة، عن هذه الأشياء التي تخفيها الشّرارات، كل يوم ثم ينهبون ما يقعون عليه أمامهم. وقد تم لي اكتشاف عدة أحجار تحمل أشكال جمال وغزلان ووعول، بل صادفت حجراً يحمل شكل أسد، وهي منفذة بصورة بدائية لكن بحثي عن النقوش ذهب عبثاً.

* * *

في تلك الليلة أطاحت الرياح العاتية بخيام الأمير وحمار وعدة أشخاص آخرين، على أن من كانوا فيها استمروا مع ذلك في نومهم هانئين تحت السقوف المتهاوية وظلت النساء حبيسات تحت تلك السقوف، ولا يقدرن على التنفس منذ أن هبت تلك العاصفة فخرجن لينفضن الرّمال ورجعن يختفين تحت الخيش.

عودة أبو تايه

أخبرنـي الأمير صباح يوم الجمعة أننا سوف نتوجه يوم الأحد إلى الجوف، عوضاً عن غزوة كان مقدراً أن يقوم بها. وفي اليوم ذاته ترجل عند خيمته، حوالي الساعة الثالثة، ستة رجال يمتطون الجمال. وكان هؤلاء عودة أبو تايه شيخ الحويطات ومرافقيه.

فجاءنـي كاتب الأمير برجاء أن أقوم بفحص ذراع ضيفه، عودة فمضيت إلى خيمة الأمير حيث كشف لي عودة عن ذراعه اليمنى الملفوفة بالضمادات وكانت قد أصيبت قبل اثنين وخمسين يوماً.

فوجدت الجرح قد أخذ يلتئم من ناحية السطح، لكن الذّراع متورّمة ومتصلّبة وثمّة جروح عميقة ظاهرة في خمسة مواضع، وهي آثار الكيّ بالحديد الحامي. ولكن هذه العمليّات ما كانت لتجدي، فاستمرّ يشكو من شدّة الألم، خصوصاً في الليل. فدعوته إلى خيمتي وقدّمت له العلاج السّليم والنّصائح التي ينبغي له اتّباعها في المعالجة.

قام الأمير بزيارتـي وسألني إن كنت قد استطبتُ مذاق لحم الجمل الذي أرسله لي. فشكرته على العظم واعتذرت عن تقديم الشكر للحم الذي لم يصلني منه سوى ما لحق بالعظم! فأقسم بأنه ما إن جرت قسمة الجزء الأمامي من الجمل حتى أرسل لي الساق الأمامية كلها، قائلاً أنه لا يدري مثلي تماماً كيف اختفى لحم الساق كلها، وهي تنتقل من خيمته إلى خيمتي والمسافة بينهما حوالي الثلاثين خطوة.

* * *

في البداية لاح أنه يمكن أن أمضي بصحبة عودة إلى واحة تيماء. وقبور مجنة، لولا توارد مزيد من الأخبار عن اضطراب الأحوال هناك، فاعتبرت الخطة غير حكيمة.



الشكل 14: أم كور من ناحية مضارب النّوري



الشكل 15: أم كور من ناحية الشمال



الشكل 16: الأمير يختار موقعاً لمضاربه في وهدة في رمال النّفود

قال النّوري: «إنّـي واثق، يا موسى، بأنه سوف تتاح لك فرصة أفضل من هذه بعد حين، وربما يكون ذلك بعد أن يستولي نوّاف على الواحة ويعين قائماً بالأعمال».

ولقد اضطررت متردداً إلى التسليم بالحجج التي ساقها وصرفت النظر عن القيام بالرحلة بصحبة عودة. وكان السبب في إرجاء الرحلة إلى الجوف زيارة ضيف النّوري المعتبر.

وفي عصر يوم الإثنين المصادف 1 مارس ترددت في المعسكر صيحات الابتهاج تطلقها النساء وكان السبب في إطلاق تلك الصيحات عودة ذليِّل ابن مجول سالماً بعد أن كانت الأنباء قد وردت قبل حين بأنه سقط ميتاً. وكان هذا قد ذهب في غارة مع جمع من رفاقه يريدون قتال عشيرة الأسلم من شمَّر. وقد انتهت تلك الحملة بأسر العديد من هؤلاء المغيرين، وكان من بينهم زعيمهم ذليِّل. وعمدت شمَّر يومئذ إلى تجريد الأسرى من ثيابهم وتركتهم عراة لمصيرهم. فمات عدة أشخاص منهم عطشاً أما البقية فمضوا مشردين في كل اتجاه حتى كان اكتشاف ذليِّل فأتى به اثنان من الصليبية إلى ناحية قارا، حيث لجأ إلى الشيخ ضاهر بن سليم. فيا لعجائب القدر! وكان لذليِّل معرفة بضاهر تعود إلى سنين عديدة ويهوى شقيقته ظبا، لكن الوالد أبى زواجها. أما وقد رحل الأب الآن فإن أخاها قبل بأن يمنحه وقد جاءهم هكذا فجأة يد حبيبته. وهنا عاد من جديد آمناً وصار زوجاً. ولقد فرحت أمه وقدَّم عمه جملاً، ذبيحة، تكريماً له.

وفيما بعد خرجتُ ودوجان راكبين إلى حيث الصخور الجنوبية وعدت حاملاً كمية من المواد اللازمة.

* * *

ظمأ في الصّحراء

عدنا نرتحل من جديد متجهين ناحية الشمال شرق بحثاً عن الماء. وفيما كنا في سبيلنا سمعنا ضجَّة وجلبة في قافلة الجمال، فوجدنا أن أحدها انهار تحت ثقل أحماله وكُسِرَت بذلك ساقه اليسرى الخلفية. ووجدنا إلى يسار الممر الضيق صخرة منتصبة شديدة الانحدار، وإلى اليمين تكشفت للناظر لجة تبلغ من العمق ثلاثين ياردة. ولقد عجز الرفيق عن رفعه إلى الأعلى، وكانوا يشعرون بالأسى على الحيوان المصاب الذي أخذ ينشج من شدة الألم، فلم يجبروه على النزول إلى الأرض. ولم يكن أمام هؤلاء عندئذ سوى قتله حيث كان ثم سلخ جلده، ورمى الأحشاء ونقل أكوام اللحم إلى حيث تحمل على ظهور البهائم الأخرى. ولما عجزوا عن حمل بقية الجمال على تجاوز رفيقهم العاجز الذي يصدر ذلك الأنين، مضوا يسعون إلى درب آخر فأخذوا يستقدمون جمالهم واحداً بعد آخر. أما نحن فمضينا في دربنا قدماً.

ثم صادفنا بعض الرّوَلة الذين أخبرونا عن إغارة بعض أفراد شمَّر على قطعانهم.

«وهل استولوا على خيامكم أيضا؟».

«معاذ الله. فعندما أطبقوا على الخيام يريدون انتزاعها أيضاً هبت النسوة ورحن يتصدين للمغيرين، بأعمدة نصب الخيام دفاعاً عن ملكيتهن، فقتلن في تلك المعمعة عدة أشخاص من شمَّر. وكان يساعدهن في القتال، طبعاً، أربعة من الرّوَلة مكلفين بالدفاع عن المخيم، وكانوا مختبئين يتربصون في دغلة كبيرة، فتحت هذه الشجيرة جلس أحد أولئك الأربعة، والآخر تحت تلك الطويلة، أما الاثنان الآخران فتواريا خلف تلك الصخور. وتستطيع أن ترى إلى اليمين منا دماء أحد الشَّمَّريين الذي قتلته نساؤنا».

«فهل فقدتم القطعان؟».

«نعم، فقد ساقوها أمامهم غنيمة لهم».

ولقد صادفنا جمجمة متآكلة ملقية بالقرب من طريقنا. وكانت جمجمة شمَّري مات مذبوحاً. ولقد تُرك هذا الشَّمَّري في العراء لتعمل في جثته الوحوش الضارية والكواسر نهشاً.

وفي إحدى المرّات سألني الأمير إعارته المنظار. ولكنه إذ لم يحسن ضبط العدسات فضاق بهما ووجدهما غير نافعتين، وكان واضحاً في التعبير عن رأيه بهما. فالأمير، شأنه في ذلك شأن كل البدو، يحتقر ما لا يدرك نفعه فوراً أو لا يعرف السبيل إلى التعامل معه. وهذا ما جعله يستبدل بارودة المانليخَر Mannlicher الحديثة التي قدّمتُها له ببارودة تركيّة قديمة، ثم البارودة الثانية التي عمد إلى تعديلها بما يجعلها تقتصر على طلقة واحدة. على أنه حين تمكن بعد تسديد عدة طلقات إلى هدف معين من تحقيق إصابات مباشرة كل مرة، صاح مبتهجاً:

«والله لم أعرف في حياتـي بندقية أفضل من أم ستّ. فاركب فرسك، يا عامر، وأسرع إلى عذوب وقل له أن بوسعه إعادة البارودة التي جرى التقايض عليها. ولكن ليت دويّ البارودة كان أقوى فيقال إنه كلما كان صوت الطلقة قوياً قوي فعلها وتأثيرها القاتل». كان البارود في تلك الخراطيش رمادي اللون[1] ولا يصدر دخاناً، وهو غير البارود الأسود السيء الذي اعتاده النّوري.

بدأ شحّ الماء يفعل فعله في الأطفال وخيول العرب الذين أخذوا يعانون العطش. حقاً أن الرّوَلة قد ألفوا الجوع والعطش في حياتهم، إلا أنهم يخشون الظمأ أكثر مما يخشون الجوع. فالعرب يحرصون على الماء أشد الحرص، خاصة في الغزوات والإغارات.

قال منديل شارحاً الأمر: «القائد يحرص في حملاتنا الحربية على أن ينال كل منا نصيبه من الماء بالتساوي. فيقوم القائد عند الغروب بوضع حصاة في وعاء من الخشب ويصبّ الماء فوقها حتى تغمرها. وهذه حصة كل رجل».

(1) هذا خير أنواع البارود smokeless powder، أمّا حول قوة صوت البارودة ذات المغلاق فكلام النّوري صحيح، وليته كان جرّب عيار 7X64 Brenneke أو 30-06 Springfield.

«فكيف تتدبرون أمر العطش حينما ينفد الماء؟».

«إن اضطررنا ذبحنا أسمن جمل وأخذنا كرشه ووضعناه على عباءة ثم نضغط عليه حتى يصب ما بداخله من السوائل إلى جعبة من الجلد، وندعه فترة لتبرد هذه السوائل وترقد. فإما أن نجرعه، أو إذا كان شديد الكثافة دفعنا به إلى البلعوم. وأقول لك إنني، أنا منديل، قد شربت مثل هذا الماء في ثماني مناسبات، وليس بيننا من لم يتذوق الماء على هذا النحو على الأقل مرة واحدة».

«وما هي حيلة المسافرين العطاش وهم يقطعون الطريق مشاة، وليس لديهم جمل يقتلونه؟».

«كان الله في عون هؤلاء المساكين! قبل فترة غير بعيدة كان ثمة أربعة رجال طردوا من ديارهم في إحدى الغارات وفقدوا جمالهم وأسلحتهم فراحوا يضرعون إلى الله أن يساعدهم على البقاء أحياء. وكان أحدّهم قد شد قربة ماء تحت قميصه وفيها كميّة لا بأس بها من الماء. ومضى هؤلاء الرجال في طريقهم عبر الصّحراء إلى ديارهم، ويستعينون بأكل الحشائش على الدّرب ويحرصون على شرب القليل من الماء دائماً عند الغروب. وكانوا يحرصون على بقاء الماء تحت القميص وقاية له من حرارة الشمس والريح. وفي اليوم الثالث وجدوا أنه لم يبق لهم سوى ثلث مقدار الماء الذي حملوه. ونال منهم بالعطش، وكل منهم يدعو الآخرين ليشربوا قبله، ولكن لم يقرب أحدهم من ذلك الماء لأنه لم يعد كافياً للجميع. وفي النهاية قرّروا إراقة ما بقي من الماء. ومكثوا يعتمدون على لعق قطرات النّدى طوال يومين. وكان ذلك بحمد الله في نهاية موسم الأمطار، حين لا تكون الشمس في ذروتها الحارقة. وبعد مضي يومين ما عاد بوسعهم الاحتمال. ثم شاء الله أن يمرّ بهم بعض الصّلُبَة، فأتوهم بسمن ذائب وقطروه في أفواههم، فلما تمكنوا من ابتلاعه قدّموا لهم الماء أيضاً، فأنقذوا بذلك حياتهم. والمرء يستطيع احتمال العطش في الخريف والشتاء مدة ثلاثة أيام، أما في منتصف الصيف فيوماً واحداً، أو ليلتين ونهاراً واحداً. ثم يجفّ الحلق في اليوم الثاني ويتشقّق ويكون الموت».

وفي المساء ذهب محمّد ورفيق الأمير لجلب الماء من الجوف ووجدنا ناصراً يحاصره سيل جارف من النساء يسألنه بعض الماء. ولكنهن عدن بلا طائل، بعد أن أكدّ لهن ناصر بأننا لم نحصل على شيء من الماء.

سرقة

صار محمّد مؤخّراً شديد الوقاحة والعجرفة. وراح الأمير يحدّثني في أمره، فقال في فاتحة حديثه: «إنه وغد لا أطمئن إليه»، وتابع: «بل ولقد بلغت به الصفاقة أن وقف يقول وسط خيمتي وأمام جمع من الشيوخ:

«أنا لم أسعَ إلى موسى من قبل، ولن أسعى إليه الآن».

فصحت به منتهراً: «أتقول هذا أمامي. لقد ساق الله إليك هذه النعم وأنت لم تكن لتستحق شيئاً منها والآن وقد نلت شيئاً من الشبع تجرؤ على أن تخاطبني على هذا النحو؟ ألا تعلم، يا كلب، أن الشيخ موسى قد صار منا وهو من أهل بيتي إنه أخي، ولسوف أقصم ظهر كل من يجرؤ عليه؟ وأنت عليك بخدمته كيفما شاء لقاءَ المال الذي يدفعه لك وإلا كنت كفيلاً بحملك على ذلك. فإن قطع قطعة من لحمك كل يوم لزم عليك أن تبقى صامتاً دون أن تصدر همسة.

وتابع الأمير: «هذا ما قلته له، يا أخي. لكن الكلام لا ينفع، لأنه يملك مالاً كثيراً. ألا تعلم، يا موسى، المبلغ الذي لديه؟»».

«أعلم أن لديه قطعتين أو ثلاث من ليرات نابوليون» (قرابة 7,72 أو 11,58 دولاراً).

«لا! فلديه غير هذه القطع أموال أكثر مما تقول. وقد قدّم لرجل أعرفه ما لا يقل عن عشرين قطعة ذهبية لكي يحتفظ له بها».

وللتو أدركت الكثير مما كان خافياً علي من قبل. فقد جرى اكتراء محمّد لخدمتي عن طريق الحاج داوود السالم بالشروط التالية:

«يتقاضى [محمّد] أربع ليرات ناپوليونيّة [15,44 دولاراً] شهرياً، وفي دمشق يعتاش من أجوره، كما يكون عليه شراء ملابسه بأجوره أيضاً. فإذا كنت راضياً عنه، طوال الرحلة، يا موسى، فعليك أن تعوضه عن كل ما أنفقه على الثياب عند العودة إلى دمشق. وليس له أن يحمل معه أي نقد أو ملكية خاصة عند دخول الصّحراء. وإذا وجدت معه أو مع أي شخص آخر أية أموال خاصة حق لك أن تطرده كالكلب دون أن تدفع له أجره».

وكان قبولي به على أساس هذه الشروط، ولو كان الحال غير ذلك لغشّني في كل عملية ووفر لنفسه نقوداً. وقد أقسم لي أمام نوّاف حين قدمنا من دمشق إلى مضارب الأمير النّوري في الغوطة، أنه لا يحمل سوى خمسة عشر قرشاً (أي 67 سنت)، ثم أقسم مرة أخرى في الضّمير أنه لا يملك شروى نقير. وها هو ذا الأمير يخبرنـي الآن أنه أودع عشرين ليرة ناپوليونية [77 دولاراً] لدى رجل من معارفه ويحمل أربع ليرات ناپوليونيّة أو خمساً في جيبه. فمن أين أتى بهذه النقود؟ وكنت قد أخفيت القطع الذهبية التي حملتها معي إلى الصّحراء ما بين ألواح التصوير والأدوية والسّموم، دون أن يعلم أحد من المرافقين المحليين بوجودها. وقد اعتدت أن أبرز قدراً معلوماً من النقود أثناء تبديل ألواح التصوير، وكنت أضع هذه النقود في خرج شداد الجمل الذي جعلته وسادة لي أنام عليها في خيمتي. ومع أن أحداً من الناس لم يدخل هذه الخيمة، سوى الأمير وتومان ومحمّد، فقد لفت انتباهي اختفاء هذه النقود على أنه ما كان لي أن أشكك بأحد في هذا الأمر، طالما أنني لم اضبط أحداً يرتكب هذه الجريمة. أما الآن فقد اكتشفت السارق. فشرحت الأمر للأمير وسألته المساعدة في التعامل مع محمّد.

فلما عاد الرجل يوم الثلاثاء من الجوف سألته أمام الشهود إن كان يملك أية نقود خاصة. فأجابني بأنه لا يملك حتى بارة واحدة (0,11 سنت)، لأن كل ما حصل عليه من الأجور قد أرسله إلى أهله أو صرفه في شراء ثيابه. فأرسلت أسأل الأمير الحضور، وفي وجوده سألت محمّد ثانية إن كان لديه أية نقود تخصه فردّ بوقاحة:

«إنّـي لست ملزماً بشرح أمر ملكيتي الخاصة لشخص آخر. [لكني] كنت اقترضت خمس عشرة ليرة نابوليونيّة من الضّمير وحملتها معي إلى الصّحراء وفي الميادين اقترضت عشر نابوليونيّات أخرى، لئلا أكون رهن نواياك الحسنة».

وقام ناصر عندئذ بتفتيش خرج محمّد، بناء على أمر الأمير، فوجد لديه أشياء كثيرة كنا قد افتقدناها فقال الأمير إنه سوف يبقي القطع الذهبية التي أودعها محمّد أمانة لدى شخص معين حتى يأتـي بالبرهان على صحة ما ادَّعى عن سلامة المبلغ وكيف تمكن من كسبه. ثم أمر محمّداً بمغادرة بيت الشّعر فوراً وألا يظهر أمامنا ثانية. وهكذا خسرت آخر خادم جاءنـي بتزكية من أصدقائي بدمشق. وأعيان دمشق لا يعرفون الصّحراء، ولا خدمهم كذلك، فأن تمكث في دمشق بضعة أيام وتتوقع أجراً عنها أمر، وأن تبقى في الصّحراء فترة تشتري الجمال وتحرسها أمر آخر. وكان على محمّد أن يلزم بيت الشّعر عند طرف المضارب حتى تتاح له فرصة العودة إلى موطنه.

البحث عن مرعى

تقدّمنا يوم الثلاثاء ناحية الشمال. وكان العربان يعانون الجوع والعطش، ولكن لم يكن بوسع العديد من بيوت الشّعر أن تصنع الخبز أو تطهي الطعام لعدم وجود الماء. بل حسبهم من الطعام حليب النّوق، وحتى هذا كان نادراً.

وفي صباح اليوم التالي راح رعاة القطعان يسوقون الجمال التي لم ترد الماء منذ الأربعاء في الأسبوع الماضي ناحية الجوف، وكل رجل منهم يحمل معه قدراً من القمح أو الطحين ليقدمها على سبيل المكافأة لأهل الجوف لجرِّهم المياه. وقد قام الراعي لدينا مفزع بحمل أربع قِرب لملئها بالماء.

وكان الأمير قد طلب مني أن أعدّ ما يشفي «العَجيَّة»، وهو يعني زوجته الفتيَّة. وكانت تعانـي من الحمى، حسب قوله، وتكثر من طلب الماء، وترفض أن تشرب أي دواء.

فقمت بإعداد شراب طيب المذاق حمله لها العبد حمّار. وأخذ الأمير يردد على مسامعنا ونحن جالسون نتسامر الكثير من الأهازيج والقصائد فأخذت وجْواد في تدوينها. وكنت شديد العناية بالمنطق الذي يأخذ به في الدفاع عن أصالة كلمات معينة ونهجه في دحض القول بأفضلية رواية جْواد لتلك الأشعار، وجْواد حافظ لكثير من قصائد الشعر والأغاني، وكان يختلف مراراً مع الأمير في موضع بعض العبارات كما كانا يختلفان في تعيين الصيغ.

وكان الأمير يقول في ذلك: «هذه الكلمة ليست في هذا الموضع، ولو كانت أفضل. وقد حفظتها على نحو ما تعلمت، ولست أريد أن نجري تغييراً على ما عرفت».

وفي مساء يوم الثلاثاء قمت بزيارة زوجة النّوري المريضة، وهي مستلقية في خيمة والدتها، وجسدها مغطى حتى الرأس أيضاً بمعطفين من الصوف. ولم تكن لتسمح لي عندئذ حتى بلمس يدها لمعاينة النبض، ولا كانت تظهر لسانها، إنما دأبت على الشكوى من العطش وألم المفاصل. ولما سألت إن كانت قد تناولت العقار الذي بعثت به إليها أخبرتني والدتها أن أخوات الصبية قد تناولنه عوضاً عنها، بعد أن تذوقن طعمه وطاب لهن فشربن الدواء قبل أن تتناول شيئاً منه. فعمدتُ عندئذ إلى وضع مسحوق حامض الصفصاف في شراب الليمون وطلبت من الأم أن تشرف على أن تتناوله ابنتها في حضوري.

في المساء عادت الجمال من موقع السقاية. كذلك جلب مفزع الماء معه، وياله من ماء! كان لونه يضرب إلى الصفرة، وله رائحة العفن الكريهة. وكان علينا أن نشرب هذا الماء! ولقد تذرع مفزع بالقول أن الأمير ذاته يشرب من هذا الماء ذاته، وأنه رأى خدمه يملؤون قربهم من الجرن عينه الذي حمل ماءه إلينا.

كان الأمير يلحّ في تلك الأثناء على أن يغادر نوّاف الجوف ويعود إليه. ولكن نوّافاً رفض المغادرة والحضور. بل إنه زاد بالإلحاح في طلب المال والذخيرة والطحين من أبيه.

لكنّ الأب ثابر، وقد ثار غضبه، على إرسال الرسل الواحد تلو الآخر إلى الجوف، كذلك استمرّ نوّاف بالطلب من والده السّماح له بالمرابطة في الجوف، وتزويده بالطعام والذخيرة، وطلب إليه إرسال والدته وولده سلطان إلى طرفه. فتوسطت راجيا الأمير تلبية رجاء ابنه البار ولكن وقتاً مضى قبل أن يعود حتى بمجرد النظر في الطلب.

* * *

في صباح يوم السّبت صحوتُ على أصوات زمجرة الجمال لضيقها بالأحمال التي كانت توضع فوق ظهورها. وكان علينا يومئذٍ شد الرحال ثانية بحثاً عن المرعى. والحق أننا لم نصادف خلال الشهور الخمسة الأخيرة أرضاً يكثر فيها المجال للرعي.

وقبيل رحيلنا سمعت ناقتين تنوحان وهما تنظران إلى جمل صغير مذبوح. وكان العبد دالي قد ذبح لتوه بناءً على أمر الأمير جملاً صغيراً ضعيف العظام، بعد أن تُرِك يرضع من ضروع ناقتين أميَّن لكي تدران الحليب. ولما لم يتكلف دالي القاسي إبعاد الناقتين قبل أن يذبحه على مشهد منهما، وقفتا تنظران إلى الضحية الصغير وهو يتلوى من الألم وهما تنوحان أسى من قسوة الإنسان. وأخذت الأم الأصلية تعضّ الأم المرضعة لكي تبعدها، ثم تلتفت إلى ولدها تلعق قوائمه وترفعه من ظهره، وتستمر بنواح يقطع نياط القلب حين تسقطه إلى الأرض من جديد.

أما الأم المرضعة فتعود إلى الأم الوالدة وتنضمّ إليها بالنواح والنشيج، ووجدتهما تُطردان، لكنهما تعودان فوراً إلى المكان من أقصر طريق. وأخيراً انتزع دالي بعض الجلد[1] عن ظهر الجمل الصغير ودفن البدن في الرّمال، ثم عمد بعدئذ إلى تمريغ الجلد بأنف الناقتين، فجذبهما أثر رائحة الجمل الصغير وتبعتا الجزّار طواعية.

---

(1) يُعرف هذا الجلد باسم «البَوّ»، ويُستخدم لإقناع النّاقة الأم بالإذعان لأوامر صاحبها بعد ذبح حوارها (فصيلها). سنورد ذلك كله في كتاب موزيل: «عوائد عرب الرّوَلة».

أبو الدّهور

يمّمنا ناحية الشمال شرق نقصد مساكن قارا، وتابعنا الطريق في منبسط شاسع واسع تغمره الأحجار القاسية. وبعيداً ناحية الغرب والشرق كانت قطعان الجمال تتدافع متلاحقة كالأمواج، ووسطها ما لا يحصى من الدواب التي تحمل الخيام والمؤن والهوادج. وفي وسط هذا الطابور الطويل البعيد كان الهودج المعروف بأبـي الدّهور، والذي يمثل سلامة وشرف العشيرة كلها يتحرك متمايلاً على ظهر جمل قوي.

وجدير بالذكر أن الرّوَلة لا تتخذ لنفسها علماً أو بيرقاً. ورجال الرّوَلة حين يخرجون في غزواتهم لا يأخذون بأي ترتيب خاص ولكنهم إذا شنّوا حرباً، سواء عدواناً أم مدافعة، تجعل العشيرة كلها في مواجهة الخطر، أخذوا معهم هودجاً من نوع خاص يدعى المركب (انظر الشكل 17). وقوام المركب أعمدة نحيلة مرتبطة ببعضها بإحكام في شكل مستطيل، وهي مزينة بريش النعام، والأعمدة العليا منها مربوط بها إثنا عشر وتداً كزينة بريش نعام مثني. وفي هذا قال الأمير يحدثني:

«أبو الدّهور يعني أبا الأزمان، وقد منحنا هودجنا هذا الاسم، لأنه موروث تتناقله الأجيال وقد مرت به عصور، ولسوف يدوم إلى الأبد: وهذا المركب الرمز الظاهر للسلطة الأميرية، ولذلك نجد هذا الهودج أبداً في خيمتي، وبالتخصيص في ذلك المكان الخاص بالنساء، ونقوم أنا وعبيدي بحراسته في وجه كل إنسان، وخاصة من الأقارب الأقربين إلي. ذلك أنه لو قام عصيان بين أقاربنا على الأمير فإن الخصوم سيقومون أولاً باختطاف أبـي الدّهور منه، فهو شعار العشيرة كلها وهو الذي يحفظه، ويعتبر من الجميع على هذا الأساس أميرهم. وإذا ما قدر أن يستولي على أبـي الدّهور عدو في الحرب، تكون هيبته وسطوته قد ضاعتا تماماً ولا يحق لنا بعد هذا استخدامه قط»[1].

---

(1) يسمّى المركب أيضاً: العُطفة، ومن عشائر نجد التي لم تفقد مركبها قبيلة عتيبة، وفي الشمال دون ريب عشيرة الرّوَلة، التي بقي مركبها موجوداً إلى اليوم، في قرية الرّيشة بالحَماد.

وقد جرت العادة على أن يُنتَخَبَ جمل مشهور بقوته ووداعته، ولونه الأبيض، لحمل الهودج حين تخرج العشيرة للنجعة. والقاعدة أن يسير بين الجمال التي تحمل الأمتعة وبذلك يشكل المركز بين كافة الأسر الظاعنة. وإذا هاجمهم عدو برز لهم أفضل المحاربين على الفور وقاموا بتطويق الهودج حماية له. وإذا بدا أن العدو قد ردّ المقاومين وبات قادراً على اختراق صفوف بقية الجمال، قام قائد المحاربين النخبة الذين يتولون الدفاع عن الهودج وقاد الجمل الذي يحمل هذا الرمز وسار به على رأس قواته في وجه العدو. ويرافق هذه القوات فتيات يجلسن على نوق وهن يشجّعن الرجال على الصّمود، ومن ورائهن نساء أخريات من العشيرة يهددن بضرب كل من يتخلى عن أبـي الدّهور ويعمد إلى الفرار. وما زالت السطوة للرّوَلة ولم يفلح عدو حتى اليوم في إنزال الهزيمة بهم بما يسمح له باغتصاب أبـي الدّهور منهم. والأمير للحقيقة شديد الحرص والحذر، وآية ذلك أنه اتخذ قاعدة بان يجعل خيام مختلف المضارب تُنْصَبُ قريباً من بعضها بعضاً كلما كانت الأرض التي يسيرون عليها خطرة بعيدة عن الأمان.

سألت منديلاً: «هل تصحبون أبا الدّهور معكم في غزواتكم؟».

أجاب: «أبداً، إلا إذا كنا في حرب، حيث نقوم عندئذ بنقل قطعاننا وخيامنا كلها داخل أرض العدو. والجمل الذي يحمل أبا الدّهور يتقدم العشيرة كلها، في المسير، يحيط به المقاتلون الذين يتابعون كل حركة تأتـي بها الراحلة بانتباه شديد، لأن الله تعالى يوجه الشارات عن طريق أبـي الدّهور وبقراءتها يدرك المرء سلفاً نتيجة المعركة. فأحياناً يتحرك الريش الذي يزين أبا الدّهور ويأخذ يرفرف. وقد يميل الهودج إلى اليمين أحياناً أو تراه يميل إلى اليسار، ثم إذا به يستقيم ويظل مقيماً على هذا النحو، ويهتزّ بضعة اهتزازات إلى الأمام وإلى الخلف. وكل ذلك بإرادة من الله تعالى. فالله يجعل لنا في الهودج حيث يستقرّ نجدة. واهتزاز الريش واستقامة أبـي الدّهور شارات إلى أن الله تعالى قد مسّه بسلطانه. ونحن نقدم بعد كل نصر ذبيحة عند أبـي الدّهور تقرباً من الله عز وجل. وهذا تقليد نأخذ به كل سنة، حتى وإن لم نخض حرباً».

ولقد بدا أبو الدّهور على مشهد منا بعيداً في أقصى الأفق على السّهل المستوي. وكنا نحن راكبي الجمال جميعاً نزحم الطريق، ومن ورائنا هوادج النساء بألوانها المختلفة، كالفراشات، تجري علواً وهبوطاً في الهواء الثقيل. وكانت أصوات صغار الجمال والنوق تعلو متداخلة في الهواء، والأطفال يبكون والنساء ينادين بعضهن بعضاً والجمال التي تحمل متاعهن، بينما الرعاة يحاولون توجيه الحيوانات التي يتولون أمور قيادها بغناء أغان قصيرة وهم يطيلون آخر مقطع منها وكأنها لا ينتهي وكان راكبو المطايا يسرعون بالانتقال من جانب إلى آخر، سواء كانوا يركبون الخيل أم الجمال وفوق ذلك الضجيج وتلك الجلبة كان هناك الهواء الحار والكثيف الخانق في الجو.

وفيما نحن على هذه الحال أخذ عودة بالغناء عن فتاة كانت تَحُثّ أهلها على الانتقام لمقتل أبيها:

هَـلّ الهـلال وكِملِـنْ العلـومي	وتمـضْحَلَتْ عنّـا جميـع الحَكَايـا
إخسُوا خسيتم كلّكم يا الرّخـومي	وَش عـذركم مـا تبنجـون الـضَّمايا
أشـوف عقبـانٍ علـيكم تحـومي	تَبغي العَشَا منكم الكبـار العلايـا
إدعـوا بـشذرة مـا نقلـتم اثلـومي	من قبل ما تـدعون مثـل الـضَّحايا
يـشكنكم بـيضٍ تـدقّ الرّقـومي	إنـتم سِـترهِن لا يخلّـن عَرَايـا
وا ويلكم إن كان سفّهتم علـومي	والله لتروحـون كلّكـم ضـحايا
تحزّبـوا وصـيروا رجـالٍ فهـومي	والعـدو مـا يـسلى مثـل الحيايـا
وا خـوفَتي ينقـال راحـوا لهـومي	عيـال شـالوهم بظهـور الـسّبايا

* * *

توقفنا للاستراحة حيناً عند خيف الحَجَل (الشكل 18) وهو بقايا تل رملي يشبه نبتة فطر هائلة، وقد لاحظنا على الساق والرأس عدّة نقوش قمت بتدوينها[1]. ويرجع تاريخ هذه النقوش إلى ثمانية عشر قرناً وهي محفورة على الساق وتحت القمة بيد بدو متاجرين، ثم عملت على مسحها الرياح التي كانت تهب منذ ذلك العهد، ولكنها ظلت على الرغم من هذا، جلية مقروءة. وكم من آلاف السنين مرت والريح تعصف بالصّخرة وتعمل فيها نحتاً حتى صاغتها على شكل نبتة الفطر التي صارت عليها الآن!

راح الأمير يحثّنا على الإسراع بالرحيل لأن حراً قائظاً لا يطاق صار يخيم على المنطقة ونحن ما نزال عطاشاً. وفي النهاية كنا قد بلغنا ناحية قارا وأشجار النّخيل في بساتينها.

وما إن نزلت عن جملي حتى برز لي فتى أعرابي وعرض رسغه الأيمن حيث عضّته إحدى الأفاعي. فشققتُ له جرحه وطلبتُ منه أن يمتص الدّم منه ثم لطخت الجرح بمادة الأمونياك وقدمت له فيما بعد كأسا عامراً من الكونياك من ذخيرتي. ولقد أصابته الرعشة حين تناول جرعة من ذاك الشراب ولم يكن بوسعه احتمال مذاقه الحارق، ثم ما كاد يفرغ الكأس حتى اضطجع واستغرق في النوم وبدنه يتصبّب عرقاً. ولما رأى أقاربه حاله على هذا النحو، ولم يكونوا ليثقوا بأسلوبي في العلاج، استدعوا رجلاً راح يرقيه بعبارات غير مفهومة وهو يخيم فوقه فترة طويلة من الوقت، ثم أعلن شفاءه في اليوم التالي.

* * *

(1) لم يقم موزيل مع الأسف بنشر هذه النّقوش الكتابيّة في مؤلّفه الأصلي *Arabia Deserta* وأظنّ أنها تكون مع أوراقه الخاصّة في جامعة كارل بمدينة پراغ في تشيكيا.

إلى الصّحراء الصّخريّة

في اليوم التالي تحركت قافلتنا. وكانت الريح الحارة التي تهب علينا من الجهة الجنوبية الشرقية تملأ الهواء بما لا يحصى من غشاوات الحرارة التي تجعل التنفس صعباً. وكانت الحرارة قد بلغت درجة 99,5 فهرنهايت في الظل، وكانت هذه الرياح التي تهب علينا تجعل الحرارة لا تطاق. وكانت الرّمال على قدر عظيم من الحرارة ما جعلها تسبب لقدميَّ العاريتين آلاماً شديدة.

في الشمال كان الجُرف الصّخري الواسع الذي يقع عند حافة آبار الصوير الشهيرة يمتد ويتسع. وماء هذه الآبار مؤكد وهو الأفضل في تلك المنطقة البعيدة. واستذكرت عندئذ المصاب الذي نزل بشقيق بليهان في تلك الأنحاء. وتفصيل ذلك أن جيان وأربعة من الفتيان الآخرين ضلوا الطريق بسبب من رعونتهم فكانوا يسوقون قطعانهم طوال الليل والصّباح وهم يبحثون عن دربهم فلا يجدونه. وعند الظهيرة ما عاد أحدهم يعرف الآخر تحت وطأة العطش وعذابه. أما الآخرون فقد تمكنوا من انقاذ أنفسهم بترك غنائمهم وجيادهم وإسراع الخُطى، سوى جيعان الذي أقسم بقوله: «والله أموت ولا أترك مهري!».

ما كان منه عندئذ، إلا أن أمسك عنان المهر بيده اليمنى ومضى يتبع ببطء آثار رفاقه. ثم انطوى قيظ النهار والشمس تجنح إلى الغروب وجيان ما يزال على سرجه. وفي الليل ظل الفتى يتبع المسار الذي كان يقتفيه في النهار. ولكنه حين وجد نفسه وحيداً معزولاً على هذا النحو استولى عليه ذعر رهيب. والحق أن عذاب الظمأ صار عندئذ أشدَّ من أن يُطاق، وفي تلك الأثناء سمع طنيناً في أذنيه. وبعد استراحة قصيرة استأنف الفتى طريقه على صهوة مطيته. ثم ترك العنان للمهر، وطوق عنقه وأمال رأسه على عرفه واسترخى وتابع المسير وكأنما هو نائم. ولما مر الندى انزلق عن السّرج ونشر عباءته على الأعشاب الدائمة الخضرة واستلقى تحتها. وقد حسب عندئذ أنه في سبيله إلى الموت، لولا أن لعق المهر وجهه فانتعش بعض الشيء.

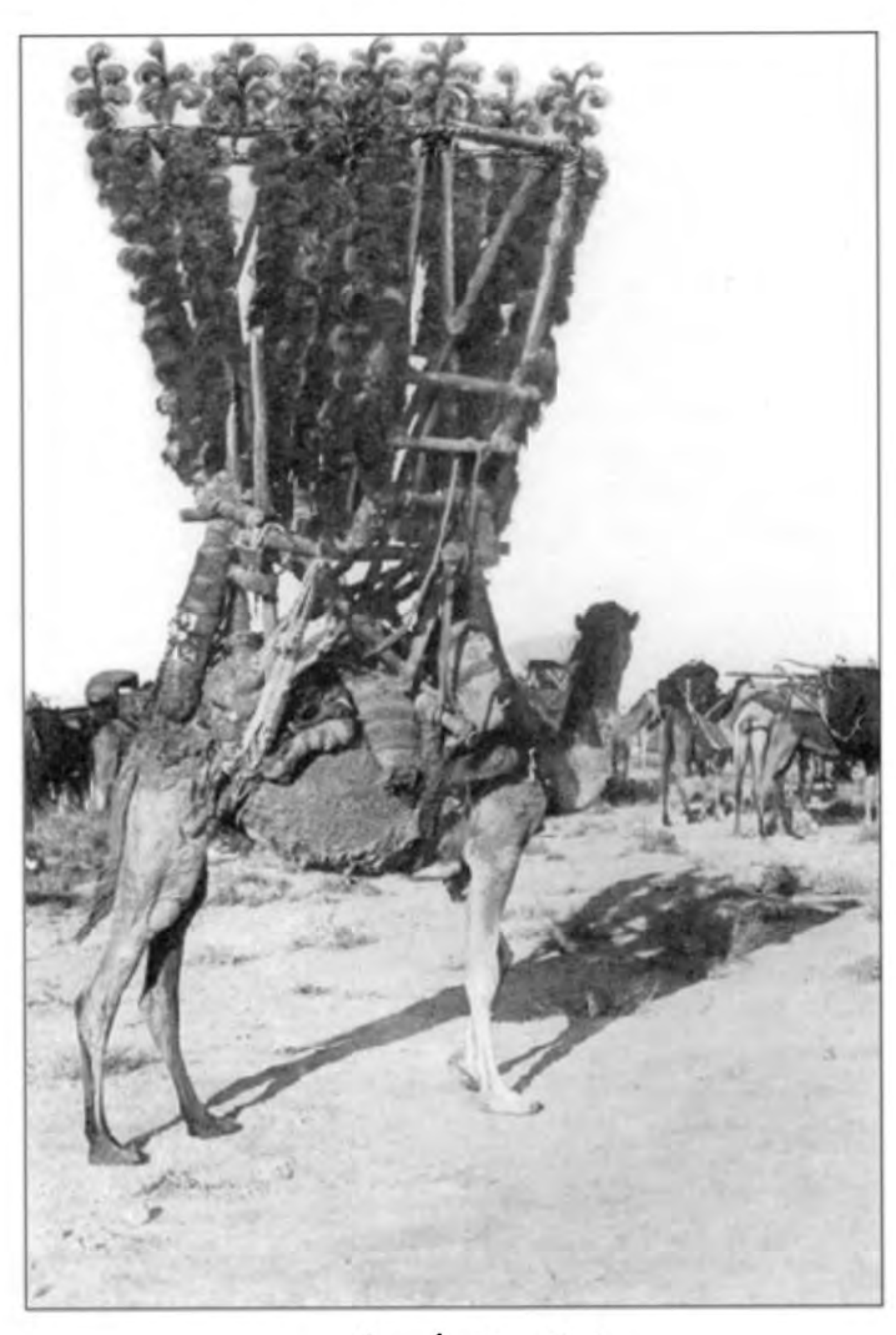
وإذ نهض عن الأرض عاد فامتطى الراحلة من جديد وشد الرحال منهكاً من التعب، بينما قام المهر بحمله بكل عناية حتى بلغ به في النهاية أقرب مكان إلى الماء، آبار برّيت، حيث وجدها مهجورة من البشر تماماً وعندئذ انحدر عن السرج، ثم تابع الطريق متدحرجاً أكثر منه ماشياً حتى بلغ أقرب بئر، ولكنه لم يجد أي حبل أو دلو. ولقد جال بباله عندئذ بأن يرمي بنفسه في البئر، لولا أن الله يُحرِّم ذلك. ثم تهاوى على الأرض نائماً أو غائباً عن الوعي - فهو ما زال لا يدري أي حال كان الأقرب إلى الواقع - فظل على حاله بجانب البئر. وفي تلك اللحظات ورد أحد بدو الصليب، وكان مستأجراً من جماعته، لحمل الماء معهم والبحث عنه. فلما عثروا على آثاره لحقوا بها، ولم يمض وقت طويل حتى كانوا قد بلغوا المكان حيث كان مرمياً على الأرض غائباً عن الوعي. ففتحوا عندئذ فاهه ووضعوا في بلعومه قليلاً من السّمن الذائب حتى ابتلعها واستعاد وعيه. ولكن الأمر استغرق نحواً من يومين قبل أن يتمكن من الجلوس على السرج دونما مساعدة من أحد. أما الصليبي فقد تلقى خمساً من النوق مكافأة.

وفي العصر أقمنا مخيماً جديداً على عجل، إذ انتابتني عندئذ حمًّى شديدة. وقد ظللت مستلقياً تحت شجيرة غضا حتى جاءني رفاقي بأغطية وقدموا لي قدراً كبيراً من الماء المحلىً مما جعل عطشي يرتوي قليلاً.

وفي اليوم التالي كنا قد عدنا إلى المسير ثانية. وظللنا على هذه الحال حتى برز جمع من سبعة عشر من الفرسان الغريبين.

ووجدت ثمانية من المحاربين الذين يرافقون الأمير يهبُّون لامتطاء جيادهم لمطاردة هؤلاء واعتقالهم. وإذ بالأمير يصيح في أعقابهم فيما هم يندفعون نحو أولئك المحاربين: «قبل أن تكبسوهم عليكم بالاتفاق فيما بينكم على الغنائم واحذروا أن تصيب طلقات الأعداء أحد المهور». وبدا أنه أشد قلقاً على المهور منه على ابنه سعود والجمع من الأقارب الذين خرجوا للمطاردة.

وفي يوم الخميس في 17 مارس أقمنا مخيمنا في شلتات المخروق.



الشكل 17: أبو الدّهور

في يوم الخميس والجمعة كنت قد استهلكت كل ما لدي من طعام وشراب. ولم أهتم بعملي، وكان ذلك عارضاً خشيت أن يكون نذيراً بمرض شديد. ومع ذلك فقد قاومت هذا العارض. ومضيت أتحامل على نفسي وتومان وعودة يقودانني إلى الجهة الجنوبية من تل مستطيل الشكل من الحجارة الرّملية لرسم خارطة للمنطقة. وقد اضطررت يومئذٍ للاستلقاء عدة مرات حتى أتمكن من استعادة ما يكفي من الطاقة لإنجاز الخارطة.

وأخيراً هطلت الأمطار. وكلما انقطع المطر برهة خرج الأطفال ليخوضوا في البرك حيث تتجمع المياه ويأخذون بتبادل رش بعضهم بالمياه وهم يصيحون فرحين كلما سقط أحدهم في إحدى هذه البرك وابتلَّ جسمه. وكانت النساء يخضن في المياه ويملأن القِرَب منها. أما الماء المخصص للأمير فكان يجلب من المكان الذي تستريح فيه الجمال، وهو حافل، طبعاً، بالبعر. وعلى بعد خطوات كانت هناك المياه النقية، إلا أن العبيد كانوا أشد كسلاً من أن يجشّموا أنفسهم عناء حمل القرب والخوض في الوحل للحصول على الماء.

في يوم السبت استطعت الجلوس. وكان الأمير يأتـي كل ساعة للسؤال عن أوضاعي الصحية. وكان علينا أن نغادر في ذلك الصّباح، لكنه إذ خشي ألا أستطيع الركوب فوق الشداد - أو بالأحرى خشي أن يداهمني الموت - وَجَّهَ الأمير بالبقاء هناك فترة حتى بعد أن شرعوا بفك الخيام في الصّباح فأمرهم بإعادتها قائلاً إن علينا البقاء حيث كنا فترة أطول. وقد دأب العربان على طرق خيمتي الواسعة من كل الجهات ويسألون ناصراً إن كان ما يزال بـي نفس.

غزوات

في صباح يوم الأحد 21 مارس وجدتني استغرقت في النوم لأول مرة بعد انقضاء ستة أيام، جافانـي الكرى ولكني صحوت من رقادي باكراً، أي في الرابعة من صباح اليوم، على أصوات الجمال التي يتم تحميلها بمتاع الأمير.

وكان السّبب في ذلك أن الأمير حين بلغه أنّـي آويت إلى الفراش نائماً في تلك الليلة بعد أن غادرنـي النوم، وإدراكاً منه بأن المنطقة خالية من المراعي، قد قرّر أنّ علينا الانطلاق. ولما خرجت من خيمتي بدا لي كل شيء يدور كالدوامة، فكان علي الجلوس سريعاً خشية أن أتهاوى على الأرض. وكان الهواء عندئذ رائعاً صافياً، والعصافير تزقزق لكن عروق صدغي كانت تبرز محتقنة بالدم، وعيناي تغلفهما غشاوة، وكان ثمة طنين مزعج لا ينقطع يتردد في أذنـي، وألم في أحشائي، وكنت أنا ذاتـي أعانـي من عذاب ظمأ مقيم.

كان النّوري قد عقد العزم على أن يجد موقعاً جديداً ينصب فيه مضاربه في شمال شرق مرتفع أمغار، لكن أقرباءه كانوا يصرون على أن ليس في تلك المنطقة مراع وظلوا يلحّون عليه بأن يتوجه إلى اللبّة. على أن النّوري كان رجلاً معانداً، وظل متشبثاً بخطته بأن يقصد أمغار. وكانت نتيجة هذا الجدل أن غادره الشيوخ وعشائرهم بل حتى أقرب الأقرباء، متجهين جنوب غرب المنطقة، نحو اللبّة. فاقتصرت جماعتنا على الأمير، وعبيده، وولده سعود وشخصي أنا. ولم يمض إلا حين حتى أدركنا صهر الأمير، مشرف بن كردي، وهو شاب في مقتبل العمر فأخذ يقرع عمه بعبارات قاسية لتعريض نفسه لخطر عظيم بسبب عناده وألح عليه باللحاق بالآخرين. وهنا أدار الأمير عنق جمله باتجاه الجنوب شرق، ومضينا في إثر العشيرة، إلى اللبة.

حاول النّوري أن يوجّه اهتمامي إلى أمور أخرى عساي أن أبرأ مما أعانـي من الكآبة. فراح يروي لي قصة النصر في المعركة العظيمة التي دارت بين محمّد بن رشيد سيد نجد ووالد النّوري (هزّاع الشعلان)، وانتهت أخيراً بصداقة راسخة بين الرجلين. وكان السبب الذي حمل الرّوَلة على الحرب على ابن رشيد رؤية بعض صغار الإبل، وهي في الأسابيع الأولى من العمر، تنوح أشد النواح على أمهاتها التي تم أسرها وباتت حياة الصغار في خطر. ولقد حركت هذا المشهد المؤلم محاربـي الرّوَلة وصاروا يسيرون في استعراض، الواحد تلو الآخر، أمام صغار البهائم تلك ويطلقون صيحات الحرب ويستحثون همم بعضهم بعضاً:

«أبشر بامّك يا حوار!».

«لقد أرسل محمّد بن رشيد، عندما عاد إلى قومه وعلم بمبلغ الخسائر التي وقعت به، إلى أبـي برسالة يقول فيها ما يلي:

«أقسم بالله يا هزّاع بن شعلان لسوف أظلّ صديقاً لك ما حييت وعدواً لعدوك!».

«وهكذا صار ابن رشيد وقبيلته أصدقاء لنا ورفاقاً، وكأنما الدّم يجمع بيننا. وكان ابن رشيد يلجأ إلى ابن شَعلان طالباً المؤازرة كلما عزم على شن غارة ذات خطر، فكان إما يركب بشخصه إلى جانبه أو يرسل معه عشيرته وأحد الزعماء الآخرين. وكان ابن شَعلان يحتفظ بكل ما تقع يداه عليه لنفسه والمحاربين الذين يقاتلون بإمرته. وكان ابن رشيد لا يشارك حليفه قط لأن ابن شَعلان كان ينزع إلى الاستقلال.

وحين تجاوزنا العشائر التي كانت قد تقدمتنا، وقعنا على جماعة من النساء، وبعضهن جالسات في هوادج أشبه بالأقفاص وهنَّ يتفقدن ثيابهن بعناية، بينما هناك أخريات كن يعرضن أمامهن قرب ماء، وهن يرتقن ثياباً، ويتضاحكن والرجال الذين يمرون بهن. وكان من بين تلك الجماعة ثلاث نساء أو أربع ذوات أصوات لا بأس بها، وكن يغنين:

لا ما حَلاَ ذِرْعانِك صِيتَة	بالوشَــــام مْعَــــشْرَقاتِ
مــا حَــلاَ هــدّة اهَلْهَــا	وَالــــسّيوف مْحَنّيــــاتِ
مــا حَــلاَ ثــورة جِمَلهــا	بالــــشّرايا مْبَيّنــــاتِ

* * *

يا صـيتة بِنـتْ جِـدّيني

جِــدْ يِنْــزِل الــسّاقة	و جِــدْ يِــنْطَح الخــيلي

وصيته هذه التي تتحدث عنها القصيدة زوجة النّوري. وقد قالت تلك النسوة ما قلن لجعله مسروراً.

وبعد استراحة عند الطرف الجنوبي من خشم المخروق، يمّمنا ناحية الشمال.

حث الأمير مطيّته فراحت تجري خبباً، ونظراً لتأخره توليت أنا تعيين الموقع شخصياً. فلما وصل الأمير مضى يقرعني لاستعجالنا نصب الخيام وكان يريد استئناف المسيرة ولكن العربان - بل حتى العبيد لديه - لم يكونوا يرغبون في إعادة تحميل الخيام ولوازم المبيت، ورفضوا إطاعة الأوامر. أما أنا فجُلّ مناي كان يومئذٍ نيل قسط من الراحة.

وفي يوم الأربعاء انضم إلينا خالد بن سطّام.

وأخذ يبسط الأعذار لفشل الإغارة محاولاً شرح الأسباب التي حالت دونه ومقاومة العدو أو تفادي الاشتباك معه، وعندئذ قاطعته قائلاً:

«الحمد لله لعودتكم جميعاً سالمين. وهو مقدّر الأقدار».

ولكن الأمير لم يُسَرّ بكلماتي ثم مضى يقرّع خالداً لرعونته:

فقال: «ويل للبدوي الذي لا يعتمد على نفسه. فنحن وحدنا من نصوغ أقدارنا، ونكون مسؤولين عنها».

ولقد أقمنا خيامنا في اليوم ذاته عند وهدة صخرية تدعى فَجّ الصّلَيبي.

وأسرع طراد، وهو أخ غير شقيق لخالد لينضم إلى نوّاف، وذلك على غير ما كان النّوري يريد إذ كان غضبه على ابنه في ازدياد. وكان طراد قد طلب مني أن أعمل على إقناع النّوري بمؤازرة ولده، وإلا لانتهى أمره على أسوأ ما تكون النهاية في الجوف ولمّا حاولت إقناع الأمير بذلك ردَّ على ذلك رداً عنيفاً، قائلاً: «قد ذهب نوّاف إلى الجوف رغماً عن إرادتي. فليفعل الآن ما طاب له».

فأجبته: «أرسل له مالاً وذخيرة حتى يتمكن من عمل ما يطيب له».

فابتسم الأمير لإجابتي لكنه ظلّ صامتاً.

أصبحت في يوم الخميس أفضل حالاً مما كنت عليه فاستأنفت أعمالي الجيولوجية وظللت أعمل ذلك اليوم مع فرج الصليبي، وذلك من أجل توسيع خارطتي الجغرافية حتى شملت جنوب شرق النّفود. ولما تم لي تحديد النقاط الرئيسة من الوديان والآبار على وجه الدقة، مضى فرج يحدد على الرّمل في خيمتي التلال والوديان والآبار، وهو يراكم الرّمل ليمثل سلاسل الجبال والهضاب الصغيرة، ثم يعمل فيه جرفاً ليمثل الوديان ويعيّن كل بئر بمستديرة. غير أن الرجل لم يبين المسافات، ومع ذلك فقد كان دقيقاً في تعيين اتجاه كل موقع. أما وقد تم العمل على الخارطة فقد استجوبته في أمر المسافات بين مختلف المواقع. فوصف هذه المسافات بالمسير يومياً، بالتقدير، مثلاً، إن كان بوسع العرب الرحُل الانتقال من المنطقة (أ) إلى المنطقة (ب) وبلوغ مقصدهم في اليوم ذاته. وكان يأخذ في الحسبان إن كان ثمة إمكانية للترحال في الشتاء، حيث يستطيع هؤلاء الأعراب قطع مسافة إثني عشر ميلاً، أو خمسة عشر ميلاً ونصف الميل في الصيف، حين بدء المسير من طلوع الشمس حتى المغيب. أما المسافات الأقصر فكانت تتحدد بالمسافة المقطوعة في الترحال من الصّباح حتى الظهيرة أو من الصّباح عند تساقط الندى أو عند منتصف الضحى أو عندما يجف الندى.

قد يحصل المرء على المعلومات المنشودة، وهو يبغي تقدير المسافة إلى موقع معين للتزوّد بالماء، على نحو أيسر بالسؤال إن كانت الإبل تساق من المعسكر (أ) إلى المنهل (ب) في الصّباح فترد الماء ثم تُساق ثانية إلى الموضع الذي خرجت منه دون توقف (12 ميلاً) أم أنها لا تبلغ المنهل حتى العصر ثم تمضي الليل هناك وتعود في اليوم التالي (18 ميلاً) أم أن عليها أن تمضي الليل على مسافة من مكان السّقاية، فلا تبلغه حتى اليوم التالي وتمضي الليلة الثانية على مسافة من المنهل فالعودة في اليوم الثالث (28 ميلاً). والبدوي يجهل دقة أكثر من هذه في تعيين المسافات.

وحين صرفتُ فرج في تلك الليلة كانت خارطتي أغنى بأسماء المواقع الجديدة وخيمتي أكثر امتلاء بالقمل.

السبت في 27 مارس يوم الرحيل فتابعنا الدرب جنوباً - جنوب شرق إلى الموقع المعروف باسم خشة الثور. وكنا مسلَّحين متأهبين ونحن نتوقع هجوماً من شمَّر.

توقعات رهيبة

جاءني الأمير يوم الإثنين وأخطرني بأنه ليس لنا أن نتابع المسير على ما كان يود ليكون قريباً من ابنه نوّاف في الجوف. فأخبرته عندئذ بأنّـي سأبدأ على الفور بمهمة جديدة. فحاولَ أن يثنيني عما اعتزمت. فذكر لي الأخطار التي تتهدّدنـي، ولكني أجبته بأنها إرادة الله أن أقوم بهذه الرحلة، وليس لي أن أعارض. وهكذا سعينا إلى استئجار دهمشي ليوفر لنا الحماية من أهل عشيرته أعداء الرَّوَلة.

جاءنا خَمار بأحد الدّهامشة[1] وكان يدعى طارش بن ملفي وينتمي إلى عشيرة المهينة. لكنه لم يرقْ لي فقد كان أعرج، وعينه اليسرى عمياء، قواطعه العليا بارزة من فمه. وهذه صفات لا تبشر عند البدو بخير. ولكنه كان من المهينية، أي من الأسر المقدمة لدى الدّهامشة، وبالتالي لم يكن لي مجال للاختيار.

وفي تلك الأثناء كان أمامي مهمة صعبة تتجلى بالعثور على دليل. ولقد بدا لي أن الصَّلَيب جميعهم اتحدوا على حملي على دفع أجور باهظة مقابل خدماتهم. ولكني تمكنت أخيراً من اكتراء صُلَيبي يدعى مزعِل أخو زعيلَة، لقاء مجيدي واحد في اليوم. ولقد شدَّد الأمير على هذا الصَّلَيبي أن يقوم بخدمتي كما تفرض الأمانة ويستجيب لكل طلباتـي ويحرص على حراسة جمالي. ثم التفت عندئذ لتصفية حساباتـي مع محمّد.

---

(1) ذكرنا مسبقاً أنهم أحد فرعي عشيرة العمارات: الجبل والدّهامشة، وشيوخهم آل مجلاد.

وبعد المشاورة، والأمير، وقد نصحني خلالها بأن أدَّعي على محمّد أمام المحكمة التركيّة، قرَّ لدي أن أدع له ما سرق مني من الذهب، وألا أدفع له الجنيهات الذهبية الثلاثة (13,58 دولاراً) الباقية من أجره والتي لم يكن قد سحبها بعد. وهكذا كان أن أفاد من السرقة بما يبلغ السبعة عشر جنيهاً، عوضاً عن أن يلقى العقاب على سرقته. ولقد قبل بما كان من حكمي وأقرَّ باستلامه كل مستحقاته. كذلك احتفظت بحقي بالادِّعاء عليه أمام السلطات التركيّة، في حال أتى بما يزعجني. وكان لهذا عائلة تقيم في بغداد وأخرى في الدير على الفرات، بينما هو يقيم في كثير من الأحيان في دمشق والمدن الأخرى، ويمكن للحكومة بالتالي إلقاء القبض عليه وسجنه بيسر.

وبعد أن غادر محمّد بدأت بإعداد المؤن للرحلة المعتزمة. وفيما كنت أخرج المؤن من إحدى الحقائب سمعت فحيح أفعى، وإذ بأفعى سامة تبرز كالسهم من تحت الأغراض. ولما كنت حافياً وجدتني أقفز من موضعي مذعوراً فتم قتل الأفعى على يد ناصر. وكانت تلك الأفعى تبلغ إحدى عشرة بوصة طولاً وثخينة بحجم إصبع رجل، لها فوق عينيهاناميتان غريبتان.

وكانت تلك ثالث أفعى تبرز لي في هذه الرحلة. وحوالي العشاء عاد الأمير لزيارتي وما انقطع ليلتئذ يوصيني بالحذر والتزام السلامة.

وقال منزعجاً:

«لو كنت أعلم، يا أخي أنك عازم على القيام بهكذا غارات لما سمحت لك بأن تنصب خيمتك إلى جانب خيمتي. ولا أعرف رجلاً واحداً من بيننا يملك جرأتك، وإنني والله، صادق في ما أقول. وأنت تقول إن الله أراد لك أن تشارك في هكذا إغارات. وإذن فليكن أمر الله ولكن ماذا أقول لأصدقائك في دمشق، إن لم يُقَدَّر لي أن أعود بك إليهم؟ فلقد قطعت لهم وعداً بأن أوفر لك الحماية، إنما كيف أستطيع أن أقدم الحماية حين تغادرني وتخوض في مجاهل أنا لا أجرؤ على الخوض فيها دون طابور يرافقني من ألف محارب؟

«فالدّيرة التي تقصدها الآن يكمن لك فيها الشّمّري والمنتفقي والظفيري وسوى هؤلاء الغزاة من الدّهامشة والعمارات والفدعان والسّبعَة والشّرارات والدّليم. فهؤلاء قد يقتلونك في الليل، ولن ينقذك منهم هذا الدّهمشي. ومع ذلك فأنت لا تصغي لما يقال لك. وأنا محدثك، وقصدي أن أحول دونك والتهور، وأنا العارف بهذه الأخطار أكثر مما تعرف، ولكنك تتجاهل كلامي. أفلا تشفق على الأهل؟ عائلتك؟ أفليس هناك بين هؤلاء الأحياء حيث يقيم الأقارب من يكنُّ لك الحب، ويحزن لفقدانك؟

«أدري ما تودّ أن تردّ به على قولي بأنني أنا شخصياً أقوم بشن الإغارات. وهذا صحيح، سوى أنني أمضي ومعي مئات ومئات المحاربين. أما أنت، فمن هم مرافقوك؟ تومان الذي لا عهد له بالبلد ولا بأهله ولا يعرف لغتهم! ثم لا أحد سوى هذين الغريبين اللذين قد يخونانك في كل لحظة، أو ربما يقتلانك. فمن يدري متى يغويهما الشيطان؟ ثم إنك تدري الأخطار التي تحفل بها الأرض ذاتها، فالله لم يرسل مطره هذه العام إلى الوديان والحماد. ستمرّ الأيام وأنت تمشي في هذه القفار ولن تعثر خلالها على شيء من الماء. تقول إنك ستحمل ماء معك، ولكن ماذا تفعل إذا قُدّر أن تتعثر الجمال الحاملة لقِرَب الماء أو احتكّت بصخرة حادة قاسية فتمزقت هذه القرب جميعها فسال منها الماء؟ ولعلك تذبح جمالك وتقوم بتنقية ما تختزنه من الماء وتشربه ولكن ماذا يكون مصيرك، إن لم يعد لك دابة تحملك؟».

استمرّ يتحدث طويلاً بحنوّ وأناة. كان النّوري الطيّب صديقي، ويمنحني صادق حبّه. ولكن لما كان معلوماً في أرجاء الصّحراء كلها بأنّـي أتنقل بجاهته وفي حمايته فإن عليه أن يخشى أن تُثلم مكانته وهيبته إن هلكتُ في الصّحراء.

وفي يوم الإثنين المصادف 29 مارس 1909 صحوت على أصوات تصدر عن جمالي ليخبرنـي ناصر بأننا في سبيلنا إلى الترحال من جديد. ثم ما هو إلا حين حتى ورد إلينا الأمير حافي القدمين وبلا عباءة ومعه قصعة من حليب النوق قدمها لي. وقال إن بوسعي أن أبدأ رحلتي فوراً.

7- في قلب الصّحراء العربية

الشاعر الجوال

بدأ العرب جميعهم بالرحيل، وكانت وجهتهم الغرب، عدا الأمير وحارسه ولم يبق في موقعنا القديم في خشة الثور سوى رجالي وجمالي ومتاعي. وقد أسرع الأمير وعبيده الخمسة عشر إلى مساعدتنا في تحميل أغراضنا، ولكنهم بالرغم من حسن نواياهم أفسدوا ترتيب الأمور. ومن ذلك أنهم راحوا يحشرون ما كنا نريد أن يخدمنا في الرحلة في الأمتعة التي كان مقدراً أن نتركها في عهدة الأمير، وكم كانت مهمة ضخمة أن نجد الأشياء التي أخطؤوا في وضعها في غير أماكنها الصحيحة ثم نعيد تحميلها على ظهور الجمال الذاهبة معنا. ولقد أشار علي الصليبي أن أحمل قربتي الماء الصغيرتين لمعرفته بالآبار السّرّية كلها وقال إنّه سيقودني إلى الماء كل يوم.

«لماذا، أهناك آبار حتى في الحماد؟».

«والله، هناك آبار، ولكن لا يعرفها سوى الصّلُبَة، ولسوف أقودك إليها. وهناك تستطيع أن تروي ظمأك والجمال».

وفي النهاية، وحين لاح أن كل الأحمال باتت على ظهور الجمال، ركبت الجمل ومضيت لتقديم الشكر إلى الأمير وسؤاله أن يجعل خيمتي ومتاعي وعدّتي في رعايته.

ومدَّ لي عندئذ يده اليمنى في صمت، واعتلى الشداد ومضى وحاشيته نحو الجنوب.

ولقد خلفت أغراضي كافة تقريباً حتى الضروري منها، بما في ذلك الخيمة المستديرة الصغيرة وغطاء الفراش، وتركتها مع ناصر. وهكذا كنا نرتدي الثياب الخفيفة لأن الأمير أشار علينا بالقول: «الطقس حار، فلا تقلقوا من البرد أو من أن يداهمكم وابل المطر. فلمَ تثقلون على الجمال؟».

ودون جمالنا الأربعة كانت مطيّتي والراحلة التي يركبها تومان تحملان الشداد اللازم للركوب، وكان الجمل الثالث يحمل قِرَب الماء والرابع يحمل المتاع الضروري لنا. كذلك كان الثالث يحمل طارشاً والرابع مزعلاً وكان الرجلان كلاهما ثرثار ولم ينقطعا عن طمأنتي بألا أخشى أحداً لأن لهما معارف منتشرين بين البدو كافة. فقال لي طارش يطمئنني: «لسوف أتولى حمايتك، يا شيخ موسى، وليس من الدّهامشة والعمارات وحسب، بل حتى من شمَّر أيضاً، وسوف أعرض لك بالدقة تلك القبائل ومواضعها».

أما مزعل فقد أقسم قائلاً: «والله يا موسى، يا طويل العمر إن شاء الله، أنا عارف بالصّحراء كلها من نجد إلى حلب كما أعرف راحة كفي. والحمد لله، يا طويل العمر، أن وقع خيارك علي بدلاً من سند، لأنه ما من رجل بين الصليب يبزنـي في معرفة الأرض». فكان جوابـي:

«قد خبرت الرجال وعلمت أنهم أهل قول أو أهل فعل. فأرجو الله أن تكون وطارش من هؤلاء أهل الفعل له من أولئك، أهل القول».

ولقد ثابرنا ما استطعنا على ملازمة المنخفضات لئلا نجعل أنفسنا عرضة لأي هجوم. ثم سرعان ما انضم إلينا رجل من العمارات واستمر في التّرحال معنا.

اكتشفتُ وأنا ما أزال في المخيم أنّ دليلي مزعل أخو «زعيلة» شاعر جوال، ثم وجدته يتفاخر ونحن في رحلتنا بأن ليس هناك من كبار شيوخ البدو من لم يزره ويمدحه. ثم مضى يقول القصائد الواحدة تلو الأخرى بصوته الرّخيم، فيذكّرنـي بقراءة مزاميرنا. وكان ينشد أول البيت وآخره فقط، فيمدّد آخر البيت ويرجعه على أشكال، مقتصراً في التشديد على الأبيات البارزة التي تروق له وحسب.

فطلبت منه أن يتوقف عن نهجه في شحن الأبيات بالعاطفة وعلو النبرة لأنـي سمعت هكذا قصائد مراراً من قبل ولقد نالت هذه العبارات من مشاعره أشد منال. فراح يبذل جهداً عظيماً في إقناعي بأن ليس هناك بين الشعراء الأحياء ندٌ له، أما بين الراحلين فلم يسلِّم بأحد يفضله سوى العدوانـي، وهو يقصد الشيخ نمر بن عدوان، وذلك لأنه كان يؤلف القصائد المطولة. وكان دأب مزعل أن يروي الحكايات حين لا يلقي القصائد.

وبعيد الظهر بلغنا بعض التلال الرّملية وتسمى تليلات أَلجِداد، وهي تمثل الحدود بين عائلتين من الصليب. ويدَّعي هؤلاء الصليب ملكية أجزاء من الصّحراء ويعرفون على وجه الدقة أي أسرة تملك كل واد ومنحدر. وعندما يرغب رجل في أن يزوج ابنه ويسعى إلى زوجة له لا يدفع لها نقداً وإنما يقدم لأبيها أو أخيها بعض ما يملك. ومن ثم لا يحق لأحد سوى والد الفتاة أو شقيقها أن يرعى ماشيته أو يصطاد في تلك الأرض، وله أن يخرج منها أي صياد أو راعٍ.

وهنا وجدنا بلَّور الملح الصافي وعلى مسافة غير بعيدة كان بيت شَعر تركيّة. ولقد ظلت تركيّة، أرملة الأمير سطّام وأم ثلاثة أبناء متزوجين وأولادهم، أكثر نساء الرّوَلة نفوذاً. فكانت كلمتها قانوناً لا رادَّ له. وكان الحديث يجري عن الضيوف ليس باعتبارهم نزلاء عند خالد، ابن سطّام البكر صاحب الخيمة، وإنما يقال إنهم نزول عند أمه تركيّة. بل إنه حتى شاعري الجوال مزعل أخو زعيلة وضع قصيدة في مدح كرمها. ولقد أخبرنـي عدة أشخاص عن تركيّة أنها كانت تتلقى من زوجها سطّام مئة مجيدي (90 دولاراً أمريكياً) شهرياً كما كانت تفرض على ابنها دفع مثل هذا المبلغ، ولم تكن حتى المئة مجيدي لتكفي نفقاتها. ولما كان دخل خالد لا يضارع دخل والده صار يرجو والدته أن تكون أشد حرصاً في مصروفها.

فردت تركيّة: «أنا لم أتعلم الاقتصاد ولن أتعلمه أبداً»، ثم تحوّلت إلى خيمة جاريتها لتقيم عندها. فاضطر خالد وأبناؤها الآخرون - لا بل والأمير وشيوخ العشيرة - للمضي إليها وقضاء وقت طويل في رجائها حتى قبلت بالعودة.

ولم يكن لخالد من بديل طبعاً سوى أن يكفل دفع مبلغ المئة مجيدي شهرياً. أما عن مصدر هذا المبلغ فأمر ما كان ليعنيها في شيء. ويقال إنه ما كان ليمر يوم ولا تجد تركيّة فيه ضيوفاً. وقد دأبت على أن تقدم الطعام في قسم الحريم إلى ما لا يقل عن خمس عشرة امرأة وهي تعدُّ الطعام من مؤن أولادها. وكانت فوق ذلك كثيراً ما تدعو الرجال أيضاً إلى مضافتها، ثم تدخل قسم الرجال وتتخذ مجلسها في المكان الأبرز وتحتكر لنفسها الحديث. وما كان لأحد، ولا الأمير ذاته، أن يجرؤ على مناقشتها في أمر.

فن الطبخ الرفيع

ثابرنا على اتجاهنا نحو الشمال شرق وفي العصر كنا قد بلغنا بئراً ممتلئاً نصفه بالماء من آثار آخر هطل للمطر. بحثنا طويلاً عن دلونا المصنوع من الخيش، وفي النهاية لجأت إلى قماش الحقيبة الصغيرة التي كنت أقوم بلفّ ألواح التصوير بها، بعدما اشتدّت بنا الحاجة إلى الماء، وكانت ممزقة في موضعين، فوضعت حجراً مستديراً في كل موضع، ثم لففت القماش حوله، فصار الدّلو جاهزاً. وكان مرافقيَّ يتفرّجون، وقد غلب عليهم الشك إذ كانوا على يقين بأن الماء لا ريب سيتسرب من الدلو. وكان جوابي الوحيد على هذا الشك أن قمت بربط هذا الدّلو إلى حبل بطول اثنتي عشرة ياردة وأدخلت فيه قصعة من التنك وأوعزت إلى مزعل بالهبوط إلى البئر. أما طارش والعماري فقد أمسكا بالحبل بينما نزل مزعل وغرف من الماء بالدلو. فلما صار مملوءاً حتى النصف قاما بجذبه إلى الأعلى وصبّ الماء في المشمع الذي لا يتسرب منه الماء وكنا قد عمدنا إلى نشره فوق حفرة من الرّمال، فأقبلت الجمال تشرب متلهفة. وإذ ملأنا القرب بالماء زدنا بان ملأنا الدلو الذي ابتكرته ليتوفر لنا ما يكفي من الماء للعشاء. وفي غضون ذلك لم تتسرب ولو نقطة واحدة، وكان ذلك برهاناً على متانة القماش المضاد لتسرب الماء. ولقد عجب رفاقي لهذا الأمر وأقروا بأن حتى القربة المصنوعة من الجلد لا تكون محكمة دائماً.

وكنا قد بلغنا قرابة المساء منخفضاً منعزلاً فيه بعض النبات لترعاه جمالنا. وتولى العماري حراسة الجمال بينما راح طارش يقتلع شجيرات جافة، أما تومان فقد انشغل بوضع خارطة بالمكان ونواحيه وضبط السّاعات ومقاييس الحرارة، فيما كنت أقوم ومزعل بتهيئة العشاء. وقد اكتشف تومان بالصدفة السعيدة الدّلو المشمع بين أجهزتنا العلمية حيث وضعها أحد العبيد الأفاضل. وسعدنا عندئذ برؤية الدلو إذ كنا بحاجة للدلو الذي ابتكرناه لغرض آخر: ذلك أننا كنا بحاجة لوعاء لدعك العجين لصنع الخبز! ولعل الصينية قد بقيت حيث غادرنا وكان مزعل قد أخبرنا أنه لن يقوم بالعجن بدونها. فقمت بحفر حفرة صغيرة في الأرض ثم غطيت الحفرة بالقماش المشمّع، ووضعت فوقها مقدار خمس قبضات من الدقيق وشيئاً من الملح ووضعت قصعة الماء بالقرب منه وطلبت من مزعل مزج العجين. وفي تلك الأثناء التقطتُ ثلاثة أحجار متماثلة من حيث الحجم ويبلغ ارتفاعها قرابة الست بوصات، ثم قمت بنصبها بشكل مثلث بالقرب من النار، وصببت الماء في القدر المنصوبة على الأحجار وألقمت النار. ولكن سرعان ما أصيب مزعل بالملل من العجن فسأل طارشاً أن يتابع العمل بدلاً منه، متذرعاً بأنه سيتولى حراسة الجمال عوضاً عن ذلك. فانحنى طارش على ركبتيه وبدأ بعبارة «بسم الله» واستأنف العجن بيديه المتسختين. أما مزعل فلم يطب له البقاء مع الجمال أيضاً، وهكذا جلس مقرفصاً إلى جانب النار وسألني أن يتولى تغذيتها.

ولما غلي الماء ألقينا فيه أربع قبضات من القمح المقشور وتركناها تنضج على نار هادئة. واستطعنا أن نوقد بالفحم ناراً أكبر من الأولى وبجانبها. فلما خَبَتْ هذه النار جرف مزعل رماد النار الخابية وأتى طارش بالعجين وأخذ يطوّح به بيده اليسرى ثم يضربه باليمنى حتى يتمدّد ويترقق ليصبح رغيفاً بطول اثنتي عشرة بوصة وارتفاع بوصة واحدة. فقام عندئذ برمي الرّغيف بمهارة على الرّماد وراح يجرف بقية الرّماد فوقه. فتأجّج اللهب حول الرّغيف الذي ظل طارش يغمره بمزيد من الرّماد الحار. وبعد ربع ساعة قلب طارش الرّغيف ثم أخرجه مزعل بعد عشر دقائق، وراح يربت عليها بالعصا ثم رمى بها أمامي في النهاية.

وهكذا نضج الخبز. وقام تومان بصب بعض السّمن من قربة جلد صغيرة على القمح المقشور وبذلك صار عشاؤنا جاهزاً. وراح رفاقي من أهل المنطقة يقبلون على الطعام بشهية عظيمة وهم يعجنون قطعاً كبيرة من القمح ويحشرونها الواحدة بعد الأخرى في أفواههم ثم يملؤون الفراغ بالخبز. وما هي إلا دقائق معدودات حتى تم القضاء على الخبز والقمح. وأخذ الرجال يلعقون أصابعهم ويمسحون أيديهم وآثار الطعام بالرّمال.

ما إن طلع الفجر حتى أيقظني طارش الذي كان قد نصب نفسه بالقرب من رأسي، ومضى يسعل ويئن ويتأوه ويلقي كل ما لديه من طفيليات فوقي فيما يتلو القراءات في صلاة الفجر. وليت الأمر اقتصر على الصلاة وحسب! إذ كنت قد وجهته مع مزعل إلى تسريح الجمال للرعي ولكن طارش انشغل بالصلاة، بينما غاب مزعل لأداء ضرورة. فقمت عندئذ بتسريح الجمال بنفسي. أما تومان فقد أوقد ناراً وصب ماء في إبريق القهوة وراح يطحن حبات القهوة المحمصة. ولما بدأ الإبريق يرسل البخار الحار ورائحة القهوة تنتشر، أنهى طارش صلاته وقضى مزعل حاجته. وبعد تناول الفطور كان الكسل قد استولى على الرجلين ولم يلتفتا إلى تحميل المتاع، فاضطررت وتومان للقيام بكل الأشغال اللازمة.

في يوم الثلاثاء 30 مارس انحرفنا نحو الشمال أكثر من ذي قبل. وكنا نقطع عندئذ الحجيرة، وهي منطقة صخرية لا تتغير مناظرها. فلا عجب إن كثرت الإغارات في هذه المنطقة، لأنها تغدو عند هطل أمطار كافية مقصد عشائر كثيرة لا رابط بينها. وكانت الحجيرة تعاني منذ العام 1905 من شح الأمطار. لذلك انقطع البدو مؤخراً عن قصد هذه المنطقة.

فجأةً وجدتُ ناقتي تنفر وتقفز، إذ أفزعها منظر ضبٌّ برز من أمامها. فقفز العماري عن جمله لمطاردة الضب والتقطه من ذنبه وعاد به إلينا ورمى به على عباءته. كان طوله ثلاثين بوصة وعرضه عند البطن ثماني بوصات وبطنه أبيض مائل إلى الاصفرار وظهره مائل إلى الأشهب ويغطي ظهره وذنبه حراشف.

عمد طارش إلى رمي الضب في الحقيبة التي كنا نعد العجين على سطحها. ومن المقدر أن ينتهي أمره إلى أن يكون شواء ثم طعاماً.

وفجأة لمحنا غزالين. وعمد مزعل إلى بارودته أمّ فتيل وجرى في إثرهما، وكان يتفاخر بأن ليس ثمة غزال يستطيع الإفلات منه. وكان أن غاب هذا ثم عاد بعد نصف ساعة وهو لا يستطيع التقاط أنفاسه - بدون الغزالين.

وفيما كانت الجمال ترعى عند نبتة المْحَرُوْت المتفتحة أخذنا نحفر في الأرض بحثاً عنها فوجدنا ثلاثة جذور لها سمكها يعادل الكف وطولها ما بين الخمس عشرة والعشرين بوصة وتحيط بها قشرة سوداء: فرمى مزعل باثنتين منها، قائلاً إنهما من الذكور ومذاقهما سيِّء. أما الثالثة فكانت أنثى، وقد احتفظنا بها.

* * *



الشكل 18: عند خيف الحجل



الشكل 19: سلسلة الطويل

عند جنوب غرب تل خنصر صادفنا مرجاً أخضر. وهنا حططنا الرحال لتناول وجبة طعام هنية. وقام تومان عندئذ بتعيين الزمن بمقارنة مؤشرات أدوات قياس الوقت ونتائج ملاحظاتنا على مسارات بعض النجوم بينما مضيت أنا في جمع النباتات ومزعل يطهو الضبّ مع نبات المُحَرُوْت. فبدأ أولاً بذبح الضبّ ثم أوقد ناراً عظيمة. وفيما كانت النار تتقد تماماً راح يبعد قطع الفحم عن النار، ثم احتفر حفرة عميقة بالقرب من المكان ووضع فيها الفحم والرماد. وعمد بعدئذ إلى وضع الضبّ وأهال عليه التراب وفوق هذا الركام أوقد النار. ثم وضع الجذر الذي اقتلعه قريباً من النار وقلّبه مرتين والضبّ ثلاث مرات، وصنع الخبز وطبخ القمح المقشور وبات جاهزاً ليضع أمامي الجذر والضبّ.

وهنا قمنا بتقطيع الجذر إلى عدّة قطع. ووجدتُ تحت القشرة السوداء مادة بيضاء تؤكل ولكنها ذات مذاق حاد بعض الشيء وجافة جفاف الدقيق. وقام مزعل بقسمة الضبّ قطعاً قطعاً وقدم لي أفضل تلك القطع من ناحية الذنب، أما هو فاختص بالأحشاء وراح يتمتع بها. وأما اللحم الذي تناولته فكان قوامه طبقات كثيرة جداً من الجلود الرقيقة القاسية كطبقات الورق ولها مذاق لحم الكركند. ولقد نفرتُ بادئ الأمر من منظر الضبّ، ولكن ما أن تراجع هذا المنظر من ذهني، حتى رحت أتناول لحمه باستمتاع. أما مرافقي من أهل البلاد فقد أقبلوا على تناول القمح المطبوخ والخبز، وفيما كنت وتومان نحدد خطوط العرض أكلوا ما بقي من الضبّ.

في مضارب النّوري أعلنت للجميع بأننا ماضون إلى آبار سمّيط، بل شرعنا في الرّحيل بذلك الاتجاه. وقد أذعت هذه المعلومات لنضلل الصليبي والأغراب الآخرين عن هدفنا لئلا يطلعوا إحدى عصابات اللصوص أو الجماعات التي تألف الغزو على اتجاهنا والغرض من رحلتي. أما في الواقع فلم أكن اعتزم التوجه إلى هناك، نظراً لأن العصابات المعادية كانت شديدة الخطر، بينما لو تابعت الطريق إلى برّيت وشثاثا لبلغت المناطق الواقعة تحت حكم الأتراك واستقبلني هؤلاء ببشاشة، إنما قد يحظرون علي العودة إلى الصّحراء باعتبارهم مسؤولين عن سلامتي.

وعلى ذلك قرَّ الأمر عندي على متابعة الطريق وسط منطقة الوديان والتحول عن المناطق المذكورة آنفاً والواقعة إلى اليمين. وقد كان بوسعي بلوغها ببساطة أكثر من العراق. بيد أن مهمتي كانت تقتضي مني التوغل واكتشاف الصّحراء.

ولقد سألت مزعلاً حين أخبرني بأننا قد نبلغ ناحية سمّيط في غضون يوم ونصف اليوم، أن يدلنا إلى أقرب مصدر للماء إلى الشمال يمكن أن نبلغه. فأجابني بأنه من المؤكد أن نجد ماء في وادي عرعر وعليه أعلنت بأننا سنتابع السير في ذلك الاتجاه وعندئذ أشار علي مزعل بقوله:

«إذن دع القطب الشمالي، يا طويل العمر، أمام رموش عين ناقتك اليمنى وتابع بعون الله في ذلك الاتجاه» (يقصد الشمال فالشمال شرق).

وكان يطيب لمزعل أن يتملّقني، فيخاطبني إما بقوله «يا شيخ موسى» أو «يا طويل العمر». وسألني العماري إن كنت أقصد المضي من وادي عرعر إلى بريّت، فأجبته إن الله وحده يدري.

ولقد فاجأ ردّي الرجل فسأل:

«وأنا، ماذا أفعل؟».

فقلت له: «إنني لم أسألك أن تصطحبني فَصُبَّ مقدار مكيالين من الماء في قربتك الصغيرة، وخذ بعض الخبز وامضِ برعاية الله، ولسوف تبلغ مقصدك. ونحن لم نقصرٌ في حق لك».

وقاطعني طارش قائلاً: «والله إن موسى لا يكذب».

قلت مستحلفاً العماري: «قدّم لنا معروفاً، ولا تذكرنا لصديق أو عدو».

فقطع لنا العماري وعده بذلك ومضى في طريقه تحت ضوء القمر الساطع باتجاه الشمال شرق. وبعد نصف ساعة من الزمن كنا قد بلغنا وادي أبو الكور وهو غور فسيح سطحي (الشكل 20). وقد وجدناه أجرد فارغاً وكان يزدحم بالحيوانات والبدو وقت الرّخاء والنعمة.

كانت الأيام تمضي يوماً بعد يوم دون حادث يعترضنا. في إحدى الليالي لم أحظ إلا ببعض النوم بعد أن قادني حظي العاثر لمصادفة عشّ للنّمل الضخم. وكان هذا العش في شق في الأرض فخرج منه النمل ودخل فراشي من فتحة صغيرة لم أكن قد لحظتها من قبل. ثم صحوت في منتصف الليل على ما أصابني من لسعاتها فاضطررت للبحث عن مكان آخر ألجأ إليه. وكانت هذه حادثة بسيطة، ولكن لم يكن من اليسير إطلاقاً التخلص من النمل الذي غزا ملابسي وبطانيّاتي. وكان هذا النمل يهاجمني بعضّات شرسة حتى أحسست وكأنني أتدحرج في مرج من القريص. وقد أمضيت بعدئذ أكثر من ساعتين من الزمن جاثياً التقط النمل على ضوء القمر.

وذات مرة وجدنا ثعلباً رمادياً أبيض البطن يمر هارباً أمامنا. فراح رفاقي يحيونه فرحين وكأنه فأل حسن للمسافر. ثم مررنا بمروج عديدة صغيرة خضراء، تحمل آثار مطر حديث العهد. فأخذت جمالنا تلتهم الحشائش بحزم ضخمة دون أن تتمهل لتلوكها. ورأى طارش أن أحوال الطقس الحسنة إن استمرت على هذا النحو وانتعشت المراعي في ما بقي من الرحلة فسوف تسمن الحيوانات وتصبح أضخم في وقت قصير. ولكن هذا الحال لم يقيض له أن يدوم.

وعلى مرحلة من موقعنا أخذت ريح شمالية باردة تهبُّ وتخترق العظام ولم يكن يردها عنا شيء، ونحن نرتدي الخفيف من الثياب وصدورنا عارية مكشوفة. وعبثاً حاولت أن ألتف بالعباءة الوحيدة التي حملتها معي، وكانت عباءة صيفية خفيفة. ولم يكن هناك سوى شمس الصيف تخففُ من وطأة هذه الريح ولكن السماء كانت غائمة. فاستمررنا في السير إلى خباري المبوقيّات.

ثم تحول الجوّ إلى حارّ رطب مع سكون الريح فكدنا لا نستطيع التنفس. وسكن الهواء وخيّمت طبقات الهواء الأفقية الساكنة كالستائر في الصّحراء الكئيبة الشاسعة، مما أثار لدي شعوراً بالاختناق فأخذت ألهث لأتنفس. كان كل ما حولنا رمادياً، لكن من بعيد كان أديم الصّحراء يبدو مع ذلك مشوباً بالحُمرة.

وفوق المرتفعات المستوية كانت تخيم شرائط بالغة الطول من مادة ما رقيقة، بينها المنخفضات أشبه ببحيرات لا يبرز منها سوى القمم العليا والمتباعدة. وكانت تلك المادة تتمزق أحياناً، فأرى من خلالها وحوشاً سوداء داكنة كثيرة لا حصر لعددها، من مختلف الأحجام الكبيرة والصغيرة، وأراها تنهض ثم تنمو وتكبر على الأرض. ووجدت هذه المخلوقات تتلوى وتميل وتسبح على أمواج البحيرات ثم تجري منطلقة في الجو. وكثيراً ما يلوح لنا أننا نرى راكبي جمال. ولقد أصَّر عليَّ رفاقي أن أنظر من خلال منظاري فوجدت الركاب مجرد أجمات واطئة يكاد ارتفاعها لا يزيد على أربع وعشرين بوصة، وأن ذاك الذي كنت أراه لم يكن سوى سراب. وكنت أتوق إلى شيء حيًّ، إلى سهول الربيع الخضراء، إنما عبثاً. أما الأراضي المرتفعة فكانت يباباً كلها.

وفي النهاية بلغنا أرضاً خفيضة وفَّرتْ لجمالنا المرعى الغني. وهناك حططنا الرحال لننال قسطاً من الراحة.

كنا نضطجع وفق نقاط أربع في دائرة والجمال في الوسط ولما كنا نقيم عند موضع الماء في وادي عرعر ولذلك كان الاحتياط ضرورياً. ووادي عرعر هذا كثيراً ما يرد ذكره في الأدب العربـي.

عشيرة الصّلَيب

رصدنا يوم 1 أبريل عند منعطف في الوادي خيمتين تخصان الصليب فنزلت عن الناقة وأخذت باستطلاع المكان بمنظاري لأرى إن كان ثمة جمل بارك فذلك دليل على وجود بدو في تلك البقعة. الحمد لله! فإنّـي لم أرَ سوى ثلاثة حمير سود اللون عاديَّةً تماماً وثمانية أصائل بيض اللون ورأيت مزيداً من الحمير من اللونين الأبيض والأسود، وعدداً من نساء الصّلُبَة. فلما نزلنا إلى الوادي هُرِعَتْ فتاتان للقائنا، ولكن ما إن اقتربنا من موضعهما اختبأتا في القناة. فحاول مزعل استدراجهما للخروج بالممازحة، لكنهما آثرتا البقاء مختبئتين وراء ستار.

وأخذت النساء بإبعاد الحمير عن الآبار، خشية أن نكون نحن من البدو أصحاب السّطوة على الصّلُبَة. وعلى المنحدر الشمالي شاهدنا عدة قطعان من الماعز وحمارين يحملان قرب ماء وامرأة تتولى قيادتها.

حين بلغنا الآبار لم نجد سوى امرأتين ورجل وصبي واثني عشر حماراً وكان الرجل يهيء هذه الحمير لورود الماء. ولكن مزعلاً اعترض طريقه، لأنه إن تمكن من ترك المجال لحميره لتشرب لاستهلكت الماء كله ولم يبق منها لنا شيء. استبد بالرجل غضب شديد، وكان يحسبنا من تجار الجمال، فراح يمطرني وأصحابي باللعنات، داعياً أن يظهر علينا اللصوص، وكان هذا دعاء يسهل تحققه، نظراً لكوننا على أقصر الطرق من بغداد عن طريق شثاثا إلى الجوف فدمشق أو مصر.

وانبرت المرأتان ترجواننا إعطاءهما بعض التبغ، ولما أعطاهما تومان شيئاً منه انكبتا تقبلان يديه وعنقه.

قمنا بعدئذ بإنزال الأحمال عن دوابنا لإروائها، وأخذ الصبي يَنزل بئراً بعد بئر ومعه الدّلو المصنوع من قماش الخيش والذي كنا نقوم بسحبه وإفراغه من الماء. وكانت هذه الآبار عميقة واسعة وتمتلئ جيداً بعد مطر شديد. وهذه الآبار تتزود بالماء بما يهطل من الأمطار وحسب. التي تبقى تحت طبقة من الرّمال والحصى التي تغطي الصّخر تحتها. وكان قبل أربع سنوات هطل في عرعر وضواحيها أمطار غزيرة. فصارت الآبار خلال السنتين الأوليين نصف مليئة ولم تستنفد المياه فيها. بيد أن الأمطار صارت تهطل متثاقلة في السنة الثالثة، أما في الرابعة فكانت الأمطار تكاد لا تدرك. وكانت الآبار تستعيد من مخزونها ما يقل عن الليتر أو تزيد قليلاً لكل بئر، بل إن هذه الكمية على ضآلتها قد تتلاشى، إلا إذا هطل مطر غزير.

ولقد استنفدنا محتويات أكثر من عشرين بئراً دون أن نتمكن من ملء قربنا أكثر من النصف، بينما بالكاد تمكنت إبلنا من ترطيب براطمها. ولكي نتمكن من الحصول على هذه الكمية القليلة كان علينا أن نتفحص أكثر من مئة بئر كان الصّلَيب سباقين إلى تجفيفها.

وعلى طرفي القناة وعلى الضفتين وجدنا شجرة لوز نامية أشد النمو. وكانت هذه نبتة خضراء مرنة دونها أوراق على الإطلاق ومغطاة بثمار بحجم اللوز.

وكان مزعل قد سبق له أن طمأننا، طبعاً بطريقة مبالغ فيها قبل يوم واحد فقط، بأننا سنجد الكثير من المياه في وادي عرعر لأن المعلومات التي وردت إليه تفيد بأن المجرى الذي كان جافاً صار الآن يفيض بالمياه. ويالها من محض خرافات! وكم كان يطيب لي لو أننا مضينا إلى قمة جبل عنازة الواسعة، لكننا كنا نفتقر عندئذ للماء الذي نحتاج إليه في رحلتنا، وبما أننا لم نكن قد أوردنا الجمال فكنا مضطرين للمسير باتجاه الشمال غرب إلى أقرب محطة للتزود بالمياه في وادي تبل. فهل نجد ماء هناك؟ ولكن صبياً صادفنا أخبرنا أن الأمطار هطلت قبل أربعة عشر يوماً في وادي تبل. وقد حمل هذه المعلومات كشاف كان الصّلُبي أرسله للاستطلاع، ولكن أتراه كان صادقاً في هذه الرواية؟ الله يعلم إن كان ما رواه صدقاً.

اشترى مزعل من الصليبيات خمسة أرطال ونصف من الزبدة بمجيدي واحد وظبياً خصياً صغيراً بمجيدين. فتحلقت النساء حولنا يردن ذبح الظبي في التو واللحظة وطبخه ودعوتهن للمشاركة في نيل نصيب منه. وكن يلححن عليّ أن نعطيهن على الأقل الرأس والأمعاء، ولكن مزعل كان من تولى ذبح الظبي فقام بربط الذبيحة إلى جمله. ثم قدَّم الأعذار من أجل أهل عشيرته، مؤكداً أنهم يعانون من الجوع.

«إن البدو يطلقون علينا اسم الصّلَيب، أما نحن فنسمي أنفسنا أولاد صليبي أو أولاد غانم. وعشائرنا كثيرة وخيامنا منتشرة في الصّحراء كلها من الخليج وحتى حلب ودمشق ونحن بؤساء فقراء فلا نجد نصيراً يدافع عنا ولذلك يتحتَّم علينا أن ندفع مبلغاً مقرراً للبدو لحمايتنا. ولدينا في كل قبيلة كبيرة أخ أو أكثر، وهؤلاء حماة واجبهم التعويض لنا عما يكون قد انتزعه منا أبناء تلك العشيرة. وكل إبل أولاد الصليبي تحمل العلامة ذاتها على الصدغ. وحين يجد أحد أخوتنا جملاً يحمل شارتنا يستولي عليه ويبعث إلينا للحضور وأخذ الجمل.

«كذلك للحمير علامة يحددها مالكها حسبما يرغب ويشاء أما الأغنام والماعز فلا تحمل علامة على الإطلاق لأنها تظل ملازمة لصاحبها.

«والعادة أن تقوم جماعة من الأقارب بإقامة خيامهم معاً. وقطعانهم تقيم معهم في الموقع ذاته وكل جماعة تدفع مقدار مجيدي واحد سنوياً للأخ الذي يحميها. ولما كان عدد هؤلاء الإخوة يبلغ السبعة عشر فإن كل جماعة تدفع ما يبلغ سبعة عشر مجيدياً (15,30 دولاراً)، فضلاً عن أن عليهم إطعام الغزاة الجائعين الذين كثيراً ما يحملون معهم أغنامهم وماعزهم. والغريب أن أولاد الصليبية يختفون في مختلف الوديان الضيقة ويهربون عند مرأى البدو!».

«وما هي أصولكم يا أولاد غانم، ومن أين أتيتم؟».

«هذا ما لا علم لأحد به، سوى الله. ولكن آباءنا أخبرونا بأننا وردنا أصلاً من الحسا على الخليج، ولكن من يدري الحقيقة؟».

ولقد تناولنا الظبي في ذلك المساء. أما مزعل فقام بشيِّ الأحشاء وأقبل عليها بشهيَّة واضحة لا يزعجه من أمرها أنه لم يقم بتنظيفها.ولقد عجبت وتومان من كمية الطعام التي التهمها رفيقانا. ففي العشاء وحده أفرغا قدراً من القمح المجروش، وكان هذا القدر يكفي في رحلاتنا السابقة ستة رجال أو ثمانية واستهلك كل واحد منهم، فوق ذلك، ما لا يقل عن رطل إنكليزي من الخبز ومربى المشمش أو الشاي المحلى. ويتناول كلٌّ منهما في الصّباح ما يزيد على الرطلين من الخبز، ومثل هذا المقدار بعد ثلاث ساعات أو أربع. فكنا نضطر في كثير من الأحيان لخبز «العيش» في وقت الظهر.

وفي إحدى هذه المناسبات رأيناهما يصبان الشاي على القمح المجروش ويتلذذان بمذاقه. ولقد حسبت أنهما سيملان هذا الطعام بعد بضعة أيام، لكنهما استمرا في تناول المقدار ذاته من هذا الطعام، غير أنهما صارا أحرص على مراعاة الذوق الذي اكتسباه. فقد أخذا يرميان القطع المحترقة من الخبز ويسألان تومان المزيد من السكر للشاي ومن الزّبدة للخبز.

وراحا يلحّان عليه أن يمزج القمح المجروش بالشعيرية - وهي نوع من المعكرونة سوى أنها دقيقة، شائعة جداً في العراق - أو غير ذلك من مطيّبات الطعام. ولقد جذبت رائحة اللحم عدداً من العقبان والصقور ولم نستطع إبعادها عنا.

وحين شرعنا في عبور منطقة رِجْل الصَّفَويات في صباح اليوم التالي، وجدنا عدّة أسراب من الطيور الصغيرة كالحسّون تنضمّ إلى مسيرتنا، وكان مزعل يسمّي هذه الطيور: «السّويسة». وكانت هذه الطيور ذات بطون صفراء ولون رؤوسها أخضر داكن وظهورها أخضر فاتح، في حين كانت أجنحتها صفراء اللون مرقشة بخطوط داكنة. وكانت هذه هي أول الطيور الملونة التي أشاهدها في شمال جزيرة العرب.

ووجدت شاعرنا مزعل أخو زعيلة منشغلاً بوضع قصيدة في مدحي. ولما كان الشعراء الجوّالون يكسبون عيشهم بفنّهم، فقد يكون على ما يبدو اَعتَقَد بأنّـي سأدفع له بسخاء عن قصيدة تقع موقعاً حسناً عندي. ولقد كان أمراً طريفاً أن يتابع المرء منظره. حيث يمضي دقائق في التأمل ثم يعيد تلاوة بيتين من الشعر عشرين مرة أو ثلاثين، مستبدلاً كلمات هنا وهناك بأخرى أفضل. وإذا استقرَّ على حال سأل طارش الإصغاء لاستذكار تلك الأبيات.

وبعد أن يكون طارش قد استوعب تلك الأشعار، يعود مزعل إلى استغراقه وصمته من جديد، وبعد حين نجده يستعيد أول بيتين ويضيف إليهما بيتاً ثالثاً. وبعد أن يكون قد ألقى تلك الأبيات بصوته الأجش مرات لا حصر لها يطلب إلي أن أدون ما كان قد تلا فيما هو منشغل بمتابعة القريض. فلما وجدته يصورنـي راكبا «الهجن» تمتمت قائلاً إنـي أركب «ذَلول»، لأن شمَّراً لا تشير في كلامها إلى هجن بل إلى ذلول، وجدته يردّ بلهجة حادة قائلاً: «هذا صحيح، ولكني لا أستطيع استخدام كلمة عاميَّة مثل ذلول في قصيدتـي. فعلى المرء أن يتوخى في الشعر استخدام الكلمة الرشيقة ذات الوقع، وإن لم تكن شائعة..».

دم الأخوة

روى مزعل ونحن نمضي في شعب الرّويزة بعض الأحداث التي عرضت لآل الشّعلان مؤخراً.

فأخبرنـي كيف وقف مشعل [أخو النّوري] مطالباً على غير وجه حق، عند وفاة الأمير سطّام قبل ست سنوات، بخلافته وحمل أبـي الدّهور إلى خيمته. فاستقرّ قرار فهد والنّوري على استبداله بالقوة. فلما أطلق مشعل النار على النّوري وأصاب أخاه غير الشقيق محمّداً بطلقة استقرَّت في رأسه، ردَّ عليه النّوري غاضباً بطلقة اخترقت قلبه. وعمد عندئذ إلى قيادة أبـي الدّهور إلى خيمة أخيه الأكبر فهد الذي غدا شيخ الرّوَلة بأسرها.

ولكن فهداً أثبت عجزه عن الحكم وشاع ضيق العشيرة منه بسبب جشعه في تحصيل الضرائب. وقد أرضى الحكومة شيوع النفور منه في أوساط العشيرة، إذ جعله أشد اعتماداً على الحكومة. على أن شيوخ العشائر انسحبوا في النهاية إلى الصّحراء، واضطرت الحكومة إلى إناطة بعض سلطات فهد بالنّوري قبل أن يدفعوا الضرائب. ولقد اشتد الخصام بين الإخوة حتى وصل الذروة عند الهجوم على ابنة النّوري من طرف طراد بن فهد المطالب بخلافة أبيه. وكان أحد العبيد قد أنذر النّوري بأن ابن فهد عازم على اغتياله. وكان اليوم التالي يوماً حافلاً فقد صدرت كلمات، قال العبد إنها سوف تسبق الحدث مباشرة، فهُرِع النّوري إلى فهد. ونشبت مشادَّة قام نوّاف بعدها بضرب فهد في صدره وقام عبيد النّوري بالإجهاز عليه[1].

ولقد أمر النّوري عندئذ بحمل مركب أبـي الدّهور إلى خيمته فوراً كذلك استولى على قطعان فهد الستة. فلجأ فارس بن فهد إلى ابن شمير مطالباً بأن يردَّ النّوري كل ممتلكات أبيه إليه، ولكن النّوري لم يردَّ سوى مئة جمل.

---

(1) أكّد لنا الشيخ نوّاف بن فوّاز الشعلان، شيخ عشيرة الرّوَلة وضنا مِسلِم أنّ ما يرويه موزيل عن مقتل الشيخ فهد بإيعاز من الشيخ النّوري مغلوط تماماً، ولم يكن له فيه يد.

وقبيل مجيئي إلى وادي السّرحان كان فارس قد أغار على معسكر النّوري مرتين على التوالي وكان ذلك سبباً في وضع ثلاث أطواق من الحراس على مسافات تتراوح بين 100 و 300 و 500 ياردة حول خيمتنا أثناء حلولنا في بيز والمنطقة الواقعة إلى جنوب شرق خيمة النّوري. وقد أشرف النّوري ذاته على هؤلاء الحراس وكانوا تحت رقابته لئلا يستسلموا للنوم، ولم يكن هو ذاته يخلد إلى النوم في خيمته، وإنما كان دائماً في خيمة أحد العبيد أو خيمتي.

وكان فارس يتوق إلى السّلم، إلا أن شروطه لتحقيق ذلك لم تحظَ بالقبول من النّوري. فقد نصَّ في أحد الشروط أن يتبوأ موقعاً ممتازاً بين الشيوخ وينال ثلاثة أرباع الأموال المتحققة للقبيلة وإعادة قطعان الجمال كلها، وتزويج ابنة النّوري لطراد. فلما باحثت النّوري في هذه المطالب، قال:

«اليوم غير البارحة. فقد منحته وأباه كل شيء، ولكني لا أملك أن أفعل ذلك اليوم».

وكم من مرة جلس النّوري في خيمتي مفكراً، شارداً عن كل أمر. وكثيراً ما جاء إلى خيمتي ثلاث مرات بل وست مرّات في الليلة الواحدة حيث يمضي ردحاً طويلاً من الوقت لا يبدي حركة وهو يحدق بعينيه في الأرض. فأي أفكار كانت تتوارد إلى خاطره؟ وماذا كان يشغله ويؤرّق لياليه؟ أتراهما أخويه اللذين رآهما غارقين في دمائهما أمام عينيه؟

فالبدو يقولون: «لا شيء يغسل الدّم، وخصوصاً دم الأخ».

برد وعطش

يوم السبت 3 أبريل هبطنا إلى وادي الأبيض. وبدا وكأنما المنطقة كلها نزلت بها لعنة وحل بها سحر ساحر: صحراء ميتة مملة إلى حد يدعو إلى السأم. وفي المرتفعات كانت الرياح الباردة تهبُّ علينا. وفي الوديان الهواء الساخن يخنقنا.

وراحت جمالنا المنهكة تتعثر في سيرها. ومن ورائنا كان مزعل يلحق بنا على جمله يطلق عقيرته في ترديد قصائده بصوت عالي النبرة، ولا ينقطع عن وضع القصائد الجديدة في مديحي.

وأخيراً اقتربنا من وادي طبيل الفسيح العميق الشهير بغدرانه الكثيرة من مياه الأمطار. ويبدأ هذا الوادي من مرتفع اللاهة الشهير وينتهي شمال شرق حاضرة شثاثا. والينابيع السطحية في جُهيْدِه مليئة بالماء والحمد لله! وحين بلغنا تلك المنطقة صعب علينا كبح جماح جمالنا. فقد اندفعت إلى تلك الينابيع حيث جثت وراحت تنهل الماء في جرعات طويلة. ورغبت عندئذ في ملء قربنا، لولا أن مزعلاً تذرع بأن ثمة ماء ينتظرنا على الدرب، وحمل القرب يزيد من أثقال الجمال دونما داع. كذلك أكد بأننا لا ريب ملتقون بأحد الصَّلُبَة هناك أيضاً، وبوسعنا أن نكتريه وجملاً صغيراً وأربع قرب ماء لترافقنا حتى عنازة. ولقد سألته ما لا يقل عن عشر مرات إن كان واثقاً من أننا واجدون كثيراً من الماء في كُعاكُدي وكان يؤكد لنا ذلك كلما سألناه، حتى أقسم على ذلك أخيراً، مقرِّعاً إياي لضعف ثقتي بمعرفته. وهكذا كان أن ملأنا قربنا بالماء حتى النصف، وتابعنا الدرب غرباً.

أشار طارش إلى أرض مفروشة بالحجارة والنباتات البرية الجافة على غير ما يتوقع منها: «انظر، يا موسى، هذا قبر صاحبي ضَبعان الذي مات بعضَّة كلب مسعور في جمع من الخيام قريباً من هذا الموقع. ولقد قام أقاربه بجره إلى هناك، ووضعوا معه ملحاً ودقيقاً وتمراً مجففاً ما يكفيه أربعين يوماً وهددوه بالموت إن غادر المكان واقترب من ناحيتهم قبل انتهاء مدة الأربعين يوماً. ويقال إنه في هذه المدة يكون داء الكلب قد ظهر وهم يخشون أن يعضَّ أحداً من الناس أو يقوم بحكِّه. ثم رحل هؤلاء نحو الشرق واضطر المريض للبقاء وحيداً في الصّحراء. وكان حمود أقرب أصدقائه يومذاك في غارة. فلما عاد وبلغه ما حلَّ بصاحبه من نكسة قبل ثمانية وثلاثين يوماً ركب يطلب صديقه بالرغم من تحذير الأهل من احتمال إصابته بالعدوى. ولقد جلس يصغي إلى صاحبه التعس ضَبعان يصف له عذابه:

يـا وَنَّتـي وَنّـة غريـب الـدّراويش	قطّيع الحـاجّ اللّي عـلى الـدّار خَـلّي

يا حْمُودْ عَضّدْ لي وَاني طِحِتْ بِغْشيش	ولا مِن هَـلِي وْلِـدَة حَـلالِ فطـن لي

أنا عقيق الغَلْـث لُـو قيـل مـا بِـيْش	الأربعـــين مُقَـــرَّب جِتْـــنِهن لي

أمشي على عين العَرَب كَنّ مـا بِـيْش	أمشي ولـو مـا خـاطري مُسْفَهِل لي

المعنى يا جاويـد عـافين هَـلِي لِـيش	نِشّون مثل الكلب وَا لاَ كنّ هَل لي

تَمّ الوَعد يا جْواد وبانَتْ طْـواريش	اليـــوم واليـــومين مانـــي تْحَـــلّي

* * *

بلغنا آبار كْعاكْدي (چعاچدي) عصر يوم الأحد، ولكننا لم نقع على أثر لأحد من الصّلُبة أو على أي نبات أخضر، وتلك إشارة مؤكدة على عدم وجود مياه في الآبار. ولقد نزل مزعل إلى خمسة عشر بئراً، وما بين اثني عشر قدماً والعشرين من عمق كل بئر نزل فيه، ولكنه بالكاد استطاع أن يجمع منها مقدار غالونين أو أكثر قليلاً. فهل تراه كان قد تعمد تضليلي؟ على أن الحال كما هي لم يعد أمامنا سوى العودة إلى وادي تبل سالكين الدرب الذي جئناه منه، ولكن مزعلاً وعدنا بأن يسلك بنا طريقاً أقصر.

تركنا الآبار وتوجهنا جنوباً، وكان مزعل قد خلص إلى تقدير يقوم على اعتقاده بأننا كنا أمضينا ساعة ركوباً منذ أن غادرنا تبل وأننا سنبلغ المياه بعد نصف ساعة أخرى من الوقت. وكانت السّحب السّوداء تخيم فوق رؤوسنا بين الحين والآخر يعقبها برق أما مزعل فلم يكن ليبدي انتباهاً للطريق حتى إنني كنت مضطراً للبحث عن مجالات للعبور في الوادي، الذي كان في كثير من الأحيان ذا انحدار شديد، بينما راح من الخلف يصدر النصح والإرشادات، وخاصة حين لا يحتاجها المرء. وكان الوقت قد مضى منذ زمن على تلك النصف ساعة المقدرة ولم نصادف مع ذلك ماء.

صرنا عرضة للرياح الباردة التي تهبُّ علينا من الشرق فأخذت أرتجف من البرد. وكان الدرب سيئاً والوادي فارغاً ومليئاً بالتعاريج التي يفصلها عن بعضها نتوءات صخرية. وجمالنا جائعة منهكة دونها نجدة من مرعى حولنا. وكنت آمل أن أجد بعض النباتات في وادي تبل وجواره حيث كان المطر قد هطل ولكن هذا الوادي ما انقطع يبعد أبداً مرحلة من نصف ساعة.

ولما أصبحت لا أقوى على البقاء على ظهر الجمل تحولت إلى فجوة في جدار الوادي وهناك أمضينا الليل. وفي منتصف الليل هبت علينا ريح شرقية شديدة طيَّرت بطانيتي. وحين اشتدت وطأة هذه الريح علي وأنا لا أرتدي سوى قميص وقفطان من الكتان، صحوت من نومي أرتجف فوجدت البطانية فعمدت إلى تثبيتها بالأحجار. ولكن الريح استطاعت مع ذلك التسرب إلى ما تحتها. ولم يكن يفيد في الأمر أن ألبد أو أخفي رأسي تحت الغطاء للإفادة من حرارة أنفاسي في تدفئة نفسي، فظلَّ بدنـي يهتزُّ من شدة البرودة والعذاب.

في الصّباح وجدنا آبار جهايد التي كنا نتوق إليها. فأخذنا نملأ القرب ولكننا كنا بحاجة إلى مكان نضع فيه المزيد من الماء فما في قربنا كان يكفينا ثلاثة أيام أو في الأكثر أربعة، بينما كنا نحتاج إلى ما يدوم عشرة أيام وليس ستة كما زعم مزعل. ولكن أكان بوسعنا حمل الماء لهذه الرحلة الطويلة؟ وكنت قد حملت معي غطاءً كبيراً كتيماً لا تخترقه الأمطار لحماية ألواح الصور وأدوات التّصوير، ولنشر خيمتي عليه لئلا تتأثر حين تكون الأرض رطبة. وفي رحلاتنا العلمية كنت أستخدمه غطاء للأمتعة صوناً لها من أن تنال منها الرطوبة أو تتأثر بالصقيع. فعمدنا عندئذ إلى ضم أطراف هذا الغطاء إلى بعضها، وبذلك صنعنا منه خرجين كبيرين ملأناهما بالماء وحملناهما على الشداد المخصص لنقل الماء. ومع أن اثنين منا راحا يرفعان الحمل على كل جانب، إلا أن الأمر اقتضى منا بذل جهد كبير قبل أن نتمكن من رفع الخرجين على الجمل البارك. فهل سيتسرب الماء بعد كل هذا الجهد؟ ثم هل ينفتح الغطاء وهو يهتز ويحتكُّ بالشداد؟ فلو قدر له أن يتمزَّق أو للحبال أن تنحلَّ لأصبحنا قطعاً من الهالكين.

وقد ملأنا القربة الصغيرة أيضاً التي سبق أن حملنا فيها الماء وأصبحنا نستخدمها الآن في تحضير العجين. وهكذا توافر لنا مقداراً من الماء يكفينا يوماً آخر.

ولما كنا لم نعثر على أي مرعى بالقرب من الآبار فقد اتجهنا غرباً حتى حان وقت الفطور، وأوعزت بتحضير ما يكفي من «العيش» ليوم واحد ومن الخبز ما يقيم أودنا يومين. أيضاً حظرت على الجميع استخدام قطرة ماء واحدة دون إذني. وكنت كلما توقفنا أقوم بفحص الأرض بعناية بحثاً عن أشواك أو صوان أو أي من القرب الأخرى. وأتولى بنفسي إخراج الماء وتعيين المخصص للطهي والشرب. وأنام بالقُرْب من القِرَب وكان السبب في ذلك أن مرافقيَّ من أهل المنطقة يعلمان أنـي استيقظ عند أقل صوت فلا يجرؤ أحد على فتح القِرَب ليشرب منها.

وكان الوقت قد شارف منتصف الليل حين حططنا الرحال قريباً من سعيد. وهناك صار أمام الجمال أكوام من نبات الخافور (عشب كالشوفان ذو أعواد كثيفة) التي تستطيب اجترارها. وكنت أحرص على تفتيش قِرَب الماء ثانية في الليل.

المرقى الهائل بين الوديان والحماد

مررنا ببقعة كان الأمير النّوري قد نزل بها. وراح مزعل يستذكر كيف كان يشوي الكمْأة هنا، بل وأظهر لي آثار الفحم في ذلك الموقد:

«لست أذكر أنـي وقعت على ذلك القدر الكبير من الكمأة في هذه الجوار كما رأيت في ذاك العام. ففي عصر أحد الأيام توافر لي كمية من الكمْأة ما ملأ عباءتـي، وقدمتها إلى النّوري الذي قدّم واحدة لكل من كان حاضراً وراحوا يقومون بشيّها على الموقد، بل لقد أتى الأمير ذاته ببعض السّمن وأخذ يقليها ويستمتع بتناولها. وإلى جانب الكمأة هناك الفطر[1] الذي ينمو في الرّمل.

---

(1) يسمّيه بدو شمال الجزيرة: «الهُوبَر»، ومن أمثالهم: أمطرت باللّيل وهو راح يتجنّى الهوبَر!

وهذا الفطر لا يؤكل وإنما يستخدم في علاج أمراض البرد. والذين يعانون من الرّوماتيزم يجففونه ويقومون بتدخينه بالغليون. ولسنا نحن أبناء آدم وحدنا من يعرف الكمأة، بل إن الحيوانات تعرفها أيضاً. فالغزلان تبحث عنها تحت الرّمل وتستمتع بأكلها. وهنا إلى اليسار، كان جملي الصغير، يا موسى، ينخ، وهو الذي كان مطيتي إلى منطقة المنتفق. والجمل هدية من النّوري، حفظه الله. وقد بلغت مخفر أبو غار، بعد خمسة عشر يوماً، وكان يسكنه يومئذ سعدون الأشقر الذي أنشد مساعدته. وتفصيل ذلك أن الصّلُبَة القلائل الذين يسكنون منطقته قد قتلوا أحد أقاربي، ويدعى زعيل، فذهبت لأطالب بديته. آه، متى ترى الزّوَلة يعودون إلى هذه الأرض».

ومضى طارش يطلق عقيرته بالغناء:

عيني جزَتْ عن نومها بان الاصباح — وعيني جزت عن نومها واسهرتني

جيت المنازل ربعنا وجيت المراح — ولقيت مركى دلالهم ذكرّتني

يا دار لا تبكين عمر مضى وراح — دور السّنة يا دار ارجيهم اتني

فارَقْتني يا دار كالبدر وان لاح — يوم ازْحَلَتْ يا دار ما شاورتني

* * *

صارت الانحدارات الصّخرية التي كنا نمرّ بها بالتدريج أكثر انخفاضاً. وفي اليوم التالي قبل الفجر عدنا فوق المطايا من جديد، ووجهتنا ناحية الجنوب غرب، وشاهدنا إلى اليسار منا عدة تلال تدعى الضّنبوح.

قال مزعل: «هنا يبحث الصيّادون عن النّعام في نهاية فصل الربيع».

«وهل يأتي النعام إلى هذا الحد من الشمال؟».

«بل أبعد».

«أنت على حق، يا أخا زعيلة. فحين كنت أقيم خيمتي والنّوري جنوب عدرا اصطاد الرّعاة لديه نعامتين هناك».

«النَّعام يقيم هناك حتى أول المطر. وعندئذ يكمن لها الصّلُبّة البؤساء. فيختبئون خلف أكوام الحجارة العالية كالتي تراها فوق تلال الضَّنبوح وعند رؤية النعام يهاجمونه من الجهة المعاكسة للريح».

وتوهّجت قبّة هضبة اللاهة تحت أشعة الشمس وكأنها تغطيها صفائح من الذهب.

تابع مزعل، قائلاً: «إننا نسمي هذه المشرَف. وقد جاء سيدنا ونبينا محمّد من بعيد للصلاة في المشرَف». وظهرت عندئذ غمامة رقيقة غطّت القبّة. ولما تلاشت الغمامة وظهرت القبة في عرض السماء، قال مزعل يحييها:

«أطال الله عمرك، يا المشرَف».

وقبَّة اللاهة هي الأضخم بين سلسلة من الهضاب المتموجة التي ترتفع كسلالم هائلة فوق الأراضي المنخفضة. وتقول الرّوَلة إنها طفت في طوفان نوح كما تطفو الجزيرة. ولم تمَسَّها المياه التي أرسلها الله لإغراق العالم وجعل الأحجار تطلق شرارات النار عندما تضرب، وهذه الهضبة وحدها التي تخلو من الحجارة المولدة للنار.

* * *

كان مزعل لا ينقطع يهزأ من طارش ويستخف به فلا يجد له اسماً يناديه به سوى «محبوب الزّينات»، ويسأله ساخراً عما يجعله بلا زوجة حتى الآن. بينما يتفاخر بأنه كانت له ست عشرة زوجة، وهو لم يزل في الثلاثين من عمره. وكان من تلك الزّوجات إحدى عشرة عذراء وخمس مطلّقات. وقد عدَّد تلك النساء بأسمائهن وعيَّن لنا تواريخ زواجه بكل واحدة. وكان بين تلك النساء من لم تمكث معهُ سوى أسبوع ثم تركته دون طلاق.

وقال لي جازماً: «ليس في الأمر ما يشين، إن تركت امرأة زوجها وتزوجت بآخر». وكان من نسائه امرأة أم لفتاتين وصبي ويعتزم الطلاق منها ليتزوج بامرأة أفتى، وإن كان شديد الشغف بالولد. وقد شكا لي من أنه فقد في تلك السنوات العجاف كل ما لديه من الماعز وبالتالي لم يعد لدى الأسرة شيء من أسباب العيش، حتى الحليب. ولما سألته كيف يكون ذلك بعد كل الهدايا التي يتفاخر بأنه تلقاها، أجاب:

«لقد بعت هذه الهدايا كلها، يا طويل العمر، لأسدّد ديونـي، وإلا كان مآلها السرقة. لعن الله اللص فالذي ينتزع شيئاً من صليبي يرتكب أفدح الظلم».

وفي الصّباح تابعنا الرحلة في أرض كئيبة رتيبة وعبرنا رأس وادي غداف الذي يتجه نحو الشمال شرق. فاستقبلنا عندئذ مشهداً ساحراً من الجزر والبحيرات الزرقاء والجبال، ولكن ذلك كله كان مجرد خداع بصر أثقل على أعصابنا وأثار فينا ذكرى السّهول الخضراء في أوطاننا.

* * *

يتألف هذا الجزء من الحَماد من هضبة مترامية الأطراف ومستوية تقريباً كل الاستواء وموشاة بأحجار الصوان وسوى ذلك من تحجرات كلسية خلفها تآكل طبقة الغلاف. وتستند هذه التحجرات على طبقة عليا دقيقة إنما شديدة الصلابة لا يخترقها الماء. وفي بعض الأماكن ثمة منخفضات شبيهة بالقدور غير المنتظمة أو الوهاد السطحية التي تمتلئ بالماء وبتحجرات كلسية حيث المجرى مغطى برواسب طينية دقيقة. وقد صارت هذه الرّواسب متماسكة بالتأثيرات الكيمياوية، وهي تمثل الآن سطوحاً ناعمة وزلقة إلى حد ما على بعد نحو قدم ونصف تحت المستوى العام للهضبة المحيطة. والمياه التي تتراكم في المنخفضات تنفخ بها الرياح الغربية السائدة، ثم تجمع الريح في أوقات الجفاف تراكمات الغبار الدقيقة عن الأطراف الشرقية. ولذلك كانت أرقى الرّواسب الطينية تتجمع على الأطراف الشرقية وتحافظ التربة على رطوبتها فترة أطول من سواها.

وهنا تضرب النباتات السنوية والدّائمة الخضرة جذورها وتشكّل المروج. كذلك تلتقط الجذور المتشابكة المتلبّدة الماء المتسرب من خلال التربة وتقوم بتنشيط نمو المروج برهة من الوقت، ولكن مع اطّراد انكماش كل مرج يبلغ الماء حدوده القصوى في الشرق. وبالنتيجة تجفّ النباتات وتذوي وتذهب جفاءً، والتربة إذ تحرم جذور النباتات من الماء تعصف بها الرياح أو تجرفها المياه. وهكذا ينمو المرج فترة على الطرف الغربي ويختفي عند الشرقي. وتتسم معظم المروج بكونها أطول من الشمال إلى الجنوب مما تكون عليه من الشرق إلى الغرب، وبعضها يبلغ من الطول ألف قدم وستمئة عرضاً.

في المساء وجدت أن التعب قد نال من ناقتي حتى لم يعد بوسعها متابعة المسير. فكانت تكابد في التنفس ولا تنقطع تتوقف عن متابعة الطريق لتنال قسطاً من الراحة. وكان علينا والحالة هذه أن نتوقف لإقامة مخيمنا لئلا تنهار ولا تعود تقوى على المضي في السير.

عيد الفصح الموحش

عادت الأجواء إلى برودتها! فوجدنا قِرَبَ الماء قد تجمَّدت، وكانت ملابسنا الداخلية والأغطية خفيفة كلّ الخفة، وناقتي تكاد لا تستطيع أن تسير. ولقد عالجها طارش بكيّها بقطعة من الحديد الحامي دفع بها ما فوق الذنب وبين القائمتين الأماميتين وقال في تعليل حالتها إنها تعاني من الإمساك والكيّ أفضل علاج. وبعد ذلك أصبحت الناقة أكثر دفئاً فقدمنا لها حوالي اثني عشر ليتراً من الماء. وما هي إلا دقائق حتى بدأت ترعى.

وفي يوم الجمعة 9 أبريل ارتقيتُ وتومان أعلى عنازة، وهناك جلسنا خلف كومة من الحجارة فوق أعلى نقطة، وقمت بوضع خريطة للمنطقة كلها[1].

---

(1) في كتابه الأصلي *Arabia Deserta* يورد موزيل رسوماً تخطيطية (سكتشات) للأماكن. وسوف نقوم بترجمة الكتاب ونشره كاملاً ضمن سلسلة «روّاد المشرق العربي».

يمتد عنازة من الجنوب إلى الشمال، ويزيد ارتفاعه على المنطقة المحيطة ما يتراوح بين ستين ومئة قدم، وفي الشمال ترتفع سلسلة الآكام الجبلية النظيم، وإلى الشرق تنتصب قمّتا النّهدين، بينما نجد في الأبعد شمالاً سهلاً منبسطاً واسعاً مترامي الأطراف يمتد من الغرب إلى الشرق. وفي الجنوب شرق كان الفضاء يغلب عليه حزام اللاهة الأشبه بالمنضدة، بينما يبرز إلى الجنوب غرب بركان أم وعال الأسود متألقاً يرمق، وهو أشبه بوحش نحيف رابض بين غمامتين منخفضتين، ويرسم الحد الشمالي الشرقي للمنطقة البركانيّة. وإلى الأدنى يمتد وادي حوران من السفوح الشرقية لجبل عنازة إلى الشمال شرق باتجاه نهر الفرات.

وبعد الانتهاء من عملية المسح استأنفنا مسيرتنا باتجاه الجنوب نحو البلد قاصدين مضارب النّوري. ووجدنا أن قربة الماء التي استحدثناها على عجل قد صمدت أمام الامتحان. وما زال الماء نقياً لم يفسد، كما أنه لم يتبخر بالسرعة التي تبخر بها من القربتين الأخريين، وهما مصنوعتان من الجلد. ولقد صمد الغطاء وقاوم كل احتكاك، بل وبدا أنه كان يزداد صلابة ومتانة مع الوقت.

* * *

أخذ مزعل، وقد سرَّه أن يجدنا نعود إلى معسكر النّوري، بغناء بعض القصائد القصيرة من وضعه. كذلك أخذ طارش بالغناء مثله، معللاً النفس بالحصول على أجر أو حتى مكافأة قريبة. ولكن مزعلاً لم تطب له هذه البادرة. فقد كان يريد أن نصغي إليه وحده، ودون سواه. وكان مزعل شاعراً حقاً، أما طارش فلم يكن شأنه سوى ترديد أغاني الآخرين وقصائدهم لا يضيف جديداً. وعليه أخذ مزعل يعنّف طارشاً ويهزأ به:

«يا طارش ما من مُنشد يبلغ شأوك، ولا هناك مثلك وسيم بين الدّهامشة كلهم. وكل زينة من الزّينات لا بدّ أن تفرح بك. صوتك يذكّرني بقرقعة عجلات النواعير على الفرات وبوجهك الظريف يلزم أن كل عجوز تساقطت أسنانها أن ترى فيك نفسها».

ولقد غلبت علينا عندئذ عاصفة ثلجية وأمطار. والحمد لله أن هذه العاصفة لم تدم سوى فترة قصيرة. وفي الليل كان ميزان الحرارة يشير إلى ما دون التجمد وكانت الرّطوبة عالية.

وفي الصّباح نصبنا آلة المساحة، التّيودوليت، على أفضل ما كان بوسعنا أن نفعل، فيما أيدينا جامدة من شدّة البرد، وقمنا بتعيين خط العرض. وكان علينا تدفئة قربة الماء الصغيرة بالقرب من النار دون أن نمزّقها. والحق أنّـي لم أَخْبَرْ في رحلاتـي السابقة كلها أن عانيت هذا القدر من الرشح كما عانيت في هذه الرحلة ومع ذلك فقد شجعني الأمير قبيل مغادرتنا بقوله: «لا تخشَ البرد». وكانت جمالنا ترتجف كما كنا نحن نرتجف، وكانت تخسر من وزنها بشكل تلحظه العين. ولكن الماء والمناطق الأكثر دفئاً ما تزال بعيدة إلى الجنوب، وعلى مسافة أيام عديدة، والله وحده يعلم أياً من حيواناتنا سوف تتمكن من الصمود هذه المدة كلها.

وكان طارش في غضون ذلك يطلق عقيرته بالغناء:

ليـه تـصفق زَمَلنـا يـوم يـشرِّع	روه من ميّ البحر دوه هجانـي
لعـلّ مـا تـصفق خطـاة المـدرَّع	من فوق ما تقصم عقود العنانـي
ولا وا حسايف حبّتي يـوم افـرِّع	يـوم الـزّميّم شـارع بالثمانـــي

سألته: «من صاحب هذه القصيدة التي كنت تغنيها، يا طارش؟».

قال: «صاحب القصيدة صبية أحبَّتْ فتى ملك عليها شغاف قلبها. وكانت تعلم أن ابن عم لها يريد الاقتران بها ولن يقبل بزواجها من الحبيب ولذلك كانت مستعدة للهرب وإياه إلى قبيلة أخرى. ولم تكن تخشى القتل من أبناء عمومتها ثأراً لفعلتها فكانت مستعدة لبذل كل تضحية من أجل حبيبها. وكان العرب قبل يوم من الهرب يعانون العطش. ولم يكن هناك ماء لا للبشر ولا للحيوان. وقد أسرَّ الفتى لحبيبته بأنه عثر تحت خَبرة ماء جافة على حفرة صغيرة مليئة بماء المطر يملأ به القِرَب الخاصة بخيمته ويسقي جماله.

فبقيت الفتاة تراقب المكان، وعندما شاهدته يركب جمله ويسوق الجمال الأخرى ربطت قربتي الماء الفارغتين إلى الشداد وركبت ناقة وساقت قطيعها وراء قطيعه، ولم تلحق به حتى بلغا تلك الفجوة، وكان الفتى يقوم بملء قرب الماء وهو يُبعِد الجمال برمح طويل. وإذ لمح إبل محبوبته انتشل القرب المليئة من الماء وقفز إلى الفجوة وصبَّ الماء في فجوة صغيرة كان قد نشر عليها جلداً وبرمحه الطويل راح يطعن نوق الفتاة التي كانت تتجمّع لتشرب، وأخذت الفتاة ترجوه أن يسمح لها بملء قربة واحدة على الأقل، لكنه لم يستجب لضراعتها. فالفتى كان لا يعنى بأحد سوى نفسه وقطيعه وحسب. فأخذت الصبية تغني تلك القصيدة».

كان الأمير قد سألني أن أبحث له عن غُدران في الحَماد ولقد مررنا بتسعة حَويات اصطناعية كان يمكن أن يفيد منها ويجعلها بمثابة آبار لو قام بتنظيفها. على أن النّوري كان بدوياً ولا يدرك بالتالي ما في هكذا عمل من فائدة. وقبيل الغروب تناولنا عشاءنا، ثم امتطينا جمالنا ومضينا في عتمة الليل حتى وقت متأخر منه. ولكم كان البرد قارساً! وفي بلادي كانت الأجراس تُدَقّ في كل مكان والفرح يعم لبعث «المُخَلِّص» في عيد الفصح. وها نحن هنا مهجورون! أأقول مخذولون؟ لقد كان الله معنا ونحن نسير في رعايته. فهلّلوا وابتهجوا!

شاعرنا يكشف عن خبثه

توجّهنا إلى الجنوب شرق قريباً من خَبرة البرق، أو كما في قول مزعل، التفتنا ناحية الخَشم الجنوبي من الطرف الأيسر. ويظنّ البدو والصَلُبَة أن في كل جهة من الجهات الأربع للأرض ما وراء الأفق ثمّة جبلاً عالياً نصفه على الأرض والنصف الآخر مغمور في البحر، وهذه الجبال تنحدر بشكل حاد نحو البحر بينما تبرز على الأرض بشكل حادّ يسمّى الخَشم. وعلى هذه الجبال الأربعة الكبرى تقوم السماء. وفي موسم الأمطار تقيم لأرواح بالقرب من الجبل الجنوبي (ويسمّونه الشرقي) لوقوعه في عمق الصّحراء والبدو إذا حلّ الصيف تحولوا إلى الجبل الشمالي.

وفجأة لاح لنا في جهة الجنوب غرب، ولأول مرة، [جبل] العمود الهائل بذرواته كلها. ولقد غدت الحصباء هنا أقسى واختلطت مع الحجارة البركانيّة والبازلت، وفي ذلك شاهد على أن المنطقة البركانيّة تتوغل عميقاً في الحماد. والصخور البركانيّة السوداء، إذ تسبح في بحر من الأمواج الحارة، صاغت نفسها كأبراج في حصن، بينما امتد قسم من الصخور البركانيّة أشبه بظفر أسود مستقراً أبداً في الصلصال الأصفر.

وكان مزعل دأبه الانحراف عن خط المسير لولا أنّـي كنت أشدد على الالتزام باتباع الدرب. فقد كان ينفر من السير خلفي وحاول أن يحمل طارشاً على ألا يعِّرض نفسه لخطر محقق. وكان يعبِّر عن سخطه بقوله: «وماذا يعنينا من الاتجاهات؟ هذا أمر من يقصد وجهة معينة، فعلية عندئذ أن يبحث عن علامات الدرب، لأن لكل منطقة دروبها المألوفة المطروقة».

وفوقنا كان ثمة عدد من النسور وصقر. أَفَتُراها كانت تنتظرنا؟ أم تتأهب لوليمة من لحم أجسادنا؟ ومضى طارش يغني:

«أنت يا من يخشى الموت! اعلم أن الموت يسبقه النذير. والخوف لن ينقذ طيور الحبارى من براثن الصّقر، ولا تظنن أنه يطيل العمر، وهو كما نعلم قصير».

دأب رفيقاي من أبناء المنطقة على إزعاجي، منذ أن غادرنا عنازة. وقد اضطررت وتومان إلى إحكام المراقبة ليلاً نهاراً خشية أن يهربا بالمؤن والجمال. بل وكان علي أن ألجأ إلى تهديدهما ذات مرة بالمسدس. ولقد أجدى ذلك.

وكان المحرِّض الحقيقي على العصيان مزعل الصليبي، وذلك لانزعاجه مني لأنّـي لم أدعْ له مجالاً للتصرف على هواه، وبرهنت على جهله بالحماد، وكان يدَّعي معرفة المنطقة. ولما كنت قد قمت باستقصاء غرب الحَمَاد وشماله ووضعت خريطة للطرف الشرقي من المنطقة حسب شهادات أهل الثقة، فقد كنت في وضع يسمح لي بالحكم إن كان على حق أو خطأ وبوسعي البرهان على خطئه فوراً.

أخذت الأمطار تهطل بغزارة. وبعد انقطاع الأمطار توقفنا فترة لتناول العشاء. وعندما اختصَّ مزعل لنفسه وطارش بالقمح المقشور الذي كان تومان قد صبَّ عليه الكثير من السّمن، لاحظت، كما كنت قد لاحظت طوال الأيام العشرة الماضية، أنه ترك السّمن على أحد الجوانب ثم قام بوضع السّمن كله في صحنه مع حصته من القمح المقشور. ولما تم له إعداد الصحنين على ما يشتهي وتهيأ للأكل قلت له إن عليه أن ينتظر حتى يكون طارش قد أناخ الإبل، ولما عاد هذا قدمت له الصحن الذي كان مزعل قد وضع فيه عشاءه. ولقد أدرك مزعل قصدي ورفض حتى أن يقرب القمح المقشور. أما طارش، فعلى العكس، إذ راح يطري القمح قائلاً:

«والله العظيم، يا أصحاب، إنّـي لم أذق عيشاً مثل هذا الذي أكلته اليوم».

ولقد أزعج طارش وأثار خاطره أن يعلم سبب المذاق الطيب الذي اتسم به هذا العشاء على الخصوص فاندفع يريد الشجار معه وصار يتوعده بفتح بطنه لحرمانه السمن عدة أيام. وهكذا خرقتُ معسكر المتآمرين وكسبت طارشاً إلى صفي.

صار طارش يساعدنا الآن عن طيب خاطر ليس بإنزال الأحمال في المساء وحسب بل في التحميل صباح اليوم التالي، دونما أي اهتمام بمزعل. ثم صادفنا ونحن في سبيلنا نحو الجنوب غرب يوم 13 أبريل، آثاراً حديثة لأحد عشر حماراً. وقد أثنى مزعل على الحمير التي يقوم على تربيتها أبناء عمومته الذين يعنون بتربية الحمير الأصايل والعادية وتتسم الأولى بطول القامة، وذات لون أبيض وأسرع من سواها وأشد جلداً من أفضل المهور. أما الحمير العادية فذات لون داكن. والحمار جلود يصبر على العطش، وقد يمضي يومان دون ماء. والصَّلُبَة يبيعون هذه الدّواب في بغداد ودمشق[1]، ولكن الحمير لا تصمد طويلاً في المدينة فهي تفتقر هناك لعلفها الذي ألفته ولهواء الصّحراء.

(1) لحمير الصَّلُبَة شهرة في أرجاء البادية بسرعة جريها، حتى أنهم كانوا يطردون بها الغزلان.

وقد سمعت أن ثمّة حميراً وحشية كانت تجوب وادي السّرحان، قبل مئة عام، والمنطقة يومئذ غنية بالمياه، وفي المنطقة البركانيّة مراع ومواقع للاختباء أكثر من أي منطقة أخرى. ويقال إن آخر حمار وحشي أصيب بالنار عند آبار غمر، جنوب شرق بحيرة أزرق. وقد روى لنا صاحبنا حُمار حكايات عن جدّه الذي اعتاد اصطياد الحمير الوحشية قريباً من وادي السّرحان، ولكن أعدادها أخذت تقل مع استخدام الأسلحة النارية. ومع ذلك فإن المرء ما يزال يصادف هذه الدّواب في منطقة الجزيرة ما بين الفرات الأوسط ودجلة، حيث ما زال الصّلُبَة يأتون بحميرهم إلى هذه النواحي للتزاوج.

في الطريق صادفنا مقادير كبيرة من المُحَرُوْت (وهي عشبة ذات جذر طويل، وساق طويلة وأوراق شعرية مركبة) بالقرب من خَبرة غَرَقة فتوقفنا هناك لترعى جمالنا. وأوراق هذا النبات ذات لون قرمزي تشوبه الخضرة ويبدو وكأنها مغطى بستارة بيضاء وأزهار هذا النبات تبرعم في عناقيد صفراء اللون، وجذرها طويل داكن وبثخانة كفّ الرجل. والغض من هذا النبات له رائحة خاصة تصدر عن الجمال أيضاً بعد أن تكون قد أمضت وقتاً طويلاً في رعي هذا النبات. ولذلك يحرص البدو على إبعاد النوق الحلوب عنها لئلا يفسد حليبها برائحته. وكان الليل دافئاً يسطع بأنوار النجوم. وقد طاب لي عندئذ أن أتابع الطريق لولا أن التعب نال من الحيوانات ولذلك توقفنا عن المسير عند مدخل وادي شويحط.

وكان المشهد في الصّباح كعهدنا به دائماً. أراض مستوية ووديان فسيحة عريضة كانت تبدو عن بعد سطحية وتزداد عمقاً شيئاً فشيئاً باتجاه الناحية الجنوبية الشرقية وحصباء قاسية، ومدارج طويلة وضيقة معشوشبة. وكان من أمرنا أن اتبعنا يمين وادي شويحط الذي يتسم بشدة انحدار جبل الزلوم الذي يرتفع ما يزيد على ثلاثمئة قدم إلى اليسار. والصلصال في هذا الوادي ليس بالأصفر ولا هو بالأحمر كحاله في الشمال، بل أبيض تتخلله أحجار بيضــاء كبيرة. ولذلك تعرف هذه المنطقة باسم «البياض» (الشكل 21).



الشكل 20: وادي الهلالي، بالقرب من وادي أبو الكور



الشكل 21: مرتفعات البياض

وقد تبيَّنا بعيداً أمامنا وإلى الأسفل منا عدداً لا يحصى من هضاب قيال. فسهل الحمّاد ينتهي فجأة وينحدر بشكل شاقولي تقريباً من مسافة تزيد عن مئة وخمسين قدماً في حوض يحتوي على العديد من المرتفعات الكبرى والصغرى من كل شكل يخطر بالبال. وقد تلتقط العين أهرامات وقباباً وأشكالاً ومخاريط وطرابيش وسوى ذلك من الأشكال المنخفضة والعالية. وقد فتنتني قبة عظيمة أشبه ببناء ضخم مقبب. ولكن ما من تل من تلك التلال كان يزيد ارتفاعه على ما يجاوره. وهناك إلى الجنوب شرق على ما قيل مقبرة ربما تكون نبطية الأصل. ويروى أن المقابر مصمَّمة في مجموعات تتصل ببعضها بعضاً بسراديب تحت الأرض، ويمكن للمرء أن يمشي فيها مسافة تحت الأرض بين الصخور، وقد أخبرني الرواة أنه ما زال هناك بضعة آثار لأبنية قديمة في هذه المقبرة القديمة، بيد أنني وجدت أنه من المستحيل زيارة هذا الموقع. ولم أكن أدري ونحن متوجهون نحو سكاكا بوجوده ولم يكن متاحاً المسير إليه من هناك.

كانت الألوان تسرّ قلب الرّسام لو أبصر هذا المشهد: طبقتان من الحجر الرّملي تشكلان التلال، إحداهما يغلب عليها اللون الأزرق والأخرى القرمزي وحولهما رمل زهري اللون أو أبيض وشجيرات القريطة ذات اللون الأخضر المائل إلى الرّمادي والصّليان، ويخيم على ذلك كله اللون الوحيد الذي أثارته الشمس الحارقة. كان ذلك مشهداً مؤثراً جداً، إنما المشكلة: أين بوسعنا التوقف؟ فالليل والعاصفة قد يداهماننا، وآخر نقطة ماء لدينا نفدت هذا الصّباح.

في الأسر

كنا نشعر بالظمأ وغلب علينا الضيق حين غادرنا مخيمنا يوم الثلاثاء في 15 أبريل قبل الشروق. وبما أن مزعلاً بات وقحاً ومشاكساً لذلك ما إن أشرقت الشمس حتى دفعت له أجره وصرفته من الخدمة. فركب الجمل ثانية وانطلقنا مبتعدين.

فجأة لاحت لأنظارنا أشجار النّخيل في سكاكا، فكان ابتهاجنا بهذا المشهد شديداً ينأى عن التعبير. وإذن فنحن لم نضّل الطريق وها هو ذا الماء أمامنا والطعام والراحة والأمان. بيد أن ابتهاجنا لم يدم طويلاً. فقد دوًّت في الجو طلقة ثم تلتها طلقة أخرى فأخرى، وبرز بعدئذ عدد من الرجال من تلك الحاضرة. فما الخطب؟ أليس سكان سكاكا أصدقاء للرّوَلة؟ فلقد سبق أن طلب مني الأمير زيارتة سكاكا في طريق العودة والبحث عن المكان الذي يقيم عليه خيامه. ووجدنا في المقدمة خمسة شبان يركضون. فلما أصبحوا على مسافة مئة قدم منا وجدناهم يصوبون بنادقهم نحونا، ثم مضوا يتقدمون منا على مهل. ولقد قابلهم مزعل بالتحية، إلا أنه لم يتلقَّ منهم رداً. أما زعيمهم، وكان رجلاً في حوالي الخمس وعشرين سنة وله وجه تبرز على ملامحه علامات الأنس وإن كانت تشوبه مسحة من القسوة، فقد سألنا:

«ومن أنتم؟».

فأجابه طارش ومزعل باقتضاب. فقال زعيم الجمع جازماً، وهو ينظر إلى مزعل باستصغار: «أنت صلبي، والصَّلُبَة أعداؤنا، ولا أعرف البدوي [يقصد طارش] ولا أُصَدِّقُ كلمة مما تقولون. وإذا شئتم أن تسلم رقابكم، فاستسلموا واتبعونـي، وإلا قتلناكم».

وفي تلك الأثناء كان رجاله قد قاموا بتطويقنا ومضوا يقودوننا إلى قصرهم. وأمام دار الشيخ رَجا وهذا اسم القائد الفتى - أوقفونا وأجبروا جمالنا على أن تنخ. ولقد كنت أود المضي مباشرة إلى الماء، إلا أن أولئك الرجال أنزلونـي عن ناقتي. ثم وجه الزعيم أمره إلى رجاله بأن يحملوا كل أمتعتنا إلى داره على الفور. فلما اعترضت على هذه المعاملة ورجوت أن يصغي أولاً لما سأبيِّن له ابتسم بلطف ثم وكز صدري وانتزع مني البارودة وعندئذ امسك بي اثنان من رجاله من خلفي، وأخذت امرأة عجوز - وعلمت فيها بعد أنها أمه - تهزأ بي ووجهت إلى وجهي بصقة.

وكان علي أن أتابعهم بالنظر وهم يحملون متاعي ويُنزلون عن الجمال عُدَّتها ويدفعون بها عبر بوابة ضيقة فإلى درب طويل ومضوا يجرونني إلى ساحة مربعة الشكل فإلى غرفة واسعة امتلأت بالرجال. وأخذوا يمطرونني عندئذ بالأسئلة، ولكنني لم أجبهم عن أي سؤال. واندفع مزعل في الحال إلى الغرفة.

فسأله أحدهم: «ومن أنت؟».

فصاح مزعل: «تسألني من أنا؟ فاسمعوا يا رجال سكاكا جوابي» ثم أخذ يردد على مسامعهم قصيدة تصف اتصاله بالأمير النّوري وسؤاله أن يرافقني، ويصف الطرق التي سلكناها لنبلغ سكاكا.

فرد الرجال على جهوده: «هذه كذبة. وهذا شاعر والشاعر أبداً كاذب».

وبعد حين جاء زعيم الجماعة، رجاء، ودعاني وتومان لنتبعه. فسار بنا الرجل إلى غرفة في الطابق الأول من البيت، وكان مبنياً من اللبن، وراح يستجوبنا. ولقد ضقت بهكذا معاملة فحذرته من أن ينزل به غضب الأمير النّوري وابنه نوّاف، سيد سكاكا. فردَّ علي قائلاً إن الأجدر بي أن أشكر الله على السلامة لوقوعي في يديه، وكان بوسع رجاله قتلي بإطلاق النار ولو أن القَرِشة سكان شمال سكاكا، وهم في حرب مع الرَّوَلة، ظفروا بي لكان من المحقق أنهم سيقتلونني. فسخرت من كلامه وقلت له إنّي لا أخشى رجاله، لأن من خلفي رجالاً أشداء ينتقمون لي إن أصابني مكروه. ولقد فاجأه أن يجد مني قوة الشكيمة. وسألني بهدوء هل أنا حقاً الشيخ موسى الذي سار مع النّوري.

«ولِمَ تسأل يا رَجا؟ فأنت تعلم جيداً من أنا. فقد كان أمام دارك ثمانية رجال أو عشرة، ومنهم من شاهدني في الجولان وآخرون في الغوطة، وفي وادي السّرحان، وفي الجوف، وفي قارا أيضاً. وأنا واثق من أنهم تعرفوا إلي وأخبروك بأنني أمضيت ثمانية شهور مع الأمير النّوري وأنا أعلم أنك أمرتهم بالسكوت».

«أنا؟».

«أجل أنت، يا رَجا».

«حسناً، إنني لا أصدقهم».

«ولن تصدقني أنا أيضاً، لأنك لا تريد أن تصدق».

«نعم، فعلي أن أقنع نفسي. ولذلك سوف أوجه رسالة إلى النّوري ليؤكد لي بخاتمه أنك الشيخ موسى».

«بوسعي أن أظهر لك الآن كتاباً يحمل خاتم الأمير».

«لا. بل عليه أن يخاطبني برسالة منه».

فاستدعى عندئذ كاتبه وأملى عليه رسالة موجهة إلى الأمير النّوري، ليحملها إليه مزعل. وقال رَجا إن النّوري يورد جماله في قارا وبوسع مزعل أن يبلغه في اليوم عينه. ولقد بدا مزعل متردداً، فعمد رجاء إلى مصادرة أجوره التي كنت قد نقدته إياها، قائلاً إنه لن يعيد له نقوده حتى يعود من النّوري بجواب.

وكان الرجال الذين تولوا أسرنا يتشاحنون في تلك الأثناء حول اقتسام الغنائم، وكل واحد منهم يود أن يحصل على نصيبه ويعود أدراجه فوراً إلى بيته. وكان رجاء في غضون ذلك مصغياً لما يدور من مشاحنات. وبعد حين قال، وعيناه تلمعان كما تلمع عينا النمر:

«اسمع هل أسلمك لهم؟ ماذا ستعطيني؟ هل تعطيني مسدسك؟».

«أعطيك إياه، إن تركتني أحمل جمالي وأسير فوراً. ولن تكون العاقبة إلا خيراً».

«فالمسدس لي إذن. وماذا تعطيني أيضاً؟ أريد ثياباً ونقوداً أريد نقوداً، ذهبا».

أخذت عندئذ أتجرد من ثيابـي، وأنا أقول: «خذ كل شيء، إليك ملابسي. أما الذهب فابحث عنه بنفسك».

وأخذ الرجل يفتش ملابسي، ثم بات علي أن اصطحبه إلى غرفة مظلمة، حيث توجد أمتعتنا. فأخذ يفتش كل قطعة ولكنه لم يجد بينها ما يطيب له.

«كم من الذهب سوف تبعث إليّ من النّوري؟».

«سوف أشاور الأمير في هذا. فإن أحسنت معاملتي فإن كرمي سوف يعادل سماحتك بالتأكيد. فهل أمضي، إذن، بتهيئة الجمال والتحميل فورا؟».

«أي والله، لك ذلك». وعندئذ ناديت طارش وتومان وأخذنا في إعداد الجمال وتحميلها.

تناهى هذا الحديث إلى أسماع الرجال الأربعة الذين قاموا ورجاء معهم بأسرنا فاندفعوا من غرفتهم إلى فناء الدار، يصرخون جزعين، فملؤوا مع أقربائهم الساحة والدهليز وغرفة الاستقبال الخارجية في دار رَجا. فقلتُ له:

«يا شيخ قد قطعت لي وعداً. وأنت صاحب الكلمة الأولى في سكاكا فَأَثْبِتْ أن لديك القوة لفرض كلمتك».

وهنا التقط بندقيته المارتيني واندفع خارجاً، وهدر بصوت كالعواء، فردوا عليه بأصوات لا حصر لها، ولمعت الخناجر والسيوف وتهيّأت البنادق ورجع إليّ رَجا، وقال لي: «انتظر يا موسى، فلسوف تسيل الدّماء في هذا الأمر».

«ولسوف تتلوث بالدّماء، يا رَجا».

أمسك بـي أحد أقرباء رَجا ويدعى مران، وقال هامساً في أذنـي:

«إنهم يريدون أذيتك، فاهرب!» وأمسكَ بـي وراح يبعدنـي عن المكان، وتومان في إثرنا. فقفزنا عندئذ من طرف الفناء إلى بستان، وأخذنا نجري وقطعنا بستانين أو ثلاثة على هذا النحو قبل أن نصل إلى بيت مران. وقد فتح لنا الباب ثم أغلقه وراءنا فوراً، وأقام ولده الشاب المسلح ببارودة من طراز مارتيني على حراسة المكان وأمره بألا يسمح لأحد بالدخول إلا بأمر منه. وهناك مكثنا عدة ساعات معه.

في النهاية حضر رَجا يصحبه شقيقه واثنان من العبيد وأخبرنا بأننا نستطيع العودة. وأن مزعلاً قد خاننا وأفشى أسرارنا لعشيرة القُرِشة. فعمدتْ هذه عند ذلك إلى احتلال الطريق المؤدية إلى قرية الطوير. ثم زاد بأن النّوري حسب آخر ما بلغه عنه قد غادر صباح ذلك اليوم ووجهته آبار شُفان، وعليه أرسل رجاء مراسلاً على عجل إلى نوّاف، في الجوف.

ولما عدنا إلى دار رَجا صرنا مطوقين من جديد بحشد من الرجال الشرسين وهم يزعقون ويصخبون ويحركون أيديهم وأبدانهم. وعندئذ أمسك بـي شاب طويل القامة وحشرنـي في زاوية وشرع يطلب مني إعطاءه ما لدي من الذهب وكان مزعل قد أخبره بأنّـي أملك منه الكثير.

«هـل أعطيت رَجا كل الذهب؟ حقاً، لقـد أخذ نصيبه، ولكننا ما نزال جائعين». ما كدت أتخلص من قبضته حتى أمسك بـي ثلاثة من الرجال أو أربعة آخرون. ثم أحاط بـي اثنان من عبيد رَجا وقادانـي عبر البستان ومـن ثم فررنا إلى دار أحد العقيلية، وكان هذا في رعاية الأمير النّوري. وهناك مكثنا حتى الغروب. وفيما كنا عائدين صاح أحد الفتيان وهو يقصدنـي: «الغرباء الملاعين! هيا نذبحهم ونخرج كروشهم وأمعاءهم!».

قلت، وأنا ألتفت نحوه: «علام هذا الكلام، يا ولدي؟ هل آذيتك بشيء؟».

فكان ردّه المفحم: «الله يلعنك!».

وفي اليوم التالي أخبرنـي مزعل أنه أرسل تقريراً إلى نوّاف باسمي وأنه وعد المراسل بثلاثة مجيديات (ما يعادل 2,70 دولار أمريكي).

سـألته: «ولم لم تسـألني الإذن أولاً؟ كل ما تفعله دون إذنـي لا شأن لي به».

وكانت جمالي في تلك الأثناء تعانـي أشد الجوع فاشتريت لها ستة وعشرين رطلاً من التبن لقاء مجيدي ونصف، وفي يومي الجمعة والسبت اشتريت بعض الشِّيح والرُّوثة بمجيديين.



الشكل 22: في قارا



الشكل 23: واحة قارا

في يوم الجمعة جاء رَجا حاملاً مطالب جديدة. وحسب روايته أشاع مزعل في أرجاء الناحية أنـي دفعت لرجاء عشر ليرات، والآن يريد رفاقه الأربعة أن أدفع لكل منهم عشر ليرات.

إلى الدّيار ثانية

في عصر ذلك اليوم أخذ نجم السّعد يومض لي من جديد. وقد علمت أن حماراً، كبير عبيد النّوري، قد وصل إلى سكاكا، ووجدته في دار العقيلي. فلما سمع ما أصابني من سوء المعاملة غضب غضباً شديداً وأخذنـي فوراً في حمايته: أي أنه عرض علي خدماته. ولما كان أهالي سكاكا يدركون حق الإدراك مقدار حظوته عند النّوري فقد أنزلوه منزلة عظيمة وأخذوا يولونه أفضل العناية، وكأنما هو شيخ كبير. ولكم عجبوا أن يجدوا العبد حماراً الضخم الجبار ينهض عن سجادته ويترك حجرته ويقطع نصف الدرب ليستقبلني مرحباً ويهيئ لي بنفسه مكاناً للجلوس ثم يقوم بصب القهوة لي ويلتفت لخدمتي. وصرت منذ تلك اللحظة سيده.

وكان من دواعي سروري أن أغادر سكاكا في ذلك اليوم دون انتظار لولا اضطراري لانتظار حمار الذي يريد الزواج من ابنة حداد بيضاء واصطحابها معه.

* * *

قصدنـي يومي الجمعة والسبت أناس كثر يشكون عيونهم ويرجونني تقديم العلاج لهم. وكان من بين هؤلاء ذلك الفتى الذي كان يبغي نثر الأحشاء من بطن الغرباء. فقلت له عندئذ:

«أرأيت، يا بني! البارحة كنت تريد تقطيع أوصالي ثم تأتـي اليوم وتسألني، أنا الأجنبي الملعون، أن أزوّدك بالدواء لأمك المريضة. فماذا أفعل بك؟».

ومع ذلك فقد قدّمت له الدّواء، وقمت بزيارة أمه، ووجهته إلى سبيل العناية بها.

يسكن شمال سكاكا عشيرة القِرِشة، كما سلف القول، والمعاجلة في الجنوب. وتضم المنطقة نحواً من ثلاثة آلاف من السكان. وهؤلاء يعملون في زراعة أشجار النّخيل والخضراوات وشيئاً من الشعير. ولما كان لا بد من ري أشجار النّخيل بين الفينة والأخرى فإن الأمر يقتضي عملاً كثيراً، والسبب في ذلك أن الآبار عميقة هناك، إذ يتراوح عمقها بين الثمانين قدماً والمئة. كما أن قرابة ثلث السكان ينجعون كل عام مع الرّوَلة إلى سوريا. وهناك يعملون في خدمة المزارعين ويشترون بما يحصلونه من أجور الثياب والقمح والشعير، ثم يعودون مع الرّوَلة إلى مواطنهم. والحرص على حسن علاقتهم بالرّوَلة شرط أساسي لوجودهم. فعندما بدأ حكم ابن رشيد يتفكك اندلعت الحرب الأهلية ودارت في سكاكا أيضاً. فقامت القِرِشة بالهجوم على بعض بساتين والمعاجلة يريدون الاستيلاء عليها، ولكنهم ردوا على أعقابهم وسقط منهم سبعة وتسعون رجلاً في ليلة واحدة. وما يزال القتال محتدماً في سكاكا، منذ أكتوبر وقد بلغ عدد من سقط من الطرفين ما ينوف على مائتي رجل. وكنا ما نزال نستطيع سماع أصوات طلقات النار تدوّي ليل نهار.

وفي يوم الجمعة تسلل أحد الفتيان إلى منطقة القِرِشة، حيث نصب كميناً لرجل كان قد قتل والده. فلما خرج ضحيته أخيراً من بيته سدّد إليه الفتى طلقة هشمت جمجمة رأسه. ثم جاءني يوم السبت وسألني أن أفحص له بندقيته، لأن المغلاق يبدو أنه لا يعمل منذ اليوم السابق.

وحين دخل نوّاف الجوف أعلنت عشيرة والمعاجلة مناصرتهم له، بينما وقفت القِرِشة ضده. فشن الرّوَلة غارات متكررة على هؤلاء القِرِشة واستولوا على قطعانهم وقتلوا منهم أكثر من أربعين رجلاً. وكانت معرفة رَجا بهذه الوقائع ما جعله يقول إن علي أن أحمد الله وأشكره لأنني لم أقع في أيدي القِرِشة. أما أن أكون قد قصَّرت في البلاء أمامهم فأمر يتجاوز كل شك، فأولئك كانوا قوماً لا يعرفون الوجل. ذلك أنهم يعيشون في طمأنينة في دورهم المتينة البناء ومسلحون تسليحاً جيداً، وإذا كانوا في بساتينهم ذات الأسوار العالية صاروا في حال يسمح لهم بمقاومة البدو، على مدى سنوات، إن هاجموهم.

والشاهد على ذلك أن نوّافاً الذي بات يحتلّ الجوف منذ شهرين ويلقى الدّعم من الكثير من الرّوَلة، ولكنه ما يزال عاجزاً حتى الآن عن إخضاع سكان مارد وخِذما. وإذا كانت تلك معاملة المعاجلة لنا، وهم أصدقاء الرّوَلة، فما بالك بأعدائهم إن وقعنا في أيديهم؟

كذلك لم يكن رجاء وحكماء المعاجلة يعقدون كبير الأمل على حماية النّوري لهم.

وكان رأي رَجا أن النّوري «سيغادر المنطقة عما قريب مع عشيرته الرّوَلة إلى أرض الحضر ولسوف يدعنا لمصيرنا. وعلينا عندئذ أن نتعاضد في ما بيننا».

وفي عصر يوم السبت عاد الرّسول من عند نوّاف حاملاً كتاباً إلى رَجا وآخر لي. وقد جاء في كتاب نوّاف أنه قرّع رجاء لقيامه بأسرنا وسرقتنا وطلب أن يعيد كل ما أخذه منا ومرافقتنا حيثما شئنا الذهاب وأكد لي في تلك الرسالة صداقته ورجاني العفو عن السيئة التي صدرت عن رَجا، إذ لم يتعمد الإساءة، وإنما كان سببها الجهل.

وفي صباح الأحد غادرنا سكاكا يصحبنا أربعة وثلاثون من المحاربين، وكانت مهمتهم الدفاع عنا في حال هجوم القُرِشة علينا. وكانت ناقتي قد بلغ بها الإجهاد ما بلغ حتى اضطررت لتركها ومتابعة الطريق سيراً. وكان كل واحد منا يحمل بندقية ملقمة بالذخيرة. كذلك نصحني رَجا وحمار رصد تحركات الرّمال بعناية ناحية الجنوب، خشية أن يكون أحد القُرِشة في باطنها، إلا أنني لم أتبين أحداً منهم في هذا الرصد. ثم بلغنا حاضرة الطوير، وهي تتألف من خمسين بيتاً تقريباً ويسكنها ثلاثمئة فرد جميعهم حدّادون. ولقد وجهت المسلحين المرافقين لنا إلى الانتظار فيها حتى نبلغ قارا ولكن كان ما يزال هناك ثمانية عشر رجلاً وست نساء، ومعظمهم من أقرباء زوجة العبد حمار وقد مضوا معنا. أما العروس فقد امتطت متن ناقتي. وكان هناك مزعل الذي قمت بصرفه من الخدمة، فمضى يسير على قدميه.

ملأنا قربنا في قارا، ثم يممنا ناحية الجنوب شرق باتجاه كثبان الرّمال، حيث التقينا جماعة من الهجّانة أرسلهم ابن مشهور من أجل المياه، وقد أخبرنا هؤلاء بأن النّوري مقيم مضاربه قريباً من موقعنا، في عَذريّة أم أرطى. ولكن الصعود إلى الهضبة الجنوبية كان شديد الوطأة على ناقتي المنهكة والتي صار شأنها أن تتوقف كلما قطعت خمسين خطوة لتلهث وتسترد أنفاسها. وبلغنا، في النهاية، عصر الإثنين المصادف 18 أبريل خيمة الأمير.

وكان الجمع في المضارب يتداولون في أمرنا، بعدما أتى أحد الطويريين بأخبار ما جرى لنا في حاضرة السكاكا والأمير عازم على أن يُهْرَع لنجدتنا مع الهجّانة إن لم يتم حضورنا قبل مساء ذلك اليوم. فلما دخلت خيمته نهض الأمير النّوري - والشيوخ وجميع الحاضرين اقتداء به، ثم هُرع لاستقبالي والتقط يدي اليمنى وضغط عليها مصافحاً بحرارة، بينما أخذ الشيوخَ والرّوَلة الآخرون يهزون اليسرى مصافحين أيضاً.

«أما تدرون، يا أهل سكاكا، أن موسى في مقدمة الشيوخ؟ فإن مسستم ولو شعرة منه لقيّدتكم بسلاسل الحديد. فهيا، قُل يا شيخ موسى! هل تفتقد شيئاً؟ وأنتم يا عبيد، خذوا بنادق رجال سكاكا ولا تعيدوها حتى يردّوا لموسى كل ما أخذوا منه».

ولقد رويت عندئذ كل ما جرى في سكاكا بالتفصيل ووصفت باقتضاب رحلتي، والأمير يقاطعني بين الفينة والفينة مبدياً امتعاضه من سلوك الصليبي مزعل، وهذا مصغ لروايتي، ولم يملك أن ينكر صدقها، وطارش ورجال سكاكا يؤيدونني في كل ما كنت أقوله.

وللتو حضر أحد عبيد وزير ابن رَشيد، زامل بن سبهان، يرافقه ثلاثة من الرجال وجميعهم يرفلون بالحرير. فاستقبلهم الأمير بودّ بالغ وذبح خلال مدة ضيافتهم، وهي ثمانية أيام، كبشين من الضأن، تكريماً لهم. وجدد عهد السّلام مع ابن رَشيد، الذي اقتصر عليه وحده وبشروط عديدة.

ومن ثمّ مضى عبد ابن سبهان إلى الجوف ليفاوض نوّافاً الذي لم يكن ليرضى بسلام يعقده والده، فعمد في الليلة التالية إلى الهجوم على أتباع ابن رَشيد وهدم دارين من دورهم وأمر بقطع أشجار النّخيل في بستانين. وكان تعليق الأمير لي على الحادثة كالتالي:

«إن نوّافاً والشيوخ أحرار في ما يفعلون فهم وشأنهم».

زارنـي في مساء ذلك اليوم مران الذي ألجأنـي في بيته في سكاكا، وجاء يسألني العطايا لنفسه. فأوعزت إلى ناصر أن يعطيه قفطانـي وقميصي الحريريين وهما مستعملان، بنصف عمر. ثم عاد مران بعد حين ليشكر لي الهدية، إلا أنه بدا مغتماً قليلاً بسببها. فلما حاولت الترويح عنه وذكرت له كم يلائمه قفطانـي الحريري علت وجهه ابتسامة تنم عن مرارة، ورد قائلاً: «الله واهب الهدايا، ولكنه كان مقتراً هذه المرة».

ولقد فوجئت بعباراته وسألته أن يريني القفطان الذي قدمته له. فوجدت أن ناصراً قد خدعه، فبدلاً من أن يقدم قفطانـي وقميصي استبدلهما بما لديه من ملابس بالية. ولم يقم بتنفيذ أمري الأول إلا بعد تقريع وتعنيف.

ولقد تلقى طارش أجره الموعود وقدره خمسة عشر مجيدياً (5,31 دولار أمريكي) وخمسة مجيديات (4,5 دولار) أخرى على سبيل الهدية، كما وعده الأمير. وكان راضياً كل الرضى عما تلقى حتى أنه أعلن اعتزامه البقاء في خدمتي، ولكن الأمير رد عليه نيابة عني، بالقول:

«قد نلت أجرك فغادرْ مضاربـي فوراً، واذهبْ إلى الذين يحمونك».

«إن مضاربهم بعيدة، عند الشّقيق».

«إذن لا تدع عيني تقع عليك في مضاربنا صباح الغد».

* * *

8- في المضارب وفي الواحة

تجار الجِمال

لاحظت صباح الإثنين 19 أبريل عدداً من الهجّانة ينزلون أمام خيمة الأمير. وكان هذا الجمع يضم عقيلاً وتجار الإبل الذين قدموا للانضمام إلى الرّوَلة للسفر وإياهم إلى دمشق. وكانت قطعان الإبل التي اشتروها في الصّحراء لدى عشيرة كانت قد توجهت باتجاه الشمال غرب أما هؤلاء فإنما جاؤوا لتقديم الاحترام وضمان حمايته.

ولما كانت الرّوَلة تكاد تقتصر على تربية الجمال حصراً فإنهم يأخذون بطريقة المقايضة للحصول على الحبوب واللباس والسّلاح والسروج وسوى ذلك من ضرورات الحياة حيث يبادلونها بالجِمال. ويبيعون الجِمال إما في عمق الصّحراء وإما في مناطق الحضر، ودائماً تقريباً لنفس تجار الجملة الذين يقيمون في المدن الكبرى على أطراف المنطقة العربية وفي مصر والهند. وأبرز هؤلاء التجّار أسرة ابن البسّام من القصيم.

ولأفراد هذه الأسرة بيوت تجارية واسعة في البصرة وبومباي والطائف والقاهرة ودمشق وهم يصدّرون الإبل من شبه الجزيرة العربية كما يعملون كوكلاء يستوردون القهوة والتوابل والرز، ولا يقتصرون على استخدام السفن أو الخطوط الحديدية في أعمالهم وحسب، وإنما تراهم يستخدمون الجمال أيضاً، ويزودون البدو بالسّلاح. وليس هناك من حاضرة كبيرة في داخل جزيرة العرب لا تجد وكيلاً فيها لابن بسّام.

وهناك أسرة السّالم أيضاً، التي يقتصر عملها الآن على شراء الجمال وبيعها. وأصل هذه الأسرة من الدِّرعيّة، إلا أنهم يقيمون في بغداد ودمشق وكان من هذه الأسرة من آزر أمراء آل سعود، وما زال لهم حتى الآن أصدقاء كثيرون في نجد.

والمؤسسة التجارية الثالثة التي تعمل في تجارة الإبل والملابس أيضاً هي أسرة العيسى. وهذه الأسرة تقيم وتتعامل بشكل رئيس مع قبيلتي عنزة والحويطات.

يكاد تجار الجملة لا يزورون داخل شبه الجزيرة العربية. فلدى هؤلاء وسطاء يزوِّدونهم بالمال ليعقدوا الصفقات نيابة عنهم. وهؤلاء الوسطاء أو الوكلاء جميعهم من أهالي قصيم ويعرفون بالعقيلية سواء كانوا ينتمون إلى العشيرة التي تعرف بهذا الاسم أم لا.

والوكيل العقيلي يتزود بالمال من تاجر الجملة لشراء الإبل من قبيلة معينة، ويسوق الدواب التي اشتراها إلى مصر أو البصرة أو الكويت حيث يبيعها هناك، ثم يقتسم صافي الربح مع تاجر الجملة الذي ينال ثلثي هذا الربح أو نصفه. وإذا نص الاتفاق على أن ينال تاجر الجملة ثلثي الربح فإن عليه أن يتحمل كامل ما قد ينجم عن الصفقة من خسارة أما في غير هذه الحالة فإن الخسارة تكون مناصفة بين تاجر الجملة والوكيل.

وجدير بالتنويه في معرض الشرح أن الطلب على الجمال لا يكون دائماً على حال واحدة. فكثيراً ما ترتفع أسعار الجمال في مصر والبصرة فجأة ويكون على الوسيط أو المضارب، كما يسمى، أن يشتري الجمال بسعر غال ومع ذلك فقد يتدنى السعر حين يأتي بالجمال إلى السوق، فيكون عليه البيع بخسارة.

والوكيل العقيلي يستأجر أعواناً له من مواطنيه عادةً أي من القَصيم، وجرت العادة على أن يتزوَّد هذا بخيام خفيفة بيضاء والقهوة والرز، وفي أحيان كثيرة السّلاح أيضاً للبيع والمقايضة، ويمضي ومعه كتب توصية للأمراء أو شيوخ القبائل التي يبغي الشراء منها. فإذا سلم المقدمين أولئك الرسائل والهدايا الموجهة من تاجر الجملة نصب خيامه في حمى الأمير أو شيخ من الشيوخ، إن سمح له بذلك.

ورئيس المخيم حيث ينصب التاجر خيامه هو مضيفه أيضاً - أي عليه أن يمنحه الحماية وكأنه ضيفه وإن لم يكن ينزل عنده. ويأتـي البدو الآن بجمالهم إلى خيامه البيض، وتجري القاعدة على أن يتم البيع نقداً. ولا تكون المقايضة، إلا حينما يأتـي الوكيل بسلاح أو ذخيرة من الكويت أو عسير فيقبلون بمقايضة الدواب بهذه الأشياء. وينال الأمير أو الشيخ عن مبيع كل جمل نصف مجيدي، أو مجيدي (0,45 أو 0,90 دولار). ويتم في هذه الحالة دفع الحيوان بعلامة العقيلي ويترك ليرعى مع البهائم الأخرى.

ويتخذ العقيلي من شبان العشيرة التي اشترى منها رعاة لماشيته. وكثيرون هم رعاة القطعان الذين يرافقون التاجر حتى مصر ويروون عند عودتهم الكثير مما رأوه أو عرفوه من الأمور الشائقة أثناء رحلتهم. وإذا اشترى العقيلي جمالاً من داخل الصّحراء مكث هناك وجماله أسابيع عديدة، بل شهوراً أيضاً، حتى تنتقل العشيرة أو العشيرة إلى منطقة حضرية، ويكون مكوثه عادة حتى نهاية يونيو. أما إذا كان الشراء من قبائل لا تغادر أعماق الصّحراء فإن التاجر يقود قطعانه التي اشتراها من قبيلة معينة حتى يصادف قبيلة تعتزم الانتقال إلى المنطقة المحروثة، والقاعدة أن يكون ذلك في مايو أو أبريل، لتتزود بما يلزم لإقامتها في الصّحراء. فإذا بلغ العقيلي أطراف البادية تابع طريقه إلى أقرب بلدة كبيرة حيث أسواق الجمال. وإذا أمكن له بيع ماشيته بربح وفير فعل وعاد إلى العشيرة التي غادرها ليشتري منها من جديد أما إذا اعتقد انه يستطيع أن يربح أكثر في مصر، اشترى ما استطاع من مضاربين آخرين ممن قُيِّضَ له أن يصادفهم في البلد ثم يتابع رحلته إلى مصر.

وقد يصدف أن يستولي على القطعان التي يملكها العقيلي قُطَّاع طرق غرباء، وحتى قطعان أبناء العشيرة ذاتها التي يسافر في ركبها، ولذلك يتّخذ كل عقيلي أخاً في كل عشيرة كبيرة ويخُصّه بما بين أربع أو خمس ليرات (عثمانية) تتراوح قيمتها ما بين (18 و 22,50 دولاراً)، وجملاً للركوب وعباءتين أو ثلاث كل عام. ويترتب على هذا الأخ أن يعيد إليهم كل جمل أو ناقة سرقها أحد أفراد عشيرته.

الحب والزواج عند الرّوَلة

حوالي المساء جاءنـي الأمير وهو متلهف ليخبرنـي بما جرى في غيابـي، فحدَّثني عن ممدوح بن سطّام وأنه متزوج، فسألته عن موعد زواج ابنه سعود أم أنه سيبقى عازباً.

«عازب، يا موسى؟ إنه لن يبقى وينبغي ألا يظل عازباً بلا زوجة. فالزواج واجب على كل رويلي قادر على الإنجاب. وهذا الواجب تفرضه صلة القرابة. وكلما كثرت القرابات ازددنا قوة وسلطانا بما لهؤلاء من القوة والنفوذ أيضاً. فمن يعرض عن الدفاع عن حقوق أهله يطرد من العشيرة ومن يعرض عن إكثار المدافعين عنها واجه المصير ذاته. والبدوي بلا أهله أشدّ الكائنات بؤساً على الأرض.

«إنّـي لا أفهم ولا أستطيع أن أستوعب كيف يمكن لفتى أن يظل عازباً. فشجرة النّخيل تنشد اللقاح، والطيور تتزاوج، والحيوانات أيضاً، وهذا حال أبناء آدم. وأنا لم أكن قد بلغت الثانية عشر ة حين أخذت أستملح فتاة من عمري. وقد صار ذلك معلوماً،ولم يكن والدي ولا عمّي ليعارضا هذا الميل إطلاقاً. إذ قيل «الحب من الله»، فالله زرع هذا الحب في قلبي، وليس لابن آدم أي حق في طرده من مكانه. وكنت أزور حبيبتي في خيمتها وأتحدث إليها هناك وأقدّم لها المساعدة في أعمالها وكان والدي وعمي يتبسمان حين يلاحظان كيف أسرع إلى فتاتـي أو حين أعود من لدنها. وكانا يستذكران في ذلك الحين ذكرى حبهما الأول.

«وحين بدأت في الانضمام إلى الغزوات والحملات الحربية صار لي أن ألتقي محبوبتي أينما ومتى شئت. فكنت أساعدها في سقاية الإبل وسحب الماء من الآبار، ونصب الخيام وفكّها، بل وكنت آتـي إليها بالماء والوقود، وأقوم على خدمتها في المسير، وزيارتها في المساء. وكنا نلتقي عادة في إحدى الخيام الخالية أو التي لا تُطْرَق. وكان ثمة امرأة من الشّرارات يعمل زوجها لدينا، كانت تعيرنـي بسرور خيمتها الصغيرة للقاءاتـي بحبيبتي.

«وكنا نجلس معاً في فصل البرد من السنة بجانب النار ولا نفترق حتى ظهور نجم الصّباح. وفي فصل الدّفء، وخاصة حين نكون نقيم مضاربنا في النّفود، كنا نجلس على الرّمال في ظل دغلة من نبات الغضا الطويلة نتحدث في كل أمر ولا أمر. وكم من مرة قالت لي حبيبتي:

« إنتْ نوم عيني .. إنتْ مُرادي .. إنتْ أكلي وشربـي .. إنتْ ديني[1]».

«وكنت أنا الأحمق أردد ما اعتدت أن أسمعه من الحمقى أمثالي: «أنا صُوم وصلّي لناقصات العَكاريش». أو: «مانـي مصلّي لولا حَصّ لي ضافي الرّدَان صلّيت».

«وكان بيني وبين الحبيبة سيفي مجرداً من غمده. وكنت أعلن قسمي في بداية كل لقاء، وخاصة حين نكون في خلوة:

«الله يقف بيني وبينك يا بيضاء. وليضربني بهذا السيف إن أسأت إلى ثقتك وأخذت أغلى ما تملكين».

«وهل ترك لك أهلك أن تختار المحبوبة اختياراً حرا؟».

«ما من أحد من الأهل له الحق أو المقدرة على فرض الحب، ولكل امرئ أن يختار من يشاء زوجة له. وفي اختيار الحبيبة الرولي حرٌّ كلَّ الحرية تقريباً في الاختيار. ولكن ليس له أن يتزوج بطليقة أبيه أو ابنتها، وإن حملت بها من رجل آخر. كذلك يحظر عليه الزواج بطليقة ولده أو أرملته، أو أم زوجته أو ابنة أخيه أو ابنة شقيقته. وليس له أن يتزوج أخت الرّضاع. وما من أحد من أبناء الشّعلان يتخذ زوجة من الحويطات وبني عطيّة، وليس لبناته أن يتزوجن بأحد من هاتين العشيرتين. فلا الحويطات أو بنو عطية أنداد لأبناء الشّعلان من حيث المحتد، فقد ظلوا يدفعون، حتى في حياة جدّي، الخوّة للشّرارات المتّضعين، وكانوا ينصبون خيامهم في حمى الشّرارات.

---

(1) كذا ينقل موزيل، والعهدة في هذا القول عليه وعلى قائله.

وما من رويلي يجرؤ على أن يتزوج بامرأة من الصّلُبَة أو الحَوازم أو الفهيجات أو الشّرارات أو العازم. وجميع هؤلاء يُطلق عليهم لقب الهتيم. ومع أن لهم شيوخهم وتنظيماتهم المحلية، ويقيمون في خيام ويربّون الجمال كبقية البدو الآخرين، فهم لا يحظون بالاعتبار. والسبب في ذلك أنهم يدفعون خُوَّة لقاء حمايتهم، وهكذا فإنهم لا يقدرون على حماية أنفسهم وليس لديهم استقلال كامل، ولماّ كانوا مضطرين لشراء الحماية من القبائل الأكثر منهم سطوة فإنه لم يعد يحقّ لهم أن يقيموا علاقة دم مع حماتهم. فهؤلاء «خُوَّان» - أي يدفعون الخوّة - ولسوف يلحق بهم أولادهم أيضاً في دفعها. ووجوه هؤلاء بيضاء ذوي شرف - مثل الرّوَلة، سوى أنهم لا يحظون بما يحظى به الرّوَلة من احترام. وهؤلاء لا يعيشون مع البدو كغرباء وإنما باعتبارهم مجاورين. وإذا خدموا كانوا خدماً أحراراً، ولا يعتبر ذلك عاراً نظراً لأن أبناء عشائر البدو الكبيرة يؤجّرون أنفسهم أيضاً خدماً أو مرتزقة لدى الشيوخ أصحاب القوة والسلطان.

«والرّويلي لا يتزوج بابنة حدَّاد أو أصحاب المهن المشابهة الذين يقيمون خيامهم معنا أو يعيشون في نطاق تجمعاتنا. فيقال عن هؤلاء إنه ليس لهم سلالة نسب معروفة، بل ولا يُعْرَف شيء عن حقيقة محتِدِهم لأنهم يتزوجون من الوافدين من مختلف البلدات والحواضر والقبائل سواء كانوا مستقلين أم أحراراً، تابعين أم أرقّاء.

«كذلك يحظر الزواج بالرقيق أو بالأحرى الزنوج. ومن يتزوج بامرأة من الرقيق يقتله أهله. فلا يجرؤ أحد على تدنيس دم أهله.

«وهناك بين القبائل العربية الحرة تفاوتات. وكل من ينتمي إلى قبيلة عنزة يعتبر نفسه من الطبقة العليا، وينظر إلى القبائل الأخرى باحتقار ويكره أن تكون له وإياهم مصاهرة. ومن يولد من هكذا زواج كثيراً ما يسمع ملاحظات ساخرة:

«سوف يكون مآلك الخراب، لأنك لست سوى نصف رويلي والدّم لا يختلط بدم آخر ولسوف تغدو مشابهاً لأخوالك.

«والأطفال الذين يولدون لأبوين ينحدران من زواج بين الأسر العريقة في عنزة هم الأفضل. ولكن العريس حتى في هذا الوضع ليس حراً تماماً في اختيار زوجه، لأن التقليد جرى على أن تتزوج الفتاة حين تبلغ سن الزواج بأقرب شاب إليها، وهو عادة ابن لابن عم الوالد. فإذا لم يكن لابن العم هذا أولاد أو للجد إخوة صارت الفتاة من نصيب أقرب المنحدرين من أخ الجد الكبير. وقد يطلب الأقرب، كما يصدف أحياناً، أن يختص بالفتاة لنفسه، وإذا لم يطلبها لنفسه تبقى محكومة بإذنه في الزواج من أي شخص آخر، فالقول السائد إنه ليس إلا للأقرب أن يعقد أو يفك إسارها. ولا يلغي حق الأقرب إلا رغبة الأب في الزواج ثانية فيقايض بها الزوجة الجديدة، فيلغي عندئذ حق الأقرب. أما إذا رفضت الفتاة الزواج من الأقرب حق له أن يقتلها دون أن يترتب عليه دية.

«وإذا علم القريب الأقرب أن الفتاة لا تطيقه، بسبب غرامها بشخص آخر، فله عندئذ أن يحظر عليها الزواج فتعضل وتشيخ على هذه الحال. أما إذا مات والد الفتاة المبتغاة من الأقرب إليها وكانت تحب آخر فلها أن تمضي بعد وفاة والدها مباشرة إلى القريب الأقرب الذي له حق الاختصاص بها بعد الوالد فتناشده قائلة: «أنشدك أن تحرّرنـي بعد أن مات والدي». والمتوقع في هذه الحالة أن يشفق عليها الرجل ويدع لها اختيار زوجها. ولكن ليس هناك من يملك أن يفرض عليه القرار في الأمر.

«وفي حال رفض الرجل لا يبقى للفتاة سوى الهرب وفتاها والالتجاء إلى قبيلة بعيدة وهناك يضع هذان نفسيهما في حماية شيخ قبيلة ذي سلطان وسطوة، ولهما عندئذ أن يتزوجا ويعيشا زوجين تحت سقف خيمة واحدة ولو أن ذلك يجعلهما أبداً في خطر انتقام القريب الأقرب. والهروب كالقتل وعقابهما واحد، والرّغبة في الانتقام لا تخمد حتى يتم سدادها[1].

---

(1) يتوسّع موزيل بهذه التفاصيل في كتابه الكبير «عوائد عرب الرّوَلة وشمائلهم في بوادي الشام والجزيرة» *Manners and Customs of the Rwala Bedouins*، ولقد قمنا بترجمته كاملاً كي نضيفه إلى سلسلة «روّاد المشرق العربي».

«ومثال ذلك قصة عَجاج المُسَيحي الذي أحب رويليّة وأراد الزّواج بها. ولكن ابن عمها الأقرب لم يوافق، وبعد ثلاث سنوات من الحب اليائس هرب عجاج وحبيبته إلى القبائل التي تنصب خيامها في جوار حوران. وحالما أطل اليوم التالي ذاع الخبر عن هرب العاشقين، فما كان من ابن عمّها الأقرب وأهله إلا أن امتطوا جمالهم ومضوا في مطاردة العاشقين. ولكن عجاجاً كان قد بلغ المكان الذي يقصده، وهناك أُعطي بيت شَعر وتم عقد زواجه على حبيبته. ولقد عرض أهله دفع غرامة مناسبة، سوى أن قريب المرأة رفض العرض ودأب على الرفض. وبعد شهرين ترك هذا بيت شَعره ومضى يبحث عن عجاج، فلما عثر عليه قتله وعروسه الصبيّة. ولما عاد إلى دياره طالب أهل عجاج بفدية سبعة رجال مقابل دم القريبة المهدور، لأن قتل الهاربة يعادل دِية سبعة رجال. ولما لم يكن لعجاج أن يهرب بالفتاة، وقد فعل، فقد كان يجدر به أن يحسن حمايتها، وهو يعلم الخطر الذي يتهدّدها.

«إذا تمكن أهل الفتاة من قتل الرجل الذي فر بها فإنهم يدفعون عندئذ نصف الدية وحسب، لأن الذي فر هو السبب في موته.

«والشاهد على ذلك واقعة ذيبان عبد آل ابن مجول وكان رقيقاً أبيض، إذ وقع في هوى رويليّة وبادلته هي الحب. وكان كلاهما يعلمان ألا سبيل لاجتماعهما، لأن الرقيق وإن كان أبيض اللون لا يجرؤ على الزواج ولو من أفقر رولية. فعزما على الهرب إلى منطقة حضرية والعيش في إحدى القرى. ولكن أهل الفتاة مضوا يطاردونهما حتى تمكن شقيقها منها، فكان قاتلها.

«وكان أحد الرّوَلة من فخذ العَبدلّه قد فرَّ بجارية بيضاء. ولقد طال البحث عنهما، إنما دون طائل فالفتى اختفى دون أثر يدل على وجهته. ولو عاد ذات يوم فإن أهله سيقتلونه.

وها قد علمت، يا موسى، عاداتنا وتقاليدنا في العشق والزواج».

* * *

في مساء الثلاثاء، وفيما الأمير جالس بجانبي، دخل علينا بدوي، قائلاً:

«أبشر يا النّوري! لقد ورد أربعمئة من الهجّانة ومعهم خمسة وستون جملاً مثقلين بالأحمال من طرف ابن سعود لمعونة نوّاف. وقد نصب الجمع خيامهم عند المغيرة».

«وهل شاهدتهم بأم العين؟».

«لا. ولكني سمعت بالخبر من أهالي قارا».

«سافر على عجل».

* * *



الشكل 24- فتيان من الرَّوَلة عند حوية مطر في وادي أم غروبة



الشكل 25: غدير ماء في وادي أم غروبة



الشكل 26: حوية لمياه الأمطار في وادي أم غروبة

الأب والابن

في يوم الأربعاء تلقى الأمير كتاباً من نوّاف يعلمه بأن قوة من ثمانمئة من الهجّانة قد أرسلهم ابن سعود لمؤازرته. وقد أخبرني طراد بن سطّام الذي جاء بالرسالة بان نوّافاً كان قد أشرف على اليأس لأن أباه لم ينجده بالسّلاح، والمال، أو المؤن. بل ولم يسمح لأمه بالقدوم إليه مع ولده سلطان. ورجاني باسم نوّاف أن التمس من النّوري التخلي عن قسوة قلبه.

وفي يوم الثلاثاء خرجنا فوق رواحلنا مدة ساعتين وحسب. ثم نصبتُ خيمتي المستديرة حالما وصلت جمالي التي كانت تحمل أمتعتنا وجلستُ لوضع تقريري حول طبوغرافية المكان، وقد استغرق هذا التقرير مني طوال اليوم التالي أيضاً، من شروق الشمس حتى الغروب.

وقبل أن يحلَّ المساء سمعت أصوات عدة طلقات نارية وغناء رتيباً بصوت عال، ولما خرجت من الخيمة وجدت صفاً طويلاً من الرجال المسلحين من سكاكا يؤدون رقصة من سكاكا وهم يسيرون في طريقهم نحو خيمة الأمير.

وفي المساء دخل علينا جُواد [العانـي] الكاتب حاملاً رسائل من الإمام ابن سعود وفيصل شقيق الأمير المغدور سعود بن رشيد الذي كان قد هرب إلى الرياض. وقد حمل الرسالتين المراسل ذاته الذي كان النّوري قد أرسله إلى ابن سعود من ميقوع في بداية شهر فبراير.

وفي يوم السبت خرجنا منتجعين من جديد باتجاه الشمال غرب. ثم سرعان ما ترجّلنا عن الذّلائل في أرض جديدة لنقيم عليها مخيمنا على الطرف الشمالي من سهل اللجاة. وأجريت في عصر ذلك اليوم محادثة مطولة مع الأمير. وكان العديد من الشيوخ ومن بينهم فهد بن مشهور، الذي يلي النّوري في القوة والسلطان، قد رغبوا في أن أستخدم نفوذي لحمل النّوري على إعلان مناصرته لابن سعود وعزمه على المضي إلى الجوف لمؤازرة نوّاف بكل ما لديه من قوة.

ولكني تردّدتُ طويلاً في اتخاذ قرار بهذه الموضوع، إذ كنت أنفر من التدخل بين أب وابنه أما وقد بلغتني الشائعة بأن نوّافاً مقدم على التخلص من نير أبيه فإنّي خشيت اندلاع حرب معلنة بين الاثنين ولذلك أخذت أتحدث إلى النّوري بصراحة أشدّ مما اعتدت في الماضي. ولقد دامت المحادثة ما يزيد على الساعتين. وفي النهاية نهض الأمير وغادر صامتاً. فماذا سيفعل؟

في صباح اليوم التالي رأيت عدداً كبيراً من الفرسان والهجّانة يدخلون خيمة الأمير، ثم سرعان ما وجدته يخرج ويعتلي ظهر ناقته، ويتوقف عندي فترة طويلة قبل أن يقول «إلى الجوف» فأجبته: «حمداً لله!». وكان برفقته ما يزيد عن مائتي فارس وهجان. وكنا قد حملنا اثنين من الجمال بنادق ملقمة وذخائر معدة لنوّاف. وإذن فلم تذهب وساطتي هباء. ثم عاد النّوري في مساء ذلك اليوم.

وفي يوم الإثنين عدنا للخروج من جديد. فركب الأمير ناقته في السابعة وفي تلك اللحظة كان الجمل الذي يحمل رمز قوته، أبو الدّهور، قد تهيأ للمسير.

قال النّوري يخاطبني فيما هو يمر: «نوّاف يسلّم عليك، يا شيخ موسى. وإن شاء الله يكون ما نصحت. وإنني أعرف أنك الأصدق بين الأصدقاء».

* * *

في يوم السبت أرسل سَنَد الصّلَيبي في مهمة لاستطلاع المياه والمواقع لنصب الخيام في نواحي سلسلة جبال الطويل. ولم يعد سند هذا حتى مطلع يوم الإثنين ليفيد بأنه وقع على مرعى جيد وعلى الخصوص حشائش دائمة الاخضرار. ولكنه لم يعثر على الحشائش الموسمية والمعروفة عندهم باسم الشتل، (وهي متأخرة الآن)، ولكنها ربما تنبت إن توافرت لها أمطار كافية.

سأله الأمير: «هل شاهدت أية عصابات غزو؟».

«لا. فلم أصادف سوى آثار حوالي أربعين راكبا».

* * *

كانت السماء الغربية مغطاة بالغيوم الداكنة التي يتخللها وميض البرق. وأجزاء من السحب تسير بدفع من الرياح الغربية فنزلت علينا الأمطار الناجمة عنها خمس مرات لكننا غطينا رؤوسنا بمعاطفنا واستمررنا في طريقنا. وبعد بعض الوقت مضى الأمير يتقدمنا قليلاً حتى وقع على موقع حسن. فعاد إلينا بعد نصف ساعة، ثم انعطفنا ناحية الجنوب جنوب شرق، وأقمنا مخيمنا عندئذ في منخفض بين الرّمال.

* * *

في يوم الثلاثاء بدأ طيُّ الخيام قبل الفجر، واتجهت العشيرة ناحية الجنوب الشرقي، وقد صادفنا عندئذ عدة كثبان رملية مطرزة بأجمات خضراء من نبات الغضا وهناك قر قرار الأمير بأن نقيم خيامنا. ثم نزل عن ناقته وأشار إلى المكان الذي ينبغي أن أنصب فيه خيمتي. وبعد ساعة من الزمن صارت الكثبان الوردية اللون وما عليها من أجمات الغضا الخضراء مرقطة بمئات الخيام السوداء الكبيرة والصغيرة. وبدت السماء الزرقاء الصافية الساطعة كما لو أنها اغتسلت والطرف الشرقي الداكن من سلسلة جبال الطويل وكأنه استحم بالذهب.

وفي تلك الأثناء وصل رسول من طرف نوّاف حاملاً القول بأنه قد يتعرَّض لهجوم ما بين الأحد والإثنين من رجال ابن رَشيد الذين كانوا قد رُدُّوا على أعقابهم وباتوا مطاردين في هجوم سابق. وكان قائدهم قد سعى لحماية نفسه بالهروب وسط زحام المقاتلين الفارين، لكنه أصيب ومعه سقطت امرأتان، بينما جرحت أربع نساء أخريات. وأسر في هذه المعمعة خمسة محاربين من رجال ابن رَشيد وقتلوا على التو. ومع ورود هذه الأخبار هبَّ مجموعة من الهجّانة واعتلوا ظهور جمالهم وتركوا لنا مطاردة عشائر شمَّر. وهكذا بدأ الأمير النّوري الحرب على أتباع ابن رَشيد.

* * *

حرب عصابات على شمَّر

الأربعاء في 8 أبريل: انشغلتُ بتدوين ملاحظاتي الإثنوغرافية [حول عوائد العشائر]. وحوالي العشاء تناهى إلى سمعي صيحات تهليل إشعاراً بالنصر - لقد كانت جماعة الدُّغمان المغيرة تعود بمئة وخمسين رأساً من الغنم والماعز استولوا عليها من عشيرة القُرِشة. وكان نوّاف قد أرسل رشراش بن عذوب ليأتي ببنادق وذخيرة، وعاد في مساء اليوم بأربعين جملاً محملين بأحد عشر ألف خرطوشة وأربعين بندقية. وكان الأمير قد اشترى هذه الأسلحة والذخيرة من تجار القَصيم. كذلك كتب النّوري إلى عبد ابن سبهان، وكان ما يزال في معقله في خِذما يستدعيه للتفاوض حول طريقة تسليم خِذما ومارد، لأنه يرغب في بسط سيطرته على حوض الجوف كاملاً وما يتبعه من قرى، سواء بالتفاوض أو بالقوة. أما إذا قصَّر الرسول عن العودة فسوف يكون ذلك عند النّوري علامة عداء وإشارة إلى الحرب.

لقد تغير النّوري تماماً، وصار يرسل عصابات صغيرة لمناوشة شمَّر وأخرى أقوى لمقارعة خصوم نوّاف في قرى الجوف. فسرّت الرّوَلة بذلك وأملت بسحق قوة ابن رَشيد الذي كانوا يعانون من مضايقاته سنوات عديدة.

تقدمنا يومي الخميس والجمعة مسافة باتجاه الشمال شرق. وفي صباح يوم الجمعة وفيما كنا نتقدم في المسير أدركنا اثنان من الصّلُبَة وأخبرا الأمير أنهما وجدا آثار حوالي عشرين من الهجّانة يتوجهون نحو الجنوب شرق من ناحية الشمال غرب فعلّق الأمير بأنهم ربما كانوا على الأرجح صحبة رسول ابن سبهان، وزير ابن رَشيد، ويجب عليه أن يدركه ويأخذ الرسائل التي يحملها. فأرسل في إثره اثنين وثمانين هجاناً مزودين بالماء والمؤن اللازمة فأسرعوا ليلحقوا بالرسول في الاتجاه المحدّد. أما نحن فقد تابعنا مسيرتنا متمهلين حتى الساعة الثانية عشرة حينما عين الأمير موقعاً جديداً لنصب الخيام.

* * *

في يوم السّبت عكفتُ على إضافة ملاحظات إلى ما كنت قد دوّنته حول عوائد الرّوَلة وشمائلهم. ولقد انتاب محدّثي حماراً أبا عواد - وكان قد تزوج منذ عهد قريب، كما سلف القول - نعاسٌ شديد وأراد الاستلقاء والنوم في بيتي وكان مثل كل البدو قد اعتاد النوم في الطقس الحار ما بين الساعة السابعة والعاشرة. ومثل هذه الاستراحة تعرف بنوم الضّحى. ولذلك تجد المضارب في هذا الوقت ساكنة سكوناً مطبقاً. وقد جرت العادة على أن ينام الرجال في الأقسام المخصصة للنساء المغطاة بستائر مُسدلة ضماناً للستر وفي هذا الوقت يخلد الجميع إلى النوم إلا الأطفال الذين تراهم يسرحون ويمرحون بين الخيام.

كان حُمار لا ينقطع يلحّ علي راجياً طوال أيام أن أزوّده بعقار يعيد إليه حيويّته الآفلة، والرّجل يحمل في إلحاحه اقتناعه بأنّـي لا بُدّ أملك بين العقاقير العديدة التي أحملها عقاراً يعيد إليه نشاطه. وكان حُمار هذا في حوالي الثمانين من عمره ومتزوجاً بصبيّة. وما كان ليصدّق بأنّـي لا أملك مساعدته، فظل على ظنّه بأنّـي إنما أمنع عنه هذا العقار قصداً. فمضى إلى الأمير للتوسّط لدي. وجاءنـي إثر ذلك مع الأمير وقال:

«إن لم تعطني شيئاً من ذلك الدواء يا موسى، عدتُ إلى زوجتي أسود الوجه. فقد قطعتُ لها وعداً بأنّـي لا ريب عائد من عندك بهذا الدواء الناجع أطال الله عمرك - فهل تودّ أن تسوِّد وجهي؟ لقد كان شرفي أبيض دائماً. فإن كنت تكنّ لي ودّاً حفظتني من سواد الوجه في آخر عمري»[1].

* * *

في يوم الثلاثاء تحولنا إلى بقعة أخرى لنقيم عليها مخيمنا، متجهين ناحية الشمال شرق. ثم سرعان ما انضم إلينا عذوب وممدوح وطراد وسواهم، وكانوا يتبعون أثر رسول ابن سبهان وجماعته من شمَّر وقد عادوا أثناء الليل. وأخذ عذوب يروي ما جرى معهم:

---

(1) يا الحمار المسكين، لم يكن في أيامه تلك الحبّة الزرقاء التي تفعل الأعاجيب!

«لقد أدركنا الجمع يوم الجمعة بعيداً إلى جنوب شرق آبار الشّقيق. وقد طرح علينا الشَّمَّري في البداية السؤال: «من أنتم، يا هجَّانة؟» ثم تعرَّفوا إلينا بسرعة فراحوا يطلقون علينا النار، والتفتوا يريدون الهرب. فتابعناهم نريد تطويقهم. ولَمَّا أدركوا أنه ليس لهم من مهرب، ترجلوا عن ظهور جمالهم واختبأ بعضهم بين دغلات الغضا، بينما سلم الآخرون أسلحتهم. وقد سقط منهم أربعة قتلى، وأصيب واحد بجراح شديدة. وكان بوسع أحدهم، ويدعى ريّان، أن يفلت بفضل ناقته السريعة، إلا أنني أردت حيازتها.

«رحتُ أنادي الشَّمَّري أن يستسلم، وحلفتُ له بالإبقاء على حياته وإعطائه بدلاً منها. ولما رأى أنّي أركب ناقة مميزة ويمكن أن أدركه أو أصيبه بطلقة نار، فقد آثر ريّان هذا أن يقبل العرض فاستسلم، ثم نال مقابل ناقته النشطة في العدو جملاً عجوزاً منهكاً. وسوى ذلك لم ندع لأحد من الشَّمَّريين جملاً واحداً، ولم نأخذ منهم دوابهم وحسب وإنما أسلحتهم ومؤنهم وما لديهم من الماء. ولقد أصاب الشَّمَّريين الذعر من أن يعانوا العطش بين رمال النّفود فراحوا يرجوننا قتلهم فوراً، سوى أننا رفضنا ذلك وقلنا لهم: «إن قتلناكم وأنتم عزّل سوّدنا وجوهنا».

«ولقد علمتُ فيما بعد أنّه ما من أحد من هؤلاء بلغ قبيلته سالماً».

وعلّق الأمير، بعد أن ناقشت وإياه الواقعة، بلا مبالاة:

«رمال النّفود تريد أضاحيها، فعلينا إذن أن نقدّم لها ما تطلب».

مضينا في مسيرتنا على سهل منبسط أجرد غطته أحجار بركانيّة قاسية، فالنباتات والحشائش كلها تلاشت بعد أن رعتها الحيوانات. ثم هبطنا بعد ذلك إلى حوض جبَّة وبلغنا حاضرة قارا حيث نصبنا خيامنا في تلك البقعة التي كنا نقيم عليها مضاربنا من قبل، عند الطرف الجنوبي من القرية (الشكلان 22، 23). وما إن وصلنا حتى أسرع أهل الناحية إلى حصاد آخر سنابل القمح. فهؤلاء القوم ما كانوا ليثقوا بجمال أصدقائهم الرّوَلة. وكان الجو يومئذٍ مليئاً بالغبار والرّمل، والقيظ لا يطاق. ولم تصل الجمال وأحمالها حتى العصر.

وفي يوم الإثنين دعوتُ سَنَداً الصّلَيبي إلى خيمتي لأناقشه في عادات وتقاليد أهله وعشيرته. ولقد كابدت وإياه مدة ساعتين دون طائل، فظلّ يناقض أقواله ولا ينقطع عن طلب الطعام والتبغ، ويتلمس قميصه مستمتعاً، ويرمي حوله كل ما يعثر عليه في هذا القميص. وعليه فقد أرسلت في طلب صليبي آخر، هو فَرَج وكان هذا يأتي، بداية، بأقوال واضحة لا غبار عليها، حتى ناداه سَنَد الذي كان يتسكع في الخارج:

«علام تكشف له عن أمورنا؟ فهو سينال عن كل كلمة أجره ذهباً، أما نحن فعلامَ نحصل؟»، فصار فَرَج يلتزم الصّمت، واضطررت للتوقّف عن العمل. فلما عرضت الأمر على الأمير، قال:

«أما ترى، يا موسى أن هؤلاء شرّ الخليقة في الصّحراء؟ قبّح الله أجدادهم لإنجابهم هكذا أوغاداً!».

وفي عصر ذلك اليوم تابعت تدوين الأغاني والأشعار التي يتداولها الرّوَلة، وثابرت على هذا العمل عدة أيام من الفجر حتى المغيب. وكان جُواد الكاتب يأتيني باستمرار بإخباريين جدد كان الأمير يحضّهم على حسن الاهتمام والعناية. وكان هذا العمل بطبيعته مضنياً منهكاً للأعصاب، وخاصة حين تزيد الحرارة عن 104 درجات في الخيمة طوال اليوم. والنسيم الوارد من الغرب، وهو دائماً منعش، لا يبلغنا لوقوع قارا في منخفض وراء جبل. وفضلاً عن ذلك كنا نواجه عاصفة رملية كل يوم فتمزّق العديد من الخيام وتملأ عيوننا ومسام جلودنا بالرّمل.

النّوري بين أهله

كانت خيمة النّوري مليئة بالمحاربين، رجال من سكاكا ما انقطعوا يردون إليه يطلبون منه البنادق والذّخائر. وكان يستضيف وسطياً خمسين شخصاً كل يوم، ومع ذلك فهو يظل جائعاً معظم الوقت.

كان باعتباره مضيفاً لا يملك أن يجلس إلى الطعام مع ضيوفه، ثم إن النساء منشغلات عنه عادة، لأن زوجته الصبية تؤثر البقاء مع أهلها، فيما الخادمات والإماء ينشغلن أشد الانشغال بأطفالهن وأزواجهن. والأمير ليس من هؤلاء وأولئك وإذن فهو غريب.

ومع ذلك فقد كانت هناك نساء قريبات يُقمن في خيمته وكانت تقيم معه في الخيمة ابنتاه الفارَّتان من زوجيهما بيد أن هاتين إنما كانتا مجرد كلبتين، كما كان يطيب له أن يصفهما، لا تصلحان لأي أمر. والعهد بهما أن تخلدا إلى الخيمة لتتناولا القهوة وتدخنا الغليون الطويل الذي ألفتاه والثرثرة مع زائراتهما الكثيرات. وكان مما عرفن به انتجاعهما إلى فيء هوادجهن والانتظار، فيما يتولى الرجال تفكيك الخيمة وطيَّها أو نصبها، فإذا فرغ العبيد من تثبيت الهوادج على ظهور الجمال، وضعتا الحرامات والبطانيات الناعمة الملمس وجلستا عليها وأخذتا تستعرضان الرّجال والنساء وهم يمرّون بهما.

ولم تكونا حريصتين على النظافة ونبذ الأقذار، فلم أر سوى إحداهما وتدعى صالحة وأمها شمَّرية، تغسل منديلها الأبيض مرة واحدة. ورغم أنّ أختها الصغرى وزوجة النّوري الصبيَّة كانتا جالستين في ذلك الحين وتتجاذبان وإياها أطراف الحديث وتحكّان رأسيهما مراراً فلم يخطر ببال أي منهما غسل منديلها القذر، أو يديها أو شعرها. وحين لفتُّ انتباه جُواد الكاتب إلى هذا الأمر قال:

«إن صالحة لم تنشأ في خيمة الأمير بل قام على تربيتها أهل والدتها التي طلَّقها الأمير، وبيتها ليس فيه الكثير من الخدم والإماء كما في خيمة الأمير أو خيمة تركيّة التي وردت منها زوجته الفتية. والنساء اعتدن ألا يبدّلن ملابسهن إلا حين تأتيهن الأَمَة بثياب جديدة».

ولقد بدا لي أن الأمير النّوري ذاته لم يكن يبدِّل ملابسه أو يدعها للغسيل والتنظيف إلا إذا اضطرّه أحد إلى هذا. ولطالما سمعتُ كاتبه يلومه لإهماله مظهره ويحثّه على ارتداء ثياب جديدة.

بيد أنه لم يكن ليقدر على هذا في خيمته لأنها كانت مزدحمة بالناس دائماً وفي الليل كان عليه أن يخفي تحت رأسه الثياب التي خلعها عنه لئلا يرى أحد العبيد أو الخدم ملابس الأمير مبعثرة فيأخذها لنفسه.

وقد أخبرنـي العبيد والخدم أن «جيب الأمير عميق وواسع، ولا يطيب له أن يمشي عارياً». وكنت في علاقتي به ألحّ عليه أن يلتزم بالنظافة في كل أمر ولذلك صار أكثر إقبالاً على الاستحمام والاغتسال وتبديل ثيابه، وكان في هذا يلوذ دوماً بخيمتي. ذلك أن خيمته كانت تحفل على الدوام بالنساء، ومع ذلك كان يستحيل عليه تقريباً أن يجد من يقوم على غسيله. وكثيراً ما يطلب إلي تكليف خادمي ناصر بغسل قميصه، ولكني كنت دائماً أرفض ذلك، وأشير عليه بأن المرأة أفضل من يقوم بهذا العمل.

وكان يجيبني: «بالله يا موسى، لا تصدِّق هذا الكلام! فلو ائتمنتُ أمةً في قميص لي، لأعادته إلي أشدَّ اتساخاً مما كان قبل ذلك». وقد كلَّف جُواداً الكاتب فيما بعد بالعثور على امرأة في إحدى المنازل لتقوم بمهمة غسل ملابس الأمير نوري الشّعلان، ملك شمال الجزيرة العربية، على نحو ما جرت عليه تسميته. ويا له من ملك مسكين فعلاً!

كانت جماعات الرَّوَلة المغيرة تشتدّ في ضغطها على عشائر ابن رمال وابن رَخيص الشَّمَّرية، وتعود بكثير من المغانم، ولكن الأخبار التي جاء بها أحد الصَّلُبَة إلى نوّاف الذي أسرع إلى إخبار والده بها، أفادت بأن زامل بن سبهان وزير سعود ابن رشيد الفتى قد أرسل ذخائر ومؤناً إلى مارد وخِذما. فوجّه الأمير على الفور قوة كبيرة من الهجّانة لاحتلال المناطق المجاورة لآبار الشَّقيق وممرّ المُستندَة في سلسلة جبال الطويل وفي عشية يوم الخميس عادت القوة المغيرة بالجائزة. وتفصيل ذلك أنهم عمدوا إلى التّمويه، فأخفوا أنفسهم في تجاويف رمال الصّحراء ووضعوا حرّاساً على تلال الرّمل العالية وأخذوا ينتظرون حضور الإبل التي تحمل المؤن إلى الجوف.

ولم يطل بهم الوقت في الانتظار، إذ ظهرت القافلة قُبيل ظهيرة يوم الأربعاء. ثم قاموا بتطويقها دون أن يظهروا أنفسهم، وحين خلدت الجماعة إلى الرّاحة عند الفجر، حين يكون البدو في أعمق درجات نومهم انقضّوا على القافلة واستولوا عليها. ولم يبلغني ما صار إليه أمر مرافقي الجمال فالرّوَلة لم يأتوا على ذكر ما آل إليه هؤلاء في أحاديثهم. بيد أن للمرء أن يخلص إلى أن هؤلاء لا ريب قد هلكوا، إذ لم يعد يبلغ الجوف أو قارا منهم أحد. أمّا إن كان سبب فنائهم أسلحة الرّوَلة أم العطش والجوع، فذلك أمر لا يعلم به سوى الله والرّوَلة.

* * *

وفي يوم الأربعاء أتى صليبي بخبر إلى الأمير يفيد بوصول ثمانية من الإبل تحمل السّلاح وبضائع جافة من مشهد - أي من كربلاء - إلى خيام الصّلُبَة في بُوَيتات. وكانت تلك الإبل والأحمال ملكاً لتجّار من مشهد يسكنون حاضرة سكاكا ويجاورون القُرِشة أعداء الرّوَلة الألدّاء. وكان هؤلاء المشهديون في موقف صعب. فهم كتجار كانوا يودون بيع بضاعتهم ليس للكريشة وشمَّر وحسب، بل وللمعاذلة والرّوَلة أيضاً، ولذلك كانوا يحبذون السلام ولكن نظراً لإقامتهم مع القُرِشة وبيعهم السّلاح والذخيرة لهم أبعدوا أنفسهم عن المعاجلة والرّوَلة. ومع ذلك كانوا يرسلون إلى النّوري الرسائل ويقدمون له الهدايا يرجون منه السلام ومحاولة غض الطرف عن تعاملاتهم.

وكانوا يتذرّعون في تجارتهم مع القُرِشة بالقول: «إن لم نبع السّلاح للقُرِشة فكيف تكون معاملتهم لنا؟ فإن امتنعنا هدموا بيوتنا واخذوا ممتلكاتنا، والله وحده يعلم إن كانوا يوفّرون أعناقنا».

فردَّ عليهم النّوري بجفاء: «أنتم تزوّدون أعداءنا بالسّلاح والذخيرة، وإذن فالذّنب في تعنّتهم إنما يقع عليكم. وإنني لا أبغي التعامل معكم».

فلما اكتشف أمر قافلة مشهد هُرِعَ خمسة عشر شاباً إلى جيادهم وجهَّزوها بالسّروج ومضوا لاعتراض القافلة، ولكنهم عادوا خالِيي الوفاض..

كان السبب في ذلك أن الصَّلُبَة، وكانوا يسيرون في ركاب الرّوَلة وشمَّر معاً، حين لحظوا القوة المغيرة عمدوا إلى إخفاء جمال المشهديين عند بركة مياه صغيرة. وقد عجز الرّوَلة عن اكتشافها، بسبب حجارة الصوان التي تغطي كل أثر، ونظراً لعدم حملهم المياه لجيادهم اضطر هؤلاء للعودة فيما بعد. ومع ذلك فإنهم أقاموا الخفارات عند نبع الصّوير والمغيرا وبثّوا السّبور حول سكاكا. ولقد بذل كل من الجانبين أقصى جهدهما لإنزال أعظم ما يمكن من الخراب بأسوار البساتين وقطع معظم أشجار النّخيل.

استيقظت صباح الإثنين على أصوات الإبل التي يقوم عبيد الأمير بتحميلها أمام خيمته. وها قد عدنا إلى التنقل من جديد بعد أن كان قد أكد لي الأمير بأننا مقيمون حيث نحن ما لا يقل عن سبعة أيام أخرى. ولكم سررت حين بدا أن بوسعي متابعة عملي العلمي دونما عرقلة! وها هي حياة التنقل تعود من جديد.

النزول في الواحة

قبيل الفجر جاء الأمير يسألني إن كنت أودّ مرافقته.

قال: «سوف أترك النساء والخيام ومخزوناتنا في قارا، ثم أتوجه شرقاً ومعي قطعان الإبل والخيول، وأعود بعد خمسة أيام أو ستة. فقد أخبرني الصليبي في المساء أنه وجد مرعى طيباً، لذلك يجب أن أقيم هناك حتى نهاية الشهر».

لمّاً وجدت أن الأمير يتوجه إلى الموقع الذي سبق لي زيارته، أجبته فوراً بأنّي أؤثر البقاء في قارا والعمل، فنصحني بالانتقال بخيمتي إلى بساتين الشيخ ضاهر ابن سليم حيث يمكن أن يتوفر لها حماية أفضل مما يوفره موقع الإقامة الآن. كذلك ودّ كاتبه أن يظلَّ معي حيث كنا. فانتقلنا إلى البساتين المجاورة لمنزل الشيخ ضاهر وأقمنا خيامنا تحت أشجار النّخيل، وبعث الأمير عبده عامراً ليطلب إلى ضاهر ألا يدع أحداً يدخل خيمتي وأن يقوم على راحتنا وسلامتنا ليل نهار.

وبعد أن اطمأننتُ إلى أن متاعي في أمان، مضيت لوداع الأمير ووضع إبلي في رعايته.

فردَّ عليَّ الأمير: «لا حاجة للتوصية يا موسى. فوالله إنّ حرصي على حاجاتك أكثر من حرصي على حاجاتـي. وهذه يشهد الله أنها الحقيقة».

وأوعزتُ عندئذ إلى الرّاعي مفزع أن يلازم جمالي بين القطعان الأخرى وألا يبيت في مكان سوى المكان الذي ينزل فيه الأمير وجماعته. وللتو غادر النّوري ومعظم رجاله، تاركاً النساء والأطفال في قارا. وعدت أنا وجْواد إلى ملاحظاتـي حول التّراث الشّعبي، ولم أغادر خيمتي حتى المغيب.

ولم تكن تلك الليالي بالهادئة. فعلى بعد ثلاثين خطوة من خيمتي أقام أحد الشّمَّريين خيمته، وكانت ابنته تعانـي من مرض شديد. وأخذت المسكينة تتأوه وتسعل، وتشكو ليل نهار، حتى جاء الموت لها بنهاية شقائها. فقاموا بدفنها، جاعلين من قميصها كفناً، وذلك قبل الفجر.

وكان يأتـي إلى البستان أربعة عمال بعد منتصف كل ليلة ومعهم ثلاثة إبل ويدخلون البستان لسحب الماء من بئر تبعد عن خيمتي حوالي الأربعين خطوة لريّ أشجار النّخيل. كان من عادتهم أن يصاحبوا عملهم بالغناء والصياح لحثّ الإبل على الثبات والسرعة، فإذا قصرت زاد السّياس من الحثّ برفع درجة الصّياح واشتدوا بالضرب. وكان العمال يولون أشجار النّخيل المتفتحة اهتماماً خاصاً فيزيحون الأوراق الأقرب إلى البراعم ويزيلون الأشواك عن الأوراق ويهزّون طلع الذكور فوق البراعم الأنثوية ويدخلون غصناً يحمل طلع الذكور بين الأغصان التي تحمل زهور الإناث ويربطونها معاً. ولأن الزهور الذكرية بطيئة في الظهور فإنه يجري فحص تاج كل شجرة نخيل كل يومين أو ثلاثة أيام. كما يجب سقاية كل شجرة مرَّة كل خمسة أيام. وتقوم السّقاية بسحب الماء أولاً إلى حوض واسع ومنه يصبُّ في حفر صغيرة لريّ كل نخلة على حدة، حيث يحبس الماء في حفر تشبه الإبريق يتراوح قطرها ما بين أربعة إلى ستة أقدام حول قاعدة كل نخلة.

بَلَغَنَا يوم الثلاثاء أن الشيخ زبن الكويكبي تغلب عند آبار صوير على جماعة من شمَّر كانوا يطلبون الرّوَلة في وادي السّرحان. وقد غنموا جمالاً محمَّلة بالملح قرب قرية كاف. وإذ عادوا بالغنائم وقطعوا المنطقة البركانيّة أعلى جبل العمود ورأس وادي الشويحط وأفلحوا في بلوغ صوير، عندئذ اطمأنت نفوسهم إلى أنهم باتوا بعيدين عن مكامن الخطر، اعتقاداً منهم بأن بعض عشائرهم تقيم مضاربها في بْوَيتات. ولكن لم تكن الأقدار تشاء لهم العودة إلى هؤلاء الأهل.

وتفصيل ذلك أن أحد الكواكبة كان يجول المنطقة ليرعى فرسه فأبصرهم وهم يستريحون في هجير قيظ الظهيرة فاستدعى أبناء عشيرته. وكانت النتيجة أن شمَّر خسرت كل غنائمها وكل ما لديها من إبل كذلك. كما خسر الرّوَلة جملين محمَّلين ببضائع من مشهد ومتوجهين نحو سكاكا. ويلوح أنهم كانوا قد وعدوا أحد الصّلُبَة بإعطائه جملاً، فخان أبناء عشيرته بأن دل الرّوَلة إلى الطريق الذي يمكنهم أن يسلكوه للاستيلاء على الغنائم.

* * *

في يوم الخميس وردت إلى حاضرة قارا عدة أسر من عشيرة النصير، وكانت تجاور مضارب شمَّر في منطقة الهذول، سوى أنها تركت المنطقة عند إعلان الحرب بين شمَّر والرّوَلة. ولقد سألني شيخهم عن موقع مضارب النّوري وأخبرني أن رجال ابن سعود باتوا على أبواب حائل، وهي معقل ابن رشيد. ووفق روايته كان وزير ابن رَشيد، زامل بن سبهان صار ورجاله المسلحون في قلعة تروبا، فوجَّه إليه ابن سعود مجموعة صغيرة من محاربيه لمهاجمه العدو ثم الهرب. وقد تم هذا. وحين خرج ابن سبهان في حملة، استغل ابن سعود غيابه فقام ورجاله بالهجوم على المعسكر وهاجم مؤخرته واستولى على جميع الخيام البيض الخاصة برقيق ابن رشيد وخيولهم وإبلهم. ولم ينجُ سوى ثلاثين محارباً تمكنوا من بلوغ حائل. أما محاربو ابن سعود، حسب قول الرجل، فقد بلغوا الآن بَقعا (أو طيبة اسم، كما تسمّى أيضاً) حيث تتحكم بكافة الطرق المؤدية إلى حائل.

في يوم الأحد جاء من الجوف صليبي حاملاً الأخبار بأن الدُّغمان قد قضوا على جماعة من غزاة التومان المرتبطين بشمَّر، وأَسَروا ثمانية وخمسين من الهجّانة. وأخبرنا كذلك أن نوّافاً يقوم ببناء برج قوي إلى شمال شرق مارد يريد استخدامه في رمي أعدائه.

وفي صباح الإثنين، المصادف في 17 مايو سمعت أصوات جمل أمام خيمتي يُكره على النخ. وأردت استطلاع الأمر فرأيت الأمير ووجدته يُهْرَع إليّ بتحية من الأعماق والعرق يتصبب من وجهه. فقد كان قومه في طريقهم إلى قارا بينما أسرع هو في المقدمة على ناقته الأصيلة، كما قال، يريد لقائي بأسرع ما يمكن. ولقد صدَّقت قوله بأنه أسرع للقائي، وإن كان السبب في ذلك ابتغاء وجبة واستراحة تامة كان يعلم أنه واجدهما في خيمتي. فقد كان يمضي كل يوم في التجوال طوال الأيام الثمانية الأخيرة، دون أن يقضي ليلة واحدة داخل خيمته. وراح يشكو عدم عثوره في أي مكان على مراع غنية أو مقادير كافية من المياه، وقد اضطر القوم لمتابعة السفر مرتين وهم ركوب طوال الليل، بسبب ظهور الغزاة من الأعداء.

ولما سألته عن إبلي أجاب أن اثنتين من أفضل الرواحل قد سُرِقتا. وقال إن الراعي مفزع، الذي يعمل لدي، لم يقرب بهائمه، وإنما ذهب إلى أهله على أطراف المضارب، وفي غيابه قام اثنان من شمَّر، يخدمان لدى الرّوَلة، بالاستيلاء على تلكما الراحلتين والفرار بهما. كذلك سرق هذان الشَّمَّريان من أسيادهما مؤناً وقرب ماء وأسلحة ومني الناقتين. وقال الأمير بأنه طلب التعويض من أهل الحل والعقد عما فقدته من بهائم ووعد بمساعدتي في تحصيل حقوقي لئلا يسودَّ وجهه.

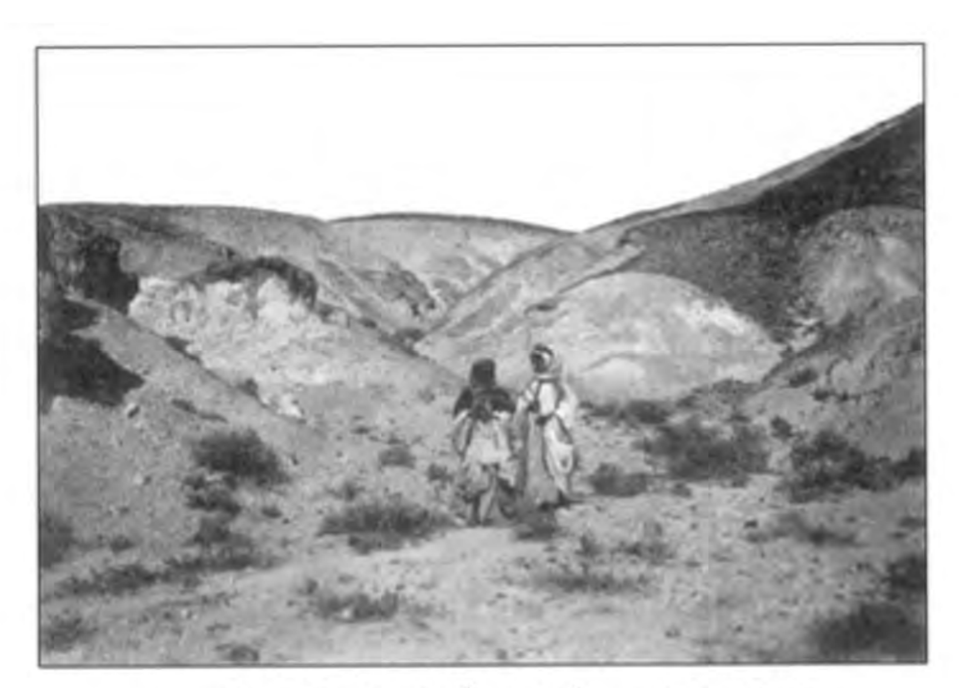
فقلت له: «واجبك يفرض عليك ذلك، فحسب أعرافكم المضيف أو الشيخ مسؤول عن تصرفات ضيفه أو خادمه. وهذا معروف لدى الناس جميعاً والكل يُلمُّون به. فإن لم تفرض على أسياد هذين اللصين التعويض فإنه سيبدو جلياً أنك لا تُعنى بمال صديقك أو جارك. ولا ريب بأن الأمير نوري الشّعلان لن يدع الأمر دونما متابعته».

«والله لن يكون هذا وأنا أعلم أنك اشتريت البهيمتين المسروقتين بـ 158 مجيدي (142,20 دولاراً أمريكياً) ولكن الإبل هزيلة هذا العام ولن تساوي ما كانت تساويه في العام الماضي. ولقد قدرت ثمن دابتك بـ 100 مجيدية (90 دولاراً). فإن قبلت دفع الشيوخ لك هذا المبلغ». ولقد قبلت بهذا المبلغ وسألت الأمير الإسراع بإنهاء الموضوع.

وفي المساء جاءني جُواد الكاتب برغبة الأمير بأن نمكث في قارا حتى يوم السبت. ولقد سررت بهذا، إذ كنت أتوقع أن أتمكن من إنجاز الجزء الأعظم من ملاحظاتي حول الفنون الشعبية والآداب خلال هذه الفترة. وكان الأمير يأتي لرؤيتي كل يوم ولكنه إذا رآني مستغرقاً في عملي لزم الهدوء أو قام بطرد كل من يبغي الزيارة.

وكان العديد من الشيوخ ينشدون، وخاصة الشباب منهم، الحصول على مختلف الأشياء، سوى أنهم ما كانوا يجرؤون على الطلب. وكان من المعروف عموماً أن الأمير صديق حميم لي إلا أنني لم أكن أسمح لأي من الشيوخ بالتباسط معي. وكان من خلقي اعتياد اللطف وحسن الخلق والمجاملة حيال الجميع، لكن إذا سعى أحد منهم للتباسط معي أُبدي نأياً وتحفّظاً. فأتظاهر في مثل هذه الحالات بعدم سماع ما يقال، أو أجيب باقتضاب بالنّفي، ثم أتحول فوراً إلى استدراج الرجل إلى حديث ممتع وكأنما لا هو قال ولا أنا سمعت. ولا كنت لأقبل دعوة إلى عشاء من أيّ من صغار الشيوخ ولم أقم بزيارة أي منهم. وكنت نادراً ما أدخل خيمة الأمير، وإذا دخلت فلفترة جد وجيزة. وكانت خيمتي المستديرة أبداً مفتوحة أمامه، إلا أنها موصدة أمام الشيوخ الآخرين. وكان مسموحاً لهم الجلوس في خيمتي الكبيرة التي كنت أدعو إليها هذا أو ذاك لزيارتي.

* * *



الشكل 27: من خُصَيدة أم غروبة باتجاه الجنوب



الشكل 28: خيامي بين المضارب في الشومري بالقرب من الأزرق

لم أكن المبادر بتحيّة الشيوخ الفتيان، ولكني كنت أرد التحية بمثلها إذا بادر بها أحدهم وأسأله بلطف عن هذا الأمر أو ذاك. أما إذا قصَّر أحدهم عن تحيتي فكنت أتابع دربـي وكأنني ما رأيته ولا سمعته.

وكانت غاراتـي، كما كانوا يسمّون رحلاتـي العلمية، معروفة بين الجميع، وليس هناك من يشكك في شجاعتي. وأذكر أنني انبريت للرد على المقدَّم الفتى يومئذ ممدوح بن سطّام المشهود له بالشجاعة، وقد أراد أن يحرجني بسؤالي إن لم يراودنـي الخوف وأنا أخوض وحيداً في أعماق الصّحراء المجهولة، فقلت في حضور الشيوخ الآخرين:

«وما الخوف، يا ممدوح؟ وأيّ صحراء مجهولة تقصد؟ فلقد كنت أجوب القفار على ظهر ناقة يوم كنت ما تزال تُحْمَل في الخُرج».

فامتقع وجه ممدوح وتراجع. والعهد أن الأطفال الصغار يوثقون إلى خرج الإبل في الترحال لكونهم أصغر سناً من أن يعرفوا كيفية الركوب.

وكنت بمثل هذا السلوك قد حصلت على احترام أسرة الأمير بحيث لم يجرؤ أحد من الشيوخ الشباب على مناصرة أحد في مخاصمتي وما كان تشديدي على تعويضي عن سرقة نَاقَتِيًّ إلا للحفاظ على موقعي القوي. والمنتظر عندئذ أن يعزز الأمير أو ينفي صداقته لي بما يصدر عنه من سلوك.

وفي عصر الخميس المصادف في 20 مايو كنت قد أنجزت معظم مدوَّناتـي وأَتْمَمْتُ بذلك الجزء الهام من عملي العلمي. وحوالي المساء مضيت مع ضاهر لزيارة خيمة مقدر أن يجري فيها في اليوم التالي ختان عدة أطفال من الذكور. ووجدنا عندئذ أمام الخيمة عدة فتيات يرقصن. وفي طريق عودتنا توقفنا لتفحّص صخرة المشرفة حيث كان يقوم في موقعها ذات يوم حصن صغير. وعلى الصّخرة المنحوتة بمهارة، اكتشفت نقشاً نبطياً وعزمت عندئذ على العودة إليه في الغد، إذ لم يكن بوسعي قراءته بوضوح في ذلك الضوء الذي يأفل ويتلاشى.

وفي يوم الجمعة داهمني إحساس بالتعب الشديد. فقد دأبت مؤخراً على تناول مقادير كبيرة من القهوة المرة لأتمكن من الحفاظ على نشاطي العقلي في ذلك القيظ الشديد السائد الآن، وها أنذا أعانـي الآن نكسة صحية. بل إنّـي لا أملك حتى مغادرة الفراش. وكان الدّم يضطرب في رأسي حتى يبدو كل شيء يدور من حولي في دوامة.

ظللتُ على هذا النحو حتى جاءنـي ناصر وأعانني على الانتقال من خيمتي الصغيرة إلى خيمة أخرى واسعة، حيث جلست هنيهة هناك. ثم داهمتنا عاصفة رملية أطاحت بخيمتنا ودفعت بنا إلى اتقاء هذا الجو بالالتجاء وراء ساتر البستان. ولقد ظلت العاصفة على شدتها وعنفها حتى ما بعد الغروب، وكان الوقت قد فات عندئذ لزيارة الصّخرة.

وفي المساء جاءنـي جُواد حاملاً سبع عشرة ليرة تركيّة (عثمانية، تعادل 67,50 دولاراً) تعويضاً عن ناقَتَيَّ المسروقتين، وفوق ذلك كان الخبر السّعيد بأننا بادئون المسير في الغد إلى المناطق المأهولة. فقد وفى الأمير بوعده. وكان لهذه الحقيقة وما شعرت به من البهجة بالأمل بمغادرة أعماق الصّحراء أخيراً الأثر في ارتفاع معنويّاتـي.

* * *

9- إلى سوريا عبر وادي السّرحان

الرّوَلة يعانون الجوع

عدنا للانطلاق من جديد يوم 22 مايو نحو الجنوب غرب. وفي يوم الأحد بلغنا بيت مويزِن القوي. وإلى الجنوب منه عثرنا على جلاميد كثيرة ذات أشكال عديدة توحي بأبقار تستريح. وتذهب الحكاية إلى أن الجن كانت تربّـي هناك أبقاراً ترعى ما ينبت من النبات في تلك الأرض الصّخرية فضلاً عن الرمث والغضا التي تضرب جذورها في الرّمال. فحَّرم الله عليها ذلك وحول البقر إلى جلاميد.

ولقد تحولنا قليلاً ناحية الشمال غرب للالتفاف حول حاضرة الجوف. وكان الشيخ عذوب قد سأل النّوري نصب الخيام في الجوف، إلا أن النّوري خشي مقتل بعض النساء أثناء القتال وكان ذلك السبب في سيرنا في المنطقة الحافلة بالأحجار.

انضم إلينا رشراش بن عذوب. وكان قادماً من طرف نوّاف ومعه رسائل لي وتحيات ، وأخبرنا أن نوّافاً تزوَّج بصبيَّة من الجوف قبل بضعة أيام. وهذه سادس زيجاته وكان قد طلَّق أربع زوجات من قبل ومثل هذا المصير بات يتهدَّد الخامسة. ولقد أدَّت الأخبار عن تقدم ابن سعود المظفر إلى تحسين وضع نوّاف الضعيف، ولأنه بات واثقاً من رضا والده صار الآن مفعماً بالأمل بنصر مؤزر.

وفي يوم الإثنين كنا على ظهور الإبل قبل انبلاج الفجر ونحن نلتفُّ في اتجاه الجنوب غرب حول أرض جبلية لم نصادف فيها مرعى. وكان العربان يعانون الجوع. ونظراً لانقطاع حليب معظم النوق نتيجة لنقص غذائها فإن معظم الأهالي فقدوا غذاءهم الوحيد. فكان لي مع النّوري حديث في هذا الأمر:

«قد ألفنا الجوع، يا موسى. ونحن نتعرف جميعاً إليه منذ الصغر ونخشاه لأننا نعلم أنه يصعب على الجائع أن يقهر من لديه الطعام متوافر وبإمكانه أن يأكل حتى يشبع. والمثل الجاري عندنا يقول: «فَتّ الشّبعان على الجيعان فَتٌّ قُوي».

«ونعلم أن السماء ملكوت الله تعالى الذي يرعانا ويرأف بنا ويمن علينا بالطعام بينما العدو من الناس، الذي يضنّ علينا بكل شيء، يقيم في الأرض التي عليها نمشي. ولذلك كثيراً ما يذكّر الأب ابنه بأن مَنْ يوفر لك كل أمر يسكن السماء ومن يعترض سبيلك يعيش على الأرض التي تسير عليها. فلا ينفعنا، يا موسى، أن نلحّ في طلب ما يتوق إليه كل إنسان. والله يقول للإنسان في كل حال، ما معناه:

«يا عبدي، أنت تشاء وأنا أشاء، ولكن كل ما تستطيع القيام به أن تفعل كل ما أشاؤه وآمر به.

«الجوع يَقْسِرُ الإنسان على السرقة. ولا ضير إن سلبت من عدو أو غريب ما يملك أما أن تسرق من جار أو ابن عشيرتك فخطيئة، والله لا يبارك في أمر حرَّمه.

«ونحن، يا موسى، اعتدنا أن نتناول وجبتين كل يوم، ووجبة الطعام الرئيسة الغنية عندنا هي وجبة العشاء وموعدها بعد الغروب. وهناك بعيد الظهر الغداء وفيه نشرب الحليب وحسب أو نأكل ما بقي من عشاء اليوم السابق أو كسرة خبز مما بقي من الأمس. ولا يُقَدَّم الخبز الطازج وأنواع معينة من الطعام إلا للضيوف ذوي المكانة. وإن توافر لنا قطعة من الخبز الجاف واستطعنا أن نضيف إليها الماء، نعتبر هذا طعاماً جيداً.

«والفطور عندنا غير معروف. فلفكّ الرّيق نتناول حبة من الملح أو كسرة خبز، أو نجرع بعض الحليب. أما في الرّحلات الطويلة فإننا مضطرون للمضي بهذا الفطور حتى المساء لأننا لا نتناول الغداء أثناء المسير. ونعلم أننا لن يكون لنا طعام حتى الغروب ونحمد الله إن أتاح لنا فرصة الشبع على الأقل مرة في الأسبوع. بل إننا كثيراً ما لا نجد حتى كأساً من اللبن الحامض البارد عند العشاء.

«والخبز ترف، ورغيف الخبز يمثل هدية غالية تقدمها الفتاة لحبيبها الفتى دليلاً على حبها وبذلها. و [هناك رواية تحكى عن] ابنة أحد الشيوخ التي أحبَّتْ رويلياً فقيراً. وكانت تنال التعنيف والتقريع أحياناً كثيرة لهذا السبب، إلا أن الفتاة ظلت على وفائها للرجل الذي وقع عليه اختيارها. وقد صادف أن نصبوا خيامهم وسط مرعى خصب، لكنه بعيد عن الماء، فكانا يعانيان الظمأ أحياناً. ولما كان المكان يقع في منطقة نائية وغير مأمونة فلا يذهب لجلب الماء إلا الشبان ومن بينهم حبيب ابنة شيخ العشيرة. وقد ظلَّت الفتاة تمسك عن شرب الماء طوال يومين لتدَّخر حصَّتها فتقدِّم له طبقاً شهياً تقابله به عند عودته. فلما كان اليوم الثالث ولوَّح الحراس عن بُعْدٍ بالمناديل المعقودة على رؤوس الرماح إشارة إلى عودة الفتيان بالقِرَب المملوءة بالماء، أسرعت الفتاة بإعداد العجين وأضافت إليه الكثير من السّمن وهيأت منه رغيفاً صغيراً طيِّب المذاق. فحملته واعتلت ناقة وهُرِعَتْ بها للقاء الفتيان العائدين بالماء.

والنساء يخرجن عموماً ومعهن قربة صغيرة حين يكون لديهن في البيت أطفال عطاش أو عندما يعتزمن إعداد طعام للجائعين منهم، لأن الإبل التي تحمل قِرَب الماء الممتلئة تتحرك ببطء بينما يمكن للمرأة التي تمتطي ناقة أن تملأ قربتها من أول فتى تصادفه، وتعود سريعاً وهكذا ما إن صادفت ابنه الشيخ أول فتى وقال لها أن تحمل من الماء حاجتها ردّت عليه: «إن الشاب الذي تبغيه ويحمل الماء متواجد في الخلف مع المظاهير». وقد تكرر العرض وردَّت عدة مرات حتى وقع نظرها على حبيبها. وكان يسوق أمامه اثنين من الإبل يحمل كل منهما قربتين كبيرتين من جلد الجمل الواحدة منهما تستوعب ستين ليتراً من الماء تقريباً، وعلى الجمل الثالث وهو أخف حملاً كان الفتى جالساً.

قالت الفتاة بلهجة الرجاء: «أعطني بعض الماء».

فردَّ الفتى: «لقد صادفت شباناً كثيرين، أفلم يقدِّم لك أحد منهم الماء؟ فإذا لم تنالي منهم شربة ماء، فلن تناليها مني!».

«وعندئذ أخرجت الفتاة الرغيف الشهي فنظر إليه الفتى مشتهياً ولكن الفتاة رمت به إلى كلب كان قريباً منها، وقالت:

«لن أشرب مما عندك وأنت لن تأكل شيئاً مما عندي بعد الآن!».

«وعندئذ نزل الفتى عن الجمل وصبَّ للفتاة الماء، سوى أنها رفضته ولما زارها في المساء أعرضت عنه، ومضت مبتعدة» ».

* * *

بعيد الظهر جعل الأمير جمله يبرك، وكانت تلك إشارة إلى المكان الذي وقع عليه الاختيار لنصب الخيام. ولقد مضى بعض الشيوخ بعدئذ إلى الجوف. أما أنا فقد انشغلت بتدوين ملاحظاتي حول القصائد والأغاني الدائرة لدى الرّوَلة. ثم حين اقترب المساء سمعت صرخة تنبيه وللتو هَبَّ المحاربون والأمير على رأسهم واتجهوا جنوباً، إلا أنهم لم يصادفوا العدو فعادوا أدراجهم حوالي منتصف الليل منهكين.

من تاريخ الصّحراء العربية

أخذتُ بالتأمل مقارناً بين حياة الصّحراء اليوم وتلك التي تعرض في مختلف الروايات التي أوردها القدماء. فتذكر مدوَّناتُ الآشوريين جزيرة العرب والعرب منذ القرن التاسع قبل الميلاد. وبلاد العرب تعني عندهم السهوب أو الصّحراء، والعرب لديهم القوم الذين يرحلون في أرجائها. ومن نقوشهم يتضح أن سكان شمال جزيرة العرب كانوا يعيشون كحالهم اليوم. ويتكوَّنون من مختلف القبائل المتحدرة، حسبما ورد في الكتاب المقدس، من إسماعيل. وقد اضطلعتْ تلك القبائل بدور نشط في الحياة السياسية في الأراضي المجاورة المأهولة بالسكان وأقامت علاقات مع السبئيين، أسياد طرق قوافل التجارة وسكان جنوب غرب جزيرة العرب.

ولما هبَّ سكان سوريا المجاورة أو بلاد بابل في ثورة على الملوك الآشوريين العظام مدَّت لهم القبائل العربية يد العون وكانت غاراتهم تتصل على التجمعات الحضرية الموالية للآشوريين. وكانت الحملات العسكرية تتوغل في جزيرة العرب بين الحين والآخر، من الشمال أو من الغرب.

وكان الملك الآشوري سِنْحَريب قد توغّل في جزيرة العرب من الشرق بعد أن أخضع بابل التي كان الثائرون العرب ينالون منها دعماً يُعْتَدُّ به. ومن بابل سار سنحريب إلى واحة أدومو، أو الجوف أو دومة الجندل في يومنا هذا، وأخضعها لسلطانه وتلك كانت المركز الديني عند العرب، وكانوا يُجِلُّون عرَّافاتهم وكأنهن ملكاتهم، ولو شكلاً، على الأقل. أما الأسياد الحقيقيون فكانوا الزعماء الأقوياء على اختلافهم الذين استمروا في مناهضة الملك الآشوري رغم أنه كسب العرّافات أو ملكات واحة أدومو.

وكان أقوى القبائل العربية قيدار [نسبة إلى قيدار الابن الثاني لإسماعيل وجدّ عدنان]، ونبايوت [الأنباط]، وقد ورد ذكرها في التوراة. وكان مركز قيدار حوران، وأمّا الأنباط فكانوا في جنوب وادي السّرحان. وقد تمكن الأنباط في نهاية الألفية الأولى قبل المسيح من الغلبة على واحة الجوف وتوغلوا غرباً في إدوم [النَّقَب] وأصبحوا سادة منطقة قادش القديمة. وكان نشاطهم الملحوظ في التجارة، بحكم استيلائهم على طريق التجارة الهام والذي يخترق وادي السّرحان، فضلاً عن الجزء الذي يصل جنوب غرب جزيرة العرب ببلاد الفينيقيين. وقد أسس هؤلاء مركزهم التجاري الخاص بهم، وهو الذي عرف بالبترّاء Petra عند الإغريق والرّومان، ووادي موسى عند العرب.

وكان شمال وادي السّرحان في ملك قبيلتي خازو وبوز من نسل أيّوب.

يطلق على الصّحراء الداخلية في الكتاب المقدس اسم قيدوم وسكانها «بني قِدِم» وهو تعبير يماثل كلمة Saraceni في النّصوص القديمة وفي الحديثة «شرقية» أو بدو. والكتاب المقدس لا يسمّي الأعراب أو العرب بني قِدِم أبداً.

ويقصد بالعرب في جزيرة العرب كل من يعيشون في الخيام المنسوجة من شعر الماعز، أي كل البدو على الإطلاق بصرف النظر عن أعمالهم أو مواقع خيامهم. ويطلق على العرب الذين يعملون في تربية الإبل أو يقيمون دائماً أو نصف عام على الأقل، في أعماق الصّحراء، اسم البدو أو الشرقية. وهي مشتقة من كلمة «شرق»، وهذا المصطلح لا يقتصر على الاتجاه «شرقاً» وحده وإنما يشير إلى الصّحراء الداخلية في وسط شبه الجزيرة العربية. ومن يجول في هذه المنطقة، سواء اتجه غرباً أم شرقاً، أم جنوباً يقال عنه أنه في الشرق. وتشير العبارة «كديم» الواردة في الكتاب المقدس إلى المنطقة عينها ويقصد بها «الشرق» العربية.

ولقد عُرف بنو قِدِم بحكمتهم. ولا يعلو على حكمتهم سوى حكمة سليمان. وبالتالي يمكن أن يكون موطن الحكماء الذين اتبعوا النجم للوصول إلى القدس، الصّحراء العربية بين بني كديم الحكماء.

يطلق كتّاب الإغريق واللاتين Arabia Deserta، أي العربيّة الصّحراويّة[1] على الجزء من جزيرة العرب الممتد من رمال النّفود جنوباً حتى آبار العليّانيّة شمالاً حيث عملتُ تحت أنظار وحماية الأمير النّوري. أمّا العرب فيسمّون ذلك الجزء بالسَّماوة.

وكان البدو في النصف الغربي من البادية يناصرون الرومان بينما كان أولئك الذين يسكنون النصف الشرقي يؤيدون الفرس في المعارك التي كانت تقوم بين الرومان والفرس. وكان الفُرس والرّومان يجهدون لكسب تأييد أقوى الزعماء فيمنحونه الحرية ويُقرُّون به ملكاً.

وكانت ملوك قبيلة غسان في القسم الغربي من جزيرة العرب، ومعقلهم في أرض حوران، قد برزوا هناك. وفي الجزء الفارسي أو الشرقي من البادية العربية كان الملوك زعماء قبيلة لخم التي كان مقرها الحيرة بالقرب من النجف اليوم على ضفة الفرات.

---

(1) يترجم كتّابنا جميعاً العبارة: صحراء الجزيرة العربيّة، وهذا غلط لأنها تعني شماليها فقط.

ولقد أصبح كبار بني كلب في العصور الأولى من الإسلام ورثة الغساسنة وصار إرث اللخميين إلى كبار قبيلة الأزد ثم خفاجة. بيد أن هؤلاء كانوا يفتقرون للقوة والشهرة اللتين كان الملوك الغساسنة والمناذرة يتمتعون بها. واليوم تقيم هناك مجموعة العشائر التي تتكون منها قبيلة عنزة وفي مقدمتها الرّوَلة، وعلى رأسها الشيوخ الحصيفون وحماتها من آل الشّعلان، مضاربها في البادية.

«بيضاء كخرائد اللؤلؤ»

في صباح يوم الأربعاء تعالت صيحة النذير من جديد. وكان الأمير يتهيأ عندئذ لتناول القهوة معي ولم يكن قد أنهى فنجانه حين أعاده إلى الأرض، وأسرع يمتطي صهوة جواده ميمماً شطر الشرق.

عاد بعد نصف ساعة قائلاً إنه شاهد العدو مولياً الأدبار ناحية الجنوب، إلا أنهم أبعد من أن يتمكنوا من تعقبهم.

أما نحن فقد مضينا باتجاه الشمال غرب. وبينما كنا نمضي على دربنا إذ بالجمل الذي يحمل خيمة الأمير يطيح بحمله ولم تكن الإماء على قدر كاف من القوة يجعلهن قادرات على إعادة الحمل على ظهره، فأخذن ينزلن اللعنات على الرجال لتقاعسهم عن تقديم العون لهن.

توقف الأمير في وادي الدسم، وأشعل ناراً صغيرة في شجيرة غضا وعليها أخذنا بتسخين قهوتنا التي لم نكن قد انتهينا بعد منها. وكان الشيخ عذوب قد اصطاد أرنباً برياً فرمينا به إلى النار فلما تمَّ شيّه ونضج اقتسمناه فيما بيننا.

ولم يكن السّفر فوق ظهور الرواحل بالشاق لكنه كان مملاً إلى حد الإجهاد. وكانت الشمس ملتهبة حارقة والريح تنثر الرّمال في عيوننا ولقد سُرِرْتُ أيما سرور حين راح الأمير ينشد:

يا مِن يعاونّـي على العَفص والزّاج　　كتبٍ بصفح سـجلةٍ مـا بعـد زِيـق

ويا من يعاونّـي على القاف محتـاج　　هيئة مع الارياح يـبَرى الـسّواهيج

كـم ليلـةٍ مـبركْ ذلـولي عـلى ثـاج　　ونـومي عـلى غُـرّ الثنايـه غَمَاليـج

ومقيضها عن وهج القـيظ فرتـاق　　بخشوم سلمى صافياتٍ صَراهيج

ومطعوم حنطة على صاخن الـسّاج　　ومشروبها لُبين الابكـار اللّواهيـق

واليا هَنَف ينباج عن مثـل الفْـلاج　　عـن شُـذَّبِ مثـل اللّـوالي مِفـاليج

أردفها طعيسين من عقب الـوداج　　من فوق سـيقان سْـوَاة الـدّراريج

تنـسِف عـلى المتنـين داجٍ ورا داج　　وتنسف على المتنين زين الـدّواليج

لجَّـن خلاخيلهـا كـما لجَّـة الحـاج　　ولجّن خلاخيلهـا يـزين الـدّواليج

وجَتنا تخطّى كنّهـا ظبـي الانجـاج　　تحظى لها سـود العيـون الخـداليج

هِـيْ عَنـز ريـمٍ ريحهـا عنـبر فـاج　　قادت الغزلان الجوازي الـدّواريج

ريحانـــةٍ بمنقـــع المـــا اليـــا راق　　مالَتْ بغضّات الغصون العـواريج

خمس الخناصر بِهِن الشّرك مـا لاج　　وعيـون يقـتلِن الهـواوي مـداعج

سـميّها مـع وجـه الغـصن ينعـاج　　باب الـشّمال ولا لقـي لـه مخـاريج

يـا لله يـا فـرّاج يـا والي الفـراج　　يـا لـلّي غَنـيٌّ والخلايـق محـاويج

* * *

كانت الإبل جائعة فمضت تنتقل من شجيرة إلى شجيرة وهي تريد المرعى. فنزلنا هناك لوقت قصير وغادرنا بعيد منتصف الليل وعدنا ننوء بأحمالنا من جديد. وكانت الريح التي تهب علينا من الغرب رطبة وباردة ومزعجة أشد الإزعاج. أما صغار الإبل فقد ضلت دربها عن أمهاتها في العتمة فصارت تهمهم وتنوح، بينما كانت الأمهات تصدر صوتاً من الأحشاء ذا خاصية كأنما هو صوت الرعد من بعيد. وكم من ناقة وجمل لم يطق انتظار ظهور صغيره فمضى يتقفى أثره من حيث أتى، وقد أطاح بأحماله وكان لا بد من أخذه بالحزم والقوة حتى يبرك. وكانت الأم ترغو وتضرب برأسها وكل ذلك من شارات الضيق واليأس اللذين استبدا بها.

ولقد بلغنا آبار شغار حيث يمكن للإبل أن تنال الماء. ولكن لم نجد، ويا للأسف، سوى بئر واحدة من الآبار فيها ماء أما البقية فكانت إما نصف ممتلئة وإما ليس فيها سوى التراب. وأخذت كل أسرة تجتمع حول بئر تختص بها دون الأسر الأخرى فيعمقون من حفرتها وينظفونها من التراب. ولقد أمر الأمير كذلك بحفر بئر فلما أخذ العبيد بالتملص من العمل ساقهم إليه بالعصا والشتائم واللعنات. ثم دعاني لسقاية إبلي أيضاً من هذه البئر. ولقد استغرقت سقاية ستة عشر جملاً أربع ساعات من العمل الشاق.

ولكن البئر كانت شحيحة الماء، على كل حال، وبوجود أربع مجموعات تقوم بالسقاية لم يكن من الممكن أن أنال لجمالي سوى الدلو الخامس من كل خمسة دلاء تخرج من البئر. ففي أسفل البئر كان ثمة رجلان يتوليان إخراج الماء من البئر الذي يبلغ عمقها اثني عشر قدماً، حيث يخرجون منها الماء بأوعية مسطحة تقريباً ويصبون الماء في الدلو حتى يمتلئ فيسحبه الرجلان عند فوهة البئر ويصبان ما فيه للإبل وهما يغنّيان أهازيج قصيرة للمحافظة على روحها المعنوية:

يا عذابي مِن عَـشَا　　　　قَضْبِ ذيـل الرّشـا

لا غَبـوق ولا عَشَـا

رُمّــانتين بعُــودَه   بيض الحَمام نهودَه

* * *

حَلَمتْ وَانـا نـايِمْ   بمعشرق الوشـايِم

يا ليت حلمي دايـم

كانت ناحية الآبار حافلة بشجيرات العليق المثقلة بالثمار التي كانت إما ما تزال خضراء وإما حمراء ناضجة ومذاقها على شيء من الملوحة. وتوت العليق يقبل عليه الكبار والصغار فيعملون فيه قطفاً ويتناولونه.

وحوالي المساء ربط الأمير أمام خيمتي خروفاً يكاد لا يبلغ من العمر عاماً، صوفه طويل، منفوش، أسود لكن لون رأسه أبيض. وكان هذا هدية له من تاجر أغنام. فلما سألته عما جعله لا يذبح الخروف في خيمته. أجاب:

«بصحبتك أستطيع، يا أخي، أكل قدر ما يطيب لي مرتين، على الأقل، في اليوم. أما في بيتي فربما لا أتمكن حتى من أن أذوق طعم اللحم».

وفي يوم السبت غادرنا موقع خيامنا عند آبار شغار واتجهنا مسرعين نحو الشمال غرب. وفي المساء علمت من جْواد الكاتب أن سعوداً أصغر أبناء الأمير، وكان يعيش وأمه في خيمة تخصه، ظل يفتقد طوال أربعة أيام الشعير ودقيق القمح. فمضيت أبحث بين المؤن لدي فاحتفظت بما يكفيني وجماعتي مدة عشرة أيام أو عشرين وأرسلت البقية من دقيق وبرغل إلى سعود وأمه. فلما علم الأمير بالأمر قال لي: «يستطيع العرب بل يجب عليهم أن يُعانوا العوَزَ، وأما أنت، يا أخي فيجب أن يكون لديك ما يكفيك ورجالك من الطعام».

وكان قد بلغ الأمير أن ثمة جماعة كبيرة من المحاربين في الجوار، فأرسل عبيده ليحثوا المتلكئين من أهله على العجلة لئلا يتمكن المغيرون من قطع الطريق أمامهم وتطويقهم.

وفي عصر ذلك اليوم نزلنا في منطقة آبار نباج التي كنا قد نصبنا خيامنا فيها ذات مرة. حيث وقفت أمام خيمة الشيخ فهد. فدخل الأمير الخيمة فوراً وتبعته أنا، بعد أن سقيت ناقتي. فرحّب بـي الأمير حين دخلت، بقوله:

«طال عمر راعي هذه الناقة».

وأجبته بدوري: « الله يحفظ عيالك».

ونهض الأمير وتبعه كل الحضور، سوى الشيخ خالد، ابن الأمير سطّام الراحل، الذي لم يكن بوسعه سوى النهوض قليلاً. وأشار فهد إلى مكان قبالة الأمير، فطلب إلي الأمير الجلوس إلى جانبه وكان خالد يشغل هذا المكان، ويتكئ إلى نفس الشداد الذي يتكئ إليه الأمير. فامتثلت لرغبة الأمير، ولم يكن لخالد سوى أن يمتثل ويفسح لي مكاناً. وبعد أن انتهيت من تحية الجميع سألت خالداً متى كان وصوله. ولقد قدم لي فهد الشاي والتمر. ولم أدْعُ إلى مشاركتي سوى الأمير. وبعد وصول إبلي مع المتاع غادرت الخيمة للمساعدة في إنزال أثقالها.

عبر سبخات الملح

في صباح يوم الإثنين، 31 مايو لم يكن هناك من يدري إن كنا سنمكث في ذلك المكان أم سنغادره. وكان الأمير نائماً في ذلك الحين فلم يجرؤ أحد على إيقاظه.

ثم ظهر أخيراً وأوعز إلينا بالاستعداد للمسير. فتوجهنا نحو الشمال غرب عبر سبخة نودان، التي تمتد أميالاً ومغطاة بطبقة بيضاء من الملح تتلألأ في مواضع عديدة كأنها جليد ناعم. وكنا نتفادى السير في هكذا أماكن خشية أن تتزلق إبلنا.

تعيَّن علينا أن ندور قبل الظهيرة حول مساحة واسعة من الملح الأبيض اللامع. وفي الغرب والشمال شاهدنا العديد من أشكال السّراب الأخاذ. وكنت أرافق الأمير في المسير جنباً إلى جنب على رأس العشيرة، وكنا نغني على الدرب أشعاراً مختلفة وكان الأمير يستملح منها التالي:

يـا راكـبٍ هُمَيْلَـغْ　　راعِيْـه ما يُـومِيْ عَـصَاه
يـا مِنْ ذَكَر ضَـوَيْحِبِيْ　　يـا دَايْـرِه يـا مِـنْ لَقَـاه
اِزْعِـهْ مَـع ذُوَيْـدِ عَزِيْـبْ　　و مْزَرْفِـلِ يَـمَّ الفِـلاَه
ولا لَقيْـتْ إلاَّ الخَــلاَ　　والـذِّيْبْ جَلاَّنـي عَـوَاه

وفي العصر طلب إلي الأمير أن أسير بالعشيرة، فيما مضى هو مسرعاً يتقدّمنا بحثاً عن موقع لائق بالعشيرة لتقيم مضاربها عليه. وهكذا تقدمنا وصارت الطليعة أو القوة المسلحة المرافقة للقبيلة تسير خلفي الآن. فلما عاد الأمير نزلنا عن ظهور رواحلنا. وكان القيظ شديد الوطأة. ولذلك نصب الأمير مظلة تحت شجيرة ودعاني للجلوس لأفيء إليها وإياه. وشرعت عندئذ بنقل حقيبتي وشدادي لأقيهما من مئات وآلاف الجمال التي كانت تمر بنا. وكنت قد هممت بحمل الحقيبة فإذا بأفعى تبلغ حولي أربعاً وعشرين بوصة، وهي بمقدار الإصبع ثخانة، ومرقطة، تنفر من تحت الحقيبة. فاندفع جُواد وقتلها.

وفي يوم الثلاثاء عدنا فانطلقنا في مسيرتنا من جديد. وكان أول البادئين بالحركة الجمل حامل المركب (أبو الدّهور). ثم استقر الأمير فوق الشداد، فاقتدينا به. ولقد استمر جمل أبـي الدّهور يحيط به الرقيق والإماء، على مكانه في مقدمة بعير النقل، بينما كان الأمير وأنا معه في مقدمة الركب. فلما غاب أبو الدّهور عن النظر توقفنا وانتظرنا ظهوره من جديد.

كان المرور بهذه السبخة المنخفضة يقتضي منا حذراً وحرصاً في المسير. ولقد تجاوزنا في مسيرتنا ذراع الحضوضاء وهي سبخة ملح وفي وسطها تماماً تنتصب تلة سوداء. ويقول البدو إن في هذا التل كهفاً مليئاً بالذهب، لكن يستحيل الوصول إليه. إذ لا يستطيع أحد الخوض في هذه السبخة ومن يخوض فيها على بعير يختفي وراحلته قبل أن يقطع عشر خطوات. والحضوضاء تفغر فاها لتبتلع في لحظة الناقة المجاهدة وراكبها الذي يصرخ طالباً العون لكن دونها مجيب.

فأصدقاؤه لا يملكون إلا النظر، مع أنهم ربما كانوا على بعد خطوات منه على أرض صلبة، يراقبون هذا الصراع المرير ولا يتمكنون من تقديم المساعدة... ولقد لاح لي وكأنما ثمة ستاراً كئيباً يغلف هذه السبخة المالحة والحرارة العالية التي تحيط بها.

في المحاكمة

أفاد الرُّسُل النّوري بوقوع اشتباك بين ابن سُمير والشركس. فقرر الأمير الإسراع بالمسير.

وقال النّوري موضحاً: «بلغني، يا موسى، أن طراداً، والذي يدعى عارفة، ويزعم أنه ابن أخي فهد، قد حرَّض الشركس وأثارهم علينا، ذلك أنه أقسم على الانتقام مني. وهو اليوم ثائر على صديقه المرحوم رشيد بن سُمير لحلفه لي».

«ولماذا تدعوه عارفة؟».

«هذه قصة طويلة، يا موسى. فهيا اطلب من ناصر أن يقدم لنا فنجاناً من القهوة، ولسوف أروي لك القصة:

«كان طراد في الواقع ابن خلف من مطلقة أخي فهد. ولكنه ادَّعى أنه ابن فهد وطالب بالزواج من ابنتي. فجيء بها إلى خيمة العرس، ولكنها تمكنت من خداعه وهربت منه مع أخيها نوّاف ولقد أقسم خلف عندئذ بأنه والد طراد، وتمَّت إحالة القضية إلى المحكمة. فأخذ القاضي ملعقة طويلة من الحديد تستخدم في تحميص حبوب البن (مِحماس) ودفع بها إلى النار، وحين أصبحت حمراء من شدة الحرارة سأل الشهود معاينة لسان خلف. وفيما كان الشهود يفحصون اللسان رفع القاضي الملعقة إلى فم خلف فلعق القسم الحامي ثم غسل فمه بالماء وأظهر لسانه من جديد للشهود. ولما وجد هؤلاء أن اللسان بقي دون حرق أعلنوا أن ذلك إثبات على صحّة قَسَم خَلَف.

وتلقى القاضي من خلف خمسين مجيدياً (تعادل 45 دولاراً أمريكياً) أجراً لنظره في هذه الدعوى. وتم الاعتراف بطراد ولداً له وظلت ابنتي على عزوبتها لأن طراد بن خلف لم يعد له حق الادعاء بالقرابة وبالتالي لم يعد يملك الادعاء بحقه عليها. وبات طراد يعرف منذ ذلك الحين، بعارفة، والعارفة هو اللقب الذي يعرف به القاضي لدينا»[1].

ثم عبرنا ذراعاً آخر للحضوضاء باتجاه الجنوب شرق. وكان علينا أن نلاطف الجمال، وهي تعبر الممرات الضيقة، لتمضي في طريقها. وكانت سبخات الملح تحيط بنا على الجانبين، يميناً ويساراً. وخيل لي عندئذ بأنني كنت أسير على بحيرة متجمدة. وقد تحطمَّت يومئذ قوائم عدد من جمال التحميل واضطررنا لتركها في الوحل بجانب الممرات فقام الرجال والنساء بنقل المتاع إلى أرض أكثر جفافاً حيث أضافوها إلى أحمال الجمال الأخرى.

ولما بلغنا أرضاً صلبة مضيت أبحث متلهفاً عن جمالي التي تحمل أمتعتي لأتحقق من أنها لم تسقط على الدرب. فوجدتها في النهاية ومضيت إلى تعدادها ولم أجد فيها أي نقص.

* * *

(1) ثمة رجال عارفون بالقضاء البدوي يعيّنهم شيوخ العشائر بمثابة عوارف (مفردها عارفة)، فيصيرون قضاة محكّمين، يقضون بحسب أعراف البدو السّائدة وما اكتسبوه من خبرات القضايا والوقائع السّابقة المماثلة. ومن أشهر عوارف البدو في مطلع القرن العشرين بحسب كتاب الكومندان الفرنسي ڤيكتور مولر Victor Müller: ابن سعدي من شمَّر، وابن الطيّار من الوُلد علي، وابن سويط من الظفير، وأكبر العوارف شأناً كان الأمير مجحم بن مهيد شيخ فرع الولد من الفدعان. للاستزادة انظر:
Commandant Victor Müller: *En Syrie avec les Bédouins*, Paris, 1931.



الشكل 29: قُصير عَمرة من الجهة الجنوبية الغربية



الشكل 30: قُصير عَمرة

صدّ العدو

عدنا فاستأنفنا مسيرتنا باتجاه الشمال غرب، وبعيد الظهر مباشرة قمنا بنصب خيامنا من جديد. وبعيد ذلك رأيت الأمير ينزل ضرباً بزوجته الصغيرة بالعصا، وهي مستلقية على الأرض تردُّ العصا عنها بيديها، دون أن تصدر أي صوت، مع أنها كانت تنال من الضرب أشده. وفيما بعد سألني الأمير حين جاء لزيارتي إن كان رجال قبيلتي يضربون زوجاتهم. وأخذ يشكو حينذاك من كسل زوجته وإهمالها وتركها الأمور بيد العبيد والإماء الذين يعملون نهباً في مؤنهم حتى لم يبقَ لهم من ذلك شيء. فلو رغب في كأس من رائب اللبن لكان عليه أن يطلبه من خيمة الغريب، مع أن لديه مئتي ناقة. وأذكر أنه قبل مغادرتنا قارا تلقى حملين من التمر (750 رطلاً إنكليزياً تقريباً) من سكاكا ولكن لم يبق لديه من هذين الحملين حين حططنا الرحال عند آبار شغار شيء، مع أنه لم يذق منهما حبة تمر واحدة.

وفيما كنا جالسين نتبادل أطراف الحديث صدح النذير. فهبَّ الأمير واقفاً على قدميه ثم اندفع مسرعاً إلى خيمته، وهناك رمى على كتفيه بشكل متصالب نطاقين يحملان مئة وعشرين طلقة نارية من نوع مانليخَر والتقط بارودة وهو حاف ولا شيء يرتديه سوى قميص، ثم رمى بنفسه على سرج فرسه البيضاء الخفيفة، وهو ينادي:

يـا خـايفين مـن المنايـا	من جاه ملك الموت مات
المـوت مـا فَـكّ الـسّبايا	ياخـذ غَنَـادير البنـات

ولما أزفت الساعة الواحدة أسرع الفرسان للحاق به، وليس عليهم عباءة أو مناديل على جدائل شعرهم المتطايرة في الهواء. وسمعت أربع فتيان يسرعون وهم يمرون بخيمتي يغنون أهزوجة:

لعيـون مـن فـج الـذّر	عطـشان ويبغـي شـوفنا
عاداتنـا فـكّ الوسـيق	جيـب القلايـع حُوفنـا

وبعد نحو من عشرين دقيقة بلغتنا أخبار تفيد بإطلاق نار، متقطع في بادئ الأمر ثم غزير. وبعدئذ تجددت صيحات النّذير وصارت كافة الأطراف تطلق عقيرتها بالغناء تحث المتردد:

اشرفـوا مزعاقـه   وانعبـوا طيرهـا

ديـرة حيّـي ولا   اريـد انـا غيرهـا

وتم تجهيز حتى المهور التي ما زالت ترضع فلما تبيَّن أنها لا تكفي جمعت الجمال، وهذه إشارة إلى كثرة العدو. ولِنكْفَلَ سلامة مخيمنا من هجوم مفاجئ عمدنا إلى احتلال التل المستطيل التالي ومضينا نستطلع ناحية شمال شرق آبار قْدَيِّر، لكننا لم نتمكن من اكتشاف أي أمر، ولا سمعنا بعد ذلك أية طلقات. وعاد المحاربون قرابة منتصف الليل.

وكان الأمير قد رأى أن عصبته الصغيرة المؤلفة من ستة وثلاثين فارساً تكفي لمهاجمة عدوٍّ مسلح بخمس وستين بندقية ومحمول على الهجن. وكان الأعداء قد رصدوا الأمير وفرسانه، فنزلوا عن جمالهم وقسروها على أن تبرك في تجويف مأمون بينها اتخذوا مواقعهم بين الدغلات التي تجلِّل تلاً صغيراً في تلك المنطقة. أما الأمير فقد أمر رجاله بالنزول عن جيادهم وربطها لأنه لا يريد المجازفة بخيوله ورجاله في مكان مكشوف، وأشار عندئذ بفتح النار. وكان هدفه تلك الفجوة حيث جمال العدو تختبئ.

حدَّثني في هذا قائلاً: «لم أتمكن من رؤية الجمال، بيد أنني تذكرت اتجاهها، فقمت بتعديل وضع بندقيتي لأرى إن كان بإمكانها التصويب وإصابة الهدف من بعيد كما زعمت. فأطلقت ثلاث طلقات أو أربع طلقات أخرى، ثم رأيت الجمال تنفر مذعورة وهي تجري. كنت قد أحسنت التصويب والطلقات أصابت أهدافها. ولما لم يكن الأعداء يتوقعون الهجوم على جمالهم وليسوا مستعدين له، فحين سمعوا نذير الحراس ورأوا الجمال تنفر منفلتة، غادروا مواقعهم على عجل وراحوا يتبعون الجمال الشاردة ليمسكوا بها، ثم ولّوا الأدبار هاربين.

«لقد تابعناهم ولكن قوائم جيادنا كانت لا تنقطع تغرز في السبخة فتمكنوا من الهرب. وأنا من جهتي لم أُجِزْ للهجانة بعد حضورهم للمساعدة أن يتابعوا الفارين. وكان الليل قد حلّ وإذا أرادوا المتابعة فعليهم الالتفاف حول ذراع سبخة الحضوضاء، وكيف لهم أن يجدوا العدو وآثاره قد اختلطت بآثار جمالنا؟ وفي عودتنا وجدنا جملين نافقين للعدو، والكثير من آثار الدم الذي يشهد على الجراح التي أنزلت بالمقاتلين أو الجمال. ولا ريب بأن العدو قد ذاق طعم الدم المسفوك. ومن المؤكد أنه لن يعيقنا بعد الآن».

جعلتنا ملوحة مذاق النبات نشعر بالعطش. وشاهدنا خسوفاً جزئياً للقمر حوالي منتصف الليل. حيث غطى ثلثي سطح القمر ستار يميل إلى الاحمرار ولم يبق منه ساطعاً سوى الطرف الأيمن أو الغربي. وكان هذا مدعاة لشعور البدو، رجالاً ونساء، بالقلق فراحوا يصرخون ويضربون على الأواني النّحاسية، بل ويطلقون العيارات النارية لإبعاد الوحش، الذي يسمونه الحوت، وتحرير القمر. وجاءني الأمير عندئذ يسألني عما تشير إليه هذه الظاهرة...

جاء رجلان أحدهما رويلي والآخر شراري إلى الأمير ليساعدهما في حل قضية يختصمان فيها، وجوهرها أنهما كانا قد تبادلا قبل أيام ناقتين في ما بينهما. حيث أعطى الرويلي الشراري ناقته وزاده قميصاً ومنديلين، ونال مقابل ذلك ناقة كان الشراري يركبها حتى ذلك الحين. وفي يوم الأربعاء خرج الرويلي بهذه الناقة يطارد العدو. وفي يوم الخميس بدت البهيمة عاجزة عن القيام فلما قامت في النهاية كان ظاهراً أنها تعرج لإصابة قائمتها الأمامية اليمنى. فاتهم الرويلي الشراري بأنه كتم عنه أن الراحلة قد تصاب بالعرج بعد طراد سريع فأراد أن يردَّ الناقة إلى صاحبها القديم. وكان من الطريف الإصغاء لكل من الرجلين يعرض قضيته وسماع اللهجتين على ما فيهما من اختلاف. ولقد جلس الأمير يصغي إليهما، وهو صامت، فلما فرغا من عرض الخلاف قال مخاطباً الشراري:

«آتني بشهود على أن ناقتك لم تُعانِ العرج من قبل».

ثم التفت إلى الرويلي قائلاً: «آتني بشهود يشهدون بأن ناقتك لم تُعانِ العرج بسبب رعونتك في قيادتها في النجاد والسبخة».

وللتوّ أبرز الشراري شهوده، أما الرويلي فقد عجز عن تقديم أي شاهد.

فسأل الأمير: «وما قولك، يا شيخ موسى، في دعوى هذين الإثنين؟».

«إنّـي لن أقول فيهما قولاً، وقد قالا حكمهما في الأمر». قال الأمير وهو يقفز عن ظهر ناقته الباركة: «والله، هذا حق!» ثم ترك الأمر دون أن يوجّه كلمة للمتخاصمين.

القاطنون في وادي السّرحان

أخبرنـي الأمير مع اقتراب المساء بأنه عازم على توجيه العبد حمار إلى حوران ليأتـيه بالأخبار الموثوقة عن الوضع السياسي في دمشق ونواحيها. فقد سمع من رجل من أهالي إثرة أن الحكومة طردت الرّوَلة جميعهم من الجولان فأقاموا مضاربهم في شمال غرب الأزرق الآن. كذلك أفادت الأنباء بأن ثلاثاً وعشرين سفينة حربية إنكليزية قد رست قبالة بيروت، ومن اسطنبول توجَّه واحد وأربعون فوجاً من الجيش إلى سوريا. وفي دمشق اعتقل واحد وتسعون شخصية بارزة، ولجأ كثيرون سواهم إلى الدّروز طلباً للأمان عندهم من الحكومة.

وهذه الأنباء حملها إلى بلدة إثرة أهالي حوران الذين قدموا إلى تلك الناحية طلباً للملح. وعليه قرَّر الأمير التقدم إنما ببطء وانتظار عودة حمار. وكان حمار قد شارف على الثمانين، إلا أنه على قدر كبير من الحكمة وسرعة البديهة ما جعل الأمير يعتمد عليه في أي أمر. لكن لم يكن ثمة وسيلة لمعرفة متى يعود ونحن لا ندري حتى إن كان سيفلح في بلوغ محطة درعا. وكانت الرّوَلة يومئذ في حرب مع أهالي الجبل الدّروز وعشيرة السّرحان. وكان هؤلاء ينصبون خيامهم بالقرب من الطريق المؤدي إلى درعا، ولذلك من المحتمل أن يتمكنوا من الإمساك به.

وكان من المقدّر أن يترك ناقته في درعا، بعهدة شخص من أهل المنطقة وموثوق به من الأمير ومتابعة الطريق إلى دمشق بالقطار، ليُسلّم الرسائل ويعود بالجواب بالقطار إلى درعا، ثم على ظهر الناقة إلينا. وكان من غير المتوقع، بالتالي، عودته إلا بعد رحلة تمتدّ تسعة أيام أو عشرة.

وفي يوم الإثنين، 7 يونيو، صرنا على مسافة من الواحات المأهولة. وجدير بالذكر أن وادي السّرحان يمتد بعيداً في التلال الشرقية. وتتجمع فيه مياه الأمطار في الغدران، والوادي مناسب جداً للاستقرار الدائم، بفضل حمايته من ثلاثة جوانب من غارات البدو. ويمكن للمرء أن يتبيَّن من الجنوب إلى الشمال بساتين النّخيل والحصون الخشبية في ثماني واحات، وفي المقدمة إثرة وكاف. وتدعى هذه القرى جميعها قريات الملح بسبب موقعها بين سبخات واسعة ولأن سكانها يعملون بجمع الملح وتجارته.

ولم يكن الظهر قد حان حين بدت أمامنا الغطي، وهي قرية صغيرة تتألف من حصنين تحيط بهما بساتين نخيل واسعة. ثم لحق بنا بعيد ذلك سكان كاف. ومع أن الأمير استدعاهم إليه، إلا أنه بالكاد ألقى إليهم نظرة. وكان ردّه على تحياتهم جافّاً مقتضباً وتابع الطريق راكباً وهو صامت.

نصبنا خيامنا يومذاك بالقرب من غدران المياه الكبيرة في حصيدة أم غروبة ومضينا للاستحمام الأمير وأنا أولاً، فجماعات الرجال والأطفال، فالنساء والفتيات حوالي المساء (الأشكال 24، 25، 26).

أمضينا يوم الثلاثاء في موقعنا بينما التفت الأمير للنظر في الدعاوى التي تعرض أمامه فيما انصرف العربان لشراء الملح والمؤن.

* * *

تضم منطقة كاف ستين موقعاً تمثل ثلاثة أقضية. وكان وكيل الأمير هناك عواد بن حمار يقدم للأمير خمسمئة مجيدي ضرائب سنوية، ولا يتقاضى منه راتباً.

وسكان المنطقة يبيعون سوريا خمسة أو ستة آلاف حمل جمل من الملح سنوياً. وثمن الحمل من الملح (288 مكيالاً 72 = غالون) مجيدي واحد (90 سنت) نصيب وكيل الأمير منه النصف وهو الذي يتولى أيضاً جمع، أو بالأحرى فرض ضرائب لحماية الحيوانات والأحمال.

انشغلتُ في ذلك اليوم كله باستكمال تقريري حول الطبوغرافيا[1]، وما صرفني عن ذلك سوى إحضار جْواد عددين من إحدى الصحف العربية فكانتا كل ما طالعتُه من صحف طوال عشرة شهور. وقد علمت مما قرأت أن الأتراك بات لهم سلطان جديد في اسطنبول. وحوالي المساء راح الأمير يحادثني في قضايا سياسية أبدى في تناولها اهتماماً كبيراً. وكانت الحكومة التركيّة قد عقدت العزم على إلزام البدو جميعاً بتسليم أسلحتهم. وبناء على ذلك أعلم والي بغداد كافة شيوخ العمارات والدّهامشة بضرورة تسليم جميع ما لديهم من البنادق والمسدسات خلال شهر فكان ردهم:

«إن النّوري بن شعلان هو ملك شمال جزيرة العرب، فإذا سلَّم أسلحته اقتدينا به. فإن لم يسلِّم أسلحته امتنعنا نحن أيضاً عن ذلك، وإلا عامَلَنَا معاملة النساء».

وقد أحال الوالي هذا الرّد إلى اسطنبول. فالأمير لم يكن يثق إذن بالحكومة التركيّة، إذ انقطع عن التعامل وإياها منذ أن صار أميراً، وكان يخشى أن تخدعه الحكومة فتعمد إلى تطويقه بجيشها. وقد قال لي حين غادرنـي:

«والآن، يا أخي، كيف أقدر على فراقك؟ فلقد صرنا جميعاً نألفك! وإنّـي لأكنُّ لك الحب ويشهد الله أنّـي أقول الحق - والآن عليك أن تغادرنا».

* * *

---

(1) هذا الكتاب الذي بين يديك اختصرته كاثرين مكفيڤرت رايت عن كتاب موزيل الموسّع: *Arabia Deserta* الذي يضمّ تفاصيل طبوغرافيّة موسعة عن رحلته من ديرة التّلول شرقي دمشق إلى واحة الجوف شمالي الجزيرة، وستكون لنا عودة مع النصّ الكامل.

إلى قُصير عَمرة

وقبل حلول الظهر قمت برفقة عودة بزيارة آثار الحديثة. وقد ناداني الأمير وأنا أغادر وطلب أن أبدي اليقظة حيال العدو وأسرع بالعودة. وحين بلغنا تلك الأطلال الواسعة. وجدنا حديقة كبيرة يحيط بها سور منخفض متداع، وعدة أبنية صغيرة وقناة تحمل الماء من البركة في الأزرق. والمنطقة الريفية هناك قابلة للزراعة بيسر.

كان القيظ شديداً وكنا قد قصَّرنا عن أن نحمل معنا كمية من الماء. كذلك كان عودة يخشى الأشباح فدأب يرجوني إنهاء عملي في الخرائب والإسراع إلى مخيمنا.

وفي تلك الليلة انتابنا القلق على تومان الذي غادر الخيمة عند الغروب، ومضت على غيابه ساعتان منذ ذلك الحين، وأصبحنا نخشى أن يكون قد تعرَّض لاعتداء قُطَّاع الطرق. وعليه بعث الأمير بالرجال للبحث عنه. فعثر عليه في النهاية وهو على بعد قرابة المئتي خطوة. من الخيمة، وغارق في نوم عميق في حفرة صغيرة. وكان الرجل يرتعد من البرد حين جيء به إلى الخيمة وذلك بسبب إصابته بالملاريا التي تفاقمت على مدى عدة أيام وباتت الآن شديدة.

دخلنا يوم الأحد وادي غَدَف حيث قلعة طوبة الغَدَف أو الطوبة كما يسميها بنو صخر، حيث أقام الخليفة الوليد (724-743م). وعلى مسافة من القلعة، كانت تنتصب أطلال الخرانة متلألئة في أشعة الشمس كقلعة خيالية. وفجأة تلاشت الرؤى في الغيوم. فالرّوح التي تسكنها ما كانت لتحتمل تحديق بني آدم.

وهناك بناء عجيب آخر يرتفع من العتبة الشرقية للمنحدر تلكم هي قُصير عَمرة التي يسكنها الغول، كما يقولون. ويا للكآبة التي تبدو عليها! (الشكلان 29، 30). والقلعة التي تحيط بها المنحدرات الرّمادية المقفرة، والغارقة حتى نصفها في الضباب، تقف ما تزال على حالها من الكآبة التي كانت عليها يوم تركتها السماء. فلا عجب، إذن أن نسب العرب هكذا مكاناً إلى الغول، ولا أحد سواه.

ولقد قرَّر الأمير يومئذ أن نسير إلى وادي الحرث، والأزرق إلى يميننا. ولما بلغني القرار عزمت على التوجه فوراً إلى الأزرق (الشكل 28). ولما شرعت في التحرك أخيراً، برفقة عودة الكويكبي كان ذلك بعد منتصف الليل.

تقع أطلال قلعة الأزرق العتيدة عند حافة جبل بركانـي ومستنقع واسع. وكان وصولنا إليها بُعيد الفجر. ولما لم نكن على ثقة من خلو الأطلال من قُطَّاع طرق يتربصون بنا فقد قمنا بتلقيم بنادقنا ومضينا مسرعين إلى الأمام ولكننا لم نسمع طلقة تحية ولا صادفنا آثار أقدام حديثة العهد. ولماً شعرنا بالطمأنينة تركنا جمالنا تبرك على الأرض وتستريح. فبقي عودة مع الجمال وأخذ يستطلع المنطقة شمالاً وجنوباً. فمن ناحية الشمال كان هناك احتمال أن يباغتنا أهالي الجبل، كما يمكن لمجموعة من المغيرين مهاجمتنا من الجنوب. ولذلك راح عودة يستحثني على الإسراع بعملي والمغادرة. وبعده بوقت قصير، وحين وجدت صبره يزداد نفاداً امتطيت ناقتي ومضينا مولين شطر بركة الجياشي. وكانت المنطقة تحفل بالطيور حتى أنني تمكنت من اصطياد اثنين وعشرين طيراً بخمس طلقات. وقد أقمنا عند عودتنا وليمة حافلة من هذه الطيور في خيمتي.

وبعيد الظهر توجهنا ناحية مخيمنا. وكان الحر شديداً علينا. وبدا وكأنما الأرض تلتهب تحت قدمي. بل ولقد كان يصعب علي التنفس، حتى وكأن استنشاق الهواء يلهب فمي وحلقي.

ارتقيتُ تلّة بركانيّة لأتأكد من اتجاه الأزرق وقُصير عَمرة الذي يعود إلى القرن الثامن ومع أن القصر لم يكن بعيداً فقد عانيتُ في الذهاب إليه مشقة كبيرة، بين حجارة بركانيّة حادّة وأرض منزلقة تحت قدمي، وأنا أحمل على ظهري طاولة الرسم التي يستخدمها مسَّاحو الأراضي وقوائمها الثلاثة في يدي.

قرب المساء بركت ناقتي أمام قُصير عَمرة وبعد ثمانية أعوام عدت أدخل الغرف المألوفة. وكنت أتوق إلى نسخ النقش الرئيس، وأنا أخشى أن نضطر لمتابعة المسير، ولكن عودة قد لا يطيق الانتظار.

كنا لا ندري عندئذ أين نزل الأمير، إلا أننا كنا ندرك أنه ليس في المنطقة وراءنا أحد من الرّوَلة، وفي ذلك ما يزيد من احتمال تعرُّضنا للهجوم من قُطَّاع الطريق. ولكننا عثرنا على مضارب الأمير في غضون ساعة من الزمن.

مكثنا في مكاننا ولم نغادره في اليوم التالي لأن الأمير كان ما يزال ينتظر عودة حمار وعلى ذلك عدت إلى قُصير عَمرة، ومعي تومان وناصر اللذان كانت عزائمهما خائرة. كان المكان حول القصر قد تغيَّر كثيراً منذ رأيته أول مرة، فكان لقلّة الأمطار أبعد الأثر على البيئة من حوله فغدا اليوم أشبه بالصّحراء القاحلة. ولم يبق من النبات سوى أقدم أشجار البطم في جنوب القُصير. ولا ريب بأن مئات أو ربما آلاف الأباعر قد وردت مؤخراً وشربت من ذلك الحوض الاصطناعي وتركت أقذارها فيه. فقد بلغ ارتفاع بَعر الجمال عدة بوصات عند الأطراف، بل وفي الماء كذلك، بحيث غدا الآن ذا لون بني غامق وله رائحة عفونة كريهة. ومع ذلك فقد ملأ ناصر دلونا المصنوع من الخيش واستخدم الماء في صنع القهوة لنا، وقد شربنا من تلك القهوة بل وشربنا من ذلك الماء عينه بعد غليه. والواقع أنـي ظللت أشم تلك الرائحة الكريهة على يدي طوال ثلاثة أيام بعد ذلك.

كانت يعتري الرسوم الجدارية لقُصير عمرة تلف كبير[1]. فقمنا عام 1901 بنزع القشرة وتنظيف الرّسوم وغسلها وإزالة ما لحق بها من لطخ بمختلف المواد، ومع أن هذا أعاد للألوان رونقها مؤقتاً فإنّ أجزاءها تهاوت واختفت الرسوم. وبدا أن اللوحة قبالة تلك التي نزعناها عن الجدار اختفت. وحين عزمنا على حمل هذه الجدارية أيضاً معنا قمنا بتغطيتها بقطعة من الخيش قُسمت قطعاً، كذلك حاولنا نزع اللوحة عن حجارة الجدار بطرق الملاط وفصله عما تحته. ولكن حين عجزنا عن فصل الصورة عن قاعدتها قبل أن يحثّنا مرافقونا على الاستعجال وجدنا أنفسنا مكرهين على ترك العمل وقماش الخيش ما يزال يغطي اللوحة.

(1) كتبت رايت: لعلّ قُصير عَمرة البناء الإسلامي الوحيد الباقي بزخارف رسوم جداريّة ترجع إلى القرن الثامن الميلادي. وكان اكتشفه المؤلف في رحلة سابقة له. انظر كتابه عنه:
Kusejr 'Amra, 2 vols., Kaiserliche Akademie der Wissenschaften, Wien, 1907.

أثار منظر السطح المغطى بالخيش عجب الرّعاة البدو الذين أخذوا ينزعون الخيش بنصال خناجرهم ورماحهم، فأتلفوا بذلك اللوحة كلها.

كنت أودّ حينذاك دراسة النقوش العربية واليونانية تحت رسوم الحكام المفردة لولا أن الأجزاء الأهم كانت قد تداعت وسقطت وكان النقش الأهم قد عانى الكثير من الغسيل الذي جرى في عام 1901، ومع ذلك فإنّي رغبتُ في تصوير القطعة. ولكن لم يكن الأمر بالسّهل. فقد كان القوس الذي خُط عليه ذلك النقش يعلو مسافة ثلاثة ياردات عن الأرض في بقعة لا نافذة لها ولماّ كانت الغرفة مظلمة ولا يمكن تصوير النقش في الغرفة المظلمة، لذلك عمدنا إلى جمع الأحجار في كومة يبلغ ارتفاعها حوالي الياردتين وضعت عليها آلة التصوير ثم مضيت ألتقط صور النقش جزءاً جزءاً. ولماً كانت الحروف صغيرة الحجم وبسبب تصوير النقش عن مسافة ياردة ونصف وجدتني مضطراً لحمل آلة التصوير وتركيز العدسة على الوجه الصحيح وليس ذلك بالأمر اليسير على قاعدة من الحجارة المتأرجحة. ولكن هذا الجهد المضني بل والحافل بالخطر، ذهب سدى، إذ لم يكن بين تلك الصور الاثنتي عشرة التي التقطتها صورة واحدة واضحة.

وكان تومان يشكو من ضعف أصابه، ولكنه لم يكن يشعر بالألم، كما هدأت الحمى التي كانت تزعجه، لكنه ما يزال يعانـي من ضعف حيويته ووهن إرادته، ولا يرغب في الاضطجاع والنوم.

وورد لمقابلتي عصر ذلك اليوم أحد عبيد الأمير ونقل إلي طلبه بالعودة فوراً، نظراً لعودة حمار ورغبته باستشارتـي في قضايا ذات أهميّة.

وكان الدّروز ومختلف الناقمين من أهالي دمشق الذين لجؤوا إلى هؤلاء يحثّون النّوري أن يوحّد الصفوف معهم والهجوم على الحاميات الترّكيّة، سوى أنني أشرت على الأمير ألا يتسرَّع في القرار ولا يأخذ في الاعتبار إلا مصلحة قبيلته. وفي هذه الأثناء أرسل إليه والي دمشق رسالة وديّة يطلب منه فيها دخول الشّام مع قبيلته وحفظ القانون في المنطقة حول مضاربه.

دمشق أخيراً

في يوم الأربعاء خرجنا من وادي حرث. ولقد كان موقعي في المسير كالعادة إلى جانب الامير. وبعد ساعة من الزمن انضمَّ إلينا بدوي في الخمسين من العمر تقريباً حيا الأمير الذي سأله بعدئذٍ:

«كيف حالك؟».

«بخير، والحمد لله».

«أين تنصب مضاربك؟».

«في تل الدّم».

«وهل تعرضت لهجوم؟».

«سرقت مني ثمانّية جمال».

«وهل طاردت اللصوص؟».

«نعم، ولدي الذي طاردهم».

«وهل أدركهم؟».

«أجل».

«ومن كانوا؟».

«ليتني أعلم.. إنهم في الأرجح من الحيايا».

«ولماذا لم يتعرف ولدك إليهم؟».

«لا أدري».

«ألم يقل لك؟».

«لا».

«ألم تسأله؟».

«لا ولم يكن بوسعي التحدث إليه».

«وكيف ذلك؟ ألم يعد؟».

«لا».

«إذن فأنت لم تبحث عنه؟».

«بلى. لقد تبعته».

«هل وجدته؟».

«نعم، وجدته».

«ألم تتحدث وإياه؟».

«لا».

«ولماذا؟».

«وجدت جثمانه عند بركة لمياه الأمطار، ورأسه مصاب بالرّصاص. وكانت الكواسر والضباع قد سبقتني إليه، فدفنت ولدي وقفلت راجعا».

«ومتى عدت؟».

«البارحة».

«وأي نوع من المرعى هناك؟».

«فقير فليس في الرُّكبان كلها مرعى. فانصب بيتك هنا».

«وأنت».

«آنـي أتقصَّى أثر قَتَلة ولدي».

* * *

في اليوم التالي نزلنا عند خرائب حمَّام الصَّرّاح[1]، وهو بناء حجري منخفض ذو عدّة حجرات وكان يستخدم حمّاماً. وجدرانه السليمة جميعها تحمل بقايا رسوم، ويتّضح أن الغرف جميعها كانت مزينة بالرسوم في ماضي الأيام، كما هي جدران قُصير عَمرة. والحق أن آثار هذه شبيهة جداً بتلك من حيث تخطيط العمارة.

ولقد غادرت حمَّام الصَّرّاح برفقة عودة الكويكبي، مسرعاً نحو خرائب المعسكر الرّوماني في الحلابات، ومنه أسرعنا إلى النّوري. وبسبب من حال عرض سألَ عودة إن كان ممكناً زرع الحب في قلب غير راض به. فحتى عودة العجوز صار تحت وطأة سحر ربيع جديد!

«إننا نعتقد، يا موسى، أن هناك صلَيبيات كثيرات لهن تأثير، ومنهن من يكون تأثيرها حسناً ومنهن من يكون تأثيرها سيئاً. ويقال أنهن قادرات ليس على إيقاظ الحب وحسب وإنما على خنقه أيضاً وأنهن قادرات على زيادة قوة الباه كما على القضاء عليها ولهن المقدرة على زيادة نمو الأطفال والحدّ منه أيضاً. ولديهن قوة إطالة العمر وتقصيره».

«ألهن صلات بالجن والعفاريت؟».

«لا أحد يعلم، إلا أننا نميل للاعتقاد بذلك».

«وتُعرف المرأة التي تتمتّع بهذه القدرة بالساحرة، وإن كنا لا نواجه إحداهن بهذه التسمية. وإذا ثبت هذا القول على أية صليبية قتلناها بالتأكيد».

* * *

(1) في كتابه الأصلي *Arabia Deserta*، قام موزيل بنشر مسقط ومنظور ومقطع لهذا الحمّام الأثري، انظر الكتاب ص 348-350. والواقع أنّ الرّجل يمثل نموذجاً رفيعاً للرّحالة ذي الاهتمام والخبرة الأثريين، بالإضافة إلى مهمّته ذات الطابع الاستخباراتي والسّياسي. وفوق ذلك كان من أحسن مَن أجاد اللغة العربيّة (بلجتها الشماليّة، وتحديداً الرّويليّة)، كما أبدى حسّاً صادقاً في محبّته لأبناء العروبة والبداوة. مع الأسف لم يحظ هذا الرّحالة الكبير بما يستحق من شهرة لدى قرّاء العربيّة، ولا نالت كتبه السبعة حظها من النشر، لكننا بإذن الله سوف نخصّص له الآن ما يستحقه من اهتمام بين أجزاء سلستنا الحاضرة.

في يوم الجمعة كنا بلغنا السكة الحديدية. ودخل الأمير نوري الشّعلان منطقة الحضر. وما أن نصبت مضارب الأمير في أراضي نصيب حتى توارد إليه كبار القرى المجاورة للتحية ودفع ضريبة الوفاء له ودعوته للعشاء وإياهم. وفي العصر استمر تيار الإبل والحمير والبغال تتقاطر وهي محملة بالهدايا من طحين وشعير ودقيق هدية للأمير وكبار العشيرة الآخرين. وتلك ضريبة يشتري بها سكان المنطقة الحماية والأمن من العربان.

ومكث الأمير جالساً إلى جانبي حتى وقت متأخر من الليل يحدثني عن فراقنا الوشيك لقد غدونا صديقين حقيقيين، ولطالما أعلن صراحة أنّـي أعزّ عنده من ولده البكر نوّاف. وفي يوم السبت، 19 حزيران تركت مضارب الأمير ومعي رفاقي جميعهم والإبل ميممين نحو دمشق، وقد بلغتها عصر الإثنين المصادف 21 يونيو 1909.

* * *



الشكل 31: رفاقنا في الرحلة



الشكل 32: جمال تحمل قِرَب ماء مصنوعة من جلد الجمل وأوتاد الخيام

الجزء الثاني

نوفمبر 1914 - يناير 1915

10- مع الولد علي

على أطراف الصّحراء من جديد

وصلتُ دمشق في منتصف نوفمبر 1914 حيث أتى الأمير النّوري لزيارتـي راجياً التوسط له وتأمين تصريح بالمغادرة مع قبيلته إلى الصّحراء. فوعدت عندئذ بالتوسط له وسألته أن يقدم لي موافقته وجاهه في حلولي مجدداً في الصّحراء.

فقال: «أنت تعلم، يا موسى، آنـي أكنُّ لك من الود ما أكنُّ لأخي. فقد آزرتني بجاهك لدى الحكومة، وأنا أقدم لك جاهي عند البدو، وليعلي الله من نفوذنا عند أبناء آدم جميعهم. فمتى تأتـي إلى دياري؟».

«إن شاء الله في غضون أسبوعين، ولسوف أنصب بيتي بحدّ بيتك!».

«لا أدري يا أخي إن كنت أستطيع الانتظار كلّ هذا الوقت بعد أن تطلقني الحكومة من الضّمير. فعشائري والقبائل التي تتبعني تنزل في الصّحراء وتحتاجني، وعبيدي يتلهّفون لترك وَحل الضّمير إلى الحجر النظيف أو رمال البريّة. سأبذل أقصى الممكن وأنتظر وصولك. وإذا خرجتَ مبكراً فإنك تدركني بعد قليل».

وإذْ توليتُ كفالة النّوري فقد حصلت له على الإذن بالسفر والتوغل في الصّحراء. فابتهج أيما ابتهاج حين زففتُ له النبأ. فغادر دمشق حالما سمع مقالي، وكان يخشى أن تتحوّل الحكومة عن الوعد الذي قطعته لي. فنقل مضاربه مسافة مسيرة يوم إلى جنوب غرب الضّمير وأرسل بأنه ينتظرنـي إن أسرعت. بيد أنني كنت غير قادر على مغادرة دمشق على كل حال بالسرعة التي كنت أودّ، فقد كان علي إنجاز استعداداتـي، كما أن الجو ظلّ ممطراً طوال أيام.

وفي النهاية صرنا على الدرب نسير. وقد رافقنا في هذه الرحلة أوروبي أطلقنا عليه اسم خَلَف وثلاثة من أهل البلد: صديقي المجرَّب القديم ناصر وأخوه المغفّل منصور وحسيناوي. وكنا نمتطي في الرّحلة الإبل كما كانت هذه تحمل لنا المؤن والخيام. وقد تمَّ نقل متاعي في عربة إلى مقام الشيخ رسلان عبر [منطقة] باب توما [في دمشق] حيث جرى تحميلها على ظهور الإبل.

كنا نسير على الطريق المؤدي إلى حمص. ولما كانت الإبل تفزع من كل عربة تمر فقد عمدت إلى ملازمة الأسوار حول البساتين وكثيراً ما كانت أخفافها تنزلق على وحل الأرض، فلم نكن نملك أن نسرع كثيراً على الطريق وكنا نتحرك في مسيرتنا في البساتين بين أشجار الزيتون والناس يقطفون ثمارها، أو بالأحرى، مع الكثير من أغصانها التي يضربونها بالعصي بلا شفقة ولا رحمة.

مررنا عصر ذلك اليوم بطريق فرعية تؤدي من ناحية الشمال إلى دوما، وهي مقر القائمقام. والدور في دوما جميلة يحيط بكل دار بساتين واسعة عند سفح سلسلة جبال القلمون.

وكان الطريق الرئيس الذي سلكناه قد جرى إصلاحه مؤخراً ونصبت على أطرافه علامات تشير إلى المسافات. ولكننا تحولنا عنه بعد الساعة الثانية وتابعنا رحلتنا شرقاً ناحية مزرعة داود النبكي. الذي كان قد اشترى معظم الأراضي الغارقة في المستنقعات، في ناحية عدرا فقام بتجفيف المستنقعات وهيأها لزراعة القطن. وكان شاغلو الأراضي يقومون بفلاحتها يومئذ بمعونة الأدوات الأوروبية الحديثة التي وفَّرها لهم ويتلقون بدورهم نصف صافي الأرباح المتحققة. وإلى الجنوب من القرية كان النبكي قد خصص قسماً من الأراضي لزراعة الأشجار المثمرة التي ازدهرت جيداً. ولقد اتخذ أهالي عدرا النبكي قدوة لهم فصارت حقولهم تدرُّ عليهم أرباحاً وفيرة.

كان من آثار هذه المشاريع أن زالت المستنقعات وامتدت رقعة الأراضي المزروعة جنوباً وصارت تتسع باطِّراد جنوباً وشرقاً.

وكنا حيثما تطلعنا في القرية وحولها نرى الأسوار القديمة، والصخور المنحوتة بفعل المياه وحطام الأعمدة وتيجانها وفي ذلك ما يشهد بأن عدرا كانت في غابر الأيام أوسع رقعة و أشد بهاء مما هي عليه الآن. ويبلغ عدد المساكن في عدرا اليوم حوالي مئة وعشرين كوخاً يجد فيها المرء أكثر مما وجدنا من آثار الأعمدة وتيجانها. وقد جرى ساكنو هذه الأبنية القديمة المهدّمة على عادة تحطيم تلك الأشكال وبيع الأحجار المستخدمة في البناء في دمشق وحواليها.

إلى شمال عدرا ترتفع سلسلة جبال القلمون الصّخرية العارية من الأشجار. وإلى الشرق على مهماز السلسلة جنوباً تقع ناحية الضّمير. حصن أبيض اللون، كان معبداً وثنياً ذات يوم، يهيمن على البلدة. وهناك ممر ضيق جنوب الضّمير يصل حقول دمشق الخصبة بالأراضي اليباب في شبه الجزيرة العربية وهذه أفضل بوابة للبدو الرحل. ويمكن للمرء أن يرى عدة براكين خاملة من هنا.

في الصّباح اتبعنا الطريق الذي يؤدي شرقاً عبر الحقول. ورأينا إلى يميننا ويسارنا برك الماء. وكانت السماء ملبّدة بالغيوم والهواء مشبعاً بالأبخرة الكثيفة التي تحجب الرؤية ولما تجاوزنا إحدى الحفر هناك وجدنا تسعة خنازير برية تنبو فزعة منا. وكانت الزراعة في الأراضي الواطئة تتحسن كلما ازددنا اقتراباً من الضّمير أما الحقول العالية فكانت تحرث أيضاً.

وقبل الظهر أقمنا مخيمنا بالقرب من الثكنات المهدمة التي كانت قد بُنيت بأمر من الوالي مدحت باشا في السبعينات من القرن السابق. وجدير بالذكر أن الحدائق المترامية الأطراف كانت تُرْوَى أيضاً بناء على أمر هذا الوالي. لكن الثكنات باتت الآن مهجورة والحدائق عارية.

قبل عام 1912 نشب قتال بين الحكومة وقُطّاع الطرق، لكن تم في عام 1912 كسب قاسم بن نوير أحد زعماء قطّاع الطرق بالهدايا وعُيّن قائداً للهجّانة في حدود أراضي دمشق الشرقية براتب شهري قدره 250 قرشاً (ما يعادل 11,75 دولاراً). ولكن ما أزعجه أن يجد الدرك في الضّمير ينالون راتباً يفوق ما يناله.

كان قاسم عندئذ غائباً عن مقر عمله، لوجوده في دمشق لعدة أيام. وقد أخبرنـي أخوه غضبان أن الأمير النّوري غادر الضّمير قبل عشرة أيام، متجهاً نحو الجنوب. وكنت أؤثر أن ألحق به في التو ولو كلّفني الأمر مجهوداً سوى أنني كنت أحتاج حامياً يحظى باحترام عشائر أهالي الجبل كافة.

وفيما كنت أبحث عن هكذا رجل ورد رقيب من الدرك من الضّمير مع مسؤول من الحكومة التركيّة وعدد من الجيران، وعرض علي خمسة أفراد من الدرك لمرافقتي على الدواب حتى الجسم الرئيس لمضارب الغياث في وادي الشام. وكان الرجلان يعتقدان بأن بوسعي اللحاق بالأمير النّوري تحت رعاية الغياث. ولكني أعرضت عن هذا العرض وأنا اعلم جيداً أن الدرك سَيَدعُونني مع الغياث وأن هؤلاء سوف ينقضُّون علي كما ينقضُّون على فريسة أرسلها الله إليهم. وكانت مرافقة الدرك ونزولي بوادي الشام ستسترعيان انتباه عصابات قطاع الطرق جميعهم وأن معجزة وحسب يمكن أن تنقذنـي بالهروب من منطقة البراكين. ولقد عمل الرقيب على دحض اعتراضاتـي وراح يتوسل بالمسؤول ليشهد والجيران من الضّمير بأن الغياث سوف يلبُّون لي كل رغبة وأكد لي بأن الدرك لن يَدَعوا خيام الغياث حتى يعودوا بكتاب مني يفيد بوصولي إلى النّوري بأمان.

وأخيراً قبلت الركوب مع الدرك، لاختبار عرض الرّقيب، وأعطيته نقوداً لشراء العليق للأحصنة وطعاماً للرجال. وكان على أحد الغياث أن يصطحبنا ويحمل على بعيره العليق والمؤن. فغادر الرقيب ليتولى تدبير اللازم ولكنه عاد بعد ساعة من الزمن ليخبرنا بأن الدرك قد رفضوا الانصياع ولا يوجد بينهم من يقبل الذهاب إلى الغياث. ونصحني عندئذ بالانتظار حتى يبلغ دوما أو دمشق ويعود بأوامر جديدة ويفرض الطاعة على الدرك. ولكن هذه اللعبة التي يتوسل بها درك الحدود كانت مألوفة لدي. فشكرت للرقيب عرض الحماية وأعلنتُ بأنّـي سوف أحمي نفسي. فعاد الدركي مرة أخرى في منتصف الليل حاملاً عرضاً آخر، أو أمراً كما أسماه، ولكني لم أقبل حتى مجرد سماعه وطلبت منه العودة فوراً لأن الأمطار على وشك الهطل.

قرّرتُ بعد إعادة النظر في الوضع المضي شرقاً إلى عشيرة الولد علي وهي من عشائر عنزة، وكان أبناؤها يقيمون مضاربهم مع الشيخ سلطان والشيخ سعود، ومن ثم التوجه إلى حيث الأمير النّوري. وكان من المقرر أن يرافقني غضبان بن نوير واثنان من عشيرته. وقد بلغ عدد جماعتنا مع هؤلاء ثمانية من الرجال المسلحين جيداً والقادرين على التصدي حتى لعشرين من قاطعي الطرق، وأسلحة هؤلاء وذخيرتهم تكون عادة سيئة.

استمرت الأمطار في الهطل، وعند منتصف الليل غدت السماء خالية من الغيوم رائعة فأملت أن نبدأ الرحيل قريباً، لأنني لم أكن شديد الثقة برقيب الدرك من الضّمير كما أنني خشيت أن يحضر مدير الناحية من دوما بقصد إزعاجي باقتراحات جديدة.

استقبال غريب

مضينا في دربنا شرقاً صباح يوم 6 ديسمبر 1914، فوق أرض كثيرة السبخات، ثم عند الظهر لمحنا مضارب سلطان، المترامية الواقعة على مسافة عن الحصن الرّومانـي خان التراب، وقد بعثنا أحد رفاقنا في المقدمة ليخبر شيخ العشيرة الشاب بقدومنا. وعند الغروب ظهر عن بعد ثلاثة فرسان ثم اثنان آخران بعدهم وجميعهم يتوجهون نحونا على عجل. وبعد لحظة برزت مجموعات أخرى من الفرسان من عدة تلال من الشرق. ولما لم نكن نملك أن نتبين إن كان هؤلاء من الأصدقاء أم من الأعداء، جهزنا أسلحتنا وبتنا ننتظر الطلقة الأولى. وكان هؤلاء الفرسان يلوحون بأيديهم، لكن دون أن يصدر منهم أي صوت. واقترب أول ثلاثة منهم فكانوا على بعد ثلاثمئة ياردة دون أن يطلقوا عياراً نارياً أو يصدر عنهم نداء. ثم تقدم منا هؤلاء الفرسان الثلاثة، فقفز أولهم، وكان فتى أسمر البشرة في حوالي العشرين من عمره، عن مهره البني اللون، ومد يده نحوي، وقال صائحاً:

«أهلاً بك بيننا، يا موسى».

وتبينتُ في ذلك الشاب الشيخ سلطان الطيّار[1]، صديقي الذي غاب عني ولم ألقه منذ عام 1908. وكان فرحنا عظيماً بهذا اللقاء غير المنتظر. أما الفرسان الآخرون فبَلَغونا جماعات، وهم يعجبون أن يتلقوا صديقاً بعد أن خرجوا للقاء عدو. ووجدنا العديد منهم قد ضاقوا بهذا الوضع ومن بينهم رجل ضئيل البنية يحمل رمحاً طويلاً ويطلق السباب واللعنات مثل السوقة حين أدرك أنه لن ينال أي نصيب من الأحمال التي على ظهور إبلي. ومضى سلطان عندئذ يعرض لي السبب الذي حمل رجاله على الترحيب بـي على هذا النهج الغريب.

«لما علمت بمجيئك انتابني الفزع من أن تقع في أيدي قُطَّاع الطرق الذين كانوا يحومون حول معسكرنا بحثاً عن غنيمة. فأردت أن أخرج للقائك، سوى أنه لم يكن في خيمتي سوى اثنين من العبيد، أما بقية الرجال فكانوا منهمكين في جمع القطعان العائدة. ولكني لم أتردد طويلاً مع ذلك، فخرجت وأطلقت ثلاثة عيارات من مسدسي وناديت مستنفراً: «يا أهل الخيل!» ولوَّحتُ ببندقيتي باتجاه الشمال غرب بينما اندفعت مغادراً الديار في ذلك الاتجاه. ولقد رددً النداء كل من سمعه، وتوجه الجميع في ذلك الاتجاه ثم سرعان ما هُرِعَ الفرسان يلحقون بـي للقضاء على العدو المفترض».

وهكذا انضم إلينا نحوٌ من خمسين فارساً صاروا يضحكون ملء قلوبهم حين علموا بأي أسلوب حاذق اتبعه سلطان في استدعائهم. ولقد رافقني هذا الجمع كله إلى مضاربهم.

نصبت خيامي إلى جانب خيمة سلطان. وكان قد أمر بذبح خروف سمين للعشاء ومكثت في خيمته حتى منتصف الليل تقريباً. وقد أكدً لي بأنه سينطلق باتجاه الجنوب بأسرع ما يمكن لأتمكن من الانضمام إلى الأمير النّوري بسرعة. وكان هذا ما سيفعله جدُّه من ناحية الأم سعود بن ملحم، كما قال، لأن سعوداً كان قد تلقَّى أمراً قبل أسبوع من الجنرال زكي بالإسراع إلى لقاء الأمير النّوري.

(1) الشيخ سلطان بن سطّام الطيّار (1895-1979 م) شيخ الولد علي، سنقابله في رحلة مالمينياتـي.

وكان هناك العديد من عشائر قبيلة الفواعرة مع الولد علي، وجميعهم يفرُّون بقطعانهم من نواحي دمشق وحمص لإنقاذها من جشع الحكومة التركيّة. ولا يبدون أي اهتمام بالحرب الأوروبية. فقد تداولوا في أمر القتال الدائر بين الحكومة التركيّة والإنكليز على الحدود المصرية، وفي الكويت، والبصرة، التي بلغتهم أخبارها وهم في حمص، وكانوا يتحادثون في أمر القتال وكأنها يدور بين قبيلتين غريبتين لا يعنيهم أمرهما. ومنهم من تمنَّى هزيمة الأتراك، بينما خشي آخرون أن يحتل الانكليز في هذه الحالة المناطق الزراعية بحرس قوي يستحيل معه سرقة شيء من السكان المحليين.

وفي اليوم التالي ورد سعود بن ملحم شيخ مشايخ الحْسِنَة[1]، وهم فرع من الولد علي، وكان يرافقه أبناؤه فَندي وتركي ومحمّد، للتّرحيب بي وإطلاعي على أمر زكي باشا بأن ينضم إلى الأمير فوراً. وقد قال إنه عازم على التضحية بنفسه وأولاده وقبيلته عند إشارة من الحكومة التركيّة والسلطان في اسطنبول اللذين لا بد أن يتكللا بالنصر بإذن الله. ولما قلت له إنّـي أتيت بأوامر جديدة نبَّه الحضور للإصغاء باحترام إلى كلمات الدولة السنية والتي سوف يقرأها عليهم خادمي منصور. كانت الخيمة الفسيحة التي ينزل بها سلطان تحفل بالضيوف، ويحيط بها من الأمام والخلف حشد ملفت للنظر والجميع يسعى متلهفاً لسماع رغبات الحكومة وأخبار ما جرى بعد رحيلهم من المنطقة المزروعة.

فلما انتهى منصور من تلاوة ما تضمنه الخطاب، راح الكثيرون يصيحون: «الله ينصر الحكومة والسلطان!» إلا أن أكثر الحاضرين ظل صامتاً. وبعد بضعة دقائق جرى الخوض في كل الموضوعات، إنما لم يعد يرد ذكر الحكومة أو الحرب.

كنا قد شرعنا في تناول الطعام حين سمعت صيحة النذير من ناحية الشمال. فرمى الشباب عنهم عباءاتهم والتقطوا أسلحتهم وامتطى كُلٌّ منهم صهوة جواده الذي يقف منتظراً متأهباً، واندفعوا إلى الأمام وهم ينشدون:

---

(1) عشيرة عنزيّة من ضنا مِسلِم وبطن الوهب وفخذ المنابهة، أشقاء الوُلد علي، شيوخها آل الملحم.

صـــوايحِ والخيــل عـــزَّم   واليــا ركبنــا مــا نــشوف
عاداتنـــا رمـــي المخـــرَّم   من شانك يالغرو الهنـوف

وكان ذلك نذيراً كاذباً.

سياسة

بعد العشاء دعوت سلطان وسعوداً وأولاده إلى خيمتي، وذلك لرغبتي في تناول الأحداث السياسية والحرب وإياهم. وكان سعود بن ملحم يومئذ في نحو الخامسة والستين من عمره. وأقرب إلى القصر وبدين، ويتسم بشفة سفلى كبيرة مستديرة وعينين صغيرتين تكادان لا تثبتان فتتحولان بالنظر من مكان إلى آخر، وكان أشبه بابن بلد هادئ مستقر منه بابن صحراء من الرُّحّل. وكان يملك بيتاً في حمص وقريتين. أما زوجته فيرجع أصلها إلى جيرود. وتجيد الطهي وتؤثر العيش في حمص وهذا ما يؤثره سعود أيضاً، لأنه يستطيع في حمص أن ينال كل أطايب الطعام. وكان الرجل بعيداً عن الصّحراء فلم يتوغل فيها منذ أن كان فتى. وقد اعتاد أن يقيم في مواسم الأمطار في منزل من الحجر في حمص أو في أحد البيوت في أملاكه من القرى، أما في الفصل الذي يغلب فيه الجفاف فكان يقيم في خيامه في البرية بين حمص وتلك القرى. ولكن حين اندلعت الحرب انتقل إلى أعماق الصّحراء، ليس لغرض خدمة الدولة وإنما بهدف حماية أملاكه من عدوان المسؤولين ذوي الطمع والجشع.

قال: «أنت تدري، يا موسى، أنه ليس بوسعي أن أحمل معي منزلي وقراي إلى أعماق الصّحراء، لذلك وجب علي التزام الحذر. ففي المنطقة المأهولة، كما في البادية، كثيرون يتجسسون لصالح الدولة. وأنت عليم بالدولة. إنها تستولي على كل شيء ولا تقدم شيئاً. ولا أود أن أجدها تصادر كل مالي بين الأهالي، ولذلك كثيراً ما أتكلم غير ما يجول في فكري.

«هذه دبلوماسية. وأنا رجل أعانـي من داء النّقرس فلا أستطيع ركوب الخيل، ومع ذلك فقد هجرتُ بيتي ومضيت إلى عمق البادية. ولقد فرضوا [السلطات] علينا ضريبة حرب وعمدوا إلى إقطاعها لكافة أنواع المحصلين. ومن يدفع يفلس ومصيره الخراب ومن لا يدفع ويبقى في المنطقة المحروثة كان مصيره الخراب أيضاً. فالحكومة استولت من المزارعين لدي على الجمال والحمير وقطعان الماعز والأغنام، كما أنهم أفرغوا عنابري من الحبوب. ولإنقاذ بعض أملاكي عمدت في الشهور الماضية إلى توجيه الجمال والماعز والأغنام إلى البادية وبقيت أنتظر وعداً من زكي باشا بألا يصادر منزلي. فأوعز إلي بالانضمام إلى النّوري، وإنني أود الالتحاق به لولا أن داء النقرس ينهكني».

ولما سألته إن كان سيناصر الدّولة أم يعمد إلى نهب القرى من أعماق البادية، أجاب مواربة بان الأمر متروك للنّوري. ثم رجانـي الكتابة إلى قبيلتي الفدعان والسّبَعة وحثّهما على المصالحة مع الولد علي، مضيفاً: «الغرباء لا يعنون لي شيئاً، طالما أن أهلي يشددون علي الخناق».

وفي صباح الثلاثاء 8 ديسمبر تحرك الركب باتجاه الجنوب شرقاً. وكنت بصحبة سلطان في منطقة حافلة بالمرتفعات والمنخفضات. وكان سلطان رجلاً صغير الحجم عريض المنكبين، شفاهه سميكة كبيرة، عيناه سوداوان تنمّان عن إخلاص، وبشرته داكنة. وكان أخوه محمّد قد أوفدته الحكومة للدراسة في المدرسة التي أسسها في اسطنبول [السّلطان] عبد الحميد لتدريس أبناء شيوخ العشائر. ثم عاد في عام 1901، عندما قتل الدّروز أباه، لكنه لم يلبث أن مات بعد وقت قصير من عودته.

ومن عائلة الطيّار ذات السيطرة لم يبقَ سوى سلطان، وكان يومئذ في السادسة من عمره. وقد ترك ليتولى رعايته العبد خَلَف العجوز، وظل يخيّم وإياه ثلاث سنوات في عدرا. ولما بلغ سلطان الثانية عشرة تولى خلف أمر زواجه من قُطنة ثم رِفعة بعد سنتين، وكانت أكبر سناً منه وأنجبت له بنتين.

ثم طلّق قُطنة بعد حين، إلا انه كان شديد الشغف برِفعة، وما كان يأتـي بأمر إلا بعد أن يشاورها. ولم يكن يأسف لأمر سوى أنها لم تكن قد حملت له ابناً حتى ذلك الحين. ولم ينل سلطان من أملاك والده الواسعة إلا القليل، وكانت الحكومة تدفع له 280 ليرة تركيّة (1260 دولاراً) سنوياً لحماية الحجيج، وكان عليه أن يدفع 320 ليرة (1440 دولاراً) سنوياً ضريبة. وتحظى عائلته باحترام شديد في جميع أرجاء البادية باعتبارها عماد الأسر الأبرز بين فرع الأيدا من الولد علي[1]. والموقد في منزل الرجال في خيمته كبير ومستدير الشكل، ويرى المرء مكانه في مضارب العشيرة باقياً بعد سنين من الرحيل. والأيدا ليسوا مغرقين في البداوة فهم يربون الماعز والغنم. ولقد رأيت قطعان الماعز والغنم في جميع أرجاء البلاد، وطولها وعرضها.

ولم نتقدم في المسير في اليوم التالي، إذ رغب سلطان بن ملحم أن يعرض لي كامل ضيافته. وقمت في الضحى باستطلاع تل قريب وكنت أود أن ألحظ في التقرير على وجه الدقة كل فوهة بركانيّة على حدة في منطقة ديرة التلول البركانيّة. وفي الظهر قامت بزيارتـي مِشخَص، ابنة الأمير المغدور فهد الشّعلان. وكانت أول زوجة للأمير نوّاف وأنجبت له ولداً يدعى سلطان وما زال شغوفاً بها ويتشوق إليها. ولكن بعد اغتيال أبيها، فهد، نفرت من نوّاف واقترنت من فندي بن سعود الملحم. وقد رجتني أن أحمل سلامها إلى ابنها سلطان وإلى نوّاف. إذ كانت تود لو عادت إليهما، لو لا مقتها للنّوري الذي رأت على يديه دم أبيها.

وفي العصر جاء سلطان ليقودنـي إلى خيمة سعود. وكان قد اجتمع لديه حوالي مئة شخص في جلسة على هيئة المستطيل، وما إن دخلت الخيمة حتى هبُّوا جميعهم وقوفاً. ولقد خصصت عندئذ بمكان الشرف عند الجدار الذي يفصل موضع الرجال في الخيمة عن موضع النّساء.

---

(1) الأيدان (أو الأيدا) فرقة من الحمامدة، الذين هم فخذ من عشيرة الوُلد علي، أبناء وهب من ضَنا مِسلِم من عَنِزَة، وشيوخ الأيدا الشماليين آل الطيّار (يليهم في شيخة الولد علي آل سُمير)، وأمّا شيوخ الأيدا القبليين فآل الأيدا (أو المُطلق). انظر: «نجد الشمالي»، ص 50.

ثم دخل محمّد بن سعود للسلام علي، وسار بـي إلى موضع التشريف، وجلس هو في وسط الطرف الغربـي الطويل من الخيمة. وبعد تبادل التحيات المعتادة قام أحد العبيد بصب عدة قطرات من الماء على أصابع يدي اليمنى، ثم دخل علينا ستة عبيد حاملين صينية ضخمة فوقها أكوام من لحم الضأن والقمح المقشور (الفريكة) ووضعوها وسط المستطيل.

ولقد دعانـي محمّد مع خمسة رجال آخرين إلى الأكل. وكان على يميني سلطان قاعداً القرفصاء، وإلى يساري تركي بن سعود وأخذ كلاهما يختاران أفضل قطع اللحم ويكومانها أمامي. وكان يقف خلف كل واحد منا عبد يحمل طبقاً فيه ماء. ولم نكن قد أمضينا أكثر من أربع دقائق حتى نهضنا وعدنا إلى أماكننا السابقة ودعا محمّد عشرة ضيوف آخرين للمشاركة في الطعام. وبعدئذ صارت الوليمة إلى خمسة عشر ضيفاً، فثمانية عشر وأخيراً عشرين.

ولم يتخذ محمّد مكانه حتى أنهى أولئك الضيوف مشاركتهم فجلس وثلاثة أطفال صغار إلى الصينية ليلتقطوا اللحم عن العظام. ذلك أن اللحم كان قد انتهى، إلا أنه بقي هناك ما يكفي من القمح المقشور ليوفر وجبة مشبعة. وبإشارة منه قام العبيد وحملوا الصينية والعظام وما بقي من القمح المقشور إلى النساء، لا يعنيهم أمر أولئك الحضور الذين لم يذوقوا من ذلك الطعام شيئاً. أما الشيخ سعود العجوز فكان يجلس في الزاوية منشغلاً برأس خروف.

وبعد الوليمة دار الحديث بين الحضور بصورة عفوية. أما الحرب فكانت قلّما تذكر. فكنا نتحدث في موضوع المراعي والحاجة إلى مطر غزير، وأمراض الماعز والغنم، والسّرقة في الديار، وتهديد غارة الفدعان. ولم يُدْلِ أحد سوى سعود، الذي كان يتألم من آثار داء النّقرس، بكلمة عن الحكومة أو البريطانيين. وقد أعرب عن أمنيته بإنهاء الحرب في وقت مبكر ليتمكن من العودة إلى منزله في حمص.

* * *

من أقاصيص الثعالب

أفضى بنا الترحال يوم الخميس إلى وادي ذنيبة العريض. ولقد أخرجنا ونحن على الطريق عدداً من الثعالب.

وقيل لي إن الثعلب منتشر في الصّحراء. وقد جرت العادة على أن نطلق كلباً سلوقياً متى وجدنا أثره في ندى الصّباح. وللحم الثعلب مذاق طيب جداً. والثعلب يحمل للبشر ضغينة شديدة ويتهمنا بالنكران.

«وكان آدم أبو البشر أجمعين ، قد صادف مرة خارج جنّة عَدن أفعى شبه متجمدة فاستولت عليه العاطفة فألقى بالأفعى في صدره وعاد بها إلى جنّته. وإذ سرى الدفء في جسمها انتعشت وصاحت بآدم: «عد بـي إلى حيث التقطتني، فلي أسرة هناك. فإن لم تحملني وتَعُدْ بـي إلى ذلك المكان فوراً نهشتُك».

«ولكن ما كان بوسع آدم أن يتذكر المكان على وجه الدقة. فمضى يمشي جيئة وذهاباً بالأفعى التي كانت لا تنقطع تصرخ: «ليس هذا المكان الذي تعيش فيه أسرتـي فعد بـي إلى هناك فوراً وإلا عضضتك».

«استولى القلق على آدم ونال منه الفزع. ثم صادف ثعلباً فَسُرَّ لهذا اللقاء، وعرض على الأفعى أن يحتكما إليه. فقبلت الأفعى بالاقتراح. وجلس آدم عندئذ أمام الثعلب وبدأ يعرض أصل الخلاف، لكن الثعلب قاطعه قائلاً: «صه! ولا تنبس بكلمة حتى يأتـي خصمك».

«إن خصمي هنا».

«ولكني لا أراه».

«أنا حاضرة، ومستلقية على بطن آدم».

«إذا كنتِ خصم آدم فعليك إذن أن تجلسي قبالته، وإلا لما عرفتك خصماً».

«حسن. فلأخرجن، إذن».

«انسلّت الأفعى وخرجت من تحت ثوب آدم وجلست قبالته. فقال الثعلب:

«سوف أدعوك يا إنسان (آدم) «نَيْشُوْبِهْ». فأصغِ إلي علّك تحيط بكل أمر. امسك برأس الحيّة يا نَيْشُوْبِ بِهْ!».

«ولكن «يا نَيْشُوْبِ بِهْ» تعني: «ضرباً به». فأدرك آدم عندئذ مغزى كلام الثعلب. وما كان منه إلا أن التقط هراوته، وكانت ذات عُجرة ثقيلة، وضرب بها رأس الأفعى. وما زال أبناء آدم يقتلون كل أفعى يقع عليها نظرهم. ولكن حين أخذوا بمطاردة المنحدرين من الثعلب أيضاً وأكل لحومهم، صار الثعلب يشكو «إِخْسْ يا سِيْوْدَ الرّاس لِيْه اتناكَر تسلى المليح!».

* * *

«يعلن الثعلب أنه ينشد العيش بسلام مع الجميع، إلا أنه إنما يريد تضليلهم. ولذلك عمد مرة إلى توجيه رسالة إلى الغراب، قال له فيها:

«لسوف يسعدنـي أن أسليك وأمتعك».

«إذن، متّعني!».

«فطبخ الثعلب شيئاً من الطعام المكون من الحليب والدّقيق، وصبَّ المزيج على صخرة، ثم دعا الغراب للأكل. فلما حضر الغراب قال الثعلب راجياً:

«افلِح يا صاحبي». ومضى يلعق السائل الصّخرة بلسانه بينما الغراب الجائع عاجز عن التقاط أي قدر من الطعام بمنقاره. فراح الغراب يحدث نفسه: «زين! هذه إذن ضيافة الثعلب». لكنه لم يظهر امتعاضه ودعا الثعلب لتناول بعض البلح الطيب لديه. فسال لعاب الثعلب، فقد كان شديد الولع بالبلح لكنه لم يكن يقدر على قطفه من أشجار النّخيل لأن البلح في مكان عال لا يستطيع بلوغه، مما جعله يطلب صداقة الغراب. فأخذ الغراب يهز أفضل عناقيد البلح عن نخلة صغيرة ذات أشواك وقال له:

«افلِح يا صاحبي».

«وراح الثعلب يدور حول الشجرة محاولاً التقاط ولو بلحة واحدة بلسانه أو قدمه، إنما دون طائل. بل كانت الأشواك تجرح قدميه. والثعلب ينظر حاسداً إلى الغراب الذي كان يلتقط البلح بمخالبه واحدة تلو الأخرى. ومنذ ذلك الوقت صار الثعلب يعتبر الغراب نداً له».

* * *

«والثعلب شديد الشغف بأكل القمح. ولذلك رأى أن يدعو القنفذ لفلاحة حقل يتشاركان فيه ثم زراعة بذار الحبوب فيه. ولقد وافق القنفذ على هذا الرأي فوراً وشرع وأسرته - وكان لدى القنفذ أربعة وعشرين ولداً، فاجتمعوا جميعهم على العمل. فاندفعوا في فلاحة الحقل وبذروا بذور القمح ووفرّوا له الحماية من تجاوز المتجاوزين. وكان الثعلب قد دأب على زيارة الحقل ليرى السنابل تنبت وتعلو، لكنه لم يكن يكلف نفسه تقديم المساعدة. بيد أنه كان يَعِدُ بأنه سوف يشارك في حصاد القمح ودرس السنابل بالنورج وتذريتها! ولكن هذا العمل تركه ليقوم به القنفذ أيضاً. فلما تم الحصاد والدرس والتذرية في النهاية اقترح الثعلب على القنفذ التالي:

«لنُجْرِ بيني وبينك سباقاً. فمن يصل إلى نهاية السباق أولاً، من الوجار حيث أقيم إلى كومة القمح يكون له المحصول كله. فنحن صديقان فعلام نقوم باقتسامه؟».

«ووافق القنفذ على رأي الثعلب. وفي الليل أتى القنفذ وزوجه وأولاده الأربع والعشرون إلى البيدر ووضع زوجته قبالته ومضى مباشرة إلى وجار الثعلب ونشر أولاده على مسافات محسوبة، بحيث يصل إلى الوجار وحده.

«قد أشرقت الشمس، يا أبانا الثعلب، أفلا تركض؟».

«بل اركض أنت. وسوف ألحق بك على الدرب».

«حسن. سوف أجري أنا».

«فلما ارتفعت حرارة الجو وجف الندى، هب الثعلب من مضجعه وقال صائحاً:

«أين أنت، أيها القنفذ؟».

«أنا هنا أمامك».

«وقد عجب الثعلب أن يكون القنفذ أمامه. فانطلق يركض خبباً. وإذ به يجد القنفذ أمامه. فأسرع يقفز قفزاً. ولكن القنفذ ما يزال أمامه. ولما اقترب الثعلب من كومة القمح كان جسمه يتصبب عرقاً من الركض، سوى أن القنفذ كان قد سبقه للجلوس عليها. وهكذا حقَّق القنفذ النصر على الثعلب».

* * *

«رغبت الثعالب في صداقة الكلاب. وبعد مشاورات فيما بينها بعثت الثعالب برسالة مطولة إلى الكلاب تعرض لها فيه إخلاصها فضلاً عن توقها إلى السلام، ثم أوفدت ثعلباً فتياً ليسلِّم الرسالة إلى كبير الكلاب. ولكن ما كاد الثعلب يبلغ حدود منطقة الكلاب حتى لاحظ أن الحرس وخمسة كلاب قد صارت تجدُّ في طلبه. فصاح الثعلب قائلاً إنه جاء للتفاوض في إحلال السلام بين الثعالب والكلاب، ولكن الكلاب أبت أن تصدِّقه. فرمى بالرسالة إلى الكلاب علها تقرأها، إلا أن الكلاب ظلت على غضبها وهي تنبح في إثره دون أن تلحظ الورقة البيضاء. ولكم سَعِدَ الثعلب حين تمكنَّ من الإفلات وإنقاذ حياته. وحين بلغ الثعلب رفاقه كانت جراحه تنزف دماً وجسمه يتصبب عرقاً. ولما استعاد أنفاسه بعد ذلك الجهد، سألته الثعالب:

«ماذا صار من أمر الرسالة؟».

«إنهم لم يصدِّقوا ما جاء فيها».

«ماذا؟ لم يصدِّقوا الرسالة؟ لماذا وقد مهرناها بخاتمنا».

«إن الكلاب لا تأبه بخاتمكم. فقد عرضتُ الرسالة لخمسة منهم، ولم يتمكن واحد من القراءة أو الكتابة، لكن الكلاب متمكنة من النباح والعض، كما ترون جليّاً على جسدي».

* * *

«والثعلب هو المخلوق الوحيد الذي يرسل الله له طريدته سواء كان صاحياً أم نائماً أم دفين الأرض. فقد أرادت الثعالب ذات مرة أن تعرف إن كان الله يرسل لها ما تأكله أن دفنت نفسها تحت التراب. فاختارت ثعلباً من بينها على سبيل التجربة واحتفرت حفرة صغيرة في الرّمل الأصفر فقام ذلك الثعلب بالاستلقاء في تلك الحفرة، وقامت بقية الثعالب فأهالت التراب فوقه، ولم يظهر منه سوى شاربيه. ثم فرَّت الثعالب وأخذت تنتظر عن بعد لترى ما يحدث بعد ذلك. وما حدث بعدئذ أمر عجيب! فقد خرج أرنب برِّي يبحث عن طعام. فرأى شاربي الثعلب الدفين، فحسب أنهما عودان من العشب الجاف، واقترب منهما ثم ازداد اقتراباً وأخذ يتشمم العودين ويشدُّهما فانتفض الثعلب وأنشب أنيابه في الأرنب المسكين حتى نفق».

* * *



الشكل 33: الأمير نوّاف

سلطان وعبيده

في اليوم التالي جاءت فتاة ضعيفة هزيلة في الثانية عشرة من العمر ومعها أمها وخالة. وكانت هذه تدعى فضة بنت حبيلي من عشيرة السّرحان. وتعاني من رشح أهملت معالجته حتى تحول إلى حمى. وما كادت الفتاة تغادر حتى أقبل سلطان مستفسراً عن وضعها الصحي وأخبرني أنه كان قد تزوّج بها قبل عشرة أيام. فنصحته أن يدع الطفلة وشأنها على الأقل خمسة أعوام في رعاية أهلها ويكتفي بزوجه رفعة التي اكتمل بنيانها وبوسعها أن تنجب له غلاماً أقوى مما تستطيع أن تلد فضة ذات البنية الهزيلة. فأخذ سلطان يتحدث عن رفعة وكأنها لا ترقى إلى قدمه.

وكان سلطان لا يشغل نفسه بتنشئة طفلتيه اللتين كان يُعْنَى بهما العبيد الذين تولوا تلقينهما أشنع الكلمات السوقية والشتائم المقذعة. وقد سمعت أحد العبيد يلقّن إحدى الطفلتين لقباً شنيعاً في مناداة أمها وأبيها. فلما ردَّدت الطفلة تلك العبارات انفجر الأب والعبيد، وكانوا حاضرين، بالضّحك.

ويبدو معيار الأخلاق بين عشيرتي الأيدا والحَسِنَة يختلف كثيراً عما هو سائد بين الرّوَلة. إذ نجد لدى هاتين العشيرتين انتشار المزاح والتباسط بين الفتيان والإماء أو العبيد الفتيان والبنات ذوات العراقة.

ويمارس العبيد مع سعود بل ومع سلطان بصورة أكبر قدراً كبيراً من السلطة فيأتون بما يسرُّهم ولا يأبهون بأسيادهم، أو «أخوالهم»، كما يسمونهم. ومع أن هؤلاء لم يجازفوا بدخول خيمتي، إلا أنهم يحومون دائماً حول خدمي ويطلبون هذا الشيء أو ذاك لأنفسهم أو «أخوالهم». وكان لدى سلطان خصوصاً جشع ملحوظ فكان يطلب أشياء كثيرة مما كان يراها. ولم يكن يطلبها مني بنفسه، وإنما كان يلحّ في السؤال على خادمي حسيناوي لينال هذا أو ذاك. وكان حسيناوي يَعِدُه بكل شيء فيما كان ينصحني بألا أعطيه شيئاً، ثم يشكو لسلطان من بخلي وامتناعي عن تقديم هدية واحدة لأحد.

ما انفكَّ حسيناوي يثير لي المتاعب كل يوم، بتحريض العبيد علي والشكوى من شدة قسوتي المزعومة. ولقد كان هناك مَنْ حذرني منه لكن خادمي الآخر ناصر طمأنني بأنه يرصد حسيناوي لئلا يتمكن من سرقتي. وكان ناصر شديد الالتزام في خدمته يوم كنا في دمشق والضّمير، على أنه ما أن بلغنا الأيدا حتى صار نمروداً وبدأ يشيع أنه دليلي وحامي حماي، ويؤكد أن الحب الذي يكنه لي وحسب هو ما حمله على التخلي عن الكاف وقصره هناك والثروة الطائلة التي كان بوسعه أن يحصل عليها في وهلة.

وذكر لمستمعيه أنه رافق الرحَّالة الآنسة الإنكليزية غرترود لوثايان بِل[1] Gertrude Lowthian Bell ستةَ أيام من الأزرق، وأنها نقدته ست ليرات ذهبية إنكليزية وقدَّمت له مسدساً بعشر طلقات. وكان يستمتع بتقليد أسلوب الإنكليز في الحديث بالرغم من تحذيري له من محاكاة الآخرين على سبيل السخرية. وكم أسفت لاصطحابه معي وكان يطيب لي التخلص منه، ولكني امتنعت عن طرده لأنه ما من أحد كان ليرضى بتوفير المأوى له.

* * *

ذات يوم سمعتُ فتاة في هودجها تغني بصوت رائق:

يـا طـير يـا لـلّي تـدير الحـوم	سـلِّم إليـا جِيـتْ طَرْحومِـه
عـــشيرها ذَغْـــذَع بـــالقوم	تِلقَـــى تعاجيـــب بعلومِـــه
ولّـــوا جماعِـــه غَـــشاكُم لـــوم	الـــلّي مـــع الحيْـــد مَذمومِـــه

(1) رحّالة وسياسيّة وعميلة استخبارات بريطانيّة مشهورة (1868-1926 م)، قامت برحلة شهيرة في سوريا عام 1904 من جنوبها إلى أنطاكية في شمالها، دوّنت أخبارها في كتابها «العامر والغامر» *The Desert and the Sown*، وعيّنتها الحكومة البريطانيّة في العراق إبّان الحرب العالميّة الأولى فكانت مهندسة سياسته ولُقّبت بـ «السّت خاتون». وبقيت في العراق بأيّام الملك فيصل الأول كما أسهمت إلى جانب لورنس العرب بإنشاء المملكة الهاشميّة في شرقي الأردن. توفيت منتحرة في بغداد ودُفنت بها. من كتبها أيضاً: «من مُراد إلى مُراد» و«ألف بيعة وبيعة».

لا وطنيّة وإنما غنائم

كلما ازددنا توغّلاً في قلب البادية ازداد سعود وسلطان خشية من إغارة يشنّها الفدعان والسّبعَة. وكنتُ قد أقنعت النّوري مبكراً منذ عام 1909 بعرض المصالحة مع الفدعان وحلفائهم العبِدَة. كما تفاوضت مع زعماء الفدعان والعبِدَة بهدف احلال الصلح بين ضَنا مِسلِم وضَنا بِشر، ولكن بعد غدر الحكومة في اعتقال الأمير النّوري في عام 1910، وهجوم الرّوَلة على الحاميات التركيّة ونهب قرى الحدود، عمدت الحكومة من جديد إلى تأليب الفدعان والعبِدَة عليهم.

لقد أثرتُ اعتراضات أمام الوالي حول هذه الأساليب في عام 1912، وحين أفلحت بتحرير النّوري من السّجن سألته أن يجدّد الصلح، لكن الرّوَلة كانوا قد نفروا من خيانة الفدعان، وباتوا لا يدعون مناسبة تفلت منهم للإغارة عليهم. فذهبت سُدى دعوات الوالي لإحلال السّلام بين شيوخ القبائل المتحاربة. فالفدعان الذين كان المسؤولون الأتراك يزوّدونهم بالسّلاح كانوا أصحاب انتقام وثأر ولم يكونوا ليدعوا حتى الأطفال أن يفلتوا منهم.

في أكتوبر 1914 طلب إلي زكي باشا ووالي دمشق تسويغ الصّلح للفدعان، أو على الأقل عقد هدنة لثمانية أشهر، تقديراً منهم أن الحرب لابدَّ منتهية في غضون هذه المدة. وكنت قد كتبت في ذلك الحين رسالة إلى صديقي برجس بن هذيب، شيخ العبِدَة أرغب فيها إليه أن يستخدم نفوذه لدى الفدعان لترغيبهم بالصلح، بيد أنني لم أحظَ برد منه. ولذلك قمت بتكرار المساعي من معسكر سلطان ووعدت ببذل المسعى ذاته وعرض الرأي من معسكر النّوري.

كانت الحرب الأهلية تدور بين أبناء عشيرة القمصة. وتفصيل ذلك أن صديقي الطيب كبير الشيوخ غثوان المرشِد ظل يعيش سنوات طويلة في سلام ووئام مع عشائر عنزة المجاورة، سوى أن أخاه بشيراً، الذي سبق أن تزوج في عام 1910 بأوروبية غريبة الأطوار، خالفه ومضى ينهب مضارب الأعراب وقرى الفلاحين.

ولم يكن بشير وأتباعه يرضون بالتحكيم الذي لم تكن السّبعَة تأخذ به، وإذن فلا بدَّ من إخضاعه بقوة السّلاح. ولذلك مضيت أتحادث مع سعود وسلطان، واقترحت أن يتصديا لهم مع النّوري، وهي حملة أبدى جميعهم اهتماماً بها يفوق اهتمامهم بالحرب بين الحكومة التركيّة وإنكلترا. فقد كانت الحكومة عندهم مجرد بيروقراطية جلادين لا فائدة منها للعرب، عموماً، والبدو خصوصاً، بل العكس إذ كانت هذه البيروقراطية تضر بمصالحهم كلما سنحت لها الفرصة. وكان التزامهم بالشعائر الإسلامية محدوداً، ولم تكن علاقتهم بالحكومة جيدة. فلو كفلت لهم الحكومة التركيّة عوائد كبيرة من الحرب لكانوا انتفضوا على الانكليز ولو أن البريطانيين قطعوا لهم الوعد بالسماح لهم بنهب القرى الخاضعة للحكم التركي لكانوا ثاروا على الأتراك.

إنّ الرغبة في الغنيمة هي وحدها التي تلهم أهالي الصّحراء الأعمال العظيمة فليس لديهم تصور لشيء آخر. وليس بوسعهم أن يتوقعوا من الحكومة التركيّة أن تطلق أيديهم في السلب والنهب دون قيد، خاصة وأنه سبق للحكومة أن فرضت عليهم الاستغلال منذ البداية. وأما السلام في أعماق الصّحراء فلم يكن هدفها منه إلا استغلاله للإطباق على تلك القرى التي تُركت دون حماية سواء كانت تحت حكم الأتراك أم الإنكليز. وكان هذا ما دفع الحكومة إلى الطلب مني أن أسعى لإرساء المصالحة والسلام مع السّبعَة والفدعان.

الإثنين، 14 ديسمبر لزمنا موقع خيامنا، غرب خَباري البويب. وكان سعود يعانـي في ذلك الحين من داء النّقرس وقضى ألا يغادر حتى تزول آلامه.

* * *

11 - عوداً إلى قلب الصّحراء دون دليل أو حام

أطلال المخيم القديم

لم يبلغنا أي خبر عن النّوري. فأردت أن أخرج لاستطلاع أمره بنفسي، ولكن سلطان أبدى نفوراً من هكذا رأي وحاول إقناعي بالصبر.

قال: «إن الشيطان يا موسى يدفع بالرجال إلى الرّعونة، لكن الرأي المتأنـي نعمة من الرّحمن الرّحيم».

أنجزنا استعداداتنا لمغادرة الأصحاب، وتمّ التفاهم مع عدة رجال أرادوا الانضمام إلينا ليعودوا بصورة أكثر أماناً إلى أهلهم الذين كانوا قد سبقوهم إلى التوغل في قلب الصّحراء.

* * *

الخميس في 17 كانون الأول: حملنا خيامنا ومؤننا وغادرنا مضارب سلطان. ولقد رافقنا سلطان ما يزيد على الساعة، وبرفقته عبد واحد. وبعد فترة أدركنا ثمانية رجال، أحدهم يمتطي فرساً، بينما كان الآخرون على ظهور الهجن، ومضوا برفقتنا.

وفيما كنا على الدرب حانت منا التفاتة فرأيت ثمانية نسور ضخمة جاثمة على تل صغير، وكانت هذه الكواسر ترصد مقدمنا بفضول وهذا في رأي سلطان بشيرٌ بطالع حسن. ثم فارقني والدّموع تترقرق في عينيه وأعلن أنه سوف يظلّ أبداً صديقي الصّدوق.

* * *

عند الظهر مررنا بأطلال مضارب راحَ رفاقي يتفحَّصونها بعناية. ففي مثل هذه الأماكن تشير طبيعة الآثار والزّبل إن كانت هذه منازل بدو أم تخصُّ معّازة أم غنّامة (مربّـي الماعز والغنم) ومتى تم هجر المكان. كما أن حجم المكان الذي أوت إليه الجمال في الليل وآثار حوافر الخيول تفيد أين كان ينزل شيخ العشيرة نفسه، كما ينبئ حجم الموقد وشكله باسمه ومكانته. وهكذا فإن زوار الأطلال يتوصلون إلى اسم الشيخ الذي نزل فيها ومن نزل معه ثم يسعون إلى خيام كل أسرة. وإذا عرفوا عدد الإبل تقريباً التي تعود إلى كل خيمة انتقلوا لتفقّد أماكن معينة تخص الإبل، فيبحثون عن أحجار اعتادت النساء أن يجعلن منها منصباً للأباريق ومن عاداتهن أن يثبتنها على الأرض حسبما اعتادت كل منهن. ويقيسون أبعاد منازل الرجال وأحجام مواقد القهوة، فيستنتجون اسم صاحبها. ويتلو ذلك استذكار حكايا تتصل بالسكان والمواعيد والغارات. ولكن الحديث يطول في استعراض مادة الحديث الذي تستدعيه ذكرى مثل هذه الأطلال.

كنا نقطع أرضاً غنية تجد فيها الجمال مرعى يكفيها العام التالي كله.

صادفْنا ونحن متجهون ناحية الجنوب شرق في السّهل المتموج أطلالاً هجرها أصحابها منذ عهد قريب وشاهدنا في مواضعها موقع خيمة واسعة فضفاضة بها آثار حوافر جياد كثيرة. وهنا التقط أحد مرافقي ريشة نعامة كالتي يُزَيِّنُ بها الرّوَلة رمزهم، أعني المركب (أبو الدّهور)[1]. وهذا ما دفع بنا للاستنتاج بقدر معقول من الجزم بأن الأمير النّوري قد نزل في هذا المكان، وذلك أن أبا الدّهور يُحْفَظُ في خيمة الأمير النّوري لكننا لم نتمكن، مع ذلك، من تحديد مساره فبالرغم من أن المنطقة كلها متاهة من آثار المسيرات فإن هذه الآثار قد ضيعتها الأمطار التي نزلت مؤخراً في المنطقة. ولما كانت آثار أخفاف الجمال الوحيدة التي أمامنا تشير إلى ناحية الجنوب فقد قرَّ الرأي على السّعي للقاء الأمير جنوباً.

---

(1) رغم أنّ موزيل ينقل عن محدّثيه أن اسم مركب الرّوَلة (أبو الدّهور)، ويفسّره بأنه جمع دَهر، فإنّني كنت أسمع اسمه من آل الشعلان وشيخهم نوّاف بن فوّاز بن نوّاف بن النّوري بصيغة: أبو الضّهور. ولعلّ ذلك يعني ظهور الإبل، أو المظاهير ما يسير بآخر الظعن؟

وكان الرجال الذين انضمّوا إلينا قد غادرونا سعياً للقاء أقارب لهم، ولم يتركوا وراءهم سوى عوّاد، وهو فتى من عرب الفِرْجَة جال في سنواته العشرين ثلثي جزيرة العرب تقريباً.

مطر في البادية

أقمنا مخيمنا عصر ذلك اليوم بالقرب من تل صغير في مجرى للمياه عميق وجاف. وإلى جنوب غرب موقعنا كانت تنتصب هضبة الخرجة. وإلى الشرق والغرب كانت تجمعات مياه الأمطار تتلألأ، وأمامنا الكثير من المراعي والكلأ الوفير من حولنا وقد عملنا على إخفاء النار المتقدة في مخيمنا تحت الضفة العميقة والمرتفعة لمجرى الماء وأخفينا أمتعتنا بين الصخور وفي الرّمال الناعمة التي جعلنا منها أسرَّة لنا. وكان ذاك مخيماً قلما يصادف الرحالة مثله في الصّحراء. ولكن الويل لنا إن هطلت الأمطار الشرقية! فقد كان من شأن المجرى أن يمتلئ سريعاً بتيار سريع مندفع! وعندئذ يجرف التيار كل شيء إن لم يسرع المرء إلى إنقاذه. والواقع أن الأمطار هطلت مدراراً وبعنف، وبقينا وقتاً طويلاً نجاهد لإنقاذ المتاع وخضنا في الماء الذي بلغ ركبنا قبل أن ننهي عملنا.

«هل تعرفت، يا موسى، إلى العبد غراف الذي خدم شيخ الشيوخ سطّاماً، رحمة الله عليه.؟».

«قد عرفته، يا عواد».

«هل لاحظت أصابعه المبتورة وما لا يحصى من الندوب على يديه ورجليه وبدنه؟».

«قد رأيتها. ولكن علام سؤالك؟».

«إن الفدعان الذين قاتلوا في هذه المنطقة انتقاماً لموت زعيمهم تركي قد فعلوا به ذلك. إذ إنهم بعد سنتين من مقتل تركي أغاروا على الرّوَلة.

وساقهم الله إلى مضارب آل الشّعلان. وكانت معركة بطولية صمد فيها الشّعلان أمام الفدعان، الذين كانوا يفوقونهم عدداً بشكل كبير. وأخذ الشّعلان يثيرون حماسة بعضهم بعضاً على هذا النحو:

«لنهاجمهم، وليكن أمر الله فإما أن يقضوا علينا جميعاً فلا يأخذون قطعاننا وحسب وإنما خيولنا أيضاً، وإما أن نحرر قطعاننا».

«وحين عاد الشّعلان للبحث عن رفاقهم المفقودين وجدوا غرَّافاً عبد سطّام مثبتاً على الأرض تحت حصانه، وكان غراف يحظى لما عرف عنه من الكرم والشجاعة باحترام الرّوَلة وكأنما هو شيخ من شيوخ العشيرة. وعندما وجده الفدعان، وكان معروفاً لديهم، قتلوه طعناً وهو تحت جواده لا يملك أن يدافع عن نفسه، فأعملوا فيه سيوفهم وتركوه عندئذ وهم يحسبونه قتيلاً، ولكن أحد الرّوَلة عثر عليه قبل أن تفارقه الحياة، فحمله على ظهر جمله إلى خيمته. وكانت أصابع يديه الاثنتين وقدميه كلها مبتورة، وليس في جسمه كله بقعة تقريباً إلا وقد نالت طعنة أو ضربة من خنجر أو سيف. فاستغرق شفاؤه مما أصابه ثلاث سنوات، ولكنه صار بعون الله قادراً على ركوب المطايا كسابق عهده».

وكان المطر يهطل باستمرار طوال اليوم.

إبل تشاهد في الجنوب

في الصّباح ظهرت الشمس ومضينا نحو سهل الدّميثات المتموّج المكسو بالحجارة. وكانت الوديان مزدهرة بالشَّعران والرُّوثة وأشجار الشيح.

قال عواد: «والإبل تقبل على اجترار الشعران والروثة والشيح، إلا أنها لا تسمن بها، لذلك لا تستمر طويلاً في منطقة الدّميثات. وأفضل المراعي عند إبلنا في موسم الأمطار ما تجده في ناحية وادي الخور وهضبة اللاهة. ولو سألت رويلياً أين كان مرعاك هذا الشتاء؟ لرجَّح أن يكون رده:

«كان مرعانا في الخور هذا الشتاء وفي الربيع نؤثر الرعي في الجوف وأطراف النّفود الشمالية، وفي المنطقة حول بركان العمود ربما تجد قطعاننا في بداية الصيف، بينما يكون الرّعي في منتصف الصيف جنوب دمشق. وفي الخريف تنتظر عشائر كثيرة هطل المطر في وادي السّرحان. فإذا انحبس المطر في الحمّاد والوديان قد تجدهم يرحلون إلى نواحي تيماء أو حدود النّفود الشرقية، حيث الأمطار تهطل بشكل أكثر انتظاماً».

تبينتُ بالمنظار من مخيمنا المنعزل تلك الليلة رتلاً من الجمال ترعى على تل عال. وخطر لي عندها أن أصحابها ربما كانوا عصابة من قطاع الطريق أو الحراميّة، لكن حين أمعنتُ النظر في كل حيوان لم ألحظ شداداً على ظهر أي منها، وذلك دليل مؤكد على أنها قطيع يعود بعد الرعي. فناديت عواد، ولكن قبل أن يتمكن من ارتقاء الهضبة حيث كنت ظهرتْ غمامات سوداء حجبت الشمس وما عاد بوسعه أن يرى شيئاً. شدَّدنا الخفارة في الليل لكن لم نجد أحداً يقترب منا.

وفي يوم الأربعاء، 23 ديسمبر غادرنا البقعة حيث كنا ننصب خيامنا وتوجهنا ناحية الجنوب غرب، لأن الجمال التي رأيتها، كما قال عواد، تتواجد في مخيم في تلك الناحية. وكان الضباب كثيفاً إلى حد جعلنا نسرع في السير والبوصلة في يدي. ولكن حينما تبدَّد الضباب وأخذنا نتلفَّت متلهفين بحثاً عن آثار دخان وجدنا جهدنا يذهب بلا طائل.

وقبيل الظهر رصدنا من الناحية الشمالية الغربية اثنين من الهجّانة وواحد من المشاة. ونظراً لأننا لم نلحظ أي قطيع من الجمال، زعم رفاقي أن من شاهدتهم البارحة إنما كانوا من قُطَّاع الطرق وأن هؤلاء الرجال الثلاثة كانوا من الجواسيس. ولقد حاولت عرض وجهة نظري في أمر عدم وجود الشداد على ظهر تلك البهائم، ووجود جمال صغيرة بينها، وأنها تبعد مسافة ثمانية عشر ميلاً على الأقل ولكني لم أتمكن من إقناع رفاقي بما عرضت، وكانوا في ضيق من كثرة شكوى حسيناوي وبرمه.

أخفينا جمالنا في مسيل ماء ضحل وزحفنا إلى الأمام وقبعنا في طريق أولئك الرجال المجهولين. فلما صاروا على مسافة مئة خطوة تقريباً منا، صاح فيهم عواد:

«تابعوا طريقكم إن كنتم من ضنأ مسلم، وإلا انهزموا إن كنتم أعداء».

وقد قفز حسيناوي وبدأ يقلد حركات الخيّالة وهم يدورون حول زعيمهم تعبيراً عن ولائِهم. ومثل هذا الأمر يتكرر في الصّحراء من الهجّانة أو الفرسان حين يريدون أن يؤكدوا لعصبة صادفتهم أنهم لا يحملون بين جنباتهم نوايا عدوانية. بيد أن أولئك الرجال المجهولين ما كانوا ليثقوا بكلام عواد أو بدوافع حسيناوي. فأداروا أعناق رواحلهم ومضوا متحوّلين باتجاه الشمال شرق. فاندفع حسيناوي يطاردهم صائحاً ملوحاً بذيل عباءته، إنما دون طائل: ذلك أنهم اختفوا سريعاً في التلال. ولكن هروبهم على ذلك الشكل من الفزع وحقائبهم المنتفخة على الشداد كان كله برهاناً على أنهم كانوا مجرد مسافرين مسالمين. ولما كنا نأمل أن يأتوا بنجدة من العربان الذين ربما كانوا يقيمون في تلك الناحية مكثنا ننتظر ولكننا لم نجد فارساً يظهر لنا. وفي النهاية نصبنا خيامنا بالقرب من إحدى البرك الاصطناعية التي تتجمع فيها مياه الأمطار ناحية الجنوب شرق.

إن سهول الحماد خالية من كل نبع، كما تخلو كذلك من آبار المياه. وجدير بالذكر ان العربان يحصلون على حاجتهم من الماء من الغدران الطبيعية أو الوديان التي تتجمع فيها مياه الأمطار وتشكل أحواضاً تكبر أو تصغر. وحيث لا توجد غدران طبيعية يرى المرء حَويات اصطناعية، غالباً ما تبلغ مساحتها آلاف الياردات المربعة ولا يزيد عمقها على عشرة أقدام. والصلصال المستخرج يشكل ضفتين واسعتين تترك فيها فوهات تتدفق منها المياه لتصب في البرك ولا ريب أنَّ من أتى بهذه الأفكار الهندسية الخارقة قد برهن على عقل مبتكر فذ لأنه وفر لقطيعه الماء الثمين في هذه المناطق. وبنصبهم خيامهم قربها يوفرون المراعي المجاورة للمياه الطبيعية للأوقات التي تنفد فيها المياه في الأحواض الاصطناعية. ولقد اقتضى إنشاء هذه الأحواض عمل آلاف الأيدي.

إنّـي لأجنح للاعتقاد بأن هذه البرك ليست من عمل البدو أو مربّـي الجمال، وإنما من عمل المعازة والغنامة. ولربما أعانهم على أمرهم أهالي القرى، جنوب دمشق الذين يسوقون قطعانهم في أواخر الخريف إلى الصّحراء الشرقية للحفاظ على محاصيلهم. وبوسع هؤلاء العثور على المرعى منذ أوائل الأمطار في نوفمبر حتى مايو، شرط أن يتمكنوا من تزويد أنفسهم بالمياه اللازمة لأغنامهم والماعز ولعل هؤلاء هم من استنبط برك الماء الاصطناعية لهذا الغرض. وهؤلاء يعودون إلى قراهم مع بدء الحصاد، في نهاية شهر مايو أو بداية يونيو، حين يكون آخر الماء قد تبخر، فتكون عودتهم إلى قراهم مصادفة لبدء الحصاد ويمكن لقطعانهم الرعي في الحقول بعد الحصاد. ومثل هذه الطريقة يمكن بل ينبغي أن تستخدمها حتى الآن حكومة قوية تعلي من مصلحة القرويين لديها.

وكنا نتوخى اليقظة في الليل، خشية أن نصبح هدفاً لاعتداء المعتدين إذا أسرع الهجّانة المجهولون إلى العربان وحفزوهم على ملاحقتنا. وكان الرأي عندنا أن نصادق من يسكنون الخيام في المنطقة، ولكن حتى الصديق يكون خطراً في الليل إن لم يكن يدرك أن من يصادقه صديق. وقد كان الليل بارداً قارساً والضباب عاماً وفي الصبح تلألأ الصقيع الأبيض على أغطيتنا.

الوحش المجنّح

أخيراً بلغنا سفح الجبل حيث لمحنا الجمال، وهناك وجدنا أولى الآثار الحديثة. وما كدنا نصعد الجبل حتى لحظنا وجود مجموعات كبيرة من الرجال على مطاياهم يتقدمون باتجاهنا. وكانت أقرب المجموعات إلينا تتألف من ستة فرسان أمسكوا عن التقدم حين رأونا ننتظرهم بهدوء. على أن نفيراً أطلق وإذ بجماعة أخرى تتقدم نحونا عبر الوادي كقطيع من الذئاب الجائعة. وهم يضربون خيولهم بنعالهم وبواريدهم فأخذت الخيول تسرع حتى لتكاد تطير. ولكنهم لم يرونا في مخبئنا بالوادي.

وكان السبب في هذه السرعة خشيتهم من أن يسبقهم الفرسان الآخرون إلى الغنيمة فيحرموهم من أفضل ما فيها. وعلى قرابة الخمسين خطوة منا اندفع هؤلاء وأخذوا بارتقاء المنحدر، فشاهدونا لأول مرة، كما شاهدوا الجماعة الأخرى، التي ما تزال على بعد مئة خطوة عن موقعنا. وأخذوا عندئذ يطلقون جيادهم ويندفعون القفزة الأخيرة لينقضُّوا على الفريسة. وراح الشعر على أعراف الجياد وأذنابها وجدائل الفرسان وأكمامهم تخفق وترفرف في الهواء. وبدا الجواد وفارسه عندئذ متوَحّدَيْن في كيان واحد، وحش طائر بجناحين، جذعه أسود وشبه عار، ويده اليمنى تلوح ببارودة واليمنى أشبه بمخلب طائر جائع، بينما بدت أسنانه البيضاء وكأنها تتوق إلى لحم دافئ غني بالدم...

سمعنا صوتاً آمراً من بين الجماعة الأولى، وإذ بفارس شاب يقف أمامي ويمد يده قائلاً: «هذا أخوك مشاش، يا موسى، يرحب بك!» وكان هذا قائد الجماعة الأولى التي بلغتني بسرعة تجري خبباً. وكنت أقف عندئذ متقدماً رفاقي بضع خطوات. ولقد حاول بقية فرسان الجماعة الأولى رد الجماعة الثانية، ولكنهم لم يفلحوا لأن الوغد حسيناوي كان قد دفع بجملين إلى المجموعة الثانية ودعاهم لأخذهما غنيمة. فأناخوا الجملين وأخذوا في انتشال أحمالهما. وببضع قفزات كانت ناقتي بينهم فأخذت بضربهم ببندقيتي وصرخت بهم:

«لسوف تدفعون مئة ضعف لقاء ما أفسدتموه من أشياء».

وعندئذ كان الفارس الذي قابلني بالتحية قد حضر ومعه آخرون لمعونتي وهكذا تم ردّ السارقين. وإعادة كل ما أخذوه.

عرَّفني الفارس الذي قابلني بالتحية بنفسه على أنه مشاش بن علي. وكان هذا أخا حديثة شيخ عشيرة القُرِشة الذي انضم إلينا بُعيد ذلك وعناد بن ماضي شيخ أهل عيسى الذين كانوا ينصبون مضاربهم بالقرب من هذا المكان. وكان حديثة وأخوه مشاش قد التقيا بـي عام 1909 وتحدثا إلي في مضارب الأمير النّوري في وادي السّرحان.

أخبراني أنهما كانا في زيارة النّوري قبل بضعة أيام وحسب، حين كان يقيم مضاربه في منطقة أم وعال، وأنه في انتظاري. وأذكر أن عناد بن معدي تعرَّض لي بالهجوم في ربيع عام 1901 في قُصير عَمرة حيث كنت نزيل هايل أخي الأمير طلال بيد أنه ردَّ إلينا ما سرقه من جمال فقدمت له هدية. وهي مسدس ذو ثماني طلقات مطلي بالنيكل.

ولقد حمدنا الله وشكرناه أن وَجَّهنا إلى أصدقاء. ومضينا، يحيط بنا ثلاثون فارساً، بكل أبهة إلى المخيم حيث كانت كل امرأة وفتاة ترمق بنظرات الفضول هذا الاحتفال الخارق. وفي ساحة المخيم قام الفرسان بأداء مبارزة استعراضية.

دخلت خيمة حديثة حيث قدم لي القهوة والشاي والرّز. وأخذ حديثة يسألني عندئذ عن تطورات الحرب وشكا عبد الرّحمن باشا اليوسف وقيامه بتأجير الحكومة الجمال التي كانت تستخدمها القبائل التي تقيم خيامها على طريق الحج إلى مكة، وكان مأخذه على عبد الرّحمن باشا امتناعه عن تسديد الأجور وإنه كان في الوقت ذاته يطعم جنوده من مؤن البدو وقطعان مواشيهم. جلست أمام الخيمة حتى وقت متأخر من الليل، مستغرقاً في ذكريات الوطن والأحبّة. وكان ذلك ليلة عيد الميلاد!

* * *



الشكل 34: فوهة بركان جبل العمود، في الحماد



الشكل 35: قرب طريق لقطاع الطرق

جمال على النّار!

صباح عيد الميلاد توجهنا في مسيرتنا شرقاً إلى منحدر جبل الزّبيبيّات باتجاه مضارب الأمير النّوري مرافِقين من زيدان بن ثَمَد، الأخ الأكبر للشيخ حديثة، وخادمه حامد. وأمامنا كان بركان أم وعال المترامي الأطراف يلفه الدخان.

وقد انضم إلينا شيخ عشيرة الولد علي، وكان يركب جملاً فتياً، وصقره خلف شداده، وبجانب الجمل كانت تجري كلبة من كلاب الصيد. ولقد تبيَّن الشيخ هيأتـي وحيَّانـي فوراً، قائلاً:

«اسمع الأخبار الطيبة يا موسى. لقد وصل أخوك الأمير نوّاف البارحة من الجوف لزيارة والده، النّوري وهما يتوقعان وصول عودة أبو تايه اليوم، أو غداً. ولسوف يسرُّهما وصولك وسيذبحان الكثير من الجمال السّمينة».

وكان الوعد بوليمة قد غلب على خياله ما جعله يعزم على مرافقتي إلى النّوري الذي كان يقيم مضاربه، كما أخبرنـي، في الخور.

وفيما بعد أخْبَرَنَا أحد الهجّانة أن النّوري قد انتقل إلى الترحال من جديد، وعندئذ عاد شيخ الولد علي إلى قومه. وخَلَصْنَا عندئذ بأن النّوري لن يتوقف في القريب العاجل ولذلك وجّهتُ بأننا سوف نقوم بالتحرك بعد العشاء حتى أفول القمر.

تابعنا مسيرتنا حتى تجاوزنا تلال أم وعال وجبل وعيلة، وكان يصل بينهما سيل من الحمم. وقد صادفنا على المنحدر الشرقي للوادي بعد أم وعال مجموعة من الخيام، ولونها الأسود يتعارض تعارضاً شديداً مع تدرجات ألوان التربة الفاتحة تحتها. ولاحظنا إلى الجنوب شرق، وعند منتصف المنحدر خيمة واسعة منفردة، ولما كان موقعها في اتجاهنا، قررّنا قضاء الليلة بالقرب من تلك الخيمة، وخاصة أننا سوف نحصل في الأرجح على أخبار مؤكدة عن الأمير.

* * *

وفي المساء بدأنا مسيرتنا عبر مجرى الماء إلى الخور. وفي الوادي كنا نجول حول برك المياه وأمضينا معظم الوقت سيراً على الأقدام. وكان زيدان وحسيناوي يبديان تأففهما من الترحال في مثل هذا الطقس البارد فحاول زيدان أن يقنعني بأننا خلّفْنا الخيمة وراءنا منذ وقت. فقلت له بلهجة قاسية بأن بوسعه العودة فوراً إلى مضارب القَرِشة، التي خلّفْناها أيضاً وراءنا. وقفزت عن ظهر ناقتي وجعلتها تبرك وقمت بتقييد قائمتها اليسرى واستلقيت بجانبها فاقتدى الآخرون بي.

بلغت الحرارة عند الفجر 35 درجة فهرنهايت وكانت الجمال والأمتعة والأغطية - كل شيء - مغطاة بطبقة من الجليد السميك. وبعد فترة طويلة بلغنا الخيمة الواسعة التي نسعى إليها، حيث علمنا من أحد الرعاة أن الأمير النّوري قد رحل إلى وجهة معينة شرق خَبرة الهجم.

شرح لي عواد أخبار المنطقة، فقال: «في هذه الناحية، يا موسى، هاجم ابن رشيد جحافل الرّوَلة وقد سمعت الخبر من عمي، رحمه الله. وكانوا يقيمون مضاربهم في الحماد. وكانت الأمطار غزيرة والمراعي خصبة في كل الأنحاء والكمأة والفطر كثيرة وقد درّت النوق من الحليب ما لم تُدرَّ مثله من قبل قط فعاش البدو في رخاء. وعندئذ راود زعيمهم، هزّاع، والد النّوري، حلم غريب. فلما صحا من نومه قال لعمي وكان يقوم على خدمته:

«أي حلم أرسله الله لي، يا أسعد؟ لقد رأيت ما لا يحصى من الجراد يخرج من الصّحراء ويهاجم خيامنا فيزحف إليها ويغطي مهاجعنا ويغزو مؤننا، وفوق كل الجمال شيء غريب يصعب وصفه، وقد حملت الجراد كل هذا الخيام، والفراش، والمؤن، بل وحتى الجمال، ومضت بها. وفجأة لمع برق بين الجمال فهبت القطعان جميعها على قوائمها وراحت تركض خبباً نحو المنطقة المأهولة. فما تفسيرك لهذا الحلم؟».

«طال عمرك، يا هزّاع! هذا حلم خير قطعاً، لكني لا أفهمه فعلينا سؤال آخرين».

«فاستشاروا مفسري الأحلام، إلا أن أحداً منهم لم يستطع تفسيره. وأخيراً، وبعد سبعة أيام منذ أن راوده الحلم، وشبعت القطعان من الرعي ظهرت قوات الأمير ابن رشيد من أعماق الصّحراء تزحف بعضها إثر بعض وانتشرت في المنطقة كلها انتشار الجراد. وأمكن لهم رد المدافعين عن مضارب هزّاع ودخلوا المنازل وأخذوا يحملون الخيام بما حوت وأمسكوا الجمال. وقد تم تطويق قطعان الإبل ومعها رعاتها. وأخيراً تفتق ذهن راعي الإبل البيض الذي كان يتحرَّق لإنقاذها، وهي فخر العشيرة كلها، عن الحل. فقد رأى بعض الجمال ما تزال تحمل شدادها، وكانت قد تركت دون فكها وقاية لظهورها من مناقير الغربان. فأشعل هذا الراعي النار في تلك الشدادات المحشوة بالقش والعشب الجاف. فأدى هذا التصرف بالحيوانات المذعورة إلى التراجع والهرب عن المكان من شدة الخوف. وسرعان ما لحقت بهذه الإبل قطعان أخرى، وما هي إلا برهة حتى كانت القطعان كلها تجري في حال من الفوضى والاضطراب لتخرج من الصّحراء إلى أرض الحضر. أما الغزاة فقد اضطروا للتراجع بعد أن خسروا عدداً من جمالهم. عندئذ أدرك هزّاع مغزى الحلم الذي أرسله الله إليه.

في 26 ديسمبر نزلنا عند خَبرة الهجم ومكثنا ننتظر قدوم النّوري. وكانت المنطقة كلها على اتساعها طولاً وعرضاً تعجُّ بالإبل التي ترعى.

موت أصدقائي

كانت أصوات الطلقات تُسْمَعُ من ناحية الشرق لا يفصل بين الطلقة والأخرى إلا فاصل قصير، بما يعني أن أبناء العائلة المسيطرة هناك تطلق النار على هدف معين. وكانت خيمة النّوري منصوبة في حفرة صغيرة فلم نستطيع أن نتبينها حتى أصبحنا على مسافة قصيرة منها. وما إن أعلنّا حضورنا حتى توقف إطلاق النار واندفع الحاضرون جميعهم خارجين من الخيمة وأخذوا يستعرضوننا بفضول. وفجأة صاح العبد علي: «الشيخ موسى!».

ثم هُرِعَ للقائنا وقاد ناقتي إلى يسار الخيمة. ولم أكن قد ترجلت عن الراحلة بعد، حين وجدت الأمير واقفاً أمامي ثم شدّنـي إلى صدره معانقاً مقَبلاً كما لو أنني أخوه. وخلفه كان يقف الأمير نوّاف ماداً ذراعيه نحوي، ثم تبعه صفّ طويل من الأصدقاء الأوفياء القدامى، فعانقتُهم جميعاً وقبّلتُهم قبل أن ندخل الخيمة. وهناك أجلسني نوّاف بينه وبين أبيه، وراحت التحيات والأسئلة عن صحتي تنهال علي من كلّ جانب. وبين هؤلاء القوم الطيبين شعرت بالأمن والراحة كإخوة لي.

أخذت أستطلع الوجوه باحثاً عن ثلاثة من أصدقائي المخلصين، عنيت عذوب بن مجول وممدوح بن سطّام وسعود ابن الأمير النّوري. فلم أر أحداً منهم، فسألت عنهم فقال الأمير: «راحوا. فقد نهبت شمَّر من عذوب عدة قطعان من الجمال حينما كانوا يوردونها للسقاية في القيصومة فقام باعتراضهم واستردّ البهائم، لكنه أصيب بطلقة نار وسقط. في مكانه صريعاً. فعادت فرسه والسرج خالٍ وملطخ بالدماء».

«وأين قضى ممدوح؟».

«كان قد خرج في إغارة على شمَّر فدار حول الطرفين الغربـي والجنوبـي من النّفود فوجد شمَّراً وولد سليمان عند آبار بيضاء نيثل. فغنم منهم قطيعاً من الإبل، ولكنه فيما كان يهرب بها غرباً انقضّ عليه الأعداء وكانوا يحتلون سفوح الميسمة فقضى ممدوح عند شعيب العاه. وأدركَنا الناجون من الغارة ونحن عند العمود».

«وأين فُقد سعود؟».

«لقد قتل في خديعة. إذ قتله كلاب بن جازي شمالي قراقر. وكان هنالك يرصد قطعان الإبل مع ستة من الهجّانة، حين اقترب عشرة هجانة منهم وبادروهم بالتحية، قائلين إنهم بإمرة صديقنا عودة أبو تايه. ولما كان اللباس الذي يرتديه جماعته من الحويطات مماثلاً لزي حويطات بن جازي والإبل التي ترافقهم كانت تحمل علامة عودة أبو تايه، فقد صدَّق سعود كلامهم ودعاهم للنزول عنده والاستمتاع معه بالنار في موقده.

فنزل هؤلاء وأنزلوا شداد إبلهم وحملوها إلى صخرة قريبة وراحوا يتظاهرون بإشعال النار. وفجأة ودون إنذار ثوروا بنادقهم وأطلقوا النار على سعود ورفاقه، وسرعان ما سقط قتيلاً ومعه أربعة آخرون. ونجا اثنان سواهم كانا في دغلة عالية وأسرعا للنّجدة.

وحاول الحويطات الهرب ولكن سرعان ما أدركهم فرسان الشّعلان. فلما أدركوا ألا مهرب لهم قفزوا عن جمالهم واختبؤوا في الحرش الكثيف وسط وادي السّرحان. فقام المطاردون بتطويق الحرش وأشعلوا عدة نيران ومضوا يرصدون أولئك الرجال طوال الليل. ولما حل الصّباح صار الحويطات يطلبون الرحمة، غير أن الفرسان عمدوا إلى تقييدهم وقادوهم إلى البقعة التي روتها دماء سعود وذبحوهم واحداً تلو الآخر ورؤوسهم موجهة إلى القبلة وذبحوهم ذبح النّعاج، جزاءً لغدرهم».

وكان صوت الأمير على عهدي به، فلم يظهر أقل تأثراً وهو يصف موت صديقه عذوب وابن حميه ممدوح، وابنه سعود.

«وهل كنت لتعترض، يا أخي، على أمر الله؟ إن ثلثينا، نحن الرجال، يغادرون الحياة بالعنف. وليس هناك رجل واحد من الثلث الباقي لا يحمل بدنه جراحاً وندوباً. وهذا قدرنا ينتظرنا، يا موسى فارحمنا يا الله! يا رحيم!».

وحوالي المساء مضيت إلى خيمتي، حيث أرسل لي الأمير عشاء من القمح تجلله قطع من لحم الضأن.

الرّوَلة والجهاد

الأحد، المصادف 27 ديسمبر. كنا نعتزم الرحيل، إلا أن البدو لم يكونوا يميلون لمغادرة خيامهم. فقد كان الضباب الكثيف يحجب الأفق ويغطي خيامنا مما أدى إلى انخفاض درجة الحرارة إلى ما دون 35 درجة فهرنهايت.

وفي الخيام ذاتها كانت النار تتّقد والبدو يجلسون القرفصاء بجانبها يتدفؤون. فقد كان البرد القارس يخترق عظامنا حتى النخاع. ويقال أن ليس هناك من بقعة في كل جزيرة العرب على هذا القدر من البرد كما على الهضبة ما بين جبل عنازة واللاهة.

جاء زعيم تلك الأسرة من عشيرة الفْرِجَة التي ينتمي إليها الراعي عواد لكفالته كرجل يُعْتدّ به وبولائه.

ولم يأت الأمير إلا بعد أن أصبح الجو أدفأ من قبل ليسألني امتطاء ناقتي، فقد أزف وقت الرحيل والانتقال. فمضيتُ في صحبته ثم انضمّ إلينا نوّاف للتوّ ومعه عدد من مرافقيه بالإضافة إلى مختلف الشيوخ والعبيد (الشكلان 31 و 32). ولقد حملتنا الإبل وهُرِعَت بنا في خطى سريعة لنخرج من وسط الزّحام الشديد حتى أصبحنا في مقدمة الركب، وكان البدو يجلسون على رواحلهم ورؤوسهم كلها مغطاة، ومن تحت ذقونهم رفعوا شماخاتهم حتى لا يظهر للناظر من وجوههم سوى العينين.

كانت أجسامهم متَّشحة بأزياء مختلفة والسبب في ذلك أن العديد من هؤلاء يلبسون معاطف قصيرة مصنوعة من جلد الغنم بأكمام طويلة تزيد نصف ياردة على أذرعتهم. وفوق المعاطف والحطّات يرتدون العباءات التي يشدُّونها إلى صدورهم باليد اليسرى. وينتعلون الصندل أو حذاء بدائياً خفيض الكعب، لكن بعضهم كان ينتعل أحذية الخيالة. أخذ الكثيرون يرمقونني بنظرات الشفقة لأنني لم أكن أملك معطفاً من الصوف، بل ولقد بدأ طراد بن سطّام بخلع معطفه لئلا أتجمَّد من البرد، فأخذ الأمير يقهقه، وهو يقول:

«يا طراد ليس موسى، بل أنت من سيعاني من البرد. ألا ترى ما يلبس؟ إن ركبتيك عاريتان أما هو فإنه ينتعل حذاء [جزمة] من الجلد. وصدره على الأغلب مغطى ومحمي أيضاً. فلماذا يشتري موسى معطفاً صوفياً في حين أنه سوف يبلغ عما قريب منطقة يتصبّب فيها عرقاً ليل نهار؟».

ارتدى نوّاف على سبيل التكريم لي جوارب نصف حريرية رقيقة وحذاء مفصلاً بصناعة يدوية ذا كعبين من المطاط وقفازين شفافين، وقدمهما إلي حين لحظ أن كفيَّ عاريان. وكانت هذه القطع المترفة هدايا من مختلف التجار الذين يتعاملون مع التجمعات في واحة الجوف. ومع أنه قد تولى الحكم هناك منذ خمس سنوات فقط، فقد اكتسب في هذه الفترة خصال أهالي واحات الجوف فتدلى من شداده سيف ذو مقبض آسر لمن ينظر إليه، ونصله يحمل نقوشاً هولندية يعود تاريخها إلى عام 1672 أما المقبض ذاته فكان مرصَّعاً بالحجارة الكريمة ونقوش الزينة من عمل خادمه الأصغر.

كان نوّاف شاباً طيب القلب[1]، متقلب المزاج، في عامي 1908 و1909، وإذ به يغدو الآن رجلاً صارماً ذا عزيمة وتصميم (الشكل 33). ويكشف وجهه عن ملامح تنبئ بما عاناه من صعاب ومشاق. ويرى الناظر في عينيه اللتين تنمان عن طرب، ابتسامة فرح، إلا أن ابتسامته كما تبدو لي تنم عن خبث وجشع. وكان يرافقه اثنان من المحاربين يسيران على مسافة عشر خطوات من حارسه الشخصي.

كان نوّاف قد قدم لزيارة أبيه، مصحوباً بعدة مئات من المحاربين على ظهر هجنهم وهم يحملون علماً خاصاً في المقدمة. وقد عُلِّقَ على رمح طويل مزين بريش النعام شريط من نسيج أسود داكن طُرِّز عليه شكل السيف على قطعة من القماش الأبيض وموشاة بعبارة: «لا إله إلا الله محمّد رسول الله». وكان المحاربون بإمرة نوّاف معتادين على أن يقيموا معسكرهم في بيوت شَعر بيض مجمَّعة حول الخيمة المخصصة له. وهؤلاء مرتزقة يقاتلون مقابل أجورهم والعناية بهم، بل ولقد كانت معداتهم ملكاً لنوّاف. وكان آخر تمرد قد قوبل بالعقاب الشديد، حيث رُبِطَ المتمرد إلى عمود خيمة ثقيل، وكان عليه أن يقوم بجرِّه أثناء المسير. أما الانتهاكات الأشد فكان عقابها الموت.

(1) كان نوّاف الشعلان (أبو سلطان) عقيد حرب الرّوَلة، محبوباً للغاية لشجاعته وأريحيّته وتقواه ومعرفته بشؤون البادية، إلا أنّ صحّته كانت معتلّة فتوفي سنة 1921 في بلدة القريتين ودُفن فيها. وقبل وفاة النّوري 1942 قام بتعيين حفيده فوّاز بن نوّاف شيخاً للرّوَلة.

وكان المال والغذاء مما يحتاج إليه نوّاف لتمويل جنده وإطعامهم يؤمنهما ببيع الغنائم التي يغنمها من القبائل العاصية. وقد أتى إلى النّوري بغرض تدعيم علاقاته بالبدو وشن غارات مشتركة على شمَّر والفدعان والعشائر الدرزية. فسُرَّ الشيوخ الشباب والعبيد بنبأ احتمال القيام بهذه الغارات وبدا أنهم يتوقون إلى شن هذه الإغارات كما يتوقون إلى الغنائم المنتظرة. فالبدوي يتوق أشد التوق للسلب ليل ونهار، لا بقصد الإثراء بقدر ما يجد من متعة في الاستيلاء على الأسلاب فكلما كان الخطر عظيماً كان الإغراء أعظم. فحالما تصبح الغنيمة بين يديه يفقد اهتمامه بها وهو يَهَبُ ما كان قد أخذ ويشرع بعدئذ في الإعداد لسلب جديد. ولطالما بدا لي أن البدو ينظرون إلى القتال كرياضة.

* * *

نلنا نصيبنا من الدفء عند موقد كبير أقامه عبيد الأمير. وسألني مرفود، وهو شيخ طاعن، إن كنت سأشارك في الإغارة على الفدعان. فأردت معرفة كيف يفكر ابن الصّحراء البسيط هذا في الجهاد الذي قيل فيه الكثير في أوروبا، فأجبت:

«ألا تعلم يا مرفود أن الخليفة أعلن الجهاد على الكفرة وحرَّم على المؤمنين القتال في ما بينهم؟».

«وما الذي يعرفه الخليفة؟ وما يعنينا من أمر الخليفة؟ الفدعان كفرة عندنا. ولذلك نحن نقاتلهم!».

«ولكن الفدعان ينتمون إلى عنزة مثل الرّوَلة وهم وإياكم أبناء قبيلة واحدة وتعتنقون الدين ذاته».

«أدري أنهم ينتمون إلينا من ناحية الدم والدين، ولكنهم خدعونا، ولذلك فإنهم عندنا أشد سوءاً من الأجانب والمسيحيين جميعاً. ومثلهم سوءاً شمَّر التي ينتمي إليها ابن رَشيد ودروز الحكومة التركيّة. فماذا يعنينا من الحرب المقدَّسة التي يتحدث عنها الخليفة؟».

ومع أن الأمير النّوري ونوّافاً قد أعلنا تأييدهما للخليفة في اسطنبول، فقد صرَّح مرفود:

«لك أن تطيع من تشاء. أما نحن فنجعل شرعة الصّحراء الموجِّه لنا أليس كذلك، يا إخوان؟».

وسمعت عندئذ صدى عباراته يتردد من كل جانب: «صدقت، صدقت».

وكان مرفود يحمل في هذا الرأي العام، بينما كان الأمير ونوّاف يعتمدان سياسة لا يتعاطفان وإياها. فالدين والقومية والوحدة مفاهيم غير مفهومة للبدوي العادي. فديانته تتعارض تماماً كل التعارض مع دين المسيحيين. كما أنه بحكم هويته يختلف عن جواره جميعاً، وإن كانوا ينطقون بالعربية مثله، ثم تنقطع وحدته عند قراباته. بل حتى لو افترضت قيام مختلف القبائل بعقد حلف في ما بينها لتعزيز أسباب الدفاع فإنك لن تجد بدوياً يقيم حلفاً دائماً مع حضري. وآية ذلك أنه ليس ثمة وحدة تجمع بين القبائل الحرة في أعماق الصّحراء والحضر في المناطق الريفية.

ولقد فاجأنـي أن أجد الكثيرين من الرّوَلة يتشددون كثيراً بالالتزام بالدين، ففي 1908 و 1909 لم أرَ رويلياً يصلّي، إلا أن الأمر اختلف في عام 1914. وأعتقد أن هذا التحوّل كان بتأثير نشاط نوّاف، لأنه بات ملزماً منذ استيلائه على الجوف والقرى الأخرى للصّلاة مع الحضر المتزمّتين. ذلك أن جنوده، وهم يتحدّرون من الفرات الأوسط والقَصيم، يدأبون على أداء الصلاة وكثيرون منهم قادرون على تلاوة جزء من القرآن، ويقومون بتعليم الآخرين أركان الدين والعمل بها. وكان الجنود الذين ينتمون إلى القَصيم، مثل حضر الجوف، مشبعين بأفكار الوهابيين ولذلك لم يكن لنوّاف من محيص سوى مشاركتهم طقوسهم والتمسّك بالتعاليم الوهابية، ولو في الظاهر على الأقل. لذلك كان المطوعون يأمرون جنده بأعلى صوت بتأدية الصلاة وقراءة الآيات من القرآن وكان يشاركهم الصلاة جماعة. ويقال أن الصلوات كانت تُؤدَّى بالقرب من خيمة النّوري أيضاً، إنما دائماً في العشاء.

ولم تكن صلاة الفجر تقام لأن البدوي اعتاد النوم في الفجر إلا أنهم يُؤدُّون صلاة العصر أحياناً. وهناك كثيرون من البدو يقتدون بكبارهم في العشيرة فيصلون وإياهم. والبدوي يقلّد في الصلاة كل حركة يأتون بها، لكنه لا يحيط بكل تفاصيلها. وهذا ما بلغني بسؤال الكثيرين تكرار أداء الصلاة إنما دون جدوى.

وكان أشدَّ ما أثار استغرابي من الرَّوَلة كراهيتُهم المتزايدة للفرنج عامة، والانكليز خاصة. ومنشأ هذه الكراهية حروب الحكومة التركيّة مع إيطاليا وولايات البلقان. وليس الأمر أن البدو يعنيهم بأي حال خسارة الحكومة مناطق كبيرة في البلقان وطرابلس [الغرب] بل على العكس من ذلك إذ كانوا ينفرون أشد النفور من كونها تطلب من العقيلية الجمال التي اشتروها من البدو، لأغراض حربية. وغني عن القول أن هؤلاء لم يعودوا يميلون الآن لشراء الجمال، نظراً لأنه ما عاد لهم أن يأملوا بنيل الأرباح من الحكومة التركيّة ما يمكن أن ينالوه من السوق في مصر وكان من نتيجة ذلك أن عانى البدو من الكساد، نظراً للكساد الذي أصاب سوق الإبل. ثم زاد من تفاقم الأمر أنه بدءاً من نهاية شهر يونيو حين دخلوا المناطق الزراعية، حيث تكون شوكة الحكومة الأقوى، صار الجنود يجرِّدونهم مما لديهم بمصادرة الخيول والإبل لصالح السلطان في اسطنبول.

أخذت أحوال البدو تسوء، منذ عام 1910، لكن الغريب في الأمر مع ذلك أنهم لم يلقوا اللوم على الحكومة بقدر ما كان لومهم على الفرنج والإنكليز. فلو لم يقم الفرنج، في رأيهم، باستفزاز الحكومة لتركتْ هذه البدوَ وشأنَهم، وكان حريّاً بالإنكليز أن يردعوا الفرنج حين قاموا بالهجوم على الحكومة. ذلك أن الإنكليز قد تعهدوا كما قالوا بحماية السلطان في اسطنبول من المسكوف وهم لذا ملزمون بحمايته من الفرنج الآخرين. فلمّا كانوا قد قصروا عن الوفاء بالوعد فقد اعتبرهم البدو مدانين بالخيانة ومسؤولين عما نزل بهم من مصائب. ذلك أن البدو علموا أن المراعي القليلة التي يملكها السلطان في ناحية اسطنبول، إن ضمرت لابدَّ أن يجهد لمصادرة تلك التي يملكونها، وإذا قُدّر له أن تنزل به الهزيمة في الحرب العظمى، عام 1914، فسوف يزداد عسفاً بهم.

زد على ذلك أن الشائع هو أن الإنكليز، لما كانت مراعيهم لا تكفي حتى حاجاتهم، باتوا عازمين على الاستيلاء على المناطق التابعة لعرب المنتفق وآل الصّباح، وغرضهم توجيه الجنود إلى الكويت والبصرة. ولهذه الأسباب كان البدو مهددين من قبلهم أيضاً... وهكذا كان قول الرّوَلة الذين كانوا صحبتي في الرحلة ومع ذلك فقد التزم الأمير ونوّاف السكينة.

كنا نقطع منطقة مملّة متموجة الأرض تغطيها حجارة بركانيّة سوداء ناعمة. ولم تكن النباتات المختلفة النمو إلا في الشرائط الطويلة الضيقة من الأرض المنخفضة الرطبة. فنصبنا خيامنا في أقنية مياه الأرقات. وبالقرب من هذه المنطقة قبر بطين، شيخ القُمُصَة. وكانت شهرة هذا بالكرم وشغفه بالقهوة قد طبقت الآفاق. وكان عبيده قد دفنوا معه في ضريحه عمود خيمته العالية وكأنها يريدون تخليد تلك الخيمة التي كم من مسافر وجد فيها المأكل والأمان. كما جرت العادة على أن يرمي أي مسافر من القمصة بضع قطرات من القهوة حين يمرُّ بقبره لما عُرِفَ عنه شدة شغفه بها. ولكن الرّوَلة يستخِفون هذه العادة، على أن القمصة الذين ينزلون بتدمر معظم الوقت، حيث تحاط القبور بالإجلال، يدأبون على تقليد أهالي المنطقة في هذه الناحية.

واحد في وجه الكثرة

قال النّوري: «من هذا المكان انطلقنا، يا موسى، في إغارتنا الأخيرة على تركي شيخ الفدعان. ويُعدّ تركي من الأبطال وشهرته عمَّت الصّحراء كلها. سوى أنه ما انفكَّ يستفزّ الرّوَلة ولا ينقطع عن التحرُّش بنا. ويُعَرف تركي عموماً باسم الحضّاب، أي الحاضر أبداً، وقد اكتسب هذا اللقب لأنه لا يكاد يمر نصف الشهر دون أن يبلغنا نبأ عن إغارة جديدة شنها على تجمّع من الرّوَلة. وكم من محارب كان يخشاه، والنساء يُخِفْنَ أطفالهن بذكر اسمه، والرعاة يترددون في حمل القطعان على مغادرة تجمعات العشيرة.

«وفي النهاية ازدادت وطأته على الرّوَلة حتى ما عادوا يطيقون عليه صبراً. فاتفق سطّام رحمه الله والشيوخ الآخرون على القيام بغارة عليه. مع أنه كان من الناحية الشخصية يحب تركي ولا يريد قتله، لأنه فضلاً عن كونه شقيق زوجته المفضلة كان أيضاً ذا عقل رفيع وصادق. بيد أن الرّوَلة هدّدوا بالإطاحة بسطّام إن لم يقض على تركي قضاء مبرماً ويريحهم منه إلى الأبد. فلم يرَ بداً من الانصياع. فخرج سطّام لخوض معركة حاسمة ومعه ستمئة فارس وثمانمئة من الهجّانة، وهو القائد. وكان نائبه في هذه الحملة خَلَف الأذن. فخرجنا وأمضينا وقتاً طويلاً ونحن لا ندري أين نجد تركي. ولكننا علمنا من جماعة صغيرة من الصّلُبَة أنه يقيم في الحرَّة. فاستخدم سطّام صليبياً وأرسله سراً إلى تركي تحت جنح الظلام يحمل إليه هذه الرسالة:

«يا تركي، قد أرسلني إليك أخوك سطّام. وقصْدُنا أن نشن عليك غارة ونحن لا ندري أن خيامك تقع على طريقنا. ولكن هذا ما حدث، ولا أملك أن أحول دون أهلي والهجوم عليك. فَتَدَبَّرْ الأمر بعقلك! فإن كنت ترى أن بوسعك أن تنزل بنا هزيمة، فانظر وتمعن! فنحن ههنا، على آنـي أرى أن الأجدر بك أن تهرب الليلة وتبعد عنا مسافة. فإن فعلت جئنا إلى حيث تقيم خيامك وتبيَّنا أنك قد رحلت، فنتوقف هنيهة ثم نعود إلى أهلنا».

«فأثارت هذه الرسالة تركي حتى أنه جرَّد سيفه مهدداً وأمر الصلبي بالانصراف، بهذه العبارات:

«انصرف فوراً، ولا تتوان! ولا تَنْسَ كلمة مما قلت لي. فإن ذكرت كلمة واحدة منها أمام قومي قتلتك. فهل ينتظرون مني أن أفرَّ من الرّوَلة، الآن، وهم الذين لطالما فرُّوا أمامي؟».

* * *

وفي اليوم التالي ترك تركي الديرة وحمل معه خيمته بعيداً إلى جنوب غرب الخيام حيث كثيراً ما كان رفيقه يطرقون تلك الناحية.

«ولقد أخبرنا من يتقصَّوْن الأثر أن العدو ينصب خيامه هناك والقهوة تُدقّ في خيمة تركي.

«وفي تلك اللحظة هُرِعَ كل فارس إلى فرسه وانتضى سلاحه وذخيرته، وأخذ ينتظر صدور الأمر. وقد حدد القادة الأماكن التي يمكن فيها للمحاربين إراحة النوق المنهكة أو الحبلى والانتظار، ووضعوا الهجّانة بينهم وبين معسكر تركي، ثم قاموا بتوزيع مجموعات الفرسان إلى نصفين وضعوا إحداهما عند جناح الهجّانة ليكونوا قوات الاحتياط وليكون النصف الآخر الأداة في الهجوم. وباشرنا بالهجوم فوراً فشاهدنا الرعاة عن بعد وأرسلوا النذير وفي لحظة كان الفرسان على صهوات جيادهم.

«وكانت عشيرة العواجي [زعيم عشيرة ولد سليمان] تقيم خيامها إلى جانب تركي وبالتالي كان أمامنا عدة مئات من الفرسان. ولقد ظلت رحى القتال تدور، فارساً لفارس، حتى غروب الشمس. واستهلك تركي في هذه المعمعة ستة خيول، والعبيد يبدلونها حسب أوامره. وجُرحتُ أنا وكثيرون من الرّوَلة ولكن القتال ظل مع ذلك يدور. لكن سطّاماً كان ينفر من استدعاء الاحتياط، فكان يريد منهم إما حسم المعركة والانتصار وإما تغطية الانسحاب.

«وفي النهاية أُصيبت فرس تركي، وفي سقوطها ضغطت على ساقه، وأوقعته على الأرض، ولم يكن بوسعه أن يتحرك بيسر، فالدرع الذي يرتديه يعيق حركته، كما أنه كان قد أُصيب بطعنتين من رمح.

وفي تلك اللحظة هبَّ غرّاف عبد سطّام لإنقاذ الزعيم الذي يعاني ويكابد، وانتزعه من تحت جواده، وجاء بالنساء ليحملنه إلى داخل الخيمة. وللتوّ احتل الخيمة أربعة من عبيد سطّام لحراسته والذَّود عنه أمام الرّوَلة الذين أشعلت المعركة حميتهم. ولما صاح المعتدون معلنين بابتهاج سقوط تركي أخذت الفدعان بالانسحاب، لولا أن اعترضهم الفرسان الاحتياط وأسرع الهجّانة إلى الخيام لأخذ أصدقائهم الموتى والجرحى.

وبلغ الخيمة خَلَف الأذن الذي يتولى قيادة هجوم الهجّانة وكان سطّام يعتني في ذلك الحين بتركي ذاته وأوشك خَلَف أن يوجّه إليه ضربة الرحمة، ولكن سطّام حال دون ذلك وهدّده بالقتل فوراً إن وضع إصبعاً على صديقه. ثم نادى خَلَف رجاله من الهجّانة للتعامل مع الأعداء بأنفسهم. وكانت استجابة الرّوَلة - الذين بلغ عددهم حوالي خمسمئة - تطويق خيمة تركي، بينما خاطب خَلَف الأمير، كما يلي:

«العرب يا سطّام لا تقاتل هكذا، انظر إننا لن نسألك مرة أخرى. وقسماً بالله إن لم تُخْلِ الطريق فإنك سوف تتدحرج إلى قبرك. ألا ترى فوهات بنادقنا موجهة نحوك؟

«وإذ نالت هذه الكلمات من سطّام التفت إلى تركي بهذه العبارات:

«سامحك الله، يا أخي، وسامحني فأنت ترى كيف تطيعني عشيرتي الرّوَلة. ويا خَلَف، يا وغد، بِعني مَن تبغي ذبحه. ولك مني ثمنه ذهباً!».

«إليك عني يا أخي! أما علمت أن النّوري قد سقط اليوم وسقط كردي وناصر بن معجِل وعدد لا يحصى سواهم؟».

«وأشار سطّام لعبيده برأسه ثم انسحب من خيمة تركي وقد نال منه الحزن كل منال لسماع نبأ مصرع أخيه كردي ومصرعي، أنا النّوري، ولقد مات كردي ولكني ما زلت حياً ثم تعافيت تماماً. وبعد أن غادر سطّام اندفع الرّوَلة الثائرون نحو تركي وعملوا فيه ضرباً حتى الموت. واستولوا على كل ما في المخيم من قطعان ماشية وخيام. وكانت حصيلة تلك الواقعة سقوط ما يزيد على ثلاثين من الرّوَلة وكان مقتل البطل زعيتِل الذي استدعى أشد الحزن والندب. كذلك فقدنا خمساً وعشرين فرساً».

«أنشد يا منديل القصيدة التي تصور هذا النصر!».

فشرع منديل ينشد القصيدة:



الشكل 36: شمال الجوف



الشكل 37: جنوب الجوف

يا راكب اللّي مشيها روج وارواج | حايل ثمان سنين مخلّ ظهرها
مع البياحة مشيها العصر دفلاج | وهميمه ما عمر المعنّى زارها
تفلي على محدا الهبادين معاج | واحكي للعلوم اللّي بقلبه خبرها
قلت اخوات قطنه حاربونا بلا صواج | واقفوا بشقح عن مشاتي دِيَرها
والعلم صادق وصار للناس نجناج | ومِلْ له خليله عاف رَصَّتْ ثمرها
وسطّام عَيّوا به مُحلين الاسراج | وكتّوا عليكم بجموعٍ حدرها
يا حزيل والله قايم بِقِل صيّاج | و تقوّدوا سرد السّلايل بثارها
وحين الضحى سَوّوا على الشّيخ سهاج | بسحابةٍ قِشط الجواهر مطرها
و تركي شلّوه مُحلين الاسراج | من كفّ قرمٍ شقلبِه من ظهرها
و هاذا الفخر ما هي بعارين بهباج | اللّي عزل عيلاتكم عن خدرها
يا حيف يا اللّي ربعتِه مثل هدّاج | بسيوفنا وحلو منشر حمرها
أبكارنا يا حزيل من رعية القَفر صيّاج | و ابكاركم يا حزيل ترعى وبرها
اقطاعكم عن رُوثة الخور تنعاج | و ابكارنا تحطّها بنخرها

* * *

12- من مضارب النّوري إلى الجنوب

الرّوَلة والحكومة التركيّة

أمضينا يوم الإثنين، 28 ديسمبر في مضارب الأمير. وقبل الظهر جاء النّوري ونوّاف ليناقشا الوضع السياسي وميول البدو. ولقد نصحني النّوري ألا آخذ على محمل الجدّ الدعاية أو الرسالة التي بعثها إلى الحكومة.

قال: «أنت تعلم يا أخي ما في قلبي، وبأنّـي لا أثق بالحكومة ولا هي تثق بي. ولولاك لكنت جالساً الآن في الغوطة [بدمشق] سجيناً مكرّماً لدى الحكومة. وهي تتظاهر بحاجتها لي في الحرب على الإنكليز. ولكني أقول: أي جدوى لي أنا وحدي لكم؟ أرسلوني إلى الصّحراء آتيكم بآلاف المحاربين ونذبح الإنكليز.

«إلا أنهم [التُّرك] ما انقطعوا يماطلون ويسوّفون في موعد رحيلي من يوم إلى آخر. وأخيراً أرسلك الله لي. ولقد كفلتني على ألا أتعرّض للحكومة، وعليه أطلقتْ سراحي. فالحكومة تثق بكلامك في حين أنها لا تثق بكلامي. والحكومة تخشى أن أنهض لحربها. والحق إنّـي أود محاربتها، إلا أنني لا أستطيع ذلك. فلقد حرَّضوا عليَّ الشيخين حاجم [حاچم] بن مُهيد وابن رَشيد. وحاجم يهاجمنا من الشمال، وابن رَشيد من الجنوب فساعدْنـي على مصالحة الإثنين.

«فلماذا نقوم، نحن أبناء البلاد العربية، بذبح بعضنا بعضاً خدمة لمصالح حكومة أجنبية؟ إنهم يحرّضوننا، أحدنا على الآخر، ونحن نعمل كما يشتهون. إننا قوم ينقصنا التعقل. ولو قام بيننا حلف سلام لكانت الحكومة ترتعد أمامنا وتمجدهم، مع ذلك، يسخرون منا الآن.

«إنهم يريدون مني، أنا النّوري، مساعدتهم وهم الحكومة اللعينة ذاتها التي سعت إلى شنقي قبل أربعة أعوام! أنا، النّوري، الذي رموا به سنتين في سجنهم ليضعف! أنا، النّوري، الذي وحدك أنقذته من المشنقة، وانتشلته، أنت يا موسى، من غياهب السجن! والآن لقد تعلمت في ذلك القفص إخفاء حتى تلك الأمور التي تنال من قلبي.

«إن الحكومة قادرة على الإضرار بـي وبأملاكي. والعقيلية يأتوننا بالأسلحة والذخائر من الكويت وعسير، لكنهم لا يقدرون على تزويدنا باللباس والقمح من هناك. فتلك مناطق قصيَّة. ونحن نعتمد على الحضر من سوريا والعراق في تأمين هذه المواد، وهؤلاء ما يزالون في قبضة الحكومة. ولا يقدرون على بيعنا إلا بموافقة الحكومة، ولا نستطيع أن ننال منهم شيئاً بالقوة. ومحاربونا عاجزون في البساتين والمبانـي الحجرية وهم هدف يسهل على بنادق جنود الحكومة استهدافه. والحضر يمقتون الحكومة قدر ما نكرهها نحن أيضاً، ولكنهم متَّحدون معها ضدنا.

«وماذا بمقدورنا أن نفعل سوى أن ننتظر ونحن صابرون ونُعِدُّ أنفسنا للقتال؟ لقد تعهدتُ للحكومة بتنفيذ كل ما طَلَبتْه مني، ولسوف أظل أعد بالقول والكتابة. ثم إنني أدفع الضرائب في مواقيتها، وهي تزيد على أربعة آلاف ليرة تركيّة [18000 دولار أمريكي] في السنة كما إنني أُسهم في المجهود الحربـي وأقدم للحكومة الجمال والخيول، وأطمعها بالذهب - لعنها الله. لعن الله كل من ابتلع ذهبي! لقد أكل علي سامي باشا الكثير من ذهبي، فلما لمته على ذلك، حكم علي بالإعدام. ولم أعد إلى الملامة منذ ذلك الحين. إن الوالي الجديد لم يطلب مني ذهباً. ولكنه يسألني الحفاظ على الولاء في الحرب ويعدنـي بالمساعدة بعدها ضد ابن رشيد. ولا أدري كان إن صادقاً في قوله أم كاذباً».

قاطعه نوّاف قائلاً: «بل إنه يكذب، يا أبـي. فكيف يكون صادقاً وهو يعلم أن أنور باشا يعتبر ابن رشيد أخلص حليف، ويزوِّده بالسّلاح والذخيرة وبمئتين وثلاثين ليرة تركيّة كل شهر [1035 دولاراً؟].

«وفي بداية العام أرسل له بالخط الحديدي إلى هجر، خمسة عشر ألف بندقية ماوزر وأربعمئة ألف خرطوشة، ومدافع ميدانية، والكثير من الذهب تكاد عشر جِمال لا تقدر على حمله. وقد قام الوزير زامل بن سبهان بنقل الأسلحة إلى حائل وتولى توزيعها على شمَّر، بل وحتى الصَّلُبَة. وما الذي حمل أنور على تزويد ابن رشيد بهذه الأسلحة؟ السبب هو تمكينه من دحر ابن سعود بيسر، ابن سعود الذي قام بدحر الجنود الأتراك وطردهم من الأحساء.

«وأنور ذاته كان قد عين ابن سعود حاكماً وقائداً لنجد كلها وأكد مباركة السلطان له وإسباغ نعمته عليه ومع ذلك فإنه أعطى ابن رشيد السّلاح ليقاتله. وهذه الأسلحة التي أرسلها أنور تقصف ديار ابن سعود في القَصيم، والجنود مسلَّحون ببنادق الموزَر التي تعمل قتلاً في الجماعات التي تتبع الوالد وتتبعني. فمن الذي سوف يثق إذن بأنور باشا؟

«أخبرني، يا أخي موسى، هل تفهم أنت ما تقوم به حكومتنا؟ وهذه الحكومة ذاتها تريد منا المؤازرة ضد الإنكليز! لقد أمروا والدي بالمؤازرة ووجهوا لي أوامرهم كتابة بهذا أيضاً. فلماذا لا يكتبون كتاباً بهذا المعنى إلى صديقهم ابن رشيد كذلك؟ عارٌ على هكذا حكومة! إن من يثق بأنهم سيدعموننا بعد الحرب طفل ساذج».

«وماذا تقترح يا نوّاف يا ولدي؟ هل أنت قوي كفاية للقضاء على ابن رشيد؟».

«أجل، يا أبت. إذا تحالفت مع مقاتليك فسوف يكون لدينا عندئذٍ، على الأقل، خمسة آلاف بندقية».

«وما قيمة هذه مقابل خمس عشرة ، أو لنقل عشرة آلاف أو خمسة آلاف بندقية عند ابن رشيد الذي يمتلك الكثير من الذخيرة الجيدة، بينما علينا أن نقتصد في الذخيرة السيئة؟ إنك قد تتغلب على وزيره ابن سبهان، وقد تحصل منه على غنيمة كبيرة. لكنك لن تقدر على إخراجه من مناطقه.

«إنّه سوف يتمكن من تعبئة قواه والهجوم عليك من جديد. ليس لنا أن نسير ضد ابن رشيد. بل علينا أن نطيع الحكومة وننتظر».

سأل نوّاف: «وإلى متى؟».

«حتى تنتهي الحرب العظمى بين الحكومة والإنكليز. والحكومة تريد في هذا الوقت أن يسود السّلام بيننا. ونحن الرّوَلة بحاجة للسلام أيضاً. لقد أمضيت سنتين في السجن وطوال السنتين كانت الرّوَلة في حرب مع الحكومة. أما إذا دعمنا أنفسنا في الداخل فإننا نغدو أقوياء بنفس القدر تجاه الخارج. فلماذا نتمرَّد ونرفض السلم؟ إن هدف الحكومة مختلف، لكننا قد نستخدم كلانا الوسائل ذاتها».

«أية مصلحة لنا في حكومة لا تنقطع عن التغيير؟ إننا لم نتلقَّ شيئاً منها، ولن نتلقى».

قلت: «أعتقد أن والدك على حق، يا نوّاف. فأنت لا تعلم ما ينتظرك، ولذلك ينبغي عليك ألا تأتي بما يضعف موقفك. حاولا أن تدعما أنفسكما في الداخل، ولسوف يخشاكما عندئذ ابن رشيد، والحكومة كذلك. ومقدار علمي أن قبيلتي الفدعان والعِبِدَة على استعداد لمصالحتكما إن طلبتما ذلك».

قال النّوري ونوّاف باستغراب: «ماذا! هل تقصد أن نطلب السّلم من ابن هْديب وابن مهيد؟».

«الرأي عندي أن تطلبا كلاكما الصلح من ابن رشيد أيضاً».

«هل تظن، يا موسى أن ابن شعلان يقبل في يوم من الأيام أن يكاتب ابن عبد؟».

«يا أخي النّوري إنك لن تكاتب ابن عبد، أي الوزير ابن سبهان، وإنما الأمير ابن رَشيد».

قال نوّاف بلهجة الاستنكار: «ولكن الفدعان وابن رَشيد سوف يتشدقون ويتفاخرون بأننا نخاف منهم، ومع ذلك فأنت ترى أننا نُعِدُّ لغارة».

«يا نوّاف، من الذي نصحك بأن تستولي على الجوف. ومن أقنع والدك بالموافقة على ذلك؟ ومن الذي أعانك بالنصيحة والفعل؟ أنت تدري من كان هذا. وأنا إذ أشير عليك الآن بعرض المصالحة مع ابن رشيد[1] وأحثُّ أباك على عرض السّلم أيضاً، مستعد لمساعدتكما بالفعل أيضاً. لقد خضتما الحرب على مدى خمس سنوات. وعانى الحضر والبدو من محاربيكما طوال هذه السنوات الخمس. وأنا أعرفهم حق المعرفة. وأثق بأنهم سوف يرحّبون بالسلم الذي يتوقون إليه. فامنحهم إياه بصرف النظر عن هزء الهازئين. وأنتم أفضل من يعلم قدر قوتكم. اعرض السلم. وبذلك تبرهن لأهالي الجوف طيب نواياكم، ولسوف يعززون عندئذ لحمتهم وإياكم.

وأنت، يا أخي النّوري، لا تقصر عرض السّلم على ابن رشيد، وإنما اعرض السّلم على شيخي الفدعان والعْبِدَة أيضاً. وشيخ العْبِدَة بَرجَس بن هْديب صديق لي. وأعلم أنه يكنُّ لك الاحترام، وأنه سوف يُقْنِع حاجم شيخ الفدعان بالجنوح إلى السّلم. وبرهنْ لقبيلتك الرّوَلة وللفدعان على أن لديك العقلَ الأرجحَ والمقدرةَ على رؤية المستقبل بوضوح أكثر من الآخرين. ولسوف تنال منهم من التقدير أكثر مما لديك الآن. فلماذا توهن عزيمتك؟ إنك وحدك من يدافع في المعركة عن المتعبين والجرحى فقدمْ لهم الحماية الآن أيضاً. اقهرْ كبرياءك لحظة ولسوف تتغلب على حاجم وابن رَشيد. ولم لا تكون النّوري المنتصر في السياسة أيضاً؟».

«والله، يا موسى، يبدو لي أنك على حق. ولسوف أبعث بكتابين إلى حاجم وابن رَشيد كليهما، وأنت سوف تحمل هاتين الرسالتين معك».

---

(1) كانت الرّحلات الأولى لموزيل في أواخر القرن التاسع عشر ومطلع العشرين تندرج تحت إطار الدّراسات الاستشراقيّة، كما نرى في القسم الأول من هذا الكتاب بين 1908-1909. أمّا رحلته الأخيرة في 1914 حتى مطلع 1915 فكانت ذات صبغة سياسيّة استخباراتيّة، وذلك لأنّ أوروبا شهدت قبيل الحرب العالمية الأولى تنافساً كبيراً على النّفوذ السّياسي والاقتصادي في المشرق، فأوفدت إنكلترا وفرنسا وألمانيا لرحّالين غايتهم كسب ودّ عشائر بدو الشمال إلى جانبهم. فلمّا دري موزيل في 2 أكتوبر 1914 من النّوري وعودة أبو تايه بوعد الإنكليز لهما بالذّهب، أوفدته بلاده لمحاولة إبقائهما في صفّ التّرك والألمان، لكنه فشل فيما نجح لورنس بعده.

«إنك أنت من سيأمر بكتابتها ولسوف ترسلها أنت أيضاً. فلترسلْ أحد عبيدك برسالة إلى حاجم وآخر إلى ابن رَشيد».

«ولكن سوف يعلم الجميع أنـي أطلب السلم».

«ولماذا تخفي الطلب؟ فقد تضيع الرسالة، أو ربما ينكرها حاجم وابن رَشيد أيضاً ولكن عبدك لن يضيع».

«وماذا لو أن حاجم أو ابن رَشيد رفض عرضي؟ تكون تلك إهانة لي».

أجبت: «لن يرفض حاجم قبول السّلم. ولسوف يتولى هذا الأمر صديقي بَرجَس بن هُديب. وأتدبر أنا ألا يرفض ابن رَشيد العرض. وسوف يرافقني عبدك. وهو الذي سيسلّم رسالتك ورسالة نوّاف في حضوري، ثم أتولى الأمر بعدئذٍ. ولن يعود العبد إلا ويكون السّلم قد حلّ، مؤكّداً بكتاب خاص من ابن رشيد ممهوراً بتوقيعي أيضاً. ولسوف يدوّن الكتاب ويرسل إليك ويتولى تسليمه إليك عبد خاص بهذه المهمة».

«قد قبلت».

«وأنت، يا نوّاف؟».

«سأفعل كما يفعل والدي».

«أهذا وعد؟».

«سأفعل، إنما بقلب ينزف دماً. فكم من الغنائم ستضيع منا! فمن يعوّضنا عما يضيع؟».

«الله، وعما قريب، كما أعتقد».

ثم انتقلنا للحديث عن تحقيق المصالحة مع فارس وابن جَندَل».

* * *

عُودة أبو تايه والحرب

سألني نوّاف إن كان الإنكليز حقاً لا يقاتلون إلا في وسط البحر حيث لا يمكن لهجَّان أو خيّال أن يدركهم. وكان النّوري ونوّاف يظنّان كلاهما أن الإنكليز قد استولوا على مصر في وقت قريب في أغسطس أو سبتمبر 1914 وأن مصر كانت حتى ذلك الحين من ممتلكات الحكومة التركيّة والسلطان.

وكان الرّوَلة يسألونني أحياناً كثيرة إن كان الإنكليز حقاً قد طردوا العرب والمسلمين من مصر، واستوطنوا الأرض مع الأجانب والمسيحيين. وكنت أتساءل عمن كان يستخدم هذه الوسيلة لإثارة العرب على الأجانب والمسيحيين. وقد أعلن نوّاف والنّوري أنهما لن يزحفا على مصر مهما يكن السبب. فتلك بلاد أبعد من اللازم، وعلى المرء أن يقطع لعبورها بحاراً بها أسماك تلتهم البدو والجمال أيضاً. وما كانا ليصدقا أنه يمكن بلوغ مصر عن طريق وادي السّرحان في عشر ليال، وأنه ليس ثمة داع للخوض في «البحر»، ولا كانا ليخامرهما الظن بأنه من الممكن عبور «البحر» (أي قنال السويس) فوق جسر، كما يكون عبور الفرات. ولقد سأل النّوري الله أن يجنّبه ما يحمله على السير خارج جزيرة العرب.

«مهما تُقدِّم لي الحكومة من وعود فإنني لن أتجاوز البحر الميت. فالموت ينتظر كل من يتجاوز تلك الحدود وكل ما هناك ميت، فلماذا أذهب؟ وليس لدي أقارب هناك. فعرب عَنِزَة ينصبون خيامهم من حلب حتى عُمان وأنا هنا في داري. وفي هذه المنطقة أستطيع أن أسير مئة يوم من الشمال حتى الجنوب، إنما إذا بعدت عشرة أيام غرب ميقوع فلن أجد قريباً. لذلك لن أذهب إلى هناك. ولماذا أذهب؟ ألألقى حتفي؟».

ضحك عودة لمقالة النّوري، إلا أن نوّافاً وافقه على ما قال: «إنك يا عودة تطمئن، في وديان البحر الميت والبحر الأحمر كما لو أنك في بيتك، فأهلك هناك. ولسوف يكونون عوناً لك، ولكن نحن من يعيننا هناك؟».

«لكم الله».

«تقول الله؟ إن الله لا يريد لنا أن نشنّ الغارات ناحية الغرب. ولو كان يريد لنا ذلك لجعل بعض أقربائنا يستقرون هناك. ولكنه أبقى كل عُنِزَة في جزيرة العرب».

سألت النّوري: «ما هو برأيك أفضل هدف تسير إليه؟».

«الدّروز، يا موسى. فهؤلاء ألدّ أعدائنا. فقد أصالح البدو جميعاً، بل والحضر والمسيحيين، ولكني لن أصالح الدّروز على الإطلاق، ولا سكان منطقة اللّجاة، في حوران، أهالي الجبل. فهؤلاء مثل الضباع الخبيثة يزحفون في الليل إلى مضاربنا ويسرقون جيادنا وجمالنا ويأخذون ماعزنا وأغنامنا وهي في حمانا فيسوقونها إلى حصونهم البركانيّة حيث لا نستطيع أن نبلغ تلك المناطق القصية سواء بالخيل أو بالجمال. ثم يبيعون ما يسرقونه بثمن رخيص للدّروز عند جبل الشيخ [الحرمون] وللشركس والموظفين الأتراك. فعندما أقمنا مضاربنا غرب حوران في يوليو وأغسطس كنا كثيراً ما نصادف الخيول والجمال التي سُرقت منا وإننا نستطيع الاثبات بشهادة شهود ثقة بأن تلك الحيوانات من أملاكنا وسرقت منا ولكن الحكومة لا تقرُّ أبداً بحقنا فيها، وتصرّ على أن نمسك بالسارقين ونأتي بهم. هيا ابحثوا عن الذي سرقكم في ظلام الليل! هيا ابحثوا عنه بين شقوق البراكين التي لا يغامر حتى العسكر المشاة بالتوغل فيها! ونثور نحن بينما الشركس والدّروز والأتراك يضحكون ساخرين.

فإن هجرنا الحذر وعاقبنا الدّروز والشركس بالسّلاح جزاء وفاقاً زجَّت الحكومة بالجيش وقام عسكرها بتطويق مضاربنا وصبُّوا حمم مدافع الميدان على أزواجنا وأطفالنا ولا يتوقفون حتى نعوّض للدروز والشركس كل خسائرهم. نعم إن الحكومة تسمح لنا بمراقبة الشركس والدّروز فعلاً! ولكن لست أنا النّوري وحدي الذي يزحف عليهم، وإنما كل القبائل والعشائر من حلب حتى تيماء جميعها. ألم أقل الحقيقة، يا عودة؟

«بلى! قد قلت الحقيقة، يا النّوري!».

ولقد أرسلت الرسائل في موضوع السلم إلى بعض شيوخ القبائل والعشائر ورجال الحكومة. ولست أدري إن كانت هذه الرسائل قد بلغت الجهات المعنية ولكن ذلك لم يكن بالأمر الهام، لأن تلك الرسائل صيغت بعبارات قُصد بها إخفاء آراء الذين وضعوها. إنها السياسة، كما قال النّوري.

«عشائر» أوروپا

في عصر يوم الأربعاء، 30 ديسمبر، مضيت إلى خيمة النّوري لتحية بعض شيوخ العمارات الذين قدموا لتسوية بعض الخلافات. وكانت العمارات قد بلغها احتلال الإنكليز للبصرة. كما كانت العمارات أشد من الرّوَلة عناية بالحرب العالمية وتتلهف لمعرفة التحالفات بين مختلف الحكومات. لكنهم كانوا يواجهون أشد الصعوبات في تبيان الفارق بين فرنسا والفرنج وكانت فرنسا تعني عند الرّوَلة والعمارات أوروپا كلها والفرنج تعني سكان أوروپا ولكنهم أصبحوا يعرفون الآن أن فرنسا إنما هي جزء من أوروپا والفرنج اسم العشيرة التي تقيم خيامها في ذلك الجزء. وإذن فلماذا يُدعى الأوروپيون جميعهم إفرنج، مع أنهم لا ينتمون جميعهم إلى قبيلة الفرنج؟ وفيما يلي تفسير الأمير للموضوع:

«الفرنج هم العائلة التي تحكم أوروپا كلها. وكما أن ابن سعود يحكم رقعة واسعة وقبائل مختلفة، كذلك يسيطر الفرنج على عدة قبائل مثل الألمان، والنمسا، والطليان، والإنكليز، وروسيا (الرّوس)، والمسكوف (أهل موسكو)، وصربيا (الصّرب) والرّوم وسواهم.

وقد تخلّص الرّوم (اليونان) من نيرهم، ولذلك يُدعون بالرّوم لا الفرنج. كذلك يتمتّع الإنكليز بقدر عظيم من الاستقلال ويصرّفون أمورهم حسب مشيئتهم وإرادتهم ولكن بعضهم ما يزال يعتبرهم من الفرنج، بينما يرى آخرون أنهم يتبعون بلداً حراً. وقد ثارت قبائل الألمان والنّمسا على الفرنج وإنْ ما زال الصّرب والرّوس والمسكوف والإنكليز يؤيّدونهم.

«والعداوة على أشدها بين الإنكليز والألمان، كما هي بين الدّروز والرّوَلة، أو بين الأكراد والعمارات أو الفدعان. وللإنكليز جزر كثيرة في البحر تعيش فيها أقوام كثيرة يزجّون بهم في وجه الألمان. وهؤلاء الألمان بارعون جداً في صناعة السّلاح، إذ ينتجون أفضل البنادق والمسدسات، وتأتي أنواع من المسدسات إما منهم وإما من النّمسا. ولكن ما نفع السّلاح حين الافتقار إلى الرجال الذين يستخدمونها؟ والألمان والنّمسا يتمتعون بحذق عظيم، ولكن جيشهم صغير. لذلك قررت الحكومة والسلطان في اسطنبول إرسال جنودهما لحرب الفرنج وخاصة الإنكليز. وهذه الحكومات الثلاث حكومات الألمان والنّمسا والأتراك - أقامت فيما بينها حلفاً، ليس موجهاً ضد الفرنج بقدر ما هو موجه ضد الإنكليز، لأن الفرنج لم يستولوا على شيء يخصّ السلطان، لكن الإنكليز كانوا قد استولى على مصر قبل عدة شهور، وفي نيتهم انتزاع البصرة منه، وكل العراق أيضاً».

وانبرى أحد جلسائه ليقول إن المسكوف كثيرون جداً أيضاً، ويرغبون في طرد السّلطان من اسطنبول. فقال النّوري:

«المسكوف كثيرون جداً ولكن قبيلة روسيا تفوقهم عدداً بها لا يقاس. والممالك التي تخصّ روسيا عديدة وبها حتى الفُرس ولكنهم لم يحرّروا كل أبناء دمهم. بل حتى العشيرة التي ينتمي إليها أخي موسى تشكل جزءاً من روسيا، كما نحن من عنزة، ومع ذلك فإن قبيلته لا بد أن تنصاع للنّمسا. وروسيا عددها غفير ولكنهم ليسوا شجعاناً. وقد بلغني أن عشيرة اليابان الصغيرة تمكّنت من طردهم من أرضهم ذاتها. وأشرس القبائل المتحاربة كلها الإنكليز. وهم أغنياء جداً، ومع ذلك فإنهم طمّاعون، جشعون، يريدون أبداً التوسع والاستيلاء على أراضٍ جديدة ولسوف ترون أنهم ينتصرون حتى في البصرة لا بالسّلاح بل بالسّياسة».

والعقيلات الذين أتوا من بلاد الهند أخبروني أنه ليس هناك كالإنكليز من يمسك بزمام الأمور ويفرض النظام. ولكن علام يُحمَدون حين يسلبون الآخرين حريتهم؟ فمن ذا الذي يرضى بأن يكون عبداً؟

إننا نستطيع مقاومة الحكومة، ولكن هل نستطيع مقاومة الإنكليز حين يأتون ويعرضون الذهب لقاء حريتنا؟».

وعندئذ قال الشيخ الجليل راضي:

«لا تخف يا النّوري فلقد كان أجدادنا أحراراً ولن يستطيع الإنكليز أن ينتزعوا منا حريتنا التي ورثناها عن أسلافنا، بالسّلاح أو بالذهب!»، ولقد وافقه كل الحاضرين على قوله.

سألت شيوخ العمارات إن كانوا سيرفعون راية الجهاد المقدس ضد الإنكليز.

فكان جوابهم: «الجهاد المقدس يكون لحماية بيوتنا وقطعان ماشيتنا. والويل لهم إن حاول الإنكليز هذه أو تلك! فطالما أنهم يقاتلون الحكومة في مناطق الحضر فعلى الحكومة أن ترسل جنودها وحضرها لمقاتلتهم. والإنكليز حتى الآن ليسوا أصدقاء ولا أعداء لنا. والله وحده يعلم ما سيكون شأنهم لدينا»[1].

قال النّوري: «صدقت، يا أخي. ولكن علينا إطاعة الحكومة. نسأل الله لها النصر!».

ثم قال لي، وهو يصطحبني في عودتي إلى خيمتي:

«عليَّ الحذر في التعامل في السياسة، يا موسى، حتى لا يسبب لي أحد سواد الوجه مع الحكومة! فالحكومة تأمر بأن نعلن الجهاد على الكفار، على الإنكليز. ولكن ماذا سرق مني الكفار أو الإنكليز؟ أما الحكومة فقد تم لها نهبنا وحرماننا ولقد أرادت أن تشنقني ظلماً. أتدري من يجدر بي أن أسير ضده؟ أتدري من أكنّ له كراهية أشدّ مما أحمل للإنكليز والكافرين مجتمعين؟».

* * *

(1) هذا كلام الشيوخ والنّوري بآخر عام 1914 وكان موزيل يجهد لإقناعهم بمؤازرة الدّولة قبل وقوع الحرب، إنما مع اندلاعها أفلح لورنس في عام 1917 في ضمّهم إلى صف الإنكليز فحاربوا الأتراك في صفّهم.

في يوم الخميس انخفضت الحرارة وأصبحت المنطقة كلها مغطاة بصقيع أبيض. أما أنا فقد تم لي إنجاز تقاريري. وكان الأمير النّوري الذي قدَّمتُ له ولنوّاف، بندقية عسكرية ممتازة (مزوّدة بمنظار[1]) ومئة خرطوشة، يرغب بشدة ويلح علي أن يرى ما لديَّ من أسلحة أخرى، لما قلت له إنه ليس بوسعي أن أخرجها من موضعها امتعض امتعاضاً شديداً.

وعند العصر جاءني عودة أبو تايه بصحبة النّوري ونوّاف لوداعي، وتداولنا في نتائج اجتماعاتنا. وتلقيت منهم وعداً بألا يقدموا على إغارة ذات أهمية على العربان أو الحضر دون إخطاري بما يعتزمون وقد استقرَّ لديهم العزم على تقديم الحماية في الصّحراء لكل اللاجئين من المناطق الخاضعة للحكومة.

الدّليل الجديد

كان النّوري ونوّاف، وعودة أيضاً، يخشون على حياتي وأنا في منطقة ابن رَشيد ورجوني ألا أغامر في الخوض في تلك المنطقة.

وكان الوزير زامل بن سبهان قد اغتيل على يد قريبه سعود بن سبهان، وكان زامل ذاته قد سبق له أن اغتال ابن عمه حمود، وبذلك أصبح سعود الرجل الممسك بزمام السلطة في منطقة ابن رشيد.

قال نوّاف، معلقاً: «انظر يا موسى، الوزير خائن غادر والغدّار لا يعرف الله ولا ذِمام له. وهو يعلم أنك صديقي، وأنك كنت معيناً لي في فتح الجوف. ولسوف يحرضه عليك الرجال الذين طردتهم أنا من الجوف. فمن يقدّم لك الحماية؟ ولكن أطال الله عمرك، أخشى أن أفتقدك بعد اليوم. إنه لن يقتلك نهاراً جهاراً، إنما عبيده سينقضّون عليك ليلاً أو قد يُقْدِمون على دسّ السمّ لك».

---

(1) تُعرف هذه البنادق القنّاصة بالألمانية باسم: Scharf Schutzen Gewehr، واختصاراً: SSG أي بندقيّة الرّماية الدّقيقة. من أفضل أسلحة البراري المفتوحة. من أشهر أنواعها: ماوزر Mauser الألمانيّة، وشتاير مانليخَر Steyr Mannlicher النّمساويّة، وبرنو Brno التشيكيّة.

«لا تخف يا أخي! إن الله سيتولانـي برعايته. ثم إن شمَّر كلها لا تعمل بالغدر والخيانة مثل ابن سبهان. وسوف لن أقابله حتى أجد بين شمَّر سنداً قوياً يحميني. وإنني أعرف الكثير من الشيوخ من السِّنجارة والعبدة. والسِّنجارة يمقتون ابن سبهان، الذي يعود نسبه إلى عبد، وهم أقوى منه بكثير».

«ولكن كيف لك أن تبلغ السِّنجارة؟».

وهنا تَدَخَّلَ عودة قائلاً: «لقد صادف أخي محمّد في العمود شمَّرياً كان جائعاً وعلى وشك الموت. فأخذه إلى خيمته، ووضع زبدة في حلقه، وأنعشه. وفيما كنت أغادر سمعت أن اسمه نازل ويتحدَّر من ابن ثنيان. وسأعود اليوم وأرسله إليك في الغد. لأنه مريض ولديك، يا موسى، الأدوية، وقد تتمكن من شفائه».

أكد لي نوّاف والنّوري أن آل الثنيان من مُقَدَّمِي الأسر الشّمَّرية. وهكذا يمكن أن أجد في نازل أفضل مرافق، شرط أن يكون عودة، طبعاً، صادقاً فيما قال. فرجوته توجيه الشّمَّري إلي في التوّ، ووعدنـي بذلك، ثم غادر.

* * *

الجمعة 1 يناير 1915: أتى إلي النّوري يرافقه رجل متقدِّم في السن اسمه وُنيس بن بُنيَّة وكان يجاور على مدى سنين ابن رمال، وهو من مقدّمي شيوخ شمَّر. وكان يود العودة إليه مع عدد من الجمال ويرغب في الانضمام إلي. وقد حاول وُنيس أن يقنعني بالمضي إلى ابن رشيد عن طريق الخال المؤدي من الجوف إلى بلدة حائل، عبر الشقيق وجُبّة، وهو يظن أن ابن رمال مقيم مضاربه حوالي جُبّة. وكان نوّاف أيضاً يحبِّذ سلوك هذا الدرب لكنه لم يلقَ عندي ميلاً، نظراً لأنه معروف على نطاق واسع. وكنت أشدَّ ميلاً للمضي عبر القسم الشرقي أو الجنوبـي من النّفود. فحاولت أن أستعلم من وُنيس عن المنطقة حول جُبّة، فوجدته لا يقدر على أن يوفر لي وصفاً طبوغرافياً للمنطقة على الإطلاق.

* * *

شكا نوّاف من أن جماعته باتت تتململ خشية ألا تتم الغزوة. ولما سأل النّوري عبيده عمّن يرغب في مرافقتي، وجد عبد الله يتطوع للمرافقة. وكان عبد الله هذا مرافقي في رحلتي من الضّمير إلى الرُّصافة عام 1908 وقد قبلتُ به لأنّـي عرفته رجلاً يُطمأنّ إليه، وإن كان يفتقر لبعد النظر والهمّة.

وفي اليوم التالي كان الرحيل. ولكن سرعان ما لحق بـي نوّاف وحيّانـي من بعيد:

«يقَوَّك، يا موسى!».

فأجبته: «يا هلا! الله قوّى مَن قوّانـي!».

وتحدثت إليه في أمر الوساطة المقترحة لدى ابن رَشيد. واتفقنا على أن يمضي نوّاف وعشائره إلى تخوم النّفود، حيث يمكث بانتظار كلمة مني. أما إذا أعرض الوزير ابن سبهان عن قبول المصالحة، فأعود عندئذ إلى السّنجارة وأحاول إقناعهم بالانضمام إلى نوّاف وعلى ذلك يحضر مع مقاتليه والنّوري وينضمون إلى السنجارة ويوجهون ضربة إلى ابن سبهان من الشمال، ويتولى ابن سعود الضغط عليه من الجنوب. ولقد كنت على معرفة جيدة بالخطر الذي تنطوي عليه الخطة. وكنت مدركاً أنّ لأنور باشا والحكومة التركيّة ثقة بوزير ابن رشيد وهو عندهم الصديق الأوفى، كما كنت أدرك أنهم - أنور باشا والحكومة التركيّة - لا بدّ أن يتهمونـي بالتحريض عليهم لصالح الإنكليز. كذلك كنت محيطاً بحقيقة أن ابن سبهان يملك أسلحة أشدَّ فعالية مما لدينا ولن يكون بمقدورنا إخراجه من حائل، إن تم له تحصينها. ولقد أسفتُ لإسهامي في اندلاع حرب أهلية جديدة بين شمَّر التي أراقت الكثير من دماء أبنائها في السنوات الأربع والعشرين الأخيرة، على أنني مع ذلك وجدت أننا إن قصَّرنا في تطويق ابن سبهان وفريقه كان الضرر أكبر من ذلك بكثير.

وبعد هذا النقاش غادر نوّاف إلى محاربيه، بينما ركبت ناقتي وسرتُ مع النّوري على رأس الهجّانة.

صباح السبت جاء نوّاف، وأنا جالس أكتب على أرض خيمتي، ومعه رجل قصير القامة شاحب اللون هزيل البنية، في حوالي الثلاثين من العمر، يرتدي قميصاً رثاً وعليه عباءة مهلهلة. وكان يرتعد من البرد، ووجدته يتهاوى أمامي راجياً الحماية. وكان هذا الشّمَّري، نازل بن دُوخي بن ثنيّان الذي حدثني عنه عودة أبو تايه، وقد قدمه نوّاف على النحو التالي:

«انظر، يا موسى، هذا نازل بن ثنيّان أشهر عقيد للخيّالة في شمَّر».

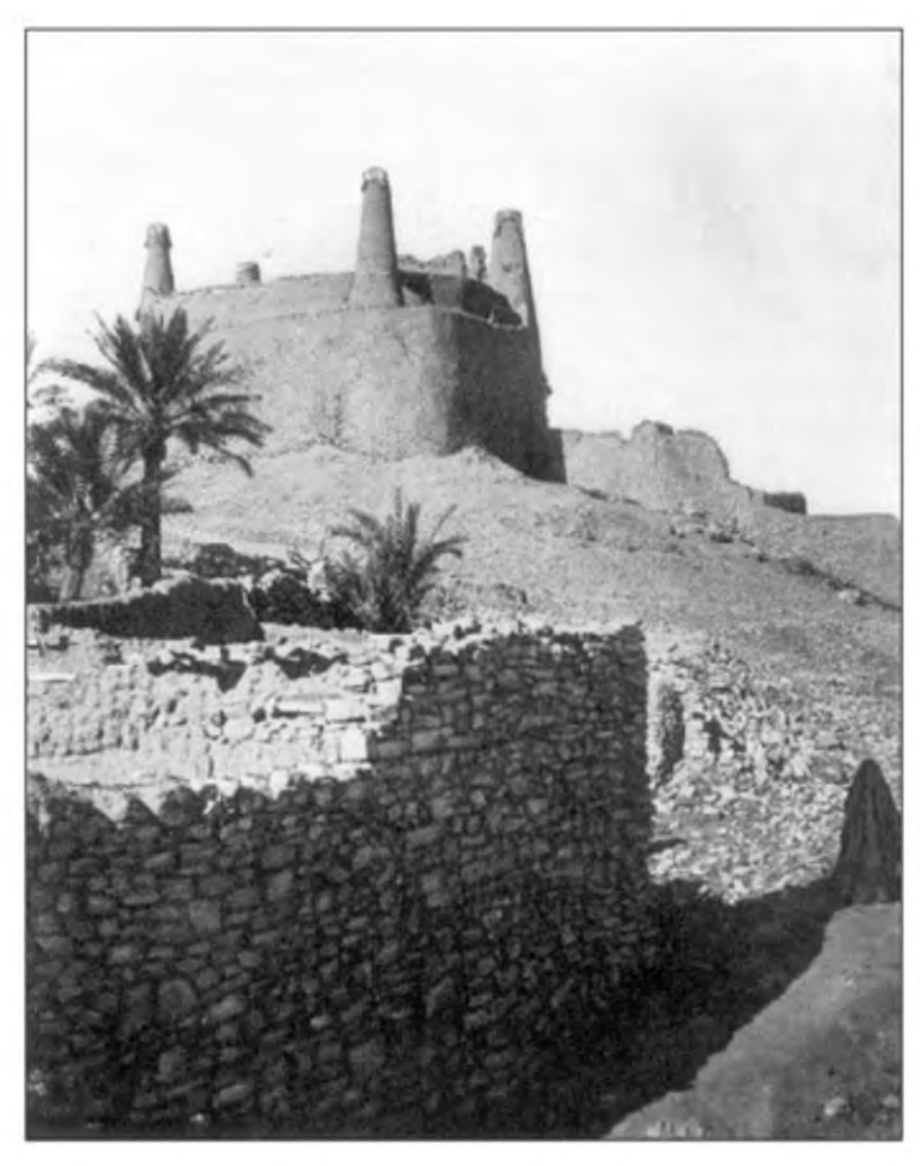
فابتسمت. فهل يمكن أن يكون هذا الرجل الضئيل قائداً ذا صيت؟ على أنني لمحت في عيني نازل بريقاً جعلني أبدل تقديري له. فقد تبينت في هذا الجسم النحيل روحاً وبأساً. وانضم إلي نوّاف قائلاً:

«يا أخي، إنني أعرف نازلاً، وهو في كفالتي. تحدّثْ إليه، وثِقْ بأي وعد يقطعه. ولابدَّ لي من وداعك. فسوف أغادر اليوم، وأنت ستغادر بعد أربعة أيام. ولتعد إلي. فإنك تعلم أن لك أخاً في الجوف».

وكان بيننا عناق ثم غادر نوّاف. وكان ثمّة ثلاثون فارساً مرابطين أمام بيتي لاصطحابه في جولة بين القبائل والعشائر الخاضعة له ولأبيه، لكي يحصّل منها الجبايات. ذلك أنه كان بحاجة للمال والإمدادات من المؤن وسواها لجيشه العامل، وكان قد اعتاد على طلب الإمدادات من قبائله وعشائره حين لا يكون هناك غزوات.

كان نوّاف قد عزم على أن يعود إلى الجوف في غضون عشرين يوماً وانتظار نصائحي. وزوَّدني في الوقت ذاته بكتاب إلى نائبه في الجوف الزنجي عامر يوجّهه للترحيب بي في ثياب الأعياد ويطيع أمري كما يطيع نوّافاً ذاته. والحق أنه مضى إلى حدّ إعلامه بأن سلطاته كلها تنتقل إليَّ أثناء إقامتي في الجوف وأن يعلن على الملأ في الجوف أنّي أتيتُ للتحكيم في المصالحة واستتباب السلم مع ابن رَشيد[1].

(1) كادت مساعي موزيل تثمر في إحلال الصّلح ما بين الرّوَلة وآل رَشيد حلفاء العُثمانيين، لجهة تجييش عشائر شمال الجزيرة إلى صفّ الألمان ضدّ الإنكليز، لكن الأمور انقلبت بعد عامين.



الشكل 38: برج مارد، الجوف

وبعد ما غادر نوّاف أدخلتُ نازلاً إلى بيت الشَّعر الكبير كي يستريح ويتدفأ وأرسلت خادمي ناصر ليشتري كل ما يلزمه.

* * *

وفي ذلك الوقت جاءني شقيق عودة، محمّد أبو تايه، الذي أخبرني عما يعانيه نازل من أوجاع:

«كان قد عُهِدَ إلى نازل بن ثنيّان تسليم نوّاف رسائل هامة من ابن عمه فهد وشيوخ آخرين من السّنجارة. وقد اصطحبه رجلان، فِرجي وآخر شراري، من خيمته. وكان نازل والفِرجي يركبان جملين، وأما الشّراري فكان ماشياً. وفي الليل اختفى مرافقا نازل ومعهما جمله وبارودته وكافة المؤن مع أن نازلاً قد وفَّر لهما الحماية في ديرة شمَّر ووعداه بالحماية في ديرة الرّوَلة. وهكذا خاناه فلينزل الله بهما جزاءه ويكافئهما بمثل ما كان منهما!

«ولقد ظل يمشي متثاقلاً وحده طوال ثلاثة أيام وليلتين باتجاه الشمال شرق. وكان يشرب الماء من البرك الموحلة أينما اتفق وجودها، إلا انه لم يكن ليجد شيئاً يأكله، فالحشائش لم تكن قد نبتت بعد. وأخيراً انهار من شدة الإنهاك، ولقد ساقني الله إليه إذ صادفته حين كنت اصطاد مع كلبي وصقري فحملته إلى خيمتي وقمت بإسعافه وظل نازل على هذه الحال لا يقوى على الوقوف طوال خمسة أيام».

وقد اعتقد النّوري الذي حقَّق في ما حصل أن الفِرجي هذا ربما يكون في الحقيقة خَليفة بن غَنيان. فأمر أقرباءه بالتعويض لنازل عما لحق به من ضرر، إلا أنهم تذرعوا بأنه لم يثبت أن أحد أقربائهم هو الذي أقدم على مثل هذه الفعلة الشنيعة. بيد أنهم وافقوا مع ذلك على استجواب خليفة بأنفسهم وإذا تمَّت إدانته حملوه على التعويض. وكما وعد نوّاف بالبحث عن الشّراري الذي ألقى الفِرجي عليه الذنب في هذه الفعلة. وقدَّم النّوري لنازل جملاً جيداً وشداداً.

* * *

حوالي المساء جاءنـي نازل يرجونـي السماح له بالنزول في خيمتي بسبب خشيته من القتل انتقاماً من فخذ الدُّغمان، الذي قَتَلَ منه ستة أشخاص في قتال على طريق الحج من الكوفة. فأعلن النّوري من خيمته أن نازل ضيف نزيل لدي ومن يتعرض له بالأذى سيلقى جزاءه. وراح الدُّغمان الذين بلغهم نبأ وجوده يحومون حول خيمتي كالذئاب الجائعة، إلا أن أحداً منهم لم يتعرض له بأذى.

ولقد حادثت نازل في أمر الدرب الذي سوف نسلكه. فأشار بأنه يفضّل، إن شئت بلوغ الأمير ذاته، أن الزم حد النّفود إلى قلعة الحيانية حيث يمكننا أن نعلم موقع مضارب ابن رَشيد. ولكن النّوري عارض القول بأننا لا بد مواجهون عندئذ لجماعات الفرسان على تخوم النّفود. وهنا ابتسم نازل، وقال:

«طال عمرك! يقال إنّـي أفضل قائد للفرسان، وبالتالي أعرف كيف أحمي نفسي منهم وأتفاداهم».

ولقد قررتُ عندئذ الرحيل على امتداد التخوم الشرقية، حيث ينتظرنـي عمل علمي ضخم. وكان عزمنا أن نحقق رغبة النّوري بالتوقف في الجوف للتأكد من عامر ما إذا كانت السماء قد أمطرت في الطرف الشرقي من النّفود، ثم نمضي بعدئذ على الدرب الذي يشاؤه الله لنا.

* * *

كنت أرغب في امتحان مقدرة نازل على تحديد اتجاه كل موقع، فسألته عن المناطق المألوفة لي. وطلبت منه أن يعين داخل خيمتي موقع نجم القطب ونجم الجنوب بحصوتين واختبار تعييناته بالبوصلة. وكان الأفق قد حجبه ضباب كثيف، والشمس غائبة تماماً. فنظر نازل إلى أعلى الخيمة، والتقط الحصوتين بيده اليمنى ثم رسم على الرّمل خطاً مستقيماً طويلاً. فوضع الحصاة الكبرى في طرف الخط والصغرى على الطرف الآخر، وقال، وهو يشير إلى الكبرى:

«هذا يا شيخ الطرف القطبي وهذا الجنوب».

فنظرتُ إلى إبرة البوصلة فوجدت أنها لم تحد عن الواقع سوى بخمس درجات. فسررت سروراً شديداً لدقته، لأن من شأن هذه الدقة أن تيسّر علي العمل. ثم التقط نازل مجموعة من الحصى ونشرها أمامه، فجعل منها علامات لمختلف أماكن المياه وغير ذلك من المعالم البارزة في المناطق المعروفة لدي. وراح يبني جبالاً من الرّمال ويرسم الوديان بينهما. وأصبحت عندئذ على اقتناع وأنا أنظر إليه بأنه على معرفة بالبلد وأنـي سأكون على أطيب حال معه بعد ما تم التعارف بيننا.

وفي اليوم التالي أخبرنـي الرّاعي عواد بأن قدمه باتت تؤلمه وهو عاجز عن العناية بجمالي على أنني وجدت الشك يخامرنـي بأن ذلك ذريعة توسَّل بها ليتفادى الرحلة، لخوفه من الرحلة إلى ابن رشيد.

ولقد ظللت أعمل طوال النهار مع نازل الذي رسم لي طريق الحج من حائل إلى الكوفة وجواره. وجهدت يومئذ لاختبار صحة بياناته بخليط من الأسئلة لأعرف إن كانت متناقضة، على أنني لم أوفق بالإيقاع به. فتأكد لي عندئذ أنه لم يكن قائداً عسكرياً مبرزاً بحق وحسب، وإنما هو رئيس فذ لقُطّاع الطرق أيضاً. وكان عندي أن رجلاً على هذا القدر من الإلفة بالصّحراء الواسعة لقادر على كسب الغنائم والاحتفاظ بها.

على أن أحاديثي المطوَّلة مع نازل كانت مدعاة لضيق أصدقائي الفتيان من الرّوَلة، أي أبناء نوّاف الصغار!

وفي يوم الأربعاء دخل علينا الأمير فيما نحن نتناول طعام الفطور. فأبدى دهشته مما لدينا من حليب، مؤكداً أنه لم يتناول أي كمية من الحليب منذ أكثر من أسبوع، ولم يكن بين نوقه سوى اثنتين تدرّان الحليب، بل حتى هاتين لم تعودا تدران شيئاً من الحليب.

«لا يا أخي، إن نوقك لم ينقطع حليبها».

«وكيف لك أن تعلم ذلك؟».

«لأن هذا حليبها».

«حليب ناقتي؟ ومن أتى لك به، يا طويل العمر؟».

«الراعي فهيد، فقد وعدته بربع مجيدي كل يوم إن أتانـي بحليب لفطوري. وهذا ما يفعله».

صاح الأمير: «الوغد! إنه يأتيك بالحليب لقاء ربع مجيدي، ثم يقول لي إنه لم يتمكن من حلب النوق».

«لا تغضب، يا أخي. سأغادر في الغد، وتدرُّ النوق الحليب لك وحدك».

«إن شاء الله هنيئاً مريئاً، يا موسى».

أخذنا بالإعداد للمغادرة وتوزيع الأحمال. والجمل القوي قادر على حمل قنطار ونصف القنطار، أي ما يعادل 660 رطلاً إنكليزياً ولكن مثل هذا الحمل لا يسمح للجمل بأن يقطع أكثر من ميلين في الساعة. وكان على جمالنا أن تقطع وسطياً ميلين وثلاثة أرباع الميل في الساعة، وبالتالي لم يكن بوسعنا أن نحملها أكثر من 330 رطلاً. وكان الكثير منها هزيلاً ضعيفاً، إلا أن نازلاً أثلج صدري بقوله بأنها سوف تسمن عما قريب في أرض شمَّر، حيث ستجد مراعي خصبة واسعة.

عبر الحَمّاد إلى الجوف

في يوم الخميس، المصادف في 7 يناير، أنجزنا تحميل الخيام والمؤن على ظهور الجمال، وغادرنا خيمة النّوري. ولقد حذَّرنـي حين دخلت خيمة الأمير لوداعه من الاقتراب من ديرة شمَّر لأنهم كانوا قد أغاروا على مضارب بني صخر، قبل يومين وحسب. ثم خرج يرافقني من خيمته مودعاً إياي في حفظ الله. وكان هناك بعض الأصدقاء الذين رافقونا حتى تجاوزنا مضارب العشيرة.

كان نازل يركب إلى جانبي. ثم انضمّ إلينا اثنا عشر رجلاً، واحداً تلو الآخر، كانوا في طريق عودتهم إلى قراهم في واحة الجوف. واكفهرَّت السماء وأخذت الرياح الباردة تهبُّ علينا. ووصلنا بعيد الظهر إلى خط توزع المياه بين الوديان والحماد. كان المشهد عريضاً واسعاً فسيحاً إنما رتيباً مملاً. فلم يكن الناظر ليجد أمامه معلماً طبيعياً مؤثراً بل مرتفعات ومنخفضات تنفسح على مدى النّظر.

راحت السماء بعد قليل تتلّبد بالغيوم وتشرع بإرسال المطر مدراراً. فتوجهنا إلى مضارب الكواكبة، وكانت في قاع أجرد، فلقد خشي مرافقونا تلك الأمطار وقضاء الليل في العراء. فجاءني مفرود شيخ المضارب ودعاني إلى العشاء عنده. وشكرت له دعوته ولكني لزمت خيمتي، حيث أخذ نازل يروي لي أموراً كثيرة عن قبائل شمَّر وعشائرها. والحق أن المراعي كانت غنية هناك.

ظلّت السّماء تمطر حتى الصّباح تقريباً. وصادفنا في طريقنا قطعاناً لا تحصى من الجمال التي كانت تسرح في المراعي. وكانت تتقدم نحونا من كل اتجاه وتنتظم في خطين طويلين وتنظر إلينا بفضول وتهز أعناقها الطويلة وترسل بشفاهها السفلى أصواتاً وهي تجترّ بهدوء. وكانت الفطائم تلعق إبلنا وتمرح حولها وتجري في إثرها. ذلك أن أمهاتها صارت تعزف عن ايلائها أي اهتمام لأن فترة الولادة قد بدأت، وعندها لا تعود الأم تعنى بالصغير الذي ظلت ترضعه طوال اثني عشر شهراً. كما كنا نرى هنا وهناك ناقة ووليدها الذي لا يزيد عمره على بضعة أيام يسير خلفها. فإذا ما تعثر الصغير راحت أمه تلعقه وهي تحدب عليه نائحة. وكان الجمل يندفع نحونا أحياناً من بعيد، والزَّبَد الكثيف ينزل من فمه، فيلحق به الراعي ويبعده عنا. وكانت قطعان الإبل تبدو كلما نظرنا إليها من علو وكأنها تسبح في بحر، وذلك ضرب من خداع البصر يسببه الضباب المنتشر فوق المنخفضات ويغطي الجمال حتى السنام والرأس. ولما كانت حركات قوائمها خفية على الناظرين فقد كان الضباب يبدو وكأنه ينتقل ويحمل معه القطيع كله وكان القطيع كله يختفي معه عن الناظرين كلما ارتفع، كما لو أن القطيع قد هوى في البحر، إنما ليعود للظهور بعد حين على مرحلة من موقعه القديم.

مشت جمالنا بخطوات واسعة نحو الجنوب. وانتصب بركان جبل العمود الأسود المظلم ناحية الجنوب غرب (الشكل 34). وبدا لنا وكأن التل المرتفع يقترب منا أكثر مما كنا نقترب منه. وقال نازل: «يا شيخ، إن كل ما هو أمام راكب الجمل قريب، وكل ما وراءه بعيد».

وتبينت بالمنظار، في عصر ذلك اليوم، اثنين من الهجّانة، في جنوب شرق المنطقة، يقفان على مرتفع ويستطلعان. ولقد رغبنا في التحقق من أمر هذين، إن كانا يستطلعان الأحوال في مقدمة عصبة من قَطَّاعي الطرق أم مجرد مسافرين على الدرب، فأرسلنا رفاقنا مع الجمال عبر منخفض يستطلعون، بينما تابعنا أنا ونازل، أمر هذين الهجّانين. وما هي إلا دقائق حتى اختفيا عن الأنظار من ناحية الجنوب غرب. ثم تابعنا رحلتنا عبر المنخفضات الرطبة الموحلة حتى أقمنا هناك لقضاء الليلة في تجويف في الأرض، حيث وجدنا مرجاً شاسعاً واسعاً من الأحراج التي كادت جمالنا تغيب وسطها. وكنا حريصين على ألا نوقد ناراً أو ننصب خيمة، لئلا يلحظنا الهجانون المجهولون.

ولقد استمرّ الرعد والبرق والمطر، طوال الليل ولم يكن بوسعنا بالتالي أن نخلد للنوم.

وفي الصّباح أُصيب نازل بالإغماء وكاد يسقط عن جمله لولا أن أدركته. فمددناه على الأرض وأخذنا ندلكه حتى استعاد وعيه، ولكنه صار شديد الوهن. فطلبت صنع قدر من الشاي له وحاولت اكتشاف سبب هذا الانهيار. فأخبرني أنه يعاني من تقلّصات تصيب بطنه ومن اليسير أن يقع مغشياً عليه. فمضيت أسائل نفسي ما عساي أن أفعل إن استمر في المرض أو إذا قضى؟ فقد كان شديد الضعف والهزال حين أتاني لكنه استعاد قوته منذ ذلك الحين. فقدمت له الدواء وعزمت على اختصار مسيرة اليوم لينال قسطاً جيداً من النوم.

في الجنوب بدأت تظهر في الأفق خيام كثيرة فتوجهنا نحوها. وفي الطريق انضم إلينا رجلان وامرأة من عشيرة الحوازم.

وفي العصر نصبنا خيامنا على مرتفع بين برك كانت تخوض فيها إبل كثيرة تابعة لعشيرة الحويطات وهي ترحل. وضعت نازلاً في خيمتي ليستريح وسرعان ما استسلم للنوم، وصحا حوالي المساء وهو أشد انتعاشاً.

* * *

وفي المساء جاء الشيخ عُودة لزيارتي، إلا أنه لم يطل مقامه، إذ سمع صيحة النّذير مما جعله ينتفض. فامتطى فرسه، وهو يغني بصوت عال:

ياما حَلَا طاري الحَرَايب والشيخ يُوقد نارها

من فوق مُشمَّرة الشَّلَيل ومُعَسكَراً مِسْمَارها

بالقرب من القطعان ظهرت عصبة من الأعداء، يُظَنُّ أنهم من شمَّر، وكان لا بدّ من إفزاعهم وتبديد جمعهم.

* * *

كان معنا فتى من الجوف اعتاد إعداد القهوة للأمير النّوري، ولما تهيأ للعودة إلى دياره انضمّ إلينا وأخذ يسير على قدميه في اليوم الأول. وفي اليوم الثاني أشفق عليه نازل فسمح له بالرّكوب معه على ظهر الجمل، فاستقرّ الطبّاخ وراءه على الشّداد. وفي اليوم الثالث جلس على الشداد بلا اكتراث وقال لنازل أن يسير أو أن يمتطي أحد جمالي.

وبعد أن عاود نازل المرض جعلناه يستلقي على أحد الجمال بين حقيبتين. فلما استعاد صحته، على كل حال، رغب أن يركب جمله ثانية، لكن الطباخ قال له بصفاقة إنه اعتاد حين كان برفقة الأمير ركوب هذا الجمل، ولسوف يظل مطيته حتى الجوف. وانضم إليه أقاربه، الذين يمقتون قبيلة شمَّر، في معاملة جمل نازل كأنه ملك لهم. ولم أشأ من ناحيتي التدخل في الجدل الدائر، ولكن حين أخذ العبد عبد الله بإشاعة القول الكاذب إن الجمل ملك للطباخ وليس لنازل، مضيت راكباً ناقتي وفصلتُ بين الرجلين المتشاحنين ونزلتُ وقلتُ محذراً الطباخ ورفاقه:

«إن تعرضتَ لنازل ثانية بكلمة أو نظرة فلن تنال قطرة ماء أو لقمة طعام، ولسوف أرمي عندئذ بمتاعك عن جمالي. وأنت يا عبد الله، تذكّرْ آنـي «خالك» أثناء إقامتك معي كما أنك عبد لدي وتذكّرْ ذلك جيداً أما إذا نسيت الحقيقة فلسوف أذكرُك بها بطريقة توجعك». ومنذ تلك اللحظة أخذ عبد الله يلازمنا ويتبعني كالكلب الوفي.

ولقد شكر لي نازل عملي: «زادك الله سعادة، يا شيخ، لأنك حفظت لي وجهي وشرفي مع أهل الجوف».

ولقد توقفنا عن المسيرة فترة وتركنا الجمال ترعى (الشكل 35).

نحو وهدة جُبَّة

وفي يوم الإثنين انطلقنا بالمسير عند الفجر. وكان الهواء ساكناً تماماً. سرنا في البدء فوق سهل متموج مغطى بأحجار بركانيّة وفي مناطق أخرى بمرتفعات رملية. وقد دعانـي وُنيس بن بنيَّة إلى خيمته. فسألته عما حمله على نصب خيمته بين خيام الغرباء، فأجاب:

«هذا قَدَري، يا موسى. كان أجدادي يملكون ذات يوم كل ما يحدُّ النّفود شمالاً وشرقاً. هل تعرف الشّقيق؟ إذن، سل من يملك الآبار هناك، سل من يملك آبار الشرب المختلفة شرق النّفود، ولسوف يخبرونك أنها ملك ابن بنية. لقد كان أجدادي في الأيام الخوالي أكثر قوة وثراء من النّوري ونوّاف اليوم، لكن الله جردنا من قوتنا وأملاكنا وأعطاها لغيرنا. وأنا، وُنيس، كان لي جار سليمانـي، من عشيرة ولد سليمان ظلّ يخيِّم معنا عدة سنوات. وقبل سبع سنوات كنا ننصب خيامنا قرب دمشق. وجرت بيننا مشادة فقتلتُ جاري. وهربت مع أقاربـي من الانتقام إلى عمق الصّحراء كي نلجأ إلى ابن رمال، وسط النّفود، وفي طريقنا هاجمتنا عشيرة الظفير وسلبونا كل ما لدينا من جمال.

ولذلك بلغْنا ابن رمال بلا خيام ولا ماشية، ولا مؤن. فقدم لنا الملجأ والطعام. وكان بودِّي أن أعود إلى بلدي، لولا أن صاحب الحق بالانتقام يطالب بدية من خمسين جمل وفرس وتجهيزاتها تعويضاً عن الدم المراق. فمن أين لي بكل هذا؟ وقد حرّك الله قلب النّوري وقبيلته فوعدوا بالمؤازرة. ولقد عدت إلى النّوري قبل شهرين فأعطاني خمسةً وعشرين جملاً، وتوافر لي خمسة وعشرون جملاً آخر من آخرين من الرّوَلة، وفرساً وتجهيزاتها. وبذلك أرضيتُ صاحب الحق وأنا الآن أسير مع بضعة جمال للقاء الأقارب.

لاحت لنا المنطقة البركانيّة في الأفق، ناحية الشمال غرب، وبدت كجدار مهيب، أزرق كتيم، وأمامه، بالقرب منا، مجموعة من البراكين السوداء تلفها غلالة من البخار المتصاعد جعلها تبدو فسيحة ومتحركة. قال نازل: «هذا سراب يخادعنا».

كنّا نمر حينئذ بالمنطقة التي تؤثرها شمَّر في ترحالها إلى سوريا. فلسقاية إبلهم من آبار صوير يلتفوُّن حول الجوف من ناحية الشمال ويشربون في مناطق الري في وادي السّرحان، وربما قاموا بنهب الحضر في بصرى والحد الغربي من حوران. وقد لاحظنا أثر جماعتين من المغيرين. وأخذ نازل يضرع: «اللهم استر عليهم واسترنا نحن أيضاً».

* * *

بُعيد الظهر تغيّر مشهد الصّحراء... فبعيداً إلى الجنوب، فيما كان يبدو ذات مرة جدار خندق عالٍ، تجمّع ما لا يحصى من الشقوق والكهوف والفلوق والأفجاج، فقسمت الجدار إلى أعمدة منها الكبير ومنها الصغير، والأشكال المخروطية والهرمية، والصّخر السّائب، والمقبّبات. ولاح لي في مقدمة الجدار أن ثمة قُبتَّين تنتصبان يجللُ كل واحدة قوس من الحجر الأسود، وبدا ما بينهما وكأنه بوابة. قال نازل إن هذه بوابة المغيرين الصغيرة، وذكر انه مرَّ بهذه البوابة ما لا يقل عن مئة مرة على رأس القوات».

كانت الجمال ترعى ونحن نتناول عشاءنا بالقرب من البوابة الصغيرة. ثم أخذتُ أستطلع المشهد بمنظاري وأنا منبطح فوق صخرة باحثاً عن دخان أو فرسان يريدون الإغارة. ركبنا بعد العشاء واستمررنا على ظهور الجمال حتى وقت متأخر، واستعددنا لنبيت في الليل بالقرب من عمودين منفردين. وحظرت على الجميع الحديث أو التدخين على الطريق خشية أن يصدر صوت أو تنبعث رائحة الدخان، أو تظهر نار الغليون أو السّيجارة عند اشتعالها فتجذب الانتباه إلينا. وعمدنا إلى إخفاء الإبل. والمتاع بين الصخور بشكل جيد بحيث لا يمكن أن يتبينها أحد عن بعد عشرة ياردات، وأخذ نازل يصلي: «يا الله استر علينا بسترك». ولقد ردَّدنا هذا الدعاء في أعماقنا.

وروى لنا عبد الله أثناء الرحيل في الصّباح ما قاله عبد الله بن منصف للنّوري وكان يريد تكريمه:

«أريد أن أمتّعك بشيء، وأنت ضيفي فماذا ترغب من الذبائح. أهو خروف؟ لكنك جدير بما هو أثمن. أم جمل؟ ولكن هذا لا يرقى إلى مقام عظمتك. فماذا أقدّم لك، إذن؟ هاك لدي ولد. فلأذبحه من أجلك، ومع ذلك فليس حتى هذا يعادل سموّك».

سرعان ما بلغنا حافة الحوض الذي تقوم فيه واحة الجوف. فرأينا إلى اليمين واليسار وما وراءنا سهلاً لا حدود له تناثرت فيه الصخور الكبيرة والصغيرة المشققة والمتآكلة بفعل المياه، وأمامنا انتصبتْ آلاف التلال الدائرية المتناثرة والتي كانت تغتسل بضوء وردي، والبقع الداكنة كانت تشعُّ بلون بنفسجي برّاق وبدا المشهد وكأنما شرارات تنفجر من كل الزوايا التي انكسرت عليها أشعة الشمس، بحيث أن البقعة كانت كلها تتأجج بوهج أحمر قانٍ حاد وكأنما يصدر عن حديد ذائب. ولقد طاب لي المشهد حتى كنت أود أن أتأمله ردحاً طويلاً لولا أن الجمال صارت تستعجل الرحيل. وكان الدرب شديد الانحدار وكم منها أوقعتْ أحمالها. فأسرعنا ننهب الأرض لنعين البهائم ونهدّئ من روعها. ثم نعيد تحميلها.

في الجوف للمرّة الأخيرة

في العصر أبصرنا الجوف (الشكلان 36 و37). وبعيداً، وراء السّهل الرمادي الجاف، على الحد الجنوبي للحوض تقريباً، برزت أشجار النّخيل بلونها الأخضر القاتم في مشهد أين منه منظر المنحدرات الورديّة الجرداء التي كنا نكابد معها. ومن بين أشجار النّخيل ومضت أسوار القرية وأبراجها الصفراء في أشعة الشمس. ومن فوق الأسوار وأشجار النّخيل ارتفع برج مارد تعلوه أربعة أبراج اصغر منه حجماً لكنها لا تقل عنه شأناً (الشكل 38).

بعيد ذلك بلغنا المنطقتين الخربتين، الحسن والحسين، وهما ضحيتان للقتال المحموم الذي دار منذ يناير 1909 حتى يوليو 1910. ثم سرعان ما وصلنا إلى حصن مارد. وعندما أصبحنا أمامه فُتِحَ باب خشبي عريض فأدخلنا الجمال إلى السّاحة المحاطة من الشمال والشرق والجنوب بأبنية عالية، ومن الغرب بسور عالٍ وها نحن أولاء أخيراً في ساحة مارد! (الشكل 39).

أسرعت للبحث عن عامر، نائب نوّاف، فعثرت عليه في النهاية في غرفة واسعة لا نوّافذ لها، يرشف قهوته عند الجدار الغربي، بالقرب من زاوية لا يمكن للدّاخل من الباب إصابته منها. وبعد استقبالي بالتحية جلس في صدر المجلس منتظراً مني التساؤلات. فسلَّمتُه الكتاب من نوّاف ثم وجَّهته ليريني كل النقوش في الجوف باللغات التي لم يفهمها القوم هناك. فأجاب أنهم فيها كانوا يعمقون البئر في برج مارد وجدوا عدداً من ألواح المرمر عليها نقوش غريبة، إلا أن أحداً لا يدري ما صار من أمر تلك الألواح. كذلك أخبرني أن ثمّة حجراً في درب بالقرب من برج مارد، وكان من مداميك السّور، ويحمل كتابة غريبة. فقلت له إنّي في سبيلي لاستجلاء أمر هذا الحجر، وعليه أن يبحث في هذه الأثناء عن ألواح المرمر المكتشفة. فصنعت على ورقة طبعة من النقوش النبطية التي على السّور مستخدماً الفرشاة والماء، ولما وجدت الجوّ ساكناً من الهواء في الدّرب الضيّق تركت الورقة لتجفّ وعُدت من ثَمَّ إلى الفناء.

وكان عامر جالساً هناك على الدرجات العليا يجاهد في قراءة أوامر نوّاف وحوله قرابة المائتين من المستمعين.

وحالما شاهدنـي سكان الجوف الحاضرون أخذوا يحيّونني مُعربين عن أمنياتهم لي بالنجاح في مفاوضاتـي المزمعة مع ابن رَشيد. وكانوا جميعاً يتوقون للسّلام.

وكانت أصواتهم تتعالى بالرّجاء: «خلِّصنا يا شيخ من هذا السجن! إننا لم نجرؤ على الظهور وراء الأسوار المحصَّنة منذ خمس سنوات. لقد أفنيت قطعان الماشية لدينا وانقطعت تجارتنا، والتّمر كل ما لدينا وتلك الحبوب التي نزرعها في بساتيننا».

ولقد جاؤونـي بقطعتين واضحتين بالنبطية. ومع أنني كنت قد وعدت بمنح ليرة تركيّة (4,5 دولار أمريكي) عن كل نقش مكتوب كامل يمكن أن يقعوا عليه، فإنه لم يُقَدَّرْ لي الظفر سوى بهاتين القطعتين. فإما أن يكون القوم قد حملوا النقوش الأخرى إلى سوريا وإما أنهم استخدموها بين ما استخدموه من الأحجار في بناء السّور عند مارد، أي الأبراج التي تطوّق المكان وكانت تخضع للإصلاح والترميم.

وفي تلك الأثناء كان عامر قد ارتدى أفضل ثيابه المخصَّصة لمناسبات الأعياد وصار مستعداً للانضمام إلى كبار القوم في الجوف في الترحيب بـي رسمياً باسم سيّدهم، نوّاف. ولقد مضيت معه، والوقت يقترب من المساء، إلى برج فرحة وسألته عن أفضل طريق ينبغي علي أن أسلكه. وكنت قد علمت من نازل أن شمَّريين اثنين يرزحان الآن في السّجن، فطلبت منه إطلاق سراحهما. فما كان منه إلا أن أطلق سراحهما فعلاً حال عودتنا من برج فرحة، فجاء بهما أمامي ووجّهتهما إلى تقديم شكرهما له لإطلاق سراحهما وتنعُّمهما بالحرية. ولما وجدتهما لا يستر بدنهما سوى ثوبين مهلهلين، أتيتُ لهما بأثواب جديدة وشماخين وعباءتين، وطلبت إليهما أن ينقلا لشيوخهما تحيّاتـي.



الشكل 39: ساحة بيت نوّاف المحصن في الجوف

وكان أحد الشمَّريين ينتمي إلى عشيرة النبهان والآخر من الزّامل. ولقد أراد ونيس بن بُنيَّة معرفة أي اتجاه سوف أسلكه. ولكني لم أحدّد له اتجاهاً معيناً لئلا أدعَ مجالاً لاحتمال نصْب كمين لنا من قُطَّاع الطرق، فافتقارهم للمعلومات المؤكّدة كفيل بأن يحبط عزائمهم.

كانت خيمتي تقوم داخل الفناء. وكان أحد العبيد قد ألقى قصيدة في تكريمي:

أبـدي بـذكر الله عـلى كـلّ نيّـهْ	رَبٌّ كـــريمٍ عـــالمٍ بالخَفِيَّــات
يـا راكـبٍ مـن فـوق حَمْـرَا ثَنِيّـهْ	حُرّة هَميمـة مـن اركـاب الشّرارات
مـا سـامها الـشرّ اي بعـداد مِيّـهْ	ولا نَوَّخَـتْ للـشَّيلْ دوم معفـاة
مِرباعهـا بطـراف نجـد العَذِيّـهْ	ترعـى زَهَـر نـوّار وَرْد الـذّوابات
فَوْقَهـا شْـداد والمِيـارك زَهِيّـهْ	وسـفايفها لِـبّ البريـسِم حَلِيّـات
مَـدَّتْ مـن بيـتٍ علومِـه طَرِيّـهْ	الـشيخ شَـيّال الحمـول الثقـيلات
من بيت أبـو نـوّافْ ذِيبْ السّرِيّهْ	زيـزوم مجلـس كاسـبين النّفـالات
فوقـة غـلاَمٍ مـا يهـابْ الدّوِيّـهْ	يُوصِـل كـلام لـديارٍ بعيـدات
إليـا لفيـتْ اديـار هَـاكْ الـسّمِيّهْ	إبدي البشارة وزيـد منّـا الـسّلامات
قِلْ حُرٌّ لِفـا مـن عنـدكم لِـه نَوِيّـهْ	نجمٍ شبيه الـسّهيل مـا بِـه غبـاوات
بـاج الـبلاد العـامرة والخَلِيّـهْ	بعقـل رجيـح مـا يهـاب العـسيرات
الـشيخ موسـى علومِـه شَـفِيّهْ	حـافِظْ عُلـومٍ مـن دُهـورٍ مُزمنـات
مـا جابَـتْ الخفـرات مثلـه حَلِيّـهْ	ولا لِـه شِـبيه بـشيوخ البـداوات
حـاكم وزيـرٍ عـارفٍ كِـلّ شِـيّهْ	ولا له مثيلْ كـود أبـو زيـد بِـصْفات

حِلـو المثايِـلْ بكفـوفٍ سَـخِيّهْ شبيه حـاتم مـا يهـاب الخـسارات

بِـنُه ضـحوك وجِرعتِـه باسـليّهْ فِـرْز القناصِـل والمـشاوِر صـعيبات

ليـثٍ غَـضَنْفَرْ مـا يدانـي الرّدِيّـهْ دِرعـاً حـصيناً يذخرونـه لِعـازات

وِان يَـسَّر المـولى وزانَـتْ النيّـهْ لازم يجـيكم بعلـــومٍ مُثمنـــات

علوم البَوادي وخُـضَرها والرّعيّـهْ ديار الرّوَلَة وفـدعان وارض العـمارات

وديـار نجـد والفـروع الخَلِيّـهْ مع دِيْرة الصّوّان وارض الحويطـات

هـاذي افعـال الـلّي خـصالِه وفيّـهْ كنـز الفخـر بحـر النّـدى والمـروّات

* * *

يوم الأربعاء 13 يناير نهضنا من الفراش مبكرين. كان في الفناء حشد من المرضى والجرحى الذين يحتاجون النصيحة والأدوية. وبعد الانتهاء من هؤلاء، دخلت وعامر برج مارد الرئيس. والدخول إلى الحصن عبر فتحة ضيقة يسدّها باب ثقيل مسلح بالحديد. وهناك فتحة أصغر تؤدي إلى رواق ضيق يمكن للمرء أن يدخل بوساطته إلى مقر نوّاف، حيث يختزن الأسلحة والذخيرة والمؤن التي هي عدته للصمود عند الحصار. وللباب مفتاحان لدى عامر ووالدة نوّاف، وهي من الجوف.

استقبلتني الوالدة مرحّبة وقادتني إلى داخل البيت، وأظهرت زوجاً من الماعز يعيشان وإياها في البرج، ثم استعرضت أمامي كيف يمكن لها أن تجرَّ الماء من بئر مدعَّم جداره بالحجارة ومحفور تحت البرج. ومن حجرة نوّاف ذات الجوّ الخانق والرّطوبة التي مصدرها حجارة الجدران القديمة التي ترشح باستمرار صعدنا الدرج الملتف والمتصاعد إلى أعلى البرج الذي يحيط به جدار منخفض تتخلله فتحات أُعِدَّتْ للمدافع. وقد عانى هذا الحصن الكثير في المعارك الأخيرة. وكان نوّاف قد أعاد تدعيم الأبراج الأربعة المحيطة بالحصن، سوى أنها كانت مصنوعة من اللبن بينما الأسوار الأصلية كانت مبنيّة بأحجار صلبة.

صعدنا السّورين، الفرحة والفريحة، فيما بعد لنرسم خريطة للجوف.

خلال استطلاعي لهذا البلد، رحتُ أستجمع لآخر مرة كل التفاصيل من ذاكرتي.. كنت أخلّف ورائي الدروب القديمة والأصدقاء القدامى لأتوغل أكثر في الصّحراء على الدّروب الجديدة والمغامرات الجديدة، والله وحده يعلم ما هي نتائج ذلك كلّه.

* * *

فهرس الموضوعات

الجزء الأول

سبتمبر 1908 يونيو 1909

* * *

الجزء الثاني

نوفمبر 1914 - يناير 1915

* * *

قائمة صور الكتاب

سلسلة

رواد المشرق العربي

Explorers of the Arabian Levant

صدر منها حتى الآن

ارتياد جزيرة العرب، سيرة كشوف رحّالة الغرب ومغامراتهم في أرض الجزيرة
تأليف: داڤيد جورج هوغَرث
ترجمة وتعليق: د. أحمد إيبش

نجد الشمالي، رحلة من القُدس إلى عُنيزة في القَصيم عام 1864 م = 1280 هـ
تأليف: كارلو كاميلّو غوارماني
ترجمة وتعليق: د. أحمد إيبش

رحلات في الجزيرة العربيّة (جزءان)
تأليف: جي. آر. ويلستِد
ترجمة: أ. د. ماجد النجّار
تقديم ومراجعة: د. أحمد عبد الرّحمن السّقّاف

المدن المنسيّة في بلاد العرب
تأليف: ستيوارت إرسكين
ترجمة: عبد الإله الملّاح

دمشق في مرآة رحلات القرون الوسطى (جزءان)
من خلال نصوص الرّحّالين العرب والأجانب
تأليف: د. أحمد إيبش

رحلة عبر الخليج العربي
من خلال صور فوتوغرافيّة نادرة لهرمان بورخارت
تأليف: آنيغريت نيبا وپيتر هِربِنْسْترُويْت
ترجمة وتعليق: د. أحمد إيبش

في الصّحراء العربيّة
تأليف: آلويز موزيل
تحرير: كاثرين مَكغيفرت رايت
ترجمة: عبد الإله الملّاح
مراجعة وتعليق: د. أحمد إيبش

قيد الإعداد للنّشر

رحلات متعرّجة في بلاد الإبل
تأليف: صموئيل م. زويمَر
ترجمة وتعليق: د. أحمد إيبش

غرناطة وقصر الحمراء
تأليف: آلبرت ف. كالفرت
ترجمة وتعليق: د. أحمد إيبش

رحلات في الأرض المقدّسة، عام 1384 م
تأليف: ليوناردو فريسكوبالدي وسيمونِه سيغولي
ترجمة: شيرين إيبش
مراجعة وتعليق: د. أحمد إيبش



ألويز موزيل، الشيخ موسى الرويلي، رحالة تشيكي من أعلام الرحالين المستشرقين. اختص بتراث البداوة ولغتها ولهجاتها وموروثها الأدبي والشعري، وأمضى في المشرق العربي عشرات السنين يجول ويكتب عن عشائر البدو، وعن طبوغرافيا وآثار الأردن وفلسطين وسوريا وشمال جزيرة العرب. ترك مجموعة ثمينة من الدراسات أهمها ستة كتب، نقدّم اليوم ملخصاً عنها في هذا الكتاب الشائق الذي جمعته الكاتبة الأميركية كاثرين مكفيفرت رايت، واقتبست فيه بلغة سلسة ممتعة أخبار رحلات موزيل مع عشائر الشمال، كالرولة والولد علي وشمر، خلال الفترة الممتدة ما بين 1908-1914. يقدّم لنا هذا الكتاب مغامرات ممتعة، وعرضاً شائقاً لتقاليد البدو الاجتماعية والثقافية، وأنماط حياتهم ومُثلهم الأخلاقية، وضعه عالم كبير محبّ للعرب وتفاعل فيه كواحد منهم، وعلّق على ما رآه بروح إيجابيّة وحسّ واعٍ مرهف.

السعر 65 درهم


ISBN 978-9948-01-164-4

